سلسلة نقض الأصول العشرة لنظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية
نقض الأصل الثاني: دعوى توحيد المشركين في الربوبية «١»

# ولئن سألتهم

## الكافية الشافية لنقض استدلال ابن تيمية بآيات «ولئن سألتهم» الثمانية

دراسة علمية شاملة بالرجوع إلى آلاف الكتب الشرعية
تناقش الاستدلال بآية
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

تأليف
الدكتور وليد بن صلاح الدين الزير

تقديم
الأستاذ الكبير مهنا حمد المهنا

دار المنهل للطباعة والنشر

Scanned by CamScanner

# ولئن سألتهم

الكافية الشافية
لنقض استدلال ابن تيمية
بآيات «ولئن سألتهم» الثمانية

| | |
|---|---|
| الـــكـــتـــاب: | الكافية الشافية لنقض استدلال ابن تيمية بآيات ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الثمانية |
| الـــمـــوضـــوع: | دراسات عقدية، شبهات وردود |
| الـــمـــؤلـــف: | د. وليد بن صلاح الدين الزير |
| الـــطـــبـــعـــة: | الأولى |
| تاريخ الطباعة: | ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م |



**جميع الحقوق محفوظة ©**

جميع حقوق هذا الكتاب محفوظة، بموجب عقد واتفاق مع المؤلف. ويُحظر طبع أو تصوير أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله صوتياً أو مرئياً إلا بموافقة الناشر خطياً.

**All Rights Reserved ©**

No part of this publication may be reproduced, distributed, or transmitted in any form or by any means, including pgotocopying, recording, or other electronic or mechanical methods, without the prior written permission of the publisher.



دار المنهل للطباعة والنشر

ISBN 978-605-71930-3-2

9 786057 193032

سلسلة نقض الأصول العشرة لنظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية — نقض الأصل الثاني : دعوى توحيد المشركين في الربوبية «١»

# ولئن سألتهم

## الكافية الشافية لنقض استدلال ابن تيمية بآيات «ولئن سألتهم» الثمانية

دراسة علمية شاملة بالرجوع إلى آلاف الكتب الشرعية
تناقش الاستدلال بآية
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾


تأليف
الدكتور وليد بن صلاح الدين الزير


تقديم
الأستاذ الكبير مهنا حمد المهنا


دار المنهل للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## تقريظ الأستاذ الكبير

## مهنا حمد المهنا حفظه الله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذا هو «المجلد الثاني» من موسوعة الدكتور وليد بن الصلاح الواقعة في حوالي عشرة مجلدات في نقض نظرية ابن تيمية رحمه الله في التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، الذي على أساسه أخرج مشركي قريش عبدة الأصنام والأوثان من الشرك في الربوبية! وجعلهم موحدين في الربوبية، ولكنهم مشركون في الألوهية!! ثم أدخل المسلمين في شرك الربوبية وشرك الألوهية!!!

فجعل من أبي جهلٍ وأبي لهبٍ موحِّدين في الربوبية، ووصف المسلمين الذين يقرُّون بنبوة ورسالة سيدنا محمد ﷺ، ويؤمنون بيوم الحساب والقيامة، ويشهدون بالشهادتين، ويقيمون الصلاة، ويؤدون الزكاة، ويصومون رمضان، ويحجون إلى بيت الله الحرام، جعلهم من المشركين في الربوبية والألوهية!!!

وكأنه اختصر كل دين الإسلام العظيم من عقيدةٍ وشريعةٍ وسلوكٍ

وأخلاقٍ، اختصر كل ذلك في مسألةٍ واحدةٍ وهي «مسألة زيارة القبور»، وما يجري عندها من دعاءٍ واستغاثةٍ وتوسل!!

فالكافر والمشرك الذي يكفر بالبعث والنشور، ولا يؤمن برسالة النبي ﷺ، ولا يقوم بأركان الإسلام، هو أخفُّ كفراً وشركاً عنده من المسلم الذي يقرُّ ويؤمن بأسس الإيمان وأركان الإسلام!!!

ولا تحسبوا ما قلته أنه تجنٍّ وتقوُّلٌ على ابن تيمية رحمه الله بل هو عين الحقيقة وذاتها، بل صرَّح الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في كتابه «القواعد الأربع» في «القاعدة الرابعة» ما نصه: «أن مشركي زماننا (أغلظ) شركاً من الأولين، لأن الأولين يشركون في الرَّخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة». اهـ.

والمقصود بمشركي زماننا: المسلمون في عصره!! أرأيتم؟! حسب نظرية ابن تيمية في مسألة القبور التي اختصر بها كل دين الإسلام ومسائله المتعددة!! صارت مسألة القبور هي الحد الفاصل والفيصل القاطع بين الإسلام والكفر، دون اعتبارٍ لكل مسائل الإيمان وأركان الإسلام!!

ولا أريد أن أطيل في هذه الكلمة العابرة، لكن أريد توجيه الأنظار والعقول إلى هذا الخطر الداهم، والسيل الجارف الذي يهدد وجود ومصير أمة الإسلام، حينما يَخرج من شبابها من يَحكم عليها بالردة والشرك، ثم يستبيح أرواحها ودماءها، ويستحل أموالها، ونساءها، وأعراضها!!!

وقد أسعدني وسرني ظهور هذا الكتاب الذي دبَّجَته وزيَّنت حروفه يراعة مولانا الكريم والأستاذ البحَّاثة الجادِّ الدكتور وليد بن الصلاح وفقه الله لخدمة الإسلام ومذهب غالبية أهل الإسلام، وهم أهل السنة والجماعة وهم من فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً، وقدحت سنابك خيلهم في جبال وصخور أوربا

وآسيا، وساحت أمهارهم في مجاهل أفريقيا، ويصدق فيهم قول النابغة الذبياني:

**ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم    بهن فلول من قراع الكتائب**

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه أجمعين.

**أبو محمد مهنا حمد المهنا**

**الكويت - صباح الناصر**

**فجر الأحد ٢/ ١٠/ ٢٠٢٢ م**

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أكرم بالتوحيد عباده المؤمنين، وأرشد للحق بكلامه المبين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، من بلَّغ الوحيَ خير بلاغ، وعلَّمنا التوحيد وأوضح الدين، سيدنا محمد النبي الأمي الصادق الوعد الأمين، وقائد الغر المحجلين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، الذين نقلوا لنا توحيداً واحداً ولم يكونوا فيه مبتدعين، وعلى من تبعه من أمتنا المرحومة إلى يوم الدين، ونعوذ بالله من ضلال الخوارج وتكفيرهم للمسلمين.

وبعد، فأقدم للقراء الكرام المجلد الثاني من كتابي الكبير في نقض نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله، وكان قد صدر بفضل الله العام الماضي المجلد الأول الذي سميناه «تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله»، وكنا نقضنا فيه الأصل الأول من نظرية تقسيم التوحيد، وهو دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله، وبيَّنَّا أن هذه الدعوى غير صحيحةٍ، وبسطنا هذا في أكثر من ستمائة صحيفة بحمد الله!

والآن نحن مع المجلد الثاني وهو المتعلق بنقض الأصل الثاني من النظرية وهو دعوى أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، ونقض هذا الأصل لوحده يحتاج إلى عدة كتب، وهو ما فعلته بحول الله، إذ خصّصت

هذا المجلد الذي هو بين أيديكم الآن فقط لمناقشة استدلال ابن تيمية على هذه الدعوى بآية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧] وما يماثلها من آيات الباب الثمانية.

## الآيات الثمانية المقصودة

هي الآيات التي فيها سؤال المشركين عن الخالق كآية «الزخرف» السابقة، وسيأتي ذكر الباقي، ولكن هي بالإجمال موضعان في سورة «العنكبوت»، وموضع في «لقمان»، وفي «الزمر»، وموضعان في «الزخرف»، وثمة موضعان في المعنى نفسه ولكن لا يبدآن بقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، وهما سورة «يونس» و«المؤمنون»، فهذه هي الآيات الثمانية التي قصدتها في العنوان.

وعليه يكون عنوان الكتاب «الكافية الشافية لنقض استدلال ابن تيمية بآيات ولئن سألتهم الثمانية» فيه تجوُّز! إذ هي في الحقيقة ست آيات فيها ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم...﴾، ولكن ذكرتُ أنها ثمانيةٌ من باب التغليب الذي بسطت الكلام عنه في هذا الكتاب.

بقي موضعٌ سابعٌ في القرآن وهو: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥]، ولكن هذه الآية ليست مقصودةً هنا، لأننا نتكلم فقط عن الآيات التي يستدل بها ابن تيمية على توحيد المشركين في الربوبية وهي الآيات الثمانية، وعلى كلٍّ قد تعرضتُ للكلام على آية «التوبة» هذه في ثنايا كتابي هذا، حيث برَقَت مناسبة لذلك.

# ماذا أقصد بالكتاب الكبير في ثنايا هذا الكتاب ولِم لَم أطبعه دفعة واحدة؟

هذا كله فيما يتعلق بالآيات الثمانية، وأما بقية الأدلة التي استدل بها ابن تيمية وأتباعه على الدعوى نفسها وهي توحيد المشركين في الربوبية، إذ هو استدل بأدلةٍ كثيرةٍ على ذلك منها الآيات الثمانية، وقد خصَّصت هذا الكتاب لمناقشة استدلاله بها، وثمة آيات وأحاديث وأمور أخرى استدل بها، ولكن هذه ستأتي مناقشتها في كتابٍ آخر، أو ربما في كتبٍ أو رسائل أخرى لاحقاً إن شاء الله.

وقد كنت قد ناقشت تلك الأدلة كلها في نقضي للأصل الثاني للنظرية آنفة الذكر، بل نقضت الأصول العشرة لنظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد، وذلك في كتابي الكبير الذي نقضت فيه تلك النظرية بأصولها العشرة، فقد نقضتها في عشرة فصول، كل فصل خصَّصته لنقض أصلٍ منها، وكان المفروض أن يصدر الكتاب دفعةً واحدة، ولكن لضخامته ارتأيتُ مع شيخنا الفاضل الدكتور «سعيد فودة» حفظه الله أن نصدره على دفعاتٍ، وفي مجلداتٍ، وأجزاء، ورسائل متلاحقة بإذن الله.

والحاصل أني بحول الله نقضت نظرية تقسيم التوحيد بأصولها العشرة في كتابٍ ضخم، وهو ما أقصده حين أقول في كتابي هذا مرارا، والكتاب الذي قبله - أعنى كتاب تنوير الرب الإله - عبارة «بسطناه في كتابنا الكبير»، فأقصد الكتاب الأصل الضخم الذي أودعتُ فيه نقض الأصول العشرة وانتهيت منه بحمد الله، ولكن لم أطبعه دفعةً واحدة؛ وإنما بشكل متفرقٍ على فترات لسببين:

الأول: تسهيلاً لقراءته، حيث يمكن قراءته بتأنٍ خلال سنة، ريثما يُطبع المجلد الذي يليه.

الثاني وهو الأهم: وهو أني لو طبعته كاملاً دفعةً واحدةً لربما ظُنَّ أنه من جملة الكتب التي ردت على ابن تيمية نظريته في تقسيم التوحيد، وهي كثيرةٌ في الواقع، ولكن أنا أردت أن أطبعه في كتب ورسائل وأبحاث متفرقة حتى يتميز كل منها بميزةٍ معينة، ويأخذ كل منها حقه في الظهور والدلالة على محتواه، وذلك بأن أضع له عنواناً علمياً دقيقاً يليق به، ويشوق القارئ أكثر لقراءة كل تلك الكتب التي ستصدر معنونةً بعناوين مختلفة، وإن كانت كلها تندرج تحت سلسلةٍ واحدةٍ، وهي نقض أصول نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله.

ولكن لم أفضِّل أن يكون اسم هذه السلسلة هو نفسه اسماً لكل الأبحاث التي تنضوي تحتها وهي كثيرةٌ بفضل الله، لأن هذا الاسم والعنوان الواحد قد يكون مملاً، هذا أولاً، ثانياً: لن تظهر قيمة كل بحثٍ على حدة، ولذا فضَّلت أن يطبع كتابي الكبير متفرقاً على أجزاء وأبحاث ورسائل متتابعة لكل منها عنوانٌ يعكس محتواه الخاص به، والقيمة العلمية اللائقة به.

وهذا ما فعلته في كتابي الأول الذي نُشر السنة الماضية، حيث سميته «تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله» فأشرت في عنوانه إلى أنه يبحث في هذه الجزئية فقط وهو التباين المزعوم بين كلمتي الرب والإله، كما يعكس العنوانُ الجهدَ العلمي الهائل الذي بذلته فيه حيث رجعت إلى آلاف مؤلفة من الكتب لبيان هذه المسألة بشكل شاف واف بحمد الله.

والأمر نفسه هنا في المجلد الثاني الذي هو أمامكم الآن، فقد حرصت

على وضع عنوانٍ يليق به ويدل على محتواه، فلم أجد أفضل من أن أسميه بعنوانٍ رئيسي «ولئن سألتهم»، ووضعتُ له عنواناً فرعياً أو عبارةً توضيحيةً وهي: «الكافية الشافية لنقض استدلال ابن تيمية بآيات ولئن سألتهم الثمانية»، وقد تمت أيضاً طباعته بفضل الله.

والأمر ذاته سيحصل إن شاء الله في الأشهر والسنوات القادمة حيث سنقوم بحول الله بطباعة كتب وأبحاث ورسائل أخرى صغيرة من كتابنا الكبير إلى أن يُطبع كله بإذن الله، وكل رسالةٍ سوف تتناول آيةً أو حديثاً أو أثراً أو قاعدةً شرعيةً أو ربما عقلية، يستدل به ابن تيمية وأتباعه على نظرية تقسيم التوحيد وما تفرع عنها، ونعطي كلاً منها العنوان اللائق بها بما يدل على محتواها، ويشير إلى القيمة العلمية التي يستحقها فعلاً، بعد أن بذلتُ جهوداً مضنيةً في ذلك، وبالله التوفيق.

طبعاً، كتابي الكبير يتعلق كله بالجانب النظري لقضية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية، ويبقى الجانب العملي التطبيقي، وهو ما يتعلق بالمسائل المتفرعة عن النظرية، وهي غالباً مسائل تتعلق بالقبور، كحكم السجود لها أو عندها، أو الطواف بها، أو الذبح لها، أو شد الرحال إليها، أو الدعاء عندها، أو الاستغاثة والتوسل، أو التبرك بها. فهذه خصَّصت لكل مسألةٍ منها مصنَّفاً بحمد الله، ولكن منها ما بُحِث وكان جزءاً من رسالتي للدكتوراه، بيد أنه ربما يحتاج إلى إعادة نظرٍ وتوسعٍ أكثر، ومنها ما هو ناقصٌ يحتاج أن أكمله ثم أراجعه وأهذبه، ومنها ما وضعت مادته فقط دون ترتيب، أي يحتاج إلى صياغةٍ وتبويبٍ وتهذيب، فأسأل الله أن يوفقني في ذلك كله، وأن ييسر لي طباعة هذه الكتب والرسائل والأبحاث بمنِّه وكرمه.

# منهجي في هذا الكتاب

وفيما يتعلق بمنهجي في هذا الكتاب أو الجزء الذي بين أيديكم، فهو المنهج نفسه الذي اتبعتُه في المجلد الأول من كتابي الكبير وهو تنوير الرب الإله، بل اتبعتُه في كتابي الكبير كله، وهو المنهج العلمي الموضوعي الاستقرائي، بحيث أولاً أتتبع دعاوى الخصم لا مِن كتب مَن ردوا عليه، وإنما من كتبه هو نفسه ومصادره، ثم أهذبها وأصوغها في قالبٍ جديدٍ دون أي تغييرٍ على جوهرها، غاية ما هنالك أجعلها في تبويبٍ جديدٍ، أي على شكل أبوابٍ وفصول ومباحث ومطالب. ثم أنظر فيها وفي أدلتها بإنصاف، فأذكر ما لها وما يَرد عليها، وأزنها بميزانٍ علميٍّ رصينٍ حسب القواعد المتبعة والمسائل المسطرة في علم أصول الفقه وفي غيره من العلوم، كعلوم القرآن، ومصطلح الحديث، والمنطق، مع الرجوع إلى العلوم الشرعية الأخرى كعلم التفسير، وشروح الحديث، وعلم الكلام، والعقيدة، والفقه، والعربية، وغيرها.

وكنت أرجع لأهل العلم ولأصحاب الفن والاختصاص في كل علمٍ من هذه العلوم، فإن اتفقوا على المسألة محل البحث فبها ونعمت، وإن اختلفوا نظرتُ في أدلة كل فريقٍ ورجَّحت ما أراه راجحاً في ظني إن بدا لي الراجح، وإلا توقفت فيه تاركاً ذلك لغيري من أهل العلم أن ينظر ويرجح، على كلٍّ هي تبقى مسائل مختلفاً فيها وتتجاذبها الأنظار كما هو معلوم.

وكنت أتجنب المصادرة على المطلوب، فأركِّز على النواقض التي تنقض دعوى الخصم معتمداً على أصول الخصم نفسه، ووفقا لمنهجه الذي يرتضيه من باب: «من فمك أدينك»، ولذا كنت أرجع في ذلك كله وأحاكم الخصم إلى كتبه هو نفسه وكتب من يرتضيهم وبالمنهج الذي يقبله هو، ولا أحاكمه

إلى كتب خصومه وأصولهم ومنهجهم لأن هذا مصادرةٌ على المطلوب وهو طبعاً غير مقبولٍ في الأبحاث فضلاً عن المناظرات والقضايا الجدلية، ولذا ابتعدت عنه كما ابتعدت عن منطق المناكفات، والمهاترات، والتكفير، والتضليل، والسبائب، والشتائم، حتى وإن كان الخصم كثيراً ما ينتهج هذا النهج السيئ، فضلاً عن مصادرته على المطلوب.

فهنا في هذا الكتاب وتطبيقاً لما سبق، استقرأتُ كلام ابن تيمية وأتباعه الذين احتجوا بآية الزخرف ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ومثيلاتها، وجمعت كلامهم في صعيدٍ واحد، ثم قمت بتحليله وتبويبه في فصول ومباحث ومطالب ومراصد ومسائل، ثم قمت بتحرير محل النزاع، ثم قمت بتفنيده بالأدلة والبراهين بشكل علميٍّ وبتجردٍ وموضوعيةٍ إن شاء الله.

كما أني استقرأت كلام المفسرين سلفاً وخلفاً ممن تكلموا حول آية «الزخرف» ومثيلاتها، سواء أكانوا من المفسرين بالمأثور أو بالرأي، ولم أقتصر على المفسرين، بل ذكرت كلام العلماء الآخرين فيها من فقهاء وأصولين ومتكلمين ومحدثين ولغويين ونحويين وغيرهم، وأوردت ذلك كله ملخصا، بيد أني ركَّزت أكثر على كلام المفسرين لا سيما المفسرين بالمأثور، أي التي تهتم بتفاسير السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم رضي الله عنهم، لأن القوم - أعني السلفية - يدَّعون أنهم على الدعوة السلفية، وهي اتِّباع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

ولكن لدى مقارنة فهم السلفية لآية «الزخرف» ومثيلاتها بفهم السلف، لم أجد أحداً من السلف فهم من تلك الآيات أن المشركين موحدون في الربوبية دون الألوهية، أصلاً لم يعرف أحدٌ من الصحابة ولا التابعين

ولا أتباعهم أن التوحيد قسمان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وقد بسطنا ذلك في كتابنا الكبير.

وإنما غاية ما تدل عليه آية «الزخرف» ومثيلاتها - وهذا ما تبين لي وأثبته على طول هذا الكتاب - هو أنهم إن سئلوا عن الخالق وأعملوا عقولهم وتفكَّروا وأنصفوا وأذعنوا فسوف يُقرُّون بأن الخالق هو الله سبحانه، أي أن إقرارهم بالله متوقفٌ على تحقُّق عدة شروطٍ بيَّنتُها بأدلتها في هذا الكتاب، ثم بينت بالأدلة أيضاً أن هذه الشروط لم تتحقق، وبالتالي فلا يتم استدلال ابن تيمية بهذه الآية ومثيلاتها على أن المشركين موحدون في الربوبية، لا سيما وأن هذا مخالفٌ لآياتٍ أخرى كما سترى.

بل إن استدلاله بآية الزخرف ونحوها مخالفٌ لمنهج ابن تيمية سواء في دعواه أنه متبعٌ لفهم السلف، فإنه لم يتبع فهمهم لهذه الآية ومثيلاتها كما سبقت الإشارة إليه، فضلاً عن أنه استخدم مجاز الحذف في فهم الآية، فزعم أن المراد ليقولن الله وحده، فقدَّر كلمة «وحده»، وهذا خلاف مذهبه ومذهب تلميذه ابن القيم من إبطال المجاز بكل أنواعه، واعتباره طاغوتاً كما بينته في هذا الكتاب.

## شكر وتقدير

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل لمن تبرع بتكلفة طباعة هذا الكتاب، وهم مجموعة الأستاذ الفاضل «مهنا حمد المهنا» - حفظه الله - بـ«الكويت»، وهم أهل علمٍ وخيرٍ وبرٍّ، جزاهم الله عنا خير الجزاء وبارك فيهم وفي ذويهم، وزادهم الله حرصاً على الدعوة إلى الله، وأخص بالذكر دار النشر التابعة لهم وهي «دار المنهل» - وأشكر القائمين عليها - التي تولت طباعة هذا

الكتاب، وأسأل الله أن يوفقهم لنشر المزيد من كتب العلم، وما فيه خيرٌ ونفعٌ للأمة الإسلامية فرَّج الله عنها جميعا، راجياً من المولى أن يجعلني وإياهم في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

كما وأشكر كل من ساعدني في مراجعة هذا الكتاب، وهم في الواقع كثر قد لا أستطيع تعدادهم، وبعضهم تولى قراءة الكتاب كاملاً مرة أو مرتين، فأسأل الله تعالى لي ولهم التوفيق والسداد، وأن يجزيهم عني خير الجزاء بمنِّه وكرمه، وأن يدخلهم الجنة من غير حسابٍ ولا سابقة عقاب.

كما وأسأل الباري عز وجل أن يكتب النفع بهذا الكتاب وبالذي قبله وبما سيطبع لاحقا، وأن يجعل كل ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرزقني وإياكم الإخلاص والقبول، وأصلي وأسلم على البشير النذير والسراج المنير، سيدنا محمد سيد الخلق وحبيب الحق، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**وكتبها**

**وليد بن صلاح الدين الزير**

**بتاريخ ٢٨ صفر لعام ١٤٤٤ هـ**

**الموافق ٢٤/ ٩/ ٢٠٢٢ م.**

# تمهيد

من المعلوم أن من أصول نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، ولقد استدل ابن تيمية على ذلك بأدلةٍ عديدةٍ عقليةٍ ونقليةٍ من الكتاب والسنة، ولكن أشهر دليلٍ عنده هو الآيات التي فيها أن المشركين لو سألتهم عن الخالق لأجابوا بأنه الله، وهذه الآيات تبلغ ثماني آيات وهي ما يلي:

١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

٢) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [العنكبوت: ٦١].

٤) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥].

٦) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الزمر: ٣٨].

٧) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ

﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

٨) ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وللاختصار سأطلق على هذه الآيات الثمانية في كتابي هذا كله «آيات الباب الثمانية»، فمتى قلت ذلك فالمراد بها الآيات الثمانية السابقة.

وقبل أن نناقش مدى دلالة هذه الآيات على ما يدعيه ابن تيمية من توحيد المشركين في الربوبية، نسرد نصوصه ونصوص سائر السلفية والوهابية الذين أوردوا هذه الآيات الثمانية أو بعضها، وذكروا ما استفادوه واستنبطوه منها، ولكن وللاختصار وعدم التكرار، لن أذكر سوى ما استفادوه واستنبطوه من تلك الآيات، دون أن أذكر الآيات نفسها مع أنهم ذكروها:

١) ذكر ابن تيمية أن هذه الآيات دلت على أنه قد «كان المشركون يقرون بأن الله وحده خالق السماوات والأرض»[(١)]، «وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره»[(٢)]، و«لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق؛ أو أنها تنزل المطر أو أنها تنبت النبات»[(٣)].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٢٧)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩١).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٦)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٤)، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٢٦)، و(٩/ ٣٤٤).

٢) وقال ابن القيم: «فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته»(١). اهـ. وقال أيضا: «... توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك»(٢). وقال أيضا: «يشاهدون فيها انفراد الرب تعالى بالتكوين والإيجاد وحده.. فإن هذا المشهد لا يدخل صاحبه فى الإيمان.. فإن عباد الأصنام شهدوا هذا المشهد ولم ينفعهم وحده»(٣). اهـ.

٣) وقال ابن أبي العز: «فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد»(٤).

٤) وقال الصنعاني: «ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنَّه هو الرب وحده»(٥). اهـ.

٥) وقال ابن عبد الوهاب: «فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو...»(٦). اهـ.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: ٤٦).
(٢) مدارج السالكين (١/٩٦).
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٤٧)، وانظر أيضاً: بدائع الفوائد لابن القيم (٤/١٥٤٣)، طبعة عالم الفوائد.
(٤) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص: ٨١)، طبعة دار السلام.
(٥) تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص: ١٨).
(٦) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤)، وانظر أيضاً: معنى لا إله إلا الله، محمد بن عبد الوهاب (ص: ٢، ت.ش)، وشرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: ٣٠).

٦) وقال ابن باز: «أما الربوبية فكانوا معترفين بها لله وحده»[١].

٧) وقال ابن عثيمين بأن المشركين «كانوا لا يستكبرون عن الإقرار بقلوبهم وألسنتهم بأن الله هو الخالق وحده، ولا يدّعون أن آلهتهم تخلق شيئاً»[٢]. اهـ.

٨) وقال الألباني: «إذاً المشركون يؤمنون بتوحيد الربوبية... وإنما يعتقدون أن الخالق هو الله وحده لا شريك له»[٣]. اهـ.

٩) وقال دمشقية: «ومن ظن أن المشركين لا يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق وحده فقد جهل القرآن وما كان عليه المشركون.. فهم يعترفون بأن الله هو الرب وحده ثم مع ذلك يشركون به»[٤]. اهـ. وقال أيضا: «... مع أن الإيمان بأن الله هو الخالق الرازق وحده هو إيمان فطري... إذ لم يخالف أبو جهل ولا أبو لهب هذه الحقيقة»[٥]. اهـ.

١٠) وقال الغنيمان فهذه آياتٌ «كثيرةٌ تبين اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية»[٦].

فالحاصل عند السلفية أن الآيات دلَّت على «أنهم كانوا يقرُّون بأنَّ الله

---

(١) العقيدة الصحيحة وما يضادها (ص: ١٣)، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السابعة العدد الثالث ١٩٧٥ م.

(٢) تقريب التدمرية (ص: ١٢٢).

(٣) موسوعة الألباني في العقيدة (٢/ ٨٠)، وانظر أيضاً (٢/ ١٧٧).

(٤) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٣٥).

(٥) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٧١).

(٦) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، (ص٢٦٥، و٣٣٢)، محمد أحمد خليل ملكاوي، دار الزمان، ط١، ١٩٨٥م.

سبحانه وحده هو الخالق الرازق»[١]، «فكلهم يعتقدون أن خالق العالم هو الله وحده»[٢]، بل إنَّ «توحيد الربوبية هو الذي أقرَّت به الكفار جميعهم»[٣]، ولكن «صرفهم للعبادة لغير الله تعالى مناقضٌ لما يقتضيه ذلك الإقرار الذي نطقوا به من أن الله تعالى هو وحده الخالق الرازق»[٤].

ونصوص السلفية في ذلك كثيرةٌ جدا[٥]، وحاصل ما سبق أن ابن تيمية وأتباعه يؤكدون أن مشركي العرب أقرُّوا بأن الله هو وحده الخالق الرازق الرب المدبر لا شريك له في ذلك بدليل قوله تعالى. . ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ونحو ذلك من آيات الباب!! وإنما أشركوا في عبادته واتخاذ الآلهة من دونه ولكن دون أن يعتقدوا أن تلك الآلهة تخلق أو ترزق أو تدبر، وإذا كان الأمر كذلك فيكون توحيدُ الربوبية مبايناً لتوحيد الألوهية لكون المشركين مقرين بالأول دون الثاني، وإلا لكانوا مقرين بعين ما هم منكرون له، وهذا محالٌ لأنه تناقض.

**والجواب عن هذا الاستدلال** نجمله في الوجوه الأربعة الآتية ثم نفصلها على طول الكتاب بإذن الله، وهي:

---

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ٢٢٦)، د عثمان جمعة ضميرية، مكتبة السوادي، ط٢، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

(٢) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة (ص: ١١٥)، عبد الله الأثري، مدار الوطن، الرياض، ط١، ٢٠٠٣ م.

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٦-١١٧)، نقلا عن محمود شكري الآلوسي (١٣٤٢هـ)، والإمام ابن أبي العز (٧٩٢ هـ). وانظر أيضاً: عداء الماتريدية للعقيدة السلفية (٣/ ١٧٧).

(٤) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٨٣).

(٥) انظر: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة (ص: ٢١٨)، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الصميعي، السعودية. وسطية أهل السنة بين الفرق (ص: ٢٥١)، محمد باكريم محمد باعبد الله، دار الراية. والجموع البهية للعقيدة السلفية (١/ ٨٥)، وتيسير العزيز الحميد (ص: ١٨)، وأضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣/ ٤٩٠).

**أولاً**: إن استدلالكم بتلك الآيات الثمانية لا سيما بآيات سورة «المؤمنون» متوقفٌ على صحة التباين بين لفظي الرب والإله، وهذا غير مسلَّم كما بسطناه بشكل مطوَّلٍ في كتابنا «تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله»، حيث بيَّنَّا فيه أن الإله والرب يترادفان في كثيرٍ من الأحيان[1]، وأتينا بشواهد على ذلك من الشعر والنثر والقرآن والأخبار ونصوص العلماء بمن فيهم السلفية أنفسهم.

**ثانياً**: ليس في آيات الباب الثمانية إقرارٌ محققٌ، وإنما إقرارٌ مستقبليٌّ معلَّقٌ على شروط، أي إن إقرارهم لم يحدث بعد وإنما سيحدث في المستقبل، وهذا ما تفيده السين في «سيقولون لله».

ثم إن هذا الإقرار معلقٌ على سؤالهم، وهل سألهم النبي أو لا؟ لا دليل على أنه سألهم، ومن زعم فعليه بالدليل، هذا فضلاً عن أن إقرارهم هذا معلقٌ على شروطٍ أخرى تُفهم من آيات الباب ومن غيرها، وحاصلها أنه إن سألهم عن الخالق وحاججهم فأقام لهم الأدلة العقلية على وجوده وأعملوا عقولهم في تلك الأدلة وأنصفوا وأذعنوا فسوف يقرون بالله، وإلا فلن يقروا به وهذا ما حدث فعلا؛ لأن هذه الشروط غير متحققة، إذ هم لم يُعملوا عقولهم ولو أعملوها لما عبدوا الأصنام، ولذلك ذكر الله في كثير من الآيات بأنهم لا يعقلون.

---

(١) وهذا بحد ذاته دليلٌ على الترادف، لأن تكرار الترادف في بعض المواضع والأحيان هو دليلٌ على الترادف التام، فإن العادة تثبت بالتكرار، بل قيل تثبت بالمرة الواحدة في بعض الأبواب كباب الحيض، قال الإمام النووي في «المجموع شرح المهذب» (٢/ ٤٠١): «العادة في باب الحيض أربعة أقسام أحدها ما يثبت فيه بمرةٍ واحدةٍ بلا خلاف وهو الاستحاضة، (الثاني) ما تثبت فيه العادة بمرتين وفي ثبوته بمرةٍ واحدةٍ وجهان، الأصح الثبوت وهو قدر الحيض، (الثالث) لا تثبت بمرةٍ ولا مرات على الأصح وهو التوقف بسبب تقطع الدم..». وانظر: «نهاية المطلب في دراية المذهب» (١/ ٣٤٦)، و«التعليقة للقاضي حسين» (١/ ٥٥٦).

قد يقال: على التسليم بأن آيات الباب الثمانية ليس فيها إقرارٌ محققٌ بالله، ولكنْ ثمة أمران يقومان مقام هذا الإقرار، وهما:

**الأمر الأول**: سكوت المشركين عند تلاوة آيات الباب الثمانية، وهذا يدل على رضاهم بما دلت عليه تلك الآيات.

**الأمر الثاني**: أن الله يعلم أنهم سيُقرِّون لو سئلوا عن خالقهم، وهذا يدل على إيمانهم القلبي بالله.

**ثالثاً** وهو الأهم: أنه على التسليم بأنه سألهم وأقروا فليس في تلك الآيات أنهم أقروا بأن الله وحده هو الخالق، ولا أنهم أقروا بأنه لا خالق إلا الله، كما تنسبون إليهم ذلك، وإنما فيها أنهم سيقولون لله، دون كلمة «وحده» ولا نحوها، فمن أين أتيتم بها حتى زعمتم أنهم موحدون في الربوبية؟!!

**رابعاً**: إقرار المشركين بالخالق هو إقرارٌ لسانيٌّ منقوض، أي إن إقرارهم هو إقرارٌ لسانيٌّ فقط، وهذا غير كافٍ ما لم يقترن بالإذعان، وهم لم يذعنوا، وعلى التسليم بإذعانهم فهم قد نقضوه بكثيرٍ من النواقض، من نسبة الولد إلى الله، ونسبة التأثير إلى النجوم والكواكب والأصنام، إلى غير ذلك من النواقض.

**بل** إن آيات الباب الثمانية عارَضَتها آياتٌ أخرى أصرَحُ منها قد دلت على أنهم لا يؤمنون بربوبيته تعالى، وإلا لما أخرجوا النبي وأصحابه لا لشيءٍ إلا لأنهم قالوا: الله ربنا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٤٠].

وفيما يلي تفصيل هذه الوجوه الأربعة على طول هذا الكتاب، بحيث

نفرد كل وجهٍ منها بفصلٍ مستقل، فيكون لدينا أربعة فصول، وكل فصلٍ منها سينطوي غالباً على مباحث ومطالب ومراصد بحول الله.

وهذا أوان الشروع في الفصل الأول وبالله التوفيق.

# الفصل الأول

## إن استدلالكم بتلك الآيات متوقفٌ على صحة التباين بين لفظي الرب والإله

فهذه الآيات الثمانية - لا سيما آيات سورة «المؤمنون» - لا يتم استدلالكم بها حتى تثبت المقدمة الأولى والأصل الأصيل الذي تقوم عليها نظرية تقسيم التوحيد برمتها، وهي أن لفظي الرب والإله متباينان، **ولكن سبق أن بيَّنت أن هذه المقدمة غير مسلَّمة وأن هذا الأصل غير صحيح**.

وقد خصصت المجلد الأول من أجل إثبات ذلك وهو بعنوان «تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله»، وبسطت ذلك بشكل مطوَّلٍ جداً في أكثر من ٦٠٠ (ست مئة) صحيفة بفضل الله، وأثبتُّ في الكتاب المذكور أن لفظي الإله والرب أتى كلٌّ منهما بمعنى الآخر في كثيرٍ من الآيات، أي أن الرب فيها جاء بمعنى الإله المعبود، والإله في آياتٍ أخرى جاء بمعنى الرب الخالق، أي أنهما مترادفان، وقد أقر بذلك ابن تيمية وكثيرٌ

من أتباعه أن هذا الترادف جاء في بعض تلك الآيات على الأقل، وقد نقلتُ نصوصهم بالتفصيل وأطلت في ذلك في كتابي آنف الذكر.

وهذا ما جعل ابنَ عبد الوهاب يقر بأن العلاقة بين الرب والإله وما اشتق منهما ليس التباين المطلق بل التباين المقيد، فهو يقول «**اعلم أن الربوبية والألوهية يجتمعان، ويفترقان** كما في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ وكما يقال رب العالمين وإله المرسلين، **وعند الإفراد يجتمعان** كما في قول القائل: من ربك، **مثاله الفقير والمسكين** نوعان في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾.. إذا ثبت هذا فقول الملكين للرجل في القبر: من ربك؟ معناه من إلهك؟.. وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فالربوبية في هذا هي الألوهية ليست قسيمة لها، كما تكون قسيمة لها عند الاقتران»[(١)]. اهـ **ونقله عنه أتباعه كما سبق.**

## لا يسلَّم لكم أن الآية دالةٌ على أن المشركين موحدون في الربوبية سواء قلنا إن الرب والإله مترادفان أم لا

وسواء قلنا إن الرب والإله مترادفان كما هو مذهبنا، وهو ما أقر به ابن تيمية وأتباعه في بعض الآيات والأحاديث على الأقل، أو قلنا هما كلفظي الفقير والمسكين: فعلى كلا المذهبين فلا يتم استدلالكم بآية «المؤمنون» وهي

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٧٢-٧٣).

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وذلك لأن الرب إن كان مرادفاً للإله، فستكون الربوبية مرادفةً للألوهية كما هو ظاهر، وبالتالي فالآية إن كانت دليلاً عندكم على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية كما تقولون فعلا[1]، فإن الآية نفسها ستكون دليلاً على إقرارهم بتوحيد الألوهية، لترادف الربوبية والألوهية، وعليه فسيكون المشركون موحدين في الربوبية والألوهية معا، وهو خلاف مذهبكم.

وإن كان الرب والإله كلفظي الفقير والمسكين إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا كما يقول ابن عبد الوهاب ومن تبعه فإن «الرب» في الآية يعني الإله المعبود والرب الخالق معا، لأن الرب جاء ذِكره منفردا، والقاعدة عندكم أن الرب والإله إذا تفرقا - أي في الذِكر - اجتمعا - أي في المعنى - ، فيكون السؤال هنا في آية «المؤمنون» عن الرب والإله معا، وبالتالي فإذا كنتم ترون أن هذه الآية دالةٌ على أن المشركين أقروا بالله رباً واحداً وهو ما تسمونه بتوحيد الربوبية، فهي تدل أيضا - بحسب قاعدتكم «إذا افترقا اجتمعا» -على أنهم أقروا بالله إلهاً واحداً أي أقروا بتوحيد الألوهية كما تعبرون؛ لأن الرب في الآية جاء مفرداً فيكون المقصود بالرب والرب والإله معا، وهذا خلاف مذهبكم من أن المشركين كانوا مشركين في الألوهية غير موحدين فيها..!!

لا يقال: هذا الإشكال يرد على استدلالنا بآية سورة المؤمنون السابقة، ولكن لا يرد على استدلالنا ببقية آيات الباب كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ

(١) انظر استدلالهم بآية المؤمنون على نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية في: مجموع الفتاوى (١/ ١٥٥) و(٨/ ١٠١)، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: ١٣)، وموسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٥٤)، وجهود علماء الحنفية (١/ ٢٠٥) و(٢/ ١٠٣٥)، وإعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ١٩١).

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقوله ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقوله ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٣١].

ففي هذه الآيات لا يرِد الإشكال السابق المتعلق بلفظ الرب، إذ هذه الآيات لا ذكر فيها للفظ الرب أصلا، وإنما فيها سؤالٌ عن الخالق والرازق، بل إن بقية آيات «المؤمنون» السابقة وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾.. ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨﴾، فيها سؤال المشركين عن المالك والمدبر والمتصرف، ولا ذكر فيها للفظ الرب أصلا! فلِم قلتم: لا يتم لكم الاستدلال بهذه الآيات السابقة على أن المشركين موحدون في الربوبية إلا بعد أن تثبتوا التباين بين كلمتي الرب والإله؟!

نقول: هذا مردودٌ من وجهين:

**الأول**: أن الخلق والرزق والملك والتدبير كلها عندكم من صفات الربوبية لا الألوهية، وبما أننا أثبتنا بشكل مطولٍ أن الربوبية والألوهية مترادفان فقد عاد الإشكال السابق، وهو أن هذه الآيات كلها إن كانت دليلاً عندكم على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية فهي أيضاً دليل على أنهم مُقرُّون بتوحيد الألوهية، لأن الربوبية والألوهية مترادفان.

## لا تُسمع دعواكم حتى تثبتوا التباين بين الألوهية والربوبية

إن دعواكم بأن المشركين موحدون في الربوبية ومشركون الألوهية: هي بحد ذاتها بحاجةٍ إلى إثبات التباين بين الرب والإله حتى قبل أن تستدلوا

عليها، فما لم تثبتوا هذا التباين لا تستطيعون أن تدعوا هذه الدعوى ولا تُسمع منكم أصلا، بل لا تسمع أي دعوى من الدعاوى التي تقوم عليها نظرية تقسيم التوحيد العشرة: مثل أن الرسل بُعثوا بتوحيد الألوهية دون توحيد الربوبية، وأن الثواب والعقاب على توحيد الألوهية دون توحيد الربوبية إلى غير ذلك من الدعاوى.

فكلها لا تستقيم ولا تُسمع أدلتكم عليها أصلاً ما لم تقيموا الدليل على التباين المذكور، فإذا أقمتم الدليل الناهض عليه فحينئذ ننظر في أدلتكم على تلك الدعاوى، أمَا وأننا أثبتنا بطلان هذا التباين وسردنا جميع حججكم عليه ورددناها بالتفصيل ومن كتبكم في كتابنا آنف الذكر فلا تُسمع دعواكم هذه وهي أن المشركين موحدون في الربوبية مشركين في الألوهية، ولا تسمع غيرها من الدعاوى الأخرى المتعلقة بنظرية تقسيم التوحيد.

## آية ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تُبطل دعواكم.. وكذا آية ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾

**الثاني**: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥] يبطل استدلالكم بآيات الباب الثمانية السابقة على أن المشركين موحدون في الربوبية، لأن هذه الآية تدل على عكس ذلك سواء قلنا إن الإله والرب مترادفان، أو قلنا بأن الرب والإله إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

وذلك لأنه إن قلنا بأن الإله والرب مترادفان فالأمر ظاهر، إذ معنى الآية يستكبرون عن قول لا رب إلا الله، ما دام أنهم يستكبرون عن قول لا إله إلا الله، إذ الإله والرب شيءٌ واحد. وإن قلنا بأن الإله والرب إذا افترقا

اجتمعا كما يقول ابن عبد الوهاب، فالآية أيضاً تفيد أنهم كانوا يستكبرون عن قول لا إله إلا الله وعن قول لا رب إلا الله، لأن كلمة الإله في الآية جاءت مفردةً فتشمل في معناها معنى الرب حسب قاعدة إذا افترقا اجتمعا. وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وبالتالي فإن آية «ص»، وكذا آية «الصافات» السابقة كما دلَّتا على أن مشركي العرب أنكروا أن يكون الإله واحدا، ولذلك استدللتم بهما على أنهم مشركون في الألوهية[1]، فإنهما دلَّتا أيضاً وفي الوقت نفسه على أنهم أنكروا أن يكون الرب واحدا، أي أنهم مشركون في الربوبية أيضا، لما سبق بيانه وهو أن الإله فيهما جاء منفرداً فيعمّ الربَّ أيضاً لقاعدة إذا افترقا اجتمعا، وهو - أي أنهم مشركون في الربوبية - عكس ما استنبطتموه من آيات الباب الثمانية.

حتى ولو لم تكن كلمة «رب» موجودةً في معظم الآيات الثمانية التي استدللتم بها على أن المشركين موحدون في الربوبية، فهذا لا يخلي ساحتكم من إثبات التباين بين كلمتي الرب والإله، لأن آية «ص» وآية «الصافات» السابقة وأمثالهما سوف تنسف استدلالكم بآيات الباب الثمانية كما صار واضحا.

فثبت بما سبق أنه لا يتم استدلاكم بآيات الباب الثمانية ولا حتى دعواكم بأن المشركين كانوا موحدين في الربوبية حتى تثبتوا التباين بين الربوبية والألوهية، وهو ما أبطلناه في كتاب ضخمٍ مستقلٍ كما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) انظر استدلالهم بآيتي «ص» و«الصافات» في: مجموع الفتاوى (١/ ٩١)، الفتاوى الكبرى (٦/ ٥٦٥)، والقول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٢٣) و(ص: ٨٧)، وجهود علماء الحنفية (١/ ١٦٦)، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص: ١٢٤)، دار الصميعي، الرياض.

كما أننا رأينا أنه حتى إن أخذنا بقول ابن عبد الوهاب وهو أن الرب والإله إذا افترقا اجتمعا، فإن هذا سينتج منه إما أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية والألوهية إذا طبقنا هذه القاعدة على آية «المؤمنون» السابقة وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ...﴾، أو سينتج أنهم مشركون في الربوبية والألوهية معاً إذا طبقنا هذه القاعدة على آية «ص» وآية «الصافات» السابقتين، وكلا الأمرين خلاف نظرية تقسيم التوحيد، أي أن ابن عبد الوهاب في جوابه السابق[1] هو كمن بنى قصراً وهدم مصرا، فصحيح أنه أجاب عن تلك الآيات والأحاديث التي تعارض نظرية تقسيم التوحيد، ولكنه في الوقت نفسه هدم النظرية برمتها كما رأينا!!!

## دعوى أن الرب في آية «المؤمنون» لا يصلح أن يكون شاملاً للإله

**قد يقال:** إن «الرب» وإن كان يأتي أحياناً بمعنى الإله، أو يشمل معناه الإله والرب معاً إذا جاء أحدهما منفرداً طبقاً لقاعدة إذا تفرقا اجتمعا، ولكن لا يلزم من ذلك كله اطراد ذلك في سائر الآيات والأحاديث لا سيما إذا كان السياق والقرائن والنصوص الأخرى تأبى ذلك كما هنا.

فإن الرب في آية «المؤمنون» لا يصلح أن يكون هنا بمعنى الإله ولا أن يكون شاملاً للإله والرب معا، وذلك لأن المشركين أَبَوا أن يقولوا لا إله إلا الله كما في آية «الصافات» وغيرها، ولم يأبوا الإقرارَ بأن اللهَ ربُّ السماوات والأرض كما في آية «المؤمنون» وغيرها من آيات الباب.

وفي ذلك **يقول ابن تيمية**: «وقول صاحب الشرع أُمرت أن أقاتل الناس

---

(١) أي في قوله: اعلم أن الربوبية والألوهية يجتمعان، ويفترقان. . .

**حتى يقولوا لا إله إلا الله، لم يقل حتى يقولوا أن لهم رباً**، إذ هم عارفون بذلك، وإنما أمرتهم الرسل أن يصلوا معرفة التوحيد بمعرفة الربوبية والوحدانية فأبوا»[1].

**فدل ذلك على أن المشركين** العرب يفرِّقون بين الرب والإله، **وإلا لكان إقرارهم بالرب الواحد وعدم إقرارهم بالإله الواحد تناقضاً** منهم، ما دام الرب والإله بمعنى واحد عندهم كما تزعمون، ولكن هذا كله لا يمنع أو لا يعكر عليه أن يأتي الرب بمعنى الإله في بعض الآيات والأحاديث إذا دلت القرائن على ذلك كما في حديث «مَن ربك؟»، وكما في الآيات السابقة التي أجاب عنها ابن عبد الوهاب.

**قلنا**: **أولاً**: لا تناقض، إذ ليس في آية المؤمنون ولا في آيات الباب الثمانية إقرار من المشركين بأن الله هو ربهم فضلا عن أن يكون فيها إقرار بأن الله هو الرب وحده كما سيأتي بسطه في الفصل الثاني، غاية ما فيها أنهم إن سئلوا عن الخالق قالوا: الله، وهذا ليس إقرارا محققا وإنما هو إقرار معلق على شرط سؤالهم!!

ثم هذا الإقرار إن حدث منهم فلا توحيد فيه لخلوه من الإثبات والنفي أو القصر أو نحو ذلك مما يدل على التوحيد، وبالتالي فإن شهادتهم بأن الله خالق ورب لا يناقض امتناعهم من قول لا إله إلا الله، لأن مشكلتهم في التوحيد لا في مجرد إثبات الخالقية والربوبية والألوهية لله.

وبعبارة أخرى هم لا مشكلة عندهم في أن يشهدوا لله بأن إله ورب، فهذا القدر قد يقرون به، ولعل معظمهم يقرون به حتى ولو لم يكونوا موقنين به تعالى كما سيأتي، فنحن ما زعمنا أن العرب كانوا كلهم ملحدين

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥١٠).

أو معطلين أو منكرين لله، بل كما قال الشهرستاني من أن «**معطلة العرب، وهم أصناف: ١- منكرو الخالق**، والبعث، والإعادة.. **وصنفٌ منهم أقروا بالخالق** وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث والإعادة»[١]، إذن منهم منكرون لوجود الله أصلا، ومنهم - ولعل هذا هو المعظم - مؤمنون بالله، ولكنهم مشركون به تعالى، أي أنهم يثبتون وجود الله إلهاً وخالقاً ورباً ولكن لا يشهدون بأنه هو الخالق وحده، ولا أنه الإله وحده، ولا أنه الرب وحده.

والحاصل أن مشكلتهم أو شبهتهم إنما هي في توحيد الله لا في الشهادة له بالربوبية أو الألوهية، فهم لا يشهدون لله بأنه الإله وحده كما في آية ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]، فقد استكبروا عن شهادة أن لا إله إلا الله، تماما كما أنهم استكبروا عن الشهادة بأنه لا رب سواه بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] فتأمل كيف نفروا من مجرد ذكر الرب وحده، قال **الشوكاني**: «ومن قبائح المشركين أنهم **كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه**، **فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس**، ولهذا قال الله: وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده»[٢]. اهـ.

وقد بسطنا في كتابنا الكبير المزيد من الأدلة الكثيرة على أنهم غير موحِّدين في الربوبية، بل أتينا بإقرار كثيرٍ من السلفية أنفسهم بأن المشركين كان توحيدهم في الربوبية منقوصاً بل منقوضا[٣]!!

---

(١) الملل والنحل (٣/ ٧٩).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٧٥).
(٣) انظر (ص: ٤٦٧).

# نصوص العلماء على أن المشركين يؤمنون بوجود الله ولكن يشركون في ألوهيته وربوبيته

هذه هي أصلاً حقيقة المشركين والوثنيين وهي إيمانهم بالله مع إشراكهم به غيره، فلا هم معطلون للصانع، ولا هم موحدون له، وإنما مشركون، بمعنى أنهم يؤمنون بوجود الصانع والخالق والإله والرب والمعبود من حيث الجملة، ولكن لا يؤمنون أنه الرب الخالق الواحد ولا الإله المعبود الواحد، وعلى هذا نص العلماء، لاسيما الحنفية منهم[1]، وفيما يلي بعض نصوصهم:

١) قال أبو البركات ابن الأنباري: «إنما تواردت الملل والشرائع **بمعرفة التوحيد لا بمعرفة وجود الصانع** «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» فالدعوة إنما **تواردت بمعرفة توحيده لا بمعرفة وجوده**، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، **وإنما وقع الخلاف في نفي الشريك**»[2].

٢) **قال الكاساني**: «إن الكفرة أصناف أربعة صنف منهم ينكرون الصانع أصلا وهم الدهرية المعطلة، وصنف **منهم يقرون بالصانع وينكرون توحيده وهم الوثنية والمجوس**..»[3].

٣) **قال الشهرستاني**: «ولهذا لم يرد التكليف **بمعرفة وجود الصانع**، **وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك**، «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، **ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد**»،

---

(١) خصصت هنا الحنفية بالذكر رداً على بعض الوهابية الذين يحتجون بالحنفية في دفاعهم عن نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية مثل ابن قيصر الأفغاني في....

(٢) الداعي إلى الإسلام لابن الأنباري (ص: ٢٠٠).

(٣) بدائع الصنائع (٧/ ١٠٢).

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ الآيـــة، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾»[(١)]. اهـ.

فأفاد الشهرستاني أن المشركين بحسب هذه الآيات ينازعون في التوحيد مطلقا، حتى لو سلمنا أنه قسمان ربوبية والوهية، فهم ينازعون فيهما؛ حيث ينازعون في وحدانيته ربا كما أشار بذلك بآية ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ...﴾، وينازعون في وحدانيته إلها كما أشار إليه بآية ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، وليس كما زعم ابن تيمية أنهم ينازعون فقط في وحدانيته في الألوهية.

والطريف أن ابن تيمية احتج عدة مراتٍ بنص الشهرستاني هذا[(٢)] على أنه إقرارٌ من بعض الأشاعرة بأن معرفة الله أمر فطريٌ ضروريٌ لا يحتاج إلى استدلالٍ لأنه لم ينازع فيه أحد!!

والواقع أن الشهرستاني الذي استدل به ابن تيمية هو نفسه أقر في كتاب «الملل والنحل» أن ثمة من أنكر وجود الله حتى من العرب فقال: «**معطلة العرب، وهم أصناف: ١- منكرو الخالق**، والبعث، والإعادة: فصنفٌ منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة. وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني. . . **وصنفٌ منهم أقرُّوا بالخالق** وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث والإعادة»[(٣)].

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني (ص: ١٢٤)، وانظر أيضاً: جهود أئمة الشافعية في تقرير توحيد العبادة (١/ ٤٠)، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى لعبد الله العنقري، لعام ١٤٢٠ هـ.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٢٩)، و(٧/ ٣٩٨)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٧٥)، مسائل العقيدة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري (ص: ٦٧ ت/ ش)، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة الملك سعود، إعداد: يوسف الحوشان، العام الجامعي: ١٤١٨هـ.

(٣) الملل والنحل (٣/ ٧٩).

٤) **قال الزيلعي** -وغيره-: «والوثني وهو الذي يعبد غير الله تعالى **يعتقد أن الله خالقه، وإنما يشرك مع الله تعالى غيره** قال الله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]»[١].

٥) **قال السرخسي** في شرح السير: «**وعبدة الأوثان كانوا يقرون بالله تعالى،** قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ **ولكن كانوا لا يقرون بالوحدانية.** قال تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢]. اهـ.

٦) قال الشيخ عبد الرحمن حبنّكة: «أما إثبات أصل الربوبية فهم شركاء معنا فيه، ولكنهم افترقوا عنا: إمّا بإثبات أرباب متعددين غير الله تعالى يتقاسمون الخلق والتكوين، بينما نحن نثبت أن الله وحده الخالق ولا خالق سواه، وإما بإثبات آلهة غير الله تعالى لهم نوع تصرف في أمور الكون»[٣].

فهذه نصوص العلماء في أن مشركي العرب مقرون بالله بيد أنه ينازعون أو يشكون في وحدانيته سواء في الربوبية أو في الألوهية.

## نصوص ابن تيمية وأتباعه على شرك كفار قريش في الربوبية والألوهية معا

فابن تيمية أشار إلى ذلك في بعض نصوصه، ومنها ما يلي:

---

(١) انظر: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (٤/٣٠٢)، وكذا في قرة عين الأخيار لتكملة رد المحتار على الدر المختار (٨/٦٨)، وعمدة الرعاية بتحشية شرح الوقاية للعلامة اللكنوي (٨/ ١٣٠).

(٢) شرح السير الكبير للسرخسي (ص: ١٥٠)، الشركة الشرقية، وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٤/٢٢٦).

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حبنكة (ص: ١٨١)، دار القلم، دمشق.

يقول ابن تيمية عن المشركين: «فكانوا يعرفون أن لهم رباً وإلها، ولكنهم ينكرون توحيد الإله وبعث رسله وشرائع دينه وبه **وقع منهم الكفر**»[١]. اهـ.

**وقال أيضا**: «والقرآن كله يثبت توحيد الإلهية ويعيب عليهم الشرك.. والمشركون لم يكونوا ينازعونه في الإثبات بل في النفي، فكان الرسول والمشركون متفقين على إثبات إلهية الله، كان الرسول ينفي إلهية ما سوى الله.. والمشركون كانوا يثبتون إلهية ما سواه مع إلهيته»[٢]. اهـ. بل «لا نزاع في ثبوت إلهية مولانا - جل وعز - لجميع العقلاء وإنما كفر من كفر بزيادة إلهٍ آخر»[٣].

فتأمل كيف أقرَّ ابنُ تيمية بأن المشركين كانوا يثبتون «**لهم ربا وإلها**، ولكنهم ينكرون توحيد الإله» بمعنى أنهم «كانوا يثبتون إلهية ما سواه مع إلهيته»، وكذا نحن نقول بأنه كانوا أيضاً ينكرون توحيد الرب، بمعنى أنهم كانوا يثبتون ربوبية ما سواه مع ربوبيته تعالى.

وأما الآيات الثمانية التي استدل ابن تيمية بها على أن المشركين موحدون في الربوبية فليس فيها سوى الاعتراف بربوبية الله دون الاعتراف بتوحيد الربوبية كما سيأتي بسطه[٤]، بل أشار إلى ذلك ابن تيمية نفسه في مواضع مثل قوله: «فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره»[٥]، وقوله: «وأما الربوبية فكانوا مقرين بها قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾»[٦].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥٦).

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ١٥٣)، نقلاً عن ملا علي القاري في التجريد.

(٤) انظر (ص: ٢٣٦).

(٥) الفتاوى الكبرى (٥/ ١٦١).

(٦) مجموع الفتاوى (١/ ٩١)، وانظر: القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٦٥).

فتأمل كيف اقتصر هنا على أنهم مقرون بربوبية الله وخالقيته، دون أن يأتي على ذكر التوحيد في الربوبية، بل صرَّح في موضعٍ آخر بأن «كثيراً من أهل الشرك والضلال قد يضيف وجود بعض الممكنات أو **حدوث بعض الحوادث إلى غير الله**.. وهم مع شركهم وما يلزمهم من نوع **تعطيل في الربوبية** لا يثبتون مع الله **شريكاً مساوياً له في أفعاله** ولا في صفاته»[1].

وأقر عبد الرزاق البدر بأن آيات الباب ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾ ونحوها إنما تدل على إيمانهم «بالخالق الرازق المدبر لشئون الخلق، فهذا من صفات الربوبية وخصائصها وقد آمن واعترف به المشركون، ثم هذا أيضاً ليس حكماً عاماً مطرداً على جميع المشركين **إذ منهم من وُجد عنده حتى الشرك في الربوبية**، ومنهم من آمن ببعض خصائص الربوبية دون بعض»[2]. اهـ.

وليس هذا فحسب بل **قال ابن تيمية صراحة**: «والعرب وإن كانوا مشركين لم يكن الظاهر فيهم التعطيل للصانع وإن كان قد يكون في أضعافهم **من هو من المرتابين في الصانع** أو الجاحدين له..»[3]. اهـ.

## لو كانت آيات الباب تسأل عن الإله: فهل إقرارهم «بأنه الله» توحيدٌ في الألوهية؟

أي لو فرضنا أن آيات الباب الثمانية جاءت بصيغة السؤال عن الإله، فهل سوف تستنبطون منها أن المشركين موحدون في الربوبية؟! أم أنكم ستقولون: **لا تدل الآيات الثمانية على أن المشركين مقرون بتوحيد الألوهية**،

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٧)، ونقله البدر في القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٧٨).
(٢) القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٧٧).
(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/ ٧٢).

**إذ التوحيد لا بد فيه من إثبات ونفي**، وهذا ما ليس في آيات الباب، ولا فيها حصر الإلهية في الله، وإنما ستكون غاية ما تدل عليه هو إقرار المشركين بأن الله إله من جملة الآلهة التي يعبدونها؟!

**والسؤال**: لماذا اعتبرتم آيات الباب الثمانية متضمنة للتوحيد في الربوبية مع أنها لو جاءت بنفس الصياغة لكن فقط مع استبدال الإله بالرب لما اعتبرتم أنها متضمنة للتوحيد في الألوهية بحجة أن التوحيد لا بد فيه من حصر وإثبات ونفي؟!!

## لا تعارض بين آيات إقرار المشركين بالله وبين الآيات التي دلت على رفضهم للتوحيد

وبذلك يظهر أنه لا تعارض بين إقرارهم بأن الله هو الخالق والإله والرب والمدبر طبقاً لآية «المؤمنون» وغيرها، وبين إبائهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله طبقاً لآية «الصافات»، وإبائهم أن يشهدوا بأنه الرب وحده كما في آية «الإسراء».

نعم لا تعارض بين إقرارهم وإبائهم، لأنهما لم يتواردا على محلٍ واحد، فإقرارهم واردٌ على أن الله خالق ورب وإله، فهذا يقرون به لأنهم - في معظمهم - ليسوا منكرين للصانع، وأما إباؤهم فهو واردٌ على أنه هو وحده الخالق أو هو وحده الرب، أو هو وحده الإله، فهذا يأبونه لأنهم مشركون وليسوا موحدين، حالهم هو أشبه بحال النصارى فهم يشهدون بأن الله رب وإله وخالق، ولكن ليس هو واحدا، بل هو عندهم ثالث ثلاثة - تعالى الله عن ذلك - كما هو معلوم.

فثبت أنه لا تعارض البتة في موقف مشركي العرب من إقرارهم بالله خالقاً أو رباً أو إلها، وبين كونهم أبوا أن يقولوا لا إله إلا الله.

نعم الإشكال والتناقض يأتي حين تزعم أن آيات المؤمنون وأمثالها من آيات الباب الثمانية كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] تدل على أن المشركين مقرون بالله **وحده الخالق!!** أي مقرون بالتوحيد لتصطدم أنت مباشرة مع الآيات التي فيها رفضهم للتوحيد مثل قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]!!

ثم لكي تفك هذا التعارض الموهوم تضطر إلى أن تقسِّم التوحيد إلى ألوهية وربوبية ثم تقول: هم أقروا بتوحيد الربوبية وأبوا الإقرار بتوحيد الألوهية!! والحال أنهم لم يُقروا بالتوحيد البتة، وإنما أقروا بالله ورفضوا توحيده مطلقا، وهذا معنى أنهم مشركون كما عبَّر عن ذلك القرآن في عشرات الآيات.

## لا يستبعد تناقض المشركين في عقائدهم كما أشارت آيات الباب نفسها

**ثانياً**: ولو سلمنا جدلاً أنهم متناقضون في ذلك، فهذا غير مستبعدٍ منهم، بل هذا هو الواقع فإن في عقائد المشركين تناقضاً كبيراً فالمشركون مثلاً أقروا - كما تقولون[(١)] - بأن الله هو المحيي المميت، ولكنهم ناقضوا أنفسهم فأنكروا إحياء الموتى للبعث والنشور، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]، وسيأتي بسط ذلك كله[(٢)].

ولذا قيل في تفسير ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: «إذاً كيف يشركون به أصناماً لا تنفع ولا تضر؟

---

(١) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٥).

(٢) انظر (ص: ٩١).

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾: أي قل لهم: الحمد لله على ثبوت الحجة عليكم. بل أكثرهم لا يعقلون: أي **إنهم متناقضون في فهمهم وجوابهم**»[1].

«﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفى الشركاء عنه **ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين** ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ **لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات**»[2].

أو «﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بدون تردد: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ - تعالى- هو الذي فعل ذلك بقدرته. وقوله- سبحانه-: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيبٌ من **تناقضهم في أفعالهم**، ومن انحراف في تفكيرهم، ومن تركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم. أى: **إذا كنتم معترفين بأن الله وحده** هو الخالق للسموات والأرض، والمسخر للشمس والقمر، **فلماذا أشركتم معه في العبادة** آلهةً أخرى؟ ولماذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته»[3].

أو المعنى «لأجابوك بأن الله تعالى **هو الفاعل لذلك**، فإذا قالوا هذا، فقل لهم أيها النبي: الحمد لله على قيام الحجة عليكم، **وأن الله مصدر النعم كلها**، ولكن أكثر هؤلاء المشركين **لا يعقلون هذا التناقض الحاصل منهم**، فتراهم يقولون بأن الله هو الخالق الرازق، ثم يقولون بوجود إلهٍ آخر معه، **فيخالف فعلهم قولهم**، وإقرارهم، ويعبدون مع الله تعالى وثناً أو حجراً **أو معدناً لا يتمتع بحقائق الألوهية**، ولا ينفعهم شيئاً، ولا يضرهم إن تركوا عبادته. **إن هذا لونٌ من ألوان الحماقة والخرافة** والطيش والبدائية القائمة»[4].

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ١٥٠).
(٢) تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٢/ ٦٨٥).
(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (١١/ ٥٥).
(٤) التفسير الوسيط للزحيلي (٣/ ١٩٧٩).

وهكذا نرى أن المشركين فعلاً متناقضون كما أشار إليه البيان الإلهي في ختام بعض آيات الباب كما في قوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقد ذكر ذلك بعض المفسرين كما سبق، ثم العجب منكم فأنتم تتهمون كبار علماء المسلمين من الأشاعرة بالتناقض في مسألة الصفات ونحو ذلك(١) حتى ألّفتم كتباً في ذلك(٢)، فكيف تنزّهون المشركين عما تتهمون به كبار علماء المسلمين؟!!

❀ ❀ ❀

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (ص: ٨٨١).

(٢) مثل كتاب: مقالات في تناقضات الأشعرية لمؤلفه محمد براء ياسين.

# الفصل الثاني

## ليس في آيات الباب الثمانية إقرارٌ محقَّق وإنما إقرارٌ مستقبليٌّ معلَّقٌ على شروط

لدى التدقيق في صيغ آيات الباب الثمانية لا نجد فيها إقراراً محققاً من المشركين بالله، وإنما غاية ما فيها هو إقرارٌ مستقبليٌّ معلقٌ على شروط، نعم قد يقال إن الآيات الثمانية أشارت إلى معرفتهم القلبية بالله، فضلاً عن أن سكوتهم عند تلاوتها يدل على رضاهم بمضمونها، ونبسط ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إن إقرارهم هو إقرارٌ مستقبلي.

المبحث الثاني: إن إقرارهم هو إقرارٌ معلَّقٌ على شروط.

المبحث الثالث: ما قد يقوم مقام إقرارهم، وهو أمران:

الأول: سكوتهم عند تلاوة آيات الباب الثمانية يفيد رضاهم بمضمونها.

الثاني: معرفتهم القلبية بالله التي دلَّت عليها آيات الباب الثمانية.

وفيما يلي بسط هذه المباحث الثلاثة وبالله التوفيق.

# المبحث الأول

# إن إقرارهم هو إقرارٌ مستقبليٌّ وليس إقراراً ماضياً أو حاضراً

جاءت بعض آيات الباب الثمانية بالتصريح بأن إقرار المشركين بالله ليس إقراراً حاضراً ملازماً لهم وإنما هو إقرار مستقبلي، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾.. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ -٨٩].

فهذه الآيات نفسها دلت على أن المشركين غير مقرين بالله في الماضي أو في الحال، ولكن سيقرون به في المستقبل، بدليل السين في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ في آية «يونس»، وفي قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ في آيات «المؤمنون»، ومعلوم أن هذه «(السين) حرف استقبال»(١)، أي إن إقرارهم بالله سيكون في المستقبل.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن (١٨/ ٢٠١)، محمود صافي (ت: ١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨ هـ. وانظر أيضاً: إعراب القرآن للدعاس (٢/ ٣٣٧)، دار المنير ودار الفارابي - دمشق، ط١، ١٤٢٥ هـ.

وبالتالي فمن الخطأ بمكانٍ تنزيل إقرارهم المستقبلي محل الإقرار الحالي كما فعل ابن تيمية، حيث استنبط من آيات الباب أن المشركين قالوا فعلاً: إن الله خالقهم وخالق كل شيء، والواقع أن الآيات لا تدل على ذلك كما رأينا.

**لا يقال**: كون الله يخبر بأنهم سيقولون بأن الله هو خالقهم فهذا ينزل إقرارهم المستقبلي منزلة الإقرار الحالي؛ وذلك لأن خبر الله لا يتخلف سواء كان خبره عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل. **لأننا نقول**: هذا يكون صحيحاً لو لم يعلق إقرارهم على سؤال النبي لهم وعلى شروط أخرى، وهو ما سيأتي بسطه في المبحث الثاني.

حتى لو فرضنا أنهم سيُقرُّون في المستقبل بالخالق دون أن يسألهم، فهذا غايته أنهم في المستقبل سيقرون بالخالق وأما حالياً فلا، أي أن الآيات نفسها تفيد أنهم غير مقرين بالله في الحال، وهو عكس ما تدعون.

ثم لو فرضنا أن الآيات جاءت بالسؤال عن إلههم فقالوا إلهنا هو الله فهل هذا ستعتبرونه إقرارا بتوحيد الألوهية؟ كيف؟! وأنتم من يقر بلا إله إلا الله فعلاً لا تعتبرونه موحداً في الألوهية إلا بعد تحقيقه لثمانية شروط كما سيأتي بسطه[1].

## ثلاثة أمورٍ تؤيد أنهم أن إقرارهم بالله أمرٌ مستقبلي

والحاصل مما سبق أن الآيات دلت على أن إقرارهم بالله هو إقرار مستقبلي لا حالي، ويؤيد ذلك أمور:

(١) انظر (ص: ٣٣٨-٣٣٩).

**الأمر الأول**: إن ثمة آياتٍ في الباب ليس فيها جوابٌ منهم حين سئلوا عن الخالق.

**الأمر الثاني**: إن ثمة آياتٍ تفيد أنهم يشككون في وجود الله فضلاً عن تشكيكهم. في صفاته تعالى العلية، هذا بالإضافة إلى مقالات أخرى غاية في السوء قالوها في حق الله سبحانه.

**الأمر الثالث**: إن كثيرا من العلماء حملوا آيات الباب الثمانية على معرفة الإنسان بربه حتى ولو كان كافرا أو مشركا.

وفيما يلي بسط هذه الأمور الثلاثة كل منها في مطلب.

## المطلب الأول

# ثمة آيات في الباب ليس فيها جواب منهم حين سئلوا عن الخالق

وبيانه أن ثمة آيات مشابهة لآيات الباب الثمانية، جاء فيها السؤال عن الخالق، ولكن الجواب لم يكن من المشركين مطلقا، أي لا جواب منهم محقق، ولا حتى معلق كما في آيات الباب الثمانية، بل أَمَر اللهُ فيها رسولَه بالجواب، **وثمة آيات أخرى أمر اللهُ فيها رسولَه** أن يسأل المشركين عن الخالق، وليس فيها جواب أصلا، **وهناك آيات أخرى لا يأمر الله رسولَه أن يسأل المشركين** بل هو تعالى نفسه يوجه سؤالا للمشركين عن الخالق، ثم لا يذكر لها جوابا أيضا، وثمة آيات تسأل: هل ثمة إله معه؟ ولا جواب فيها أيضا.

فإذا كان المراد من السؤال عن الخالق في آيات الباب الثمانية هو - كما زعمتم - أن يتدرج بهم إلى الإقرار بتوحيد الألوهية بعد أن يقروا بتوحيد الربوبية بحجة أن الأول لازم عن الثاني فما المراد من تلك الآيات كلها التي فيها سؤال عن الخالق وليس فيها جوابٌ منهم؟!

ولبيان ذلك نقول: لدينا أربع مجموعات من الآيات التي فيها سؤالٌ عن الخالق، ولا يوجد فيها جوابٌ، وهي ما يلي:

المجموعة الأولى: آيات فيها أمرٌ بالسؤال عن الخالق ثم أمرٌ بالجواب بأنه الله.

المجموعة الثانية: آيات فيها أمرٌ من الله لرسوله أن يسأل عن الخالق، ولا جواب فيها!

المجموعة الثالثة: آيات يسأل اللهُ نفسُه عن الخالق، ولا جواب فيها!

المجموعة الرابعة: آيات تسأل: هل ثمة إله أو رب معه؟ ولا جواب فيها أيضا.

وفيما تفصيل لهذه المجموعات الأربعة من الآيات:

## أولاً: آيات فيها أمرٌ بالسؤال عن الخالق ثم أمرٌ بالجواب بأنه الله

هذه هي المجموعة الأولى، وهي الآيات التي جاء فيها السؤال عن الخالق والرازق ونحو ذلك من صفات الربوبية، ولكن الجواب لم يكن من المشركين بل أَمَر اللهُ رسولَه بالجواب بأنه الله بعد أن أمره بالسؤال عن الخالق، طبعاً هذا الأمر هو أمرٌ من حيث الظاهر لتشريف الأمة كما سيأتي بيانه[1]، وإلا فالمراد هو تلاوة هذه الآيات على مسامع المشركين، وإليكم طائفة من تلك الآيات:

١) ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

٢) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤].

(١) انظر (ص: ١٤١).

٣) ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: ٢٤].

٤) ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا﴾ [الرعد: ١٦].

٥) ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: ١٢].

ففي هذه الآيات سؤالٌ عن المغيث المنجي، وعن الخالق، والرازق، والرب، والمالك، وليس فيها جوابٌ من المشركين مطلقا، أي لا جواب محقق ولا معلق، ولا جواب حالي ولا مستقبلي، وهذه الآيات الخمسة تتفق مع آيات الباب الثمانية، حيث كلها - أي الآيات الخمسة والثمانية - لا جواب فيها محقق من المشركين، وإنما تزيد الآيات الثمانية على الخمسة أن فيها جواباً مستقبلياً معلقاً على سؤالهم.

## قيل: لم يذكر جواب المشركين في الآيات الخمسة لأنه لا جواب لهم سواه

لا يقال: إن المراد بهذه الآيات الخمسة هو كما قال الطبري: «قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: من رب السموات والأرض ومدبرها، فإنهم سيقولون الله، وأمر الله نبيه ﷺ أن يقول: الله...»[(١)]. اهـ.

أو «لَمَّا كان هذا الجواب جواباً يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره ﷺ أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على أنهم لا ينكرونه

(١) جامع البيان (١٣/ ٤٩٣)، طبعة هجر.

البتة»[١]، «**إذ لا جواب إلا هذا** الذي وقعت المبادرة إليه»[٢].

«وذلك أن **الكفار لا ينكرون أن الله خالق** السموات والأرض والمخلوقات... فإذا أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال بقوله: **الله، لم ينكروا هم ذلك**، ويصير كأنهم قالوا ذلك، ثم ألزمهم الحجة، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ...﴾ **يعني: الأصنام لا يملكون** لأنفسهم ضراً ولا نفعا، فكيف لغيرهم»[٣].

«وهذا يدل على **اعترافهم بأن الله هو الخالق** وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ معنى»[٤]. فهم كانوا «**يعترفون بخلقه سبحانه جميع ذلك**.. ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣]»[٥].

## بيان أنه لم يذكر جواب المشركين عن الخالق في الآيات الخمسة.. لترددهم

**قلنا**: ما قاله **الطبري** وغيره ممن سبق: خلاف ظاهر الآية، إذ ظاهرها أن المشركين لا يجيبون، بل الله يأمر رسولَه بأن يجيب. بدليل أن الطبري نفسه في تفسيره لآية «سبأ» يقول: من يرزقكم من السموات والأرض... وترك الخبر عن جواب القوم استغناء بدلالة الكلام عليه، ثم ذكره، وهو: **فإن قالوا: لا ندري**، فقل: الذي يرزقكم ذلك الله[٦]. اهـ

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٣٢).

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٧٠).

(٣) التفسير البسيط للواحدي (١٢/ ٣٢٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي (١٢/ ٤٦)، طبعة الرسالة.

(٥) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨١).

(٦) جامع البيان (١٩/ ٢٨٣).

فصرح الطبري **أنهم يحتمل ألا يجيبون، فيجيب عنهم الرسول** ﷺ، وبالتالي فهذا يعيِّن ما سيأتي ذكره من أنهم في بعض الأحيان يجيبون - إن سألهم عن الخالق - كما في آيات الباب الثمانية، وفي بعض الأحيان لا يجيبون، أو على الأقل يترددون، كما في الآيات الخمسة كآية «الرعد» و«سبأ».

وأما قول **الرازي**: «لَمَّا كان هذا الجواب جواباً يقر به المسؤول ويعترف به...»، فالجواب عنه أن الرازي نفسه يقول في آية «يونس»: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾: «لِـمَ أَمـر رسـولَـه بـأن يـعـتـرف بذلك، والإلزام إنما يحصل لو اعترف الخصم به؟ **والجواب**: أن الدليل لما كان ظاهراً جليا، فإذا أُورد على الخصم في معرض الاستفهام، ثم إنه بنفسه يقول الأمر كذلك: كان هذا تنبيهاً على أن هذا الكلام بلغ في الوضوح إلى حيث لا حاجة فيه إلى إقرار الخصم به، وأنه سواء أقر **أو أنكر**، فالأمر متقرر ظاهر»[1]. اهـ.

إذن النكتة في قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أن الأمر متقررٌ، وهو أن الله هو الخالق المدبر الرازق وهو من يفعل ذلك، وسواء أقر المشركون أو السامعون بذلك أم لا، أي ليس بالضرورة أن يكون المستمع مُسلِّما بأن الله هو الفاعل لذلك.

وأما قول **الواحدي**: «وذلك أن الكفار لا ينكرون أن الله خالق السموات والأرض والمخلوقات...»، فليس فيه أنهم يقرون بالخالق وحده، وإنما غايته الإقرار بالخالق كما سيأتي بيانه في كلامنا عن الواحدي وموقفه من نظرية تقسيم التوحيد[2]، بل الواحدي نفسه أشار إلى أن المشركين لا يسلِّمون بأنه

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٩٣).
(٢) انظر (ص: ٣٦٤).

تعالى هو المتفرد بالخلق والضر والنفع، حيث قال في آخر نصه السابق: «﴿قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ...﴾ يعني: الأصنام لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا، **فكيف لغيرهم**».

وأما قوله «فإذا أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال بقوله: الله، لم ينكروا هم ذلك، ويصير كأنهم قالوا ذلك، ثم ألزمهم الحجة...» فالجواب أن **الواحدي** نفسه قال بعد ذلك نقلا عن ابن **الأنباري**: «وبخهم أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله، فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم؟ وهذا الاستفهام إنكارٌ لذلك، أي ليس الأمر على هذا حتى يشبه الأمر، **بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المنفرد بالخلق، وسائر الشركاء لا يخلقون خلقاً يتشابه بخلق الله**، وإذا كانوا بهذه الصفة **ألزمتهم الحجة**»(١). اهـ.

فأفاد أن الحجة تلزمهم إذا فكروا وأعملوا عقولهم فحينها سيقرون بأنه الخالق وحده، وإلا فسوف يستمرون على عنادهم وكفرهم وجحودهم وشركهم في الربوبية والألوهية معا.

وأما ما جاء في ملاك التأويل للغرناطي من قوله: «**يعترفون بخلقه سبحانه جميع ذلك**...»، فجوابه أنه لم يذكر أنهم يعترفون بأنه الخالق وحده بل تتمة كلامه فيه أنهم نقضوا ذلك بإثبات الشريك له، حيث قال: «فاعترافهم بهذا ثم **يجعلون له تعالى الند والشريك** عدول واضح بعد قيام الحجة عليهم، فقيل هنا: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾»(٢).

وأما قول أبي حيان: «إذ لا جواب إلا هذا الذي وقعت المبادرة إليه»، فالجواب عنه أن أبا حيان نفسه يقول في تتمة كلامه السابق: «ويجوز أن

---

(١) التفسير البسيط (١٢/ ٣٣٠).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٨١).

يكون تلقيناً، أي: إن كفُّوا عن الجواب فلقَّنهم، فإنهم يتلقَّنُونه ولا يقدرون أن ينكروه»[١].

وأما قول **القرطبي**: «هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق...»، فالجواب أن القرطبي نفسه يقول في آية «الرعد»: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم أمره أن يقول لهم: هو الله، إلزاماً للحجة **إن لم يقولوا ذلك**، وجهلوا من هو»[٢]. اهـ.

أيضا القرطبي يقول عند قوله تعالى ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾: «والخطاب لمن اعترف منهم بالصانع، أي **إذا أقررتم بأنه الخالق**، فهو القادر على إحلال العذاب الذي تستعجلونه»[٣]. اهـ. فأفاد القرطبي في كلا النصين أن إقرارهم بالخالق أمرٌ مشكوكٌ فيه.

فهذه النصوص الأخيرة للرازي وأبي حيان والقرطبي وكذا نصوص أخرى للمفسرين **تبين** أن الله - في الآيات الخمسة السابقة - أَمر نَبيه بالإجابة نيابةً عن المشركين في حال ما إذا **أحجموا عن الإجابة أو ترددوا** أو تلعثموا أو نحو ذلك، وفيما يلي مزيداً من نصوص المفسرين التي تدل على ذلك:

١) فقال **السمعاني**: «وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، يعني: **إن لم يقولوا: إن رازقنا هو الله تعالى**، فقل أنت إن رازقكم هو الله تعالى»[٤]. اهـ.

٢) **وقال الزمخشري في آية «سبأ»**: «ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار

---

(١) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٧٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٢/ ٤٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٤/ ٢٠٨).
(٤) تفسير السمعاني (٤/ ٣٣٢).

عنهم بقوله: يرزقكم الله. وذلك بالإشعار بأنهم مقرُّون به بقلوبهم، إلاّ أنهم **ربما أبَوا أن يتكلموا به**؛ لأن الذي تمكَّن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته، **ولأنهم إن تفوَّهوا** بأن الله رازقهم، لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثِرون عليه من لا يقدر على الرزق؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ حتى قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فكأنهم كانوا يقرُّون بألسنتهم مرَّة، **ومرَّةً كانوا يتلعثمون** عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة»[1]. اهـ.

٣) وقال الزمخشري في آية «الرعد»: «﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم... ويجوز أن يكون تلقينا، أي: إن كعُّوا عن الجواب فلقَّنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه»[2]. اهـ. وقوله: «كعوا عن الجواب» أي **امتنعوا** جُبناً أو احتبسوا»[3]. اهـ. يقال: «كَعّ الرجلُ وكعكعه الخوفُ فتكعكع، أي: حبسه فاحتبس»[4].

٤) **وقال البيضاوي** في آية «الرعد»: «﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومتولي أمرهما ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البيِّن الذي لا يمكن المراء فيه، أو لقنهم الجواب به»[5]،

---

(١) تفسير الكشاف مع حاشية الطيبي (١٢/ ٥٥١).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٢٢).

(٣) انظر: حاشية محمد عليان المرزوقي على الكشاف (٢/ ٥٢٢)، طبعة دار الكتاب العربي. ومن طبعة العبيكان (٣/ ٣٤٤).

(٤) انظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب «حاشية الطيبي على الكشاف» (٨/ ٤٩١).

(٥) تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٣/ ١٨٤)، تحقيق: د. المرعشلي، دار إحياء التراث العربي.

«وفيه إشعارٌ بأنهم إن سكتوا أو **تلعثموا في الجواب** مخافة الإلزام فهم مقرون به بقلوبهم»[١]، «والذي حملهم على السكوت عن الجواب أو **التلعثم** فيه مخافة الإلزام أنهم لو أجابوا وقالوا رازقنا هو الله وحده توجه إليهم أن يقال لهم فما بالكم لا تعبدون الذي تفرد في ترزيقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على أن يرزقكم»[٢].

٥) قال **القرطبي** أيضا في آية «سبأ»: «قل يا محمد للمشركين ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي من يخلق لكم هذه الارزاق الكائنة. . . أي لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعْل آلهتنا - فيقولون لا ندري، فقل إن الله يفعل ذلك الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: إن الله يرزقنا، فقد تقررت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يُعبد»[٣]. اهـ. فإذن يحتمل أن يقولوا: لا ندري مَن الخالق الرازق، ويحتمل أن يقولوا: هو الله، ولا معنى لترددهم إلا هذا.

٦) وقال الشوكاني في آية «سبأ» ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾: «ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام، ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى آلهتهم، وربما يتوقفون في نسبته إلى الله مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر الله رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي: هو الذي يرزقكم من السموات والأرض»[٤].

وقال الشوكاني في آية «يونس»: «ثم أمره سبحانه أن يقول لهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾، أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٢٤٧).
(٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي (٣/ ٦١٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٧/ ٣١٢).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٧٣).

القول الذي قاله النبي ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين في الجواب، إما: على طريق التلقين لهم، وتعريفهم كيف يجيبون، وإرشادهم إلى ما يقولون، وإما: لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، ومعرفة ما لديه، وإما: لكون **المشركين لا ينطقون بما** هو الصواب في هذا الجواب فرارا منهم عن أن تلزمهم الحجة، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق»[١].

٧) وقال السعدي: «﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم لا بد أن يقروا أنه الله، ولئن لم يقروا فـ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول».

## حاصل أقوال المفسرين للآيات الخمسة

والحاصل من نصوص المفسرين في الآيات الخمسة السابقة هو أن المشركين قد يتلكؤون أو يترددون أو يمتنعون عن الجواب لو سئلوا عن الرب أو عن الخالق أو عن الرازق، فأمر الله نبيَّه أن يجيب حينها بأن الرب والخالق والرازق هو الله.

وبالتالي فإن ما جاء في آيات الباب الثمانية - كقوله: ولئن سألتهم من خلقهم. . - من أن المشركين إن سئلوا عن الخالق سيقولون بأنه الله: يجب فهمها على ضوء الآيات الخمسة السابقة التي أمر الله نبيه فيها بأن يجيب بأن الرب الرازق هو الله.

فيكون معنى آيات الباب الثمانية حينئذ على ضوء الآيات الخمسة الأخرى أن المشركين سيقولون بأن الخالق هو الله إن لم يترددوا أو لم

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٠٥).

يحجموا، فإن ترددوا أو أحجموا فقل أنت يا محمد بأن الخالق هو الله.

## فكأنهم كانوا يقرُّون بألسنتهم مرَّة ومرَّةً كانوا يتلعثمون عناداً

وهكذا نكون قد جمعنا بين الآيات الثمانية والآيات الخمسة، ويكون حاصل كل تلك الآيات أن المشركين مترددون في إقرارهم بالخالق فتارة يقرُّون وتارةً يحجمون، كما قال الزمخشري: «**فكأنهم كانوا يقرُّون بألسنتهم مرَّة، ومرَّةً كانوا يتلعثمون عناداً** وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة»، وكذا قال البيضاوي والشوكاني وغيرهم من المفسرين ممن سبق ذكرهم.

وهذا يعني أن المشركين كانوا شاكين بوجود الله غير متيقنين كما دل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾: (أي إذا سئلوا: من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، **وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون**)[١]، وسيأتي بسطه[٢].

## قول ابن تيمية أن من العرب من كان «من المرتابين في الصانع أو الجاحدين له»

ويقول ابن تيمية نفسه: ولا ريب أن من **أنكر الصانع** وقال بان العالم واجب بذاته، فعقله أفسد من عقل هؤلاء. **والعرب لم تكن تقول بهذا اللهم إلا أن يكون في تضاعيفهم آحاد تقوله**، ولكن لم يكن هذا القول ظاهراً فيهم،

(١) البحر المحيط (٨/ ١٤٩).
(٢) انظر (ص: ٤١٥).

بل الظاهر فيهم الإقرار بالخالق وعلمه وقدرته ومشيئته... **والعرب وإن كانوا مشركين** لم يكن الظاهر فيهم التعطيل للصانع وإن كان قد يكون في أضعافهم من هو من **المرتابين في الصانع أو الجاحدين له**..»[1]. اهـ

## دعوى أنهم أحجموا عن الإقرار في الربوبية لئلا يلزمهم توحيد الألوهية

**قد يقال: سلَّمنا** بأن المشركين يتردَّدون أو يحجمون عن الإقرار بأن الله هو الخالق ولذلك أُمر الرسول أن يجيب عنهم، ولكن السبب في ذلك أنهم يخافون أن تقوم عليهم الحجة لو أقروا بأن الله هو الخالق، فإن ذلك يلزمهم أن يعبدوه وحده!

وفي ذلك يقول الشيخ زاده: «والذي حملهم على السكوت عن الجواب أو **التلعثم فيه مخافة الإلزام** أنهم لو أجابوا وقالوا رازقنا هو الله وحده توجه إليهم أن يقال لهم فما بالكم لا تعبدون الذي تفرد في ترزيقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على أن يرزقكم»[2]. فأشعَر ذلك «إشعاراً بأنهم لا يجترؤون على التصريح به مخافة التبكيت وإلقام الحجر، لا مكابرة ولجاجا»[3]، «فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه، لأنهم **ربما تلعثموا في الجواب** حذراً مما يلزمهم»[4].

**قلنا: هذا** حاصله أنه لم يقروا في بعض الأحيان - كما في الآيات

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/ ٧٢).
(٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي (٣/ ٦١٢).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ١٤٣).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٨٩).

الخمسة السابقة - بتوحيد الربوبية خشية أن يلزمهم الإقرار بتوحيد الألوهية، والجواب عن هذا:

**أولاً**: لو كان هذا صحيحاً فلماذا أقرُّوا في أحيانٍ أخرى بتوحيد الربوبية كما في آيات الباب الثمانية على زعمكم، مع أنهم يعلمون أنهم بهذا الإقرار سيلزمهم الإقرار بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه أشد الإنكار؟!!

**ثانياً**: سلَّمنا، ولكن هذا اعترافٌ منكم أنهم في آخر المطاف لم يقروا بتوحيد الربوبية في بعض الأحيان على الأقل، بغض النظر عن السبب الذي منعهم من الإقرار به، وهذا يخالف ما زعمتم بالقول «فقد كان هؤلاء المشركون يؤمنون بوجود الله إيماناً جازما ويوحدونه في الربوبية توحيداً كاملاً لا تشوبه أية شائبة» وقد سبقت نصوص كثيرة من هذا القبيل.

**ثالثاً**: هذا إقرارٌ منكم بأن توحيدي الربوبية والألوهية متلازمان «بمعنى أن من وَحَّدَ الله تعالى في ربوبيته على وجه الكمال لزم منه أن يُوحد الله تعالى في أُلوهيته على وجه الكمال **والعكس بالعكس**. . فهي متلازمة من حيث الوجود، **ومتلازمة من حيث الانتفاء**»(١).

وهذا ما نقوله أصلا، ولما كان المشركون غير مقرين بتوحيد الألوهية، فهذا يعني أنهم غير مقرين بتوحيد الربوبية إذ لو أقروا به لأقروا بتوحيد الألوهية لتلازمهما، وهذا بسطناه في كتابنا الكبير والذي سيطبع بتمامه لاحقا بحول الله.

(١) شرح كتاب التوحيد لأحمد الحازمي، وهو عبارة عن دروس مفرغة له. انظر النص أعلاه على الرابط:
https://al-maktaba.org/book/31683/1292

## ثانياً: آياتٌ فيها أمرٌ من الله لرسوله أن يسأل عن الخالق، ولا جواب فيها!

وهذه هي المجموعة الثانية، وهي آياتٌ أمر اللهُ فيها رسولَه أن يسأل المشركين عن الخالق المدبر الحافظ، وليس فيها جوابٌ أصلا، لا من الرسول ولا ممن سألهم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢-٤٣].

فإذا سلمنا أن الآيات الخمسة السابقة كآية ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الرعد: ١٦] المقصود بها: «قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: من رب السموات والأرض ومدبرها، فإنهم سيقولون الله، وأمر الله نبيه ﷺ أن يقول: الله». اهـ. كما قال الطبري، وبالتالي ستقوم الحجة في ألا يعبدوا سواه على اعتبار أن إقرارهم بتوحيد الربوبية يستلزم إقرارهم بتوحيد الألوهية.

أقول إذا سلمنا بكل هذا: فكيف ستقوم الحجة على المشركين بآيتي «الأنبياء» هاتين اللتين ليستا فيهما جواب من النبي ﷺ ولا من المشركين؟ وما المقصود من السؤال عن الخالق فيهما؟

**لا يقال**: لا جواب في هاتين الآيتين لأنه معروف أنهم سيقولون هو الله، بدليل آيات الباب الثمانية، غاية ما في الأمر أن الجواب هنا لم يُذكر اكتفاء بذكره في آيات الباب الثمانية.

**لأننا نقول**: هذا غير مسلَّم لأمرين:

**الأمر الأول**: أن آيات الباب الثمانية ليس فيها جوابٌ محقق منهم، وإنما هو جوابٌ معلق كما بسطناه، حتى على التسليم بأنه جوابٌ محقق فإنهم

مترددون فيه، فتارةً يقرون به كما في آيات الباب الثمانية، وتارةً يحجمون كما في الآيات الخمسة السابقة.

**الأمر الثاني**: أن سياق كلا الآيتين يرد ذلك، إذ دلّتا على أنهم لا يسلّمون بأن الله هو الذي يكلؤهم، ولا أنه هو وحده الذي ينصرهم، وبيان ذلك من وجهين:

**الوجه الأول**: أنهم لو كانوا يسلّمون بذلك لكان المفروض أن يقول «بل هم عن ذكر إلههم معرضون»، أي هم عن ذكر إلههم الحق معرضون، أي لا يسلّمون بتوحيد الألوهية على حد تعبيركم، ولكن لما عبَّر هنا بلفظ ﴿رَبِّهِمْ﴾ بدل «إلههم» علمنا أن المشكلة عندهم في ربوبيته وتوحيده فيها فهم معرضون عن ذلك وغير مسلّمين به.

ولذلك يقول ابن كثير هنا: «بل هم عن ذكر ربهم معرضون، أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بل يعرضون عن آياته وآلائه»[(١)]. اهـ. ولو كانوا يقرون بتوحيد الربوبية والخالقية والرازقية فكيف لا يعترفون بنعمه وإحسانه إليهم؟ لا جرم أن قال القرطبي هنا: «والخطاب لمن اعترف منهم بالصانع، أي إذا أقررتم بأنه الخالق، فهو القادر على إحلال العذاب الذي تستعجلونه»[(٢)].

**الوجه الثاني**: قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٣]، أي «أم لهم آلهةٌ من دوننا تمنعهم منا؟ ثم وصف جل ثناؤه الآلهة بالضعف والمهانة، وما هي به من صفتها، فقال: وكيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩/٤٠٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٤/٢٠٨).

من دوننا أن تمنعهم منا؟ وهي لا تستطيع نصر أنفسها»[(١)]. اهـ.

فهذا يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم يمكن تحميهم من بأس الله، وإلا لما رد الله عليهم ذلك وبيَّن ضعفها حيث «وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز، فقال: لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون أي: هم عاجزون عن نصر أنفسهم **فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم** ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، أي: ولا هم يجارون من عذابنا»[(٢)].

فهل يقال بعد كل هذا أن الآية لم تذكر جواب قوله تعالى ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بحجة أن الجواب كان واضحاً عندهم وهو أن الله هو الذي يكلؤهم، وأنهم مسلّمون به؟!!!

## ثالثاً: آيات يسأل تعالى عن الخالق ولا جواب فيها

**المجموعة الثالثة**: ثمة آيات لا يأمر الله فيها رسولَه أن يسأل المشركين عن الخالق بل هو تعالى نفسه يوجه سؤالاً لهم ولعامة الناس، ثم لا يذكر جواباً أصلا، وذلك كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

نعم أحيانا يشير إلى الجواب كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣]، فالسؤال هنا هو ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ...﴾، والجواب الذي أشار إليه هو: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٧٩).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٨٣).

وليس في كلا الآيتين - أي آية «الروم» و«فاطر» - جوابٌ من المشركين كما ترى، وبالتالي لا يصح زعمكم السابق إن سؤالهم عن الخالق في آيات الباب الثمانية كان من أجل أن يتدرج بهم إلى توحيد الألوهية بعد أن يقروا بتوحيد الربوبية، بحجة أن من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، وإنما لم يصح هذا لأنه لا يوجد إقرار منهم أصلا في هاتين الآيتين.

**فإن قيل**: إنما لم يُذكر جوابهم هنا في هاتين الآيتين استغناءً بما ذُكر في آيات الباب الثمانية من أنهم لئن سئلوا عن ذلك ليقولن: الله، فلا حاجة لتكراره هنا، كما ذكر ذلك بعض المفسرين، وإليكم مقتطفات من نصوصهم:

أما آية الروم قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ...﴾ فلم يذكر الجواب لأنه «معلوم أنهم يقولون: ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة»[1]، فإنه «لا شك أن الجواب الذي **لا جواب لهم غيره** هو: لا، أي: **ليس من شركائنا من يقدر** على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرا عليهم بقوله: سبحانه **وتعالى عما يشركون**»[2].

فعاد هذا من باب الاستدلال عليهم بتوحيد الربوبية الذي يقرون به على توحيد الألوهية الذي ينكرونه، وقد ذكر نحو هذا **ابن التمجيد** في حاشيته على تفسير البيضاوي فقال: «إنَّ الكفرة المشركين **متفقون على أن أصنامهم عاجزة** عن هذه الأفعال **وإن الله متفرد بها** لكنهم اتخذوها آلهة زعما منهم أنهم **يشفعون لهم** عند الله يوم القيامة»[3].

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٦٢).
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣/ ٤٩٢).
(٣) حاشية العصام القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي (١٥/ ١٥٠).

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣]، فقد يكون المراد بالآية كما: قال **الزجاج**: «أي: مِن أين يقع لكم الإفك **والتكذيب بتوحيد** الله والبعث؟ وأنتم مقرون بأن **الله خلقكم** ورزقكم»[(١)].

وقوله تعالى: «﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ من زائدة مؤكدة، أي لا خالق إلا الله سبحانه **وهو استفهام تقرير وإنكار وتوبيخ**»[(٢)]. و«لما كان من المعلوم أنه **ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله**، نتج من ذلك، أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾، أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق»[(٣)].

وفيها «ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ولهذا قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان وأنتم بعد **هذا تعبدون الأنداد** والأوثان»[(٤)]. اهـ فيكون المعنى «أي: **لا خالق ولا رازق غيره، وأنتم تقرون بذلك** وتعبدون من دونه الآلهة»[(٥)].

**قال وليد** - حفظه الله من كل سوء -: ما قلتم في كلا الآيتين غير مسلَّم؛ لأن قولكم هذا - وهو أن الجواب لم يُذكر لأنه معلوم وليس للمشركين سواه، وهو أنه لا خالق إلا الله - مجرد دعوى، إذ ما الدليل

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٨٨).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (١١/ ٢٢٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٨٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١١/ ٣٠٦)، الشرك في القديم والحديث (١/ ٥٠٥).

(٥) تفسير ابن أبي زمنين (٤/ ٢٤).

عليها؟ ما الدليل على أنه ليس للمشركين جواب سواه؟ إذا كان دليكم هو ما قررتم من أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، فهو عين محل النزاع، فيكون هذا منكم مصادرة على المطلوب؟!

إن كان دليلكم هو آيات الباب الثمانية فدلالتها على كونهم موحدين في الربوبية أيضا محل النزاع! أصلا نحن ما زلنا نبحث في دلالتها عن إقرارهم المزعوم بالله وبتوحيد الربوبية!! ولم نسلّم حتى الآن أن تلك الآيات فيها إقرار محقق منهم بشيء، غاية ما فيها هو إقرار معلق على شروط عدة؛ خلاصتها هو أنهم إن سألهم النبي عن الخالق وجادلهم وأعملوا عقولهم وأنصفوا ولم يعاندوا فسيقولون: الله.

حتى هذا إن حدث فليس فيه إقرار منهم بأن الله وحده هو الخالق، إذ آيات الباب الثمانية بل القرآن كله لا يوجد فيه إقرارٌ منهم بالله وحده لا خالقاً ولا معبوداً، بل في القرآن ست آيات تدل على كفرهم بالله وحده كما بسطناه[١].

فضلا عن أن قضية أنه لا خالق إلا الله: مختلف في بعض تفاصيلها بين المسلمين أنفسهم، إذ بعض فرق المسلمين كالمعتزلة والقدرية يقولون بأن الشر ليس من خلق الله، وأن الإنسان خالق لأفعاله، بمعنى «أن **أفعال العباد ليست مخلوقة لله**، وإنما العباد هم الخالقون لها، ولهم إرادة وقدرة مستقلة عن إرادة الله وقدرته، فأفعالهم لا فاعل لها ولا محدث سواهم، ومن قال: **إن الله خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه** - كما يقول عبد الجبار الهمذاني، والمعتزلة قالوا إن العبد يخلق، فعله، ليصح ثوابه وعقابه على أعماله»[٢].

---

(١) انظر (ص: ٢٥٥).

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ١٣٣٣).

فإذن **المعتزلة لا يسلِّمون بأن الله خالق الشر** وأنه خالق لأفعال الإنسان، بل يستعظمون هذا القول؛ لأنه مبطل للتكليف بزعمهم، هذا على الرغم من إيمانهم بالقرآن الذي جاء فيه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢] فإذا كان بعض فرق المسلمين - كالمعتزلة والقدرية - المؤمنين بالقرآن ينسبون الخلقَ إلى غيره تعالى، مع أن القرآن ينفي نسبة الخلق إلى غيره، فكيف إذن يسلّم المشركون بأنه لا خالق إلا الله مع أنهم لا يؤمنون بالقرآن أصلا؟

ولذا نجد القرطبي يقول عند آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾: «أي من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله. **والآية حجة على القدرية** لانه نفى خالقا غير الله **وهم يثبتون معه خالقين**، على ما تقدم في غير موضع»[(١)].

## الجواب عن قول ابن التمجيد في حاشيته على البيضاوي «إنَّ الكفرة المشركين متفقون على أن أصنامهم عاجزة»

وأما ما قاله **ابن التمجيد**، فجوابه أنه تفسير منه لكلام البيضاوي خالفه غيره من المحشين، وبيانه أن **البيضاوي** قال عند آية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠]: «أثبت له لوازم الألوهية ونفاها رأساً عما اتخذوه **شركاء له من الأصنام** وغيرها مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق». اهـ.

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٧/ ٣٤٥).

فقال ابن التمجيد - أحد أصحاب الحواشي على تفسير البيضاوي -: «قوله (ووقع عليه الوفاق) يعني أنَّ الكفرة **المشركين متفقون على أن أصنامهم عاجزة** عن هذه الأفعال..»[1]. فظن ابن التمجيد أن قول البيضاوي: «ووقع عليه الوفاق» المقصود به هو اتفاق المشركين على ما ذكره، ولكن هذا ليس متعيِّنا، بل قال الشهاب الخفاجي - في حاشيته على البيضاوي - في الموضع نفسه: «... فإنهما يدلان على أنَّ ما ذكر لا يصدر عن غيره، **وهو مما اتفق عليه العقلاء**»[2]. اهـ.

فكلام البيضاوي هو عن الحكم العقلي الذي **يسلِّم به العقلاء ويذعنون له بعد نظرٍ وفكرٍ في الأدلة** بعيداً عن التقليد والتعصب، والمشركون وإن كانوا عقلاء ولكنهم يقلدون آباءهم ويتعصبون لدين أجدادهم دون نظر منهم أو فكر في صحة ما كانوا عليه، ولذلك وصفهم القرآن أحيانا بأنهم لا يعقلون كما سيأتي بيانه[3].

والحاصل أن ما قلتم من أن الجواب لم يذكر في الآيات السابقة بسبب أن المشركين لا جواب لهم سوى أن يقولوا: لا خالق إلا الله: هو عين محل النزاع! فيكون قولكم مصادرة على المطلوب، وهذا جواب يشمل كلا الآيتين «الروم» و«فاطر».

فضلاً عن ذلك، فإن سياق الآيتين يرد هذا الزعم؛ أما أن سياق آية «الروم» يردُّه فلأن فيها قوله ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ مع أنهم ينكرون إحياء الموتى للبعث - كما سبق - فكيف يكون لا جواب لهم سواه؟!

---

(١) حاشية العصام القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي (١٥/ ١٥٠).

(٢) حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي (٧/ ١٢٣).

(٣) انظر (ص: ١٩٧-١٩٨).

وكيف يقول ابن التمجيد: «اتخذوها آلهةً زعماً منهم **أنهم يشفعون لهم** عند الله يوم القيامة»؟ مع أن ابن التمجيد نفسه يقول: قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده، ولم يقل فسيقولون الله كما في جواب السؤال الأول يعني أن **لجاجهم ومكابرتهم لا يدعهم أن ينطقوا بكلمة الحق**، فتكلم أنت عنهم»[1]. اهـ

فتأمل قوله: «يعني أن **لجاجهم ومكابرتهم لا يدعهم أن ينطقوا بكلمة الحق**، فتكلم أنت عنهم»، أي أجب أنت أيها الرسول عنهم بأن الله هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده لأنهم سيكابرون في ذلك ويجادلون وينازعون! فها هم إذن يكابرون ولا ينطقون ولذا أُمر الرسول أن يجيب عنهم، فأين زعمكم أنهم لا جواب لهم إلا أنه لا خالق إلا الله؟!!

## أربعة احتمالات في جواب المشركين عن آية «فاطر» ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ...﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

وأما سياق آية «فاطر» فلأن فيها ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ...﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ولا يخلو إما أن يكون جواب المشركين أنه لا خالق ولا إله غيره تعالى، وإما أن يكون جوابهم أنه ثمة خالق وإله سواه، وإما أن يقولوا لا خالق سواه ولكن ثمة إله سواه، أو يقولوا العكس: ثمة خالق سواه ولكن لا إله سواه.

فهذه أربعة أجوبة محتملة لهذا السؤال، وحسب نظرية تقسيم التوحيد فإن الجواب المتعين من المشركين هو الثالث وهو أنه لا خالق سواه ولكن ثمة إله سواه، على اعتبار أنهم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية، بيد أن هذا الجواب المفترض يجعل الآية لا فائدة منها، أو بشكل أدق يجعل

---

(١) حاشية العصام القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي (٩/ ٤٥٥).

السؤال فيها عن الخالق لا فائدة منه، ولا القصد منه ما ذكرتم في نظريتكم التي تقول إن القصد والفائدة من السؤال عن الخالق هو التدرج بهم إلى الإقرار بتوحيد الألوهية «لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده»[١]، كما سبق بيانه.

## آية «فاطر» تدحض زعمكم بأن القرآن أقرهم بالربوبية ليقروا بالألوهية

وما دام الأمر كذلك فإن هذا القصد لم يتم، وهذه الفائدة لم تحصل، لأنهم أجابوا - كما هو المفترض عند ابن تيمية - بأن الخالق واحدٌ والآلهة متعددة، وبالتالي لم يجرّهم سؤالهم عن الخالق وإقرارهم المتوهَّم بأنه لا خالق سواه، لم يجرهم ذلك إلى أنه لا إله سواه، ولا لزم عندهم من كون الخالق واحدا أن يكون الإله واحدا، ولا بيّنت الآيةُ أصلا كيف يلزم من أنه لا خالق سواه أنه لا إله سواه؟!

وهذا كله يدحض قولكم بأن سؤالهم عن الخالق إنما كان ليقروا بأنه الإله واحد كما أقروا بأن الخالق واحد لأنهما متلازمان، وما قيل في آية فاطر يقال في آية الروم أيضا.

وأما إن قيل إن المقصود من الآية بيان أنه يلزم من توحيد الربوبية توحيد الألوهية، وليس المقصود منها بأن يؤمنوا بذلك حتما فسيأتي جوابه إن شاء الله[٢].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٩٠)، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٢٤).

(٢) انظر (ص: ١٤٧).

## رابعاً: آيات تسأل: هل ثمة إله أو رب معه؟ ولا جواب فيها

وهذه المجموعة الرابعة، وهي آيات تسأل: هل ثمة إله أو رَبّ معه؟ ولا جواب فيها أيضا كقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وسياق هذه الآية يرد الزعم السابق، وهو أنه لم يُذكر جوابهم هنا في هاتين الآيتين استغناءً بما ذُكر في آيات الباب الثمانية من أنهم لئن سئلوا عن الخالق المحيي المميت ليقولن: الله!

فهذا غير صحيح، إذ لو كان صحيحاً وكانوا يسلِّمون أن الله هو الذي يبدأ الخلقَ ثم يعيده وهو الذي يرزقهم فلماذا طالبهم بالبرهان فقال ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، وذلك بعد آيات عديدة[1] في بيان أنه الخالق الرازق المجيب للمضطر ونحو ذلك من الأسماء التي تجعلونها ضمن توحيد الربوبية؟!

فالإله في آيات سورة النمل هذه: هو الخالق حتما، وهو الذي يطالِب البيانُ الإلهي بأن يأتي المشركون بالبرهان على أن ثمة إلهاً معه تعالى أي إله خالق، ولو كان الإله هنا بمعنى المعبود لما كان لطلب البرهان على وجوده

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤]، وقبلها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٣]

مع الله: معنى؛ إذ المعبود من دون الله موجودٌ حساً ومشاهدٌ بالعين المجردة، وهو كثير حيث «توجد آلهة تُعبد من دون الله؛ اللات والعزى ومناة وهبل.. **ويوجد ناس يعبدون الشمس ويعبدون القمر**»(١).

وبالتالي فكيف يطالِب القرآنُ المشركين بالبرهان على وجود معبود معه مع أنه مشاهد ومحسوس؟! ولو كان المقصود فعلا هذا، لقال المشركون بكل بساطة: برهاننا على كون أصنامنا آلهة هو أننا نعبدها، وكل معبود إله، إذ «**الإله يُطلق على كل معبود حقًا كان أم باطلاً**»(٢)، أي «**الإله اسم للمعبود مطلقا بحق أو بغير حق**، فهو يطلق على الله عز وجل كما يطلق على غيره من **المعبودات الباطلة وجمعه آلهة**، وأما الله سبحانه وتعالى فمختص بالمعبود بحق لا يطلق على غيره»(٣).

وهذا بسطناه في كتابنا «تنوير الرب الإله»(٤)، ثم منذ متى كان المشركون يؤمنون بالبعث والمعاد وإحياء الموتى؟ حسبك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، وسيأتي بسطه(٥).

## الخلاصة المستفادة من الآيات التي فيها السؤال عن الخالق ولا جواب فيها من المشركين

والحاصل أن الآيات السابقة بمجموعاتها الأربعة كلها تشترك في أنها تسأل عن الخالق وصفات الربوبية كالتدبير والحفظ والإنعام ونحو ذلك،

(١) فتح ذي الجلال والإكرام لابن عثيمين (٤/ ٤٤٢)، طبعة المكتبة الإسلامية.
(٢) التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين (ص: ٣٥٤).
(٣) ابن جرير الطبري ودفاعه عن عقيدة السلف (ص: ٣١٧).
(٤) انظر: تنوير الرب الإله (ص: ٣٣٢).
(٥) انظر (ص: ٩١).

ولكن لا جواب فيها من المشركين بأنه الله، وإنما يكون فيها الجواب من الرسول، أو لا جواب فيها أصلا، **وهذا يُضعف زعمكم بأن السؤال عن الخالق** في آيات الباب الثمانية كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾ يُراد به أن يتدرج بالمشركين ليقروا بتوحيد الألوهية بعد أن يقروا بتوحيد الربوبية بحجة أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية!!

وسبب ضعفه أنه على فرض صحته في آيات الباب الثمانية، فليس صحيحاً في الآيات الأخرى بمجموعاتها الأربعة؛ لأنه لا إقرار فيها بتوحيد الربوبية إذ لا جواب فيها أصلاً من المشركين بشيءٍ قط!! فأنَّى يلزم من هذا إقرارُهم بتوحيد الألوهية؟!! فهل العدم يستلزم توحيدا أو يستلزم شيئاً؟!!

وأما ما قيل من أن هذه المجموعات الأربعة لم يذكر فيها الجواب من المشركين بحجة أنهم لا جواب لهم سوى أن يقولوا «لا خالق إلا الله» بدليل آيات الباب الثمانية، **فهذا قد أجبنا عنه بجوابين؛ خلاصتهما**:

الأول: أن سياق بعض آيات المجموعات الأربعة يرد هذا الزعم؛ إذ تتضمن السؤال عن محيي الموتى، وهم ينكرون ذلك، فكيف يقال إنهم لا جواب لهم إلا أن يقولوا الله هو المحيي المميت؟!

**الثاني**: أن هذا مصادرة على المطلوب؛ لأننا لم نسلم بعد أن المشركين يقولون أو يقرون بأنه لا خالق سواه تعالى، بل هذا محل النزاع، ولا نسلِّم أيضاً أن في آيات الباب الثمانية إقراراً محققاً بالله من المشركين، بل هذا ما زلنا ننازع فيه أيضا، أقصى ما نسلم فيه هو أن في تلك الآيات الثمانية إقراراً مستقبلياً ومشروطا؛ وهي أن يسألهم عن الخالق ويحاججهم ويُعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا فحينها سيقرون بالله، وإلا فلن يقروا، حتى مع إقرارهم المفترض بالله فلن يقروا بأنه وحده الخالق إذ الآيات الثمانية لا يوجد كلمة «وحده» ولا نحوها من أساليب الحصر.

# احتجاج ابن تيمية على نظريته بالآيات التي لا جواب فيها من المشركين عن الخالق

وعلى الرغم من أن الآيات السابقة بمجموعاتها الأربعة لا إقرار ولا جواب فيها من المشركين بالله مطلقا، أي لا جواب محقق ولا معلق، فإن ابن تيمية احتج بها هو وأتباعه على أن المشركين مقرون بالله وبتوحيده في الربوبية، على اعتبار أنهم سيجيبون حتما بأنه الله وحده خالقه وخالق السماوات والأرض، وأنه لا جواب لهم سوى ذلك!!

فهو يقول عن المتكلمين: «وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام الذين قال الله عنهم: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥﴾، ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣٤﴾، ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ...﴾، وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.. ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾...»[(١)]. اهـ.

وهذا الاستشهاد كله لا يستقيم إلا على ما سبق بيانه وهو أنه إقرارٌ مقدَّر لا محقَّق، أي أنه إقرارٌ مفترضٌ لأنه متوقفٌ على شروط، وهي أن يسألهم عن الخالق ويتفكروا وينصفوا ويذعنوا فحينها سيقرون بالله.

**وكذا نجد ابن تيمية** يستشهد بالآيات الخمسة السابقة التي فيها الأمر للنبي ﷺ بأن يجيب بأن الله هو الخالق، وليس فيها جوابٌ من المشركين بذلك، ويستشهد أيضاً بآيات «النمل» التي ليس فيها جوابٌ أصلا، ويجعلها

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠١).

في صعيدٍ واحدٍ مع آيات الباب الثمانية، ويستشهد بذلك كله على أن المشركين موحدون في الربوبية.

## احتجاج الشيخ البدر تبعاً للشنقيطي بتلك الآيات على توحيد المشركين في الربوبية

وفي ذلك ينقل الشيخ عبد الرزاق البدر في كتابه «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» في تفسير آيات «النمل» نصاً طويلاً عن الشنقيطي في «أضواء البيان» وهو قوله: وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]: «ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أنَّ القادر على خلق السموات والأرض وما ذُكر معها خير من جماد لا يقدر على شيء. فلما تعيَّن اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا...﴾، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله.. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾ [الروم: ٤٠] ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: «سبحانه وتعالى عما يشركون»[1]. اهـ.

**قال وليد** - نحر الله هواه -: قول الشنقيطي «ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره...» يقصد أن المشركين هكذا سيجيبون لو سُئلوا

(١) القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٢٦)، نقلاً عن أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٩١).

عن الخالق، أو أنه من المفترض أن يجيبوا بذلك، وليس المقصود أنهم فعلاً سُئلوا وأجابوا بذلك لأن آيات سورة «النمل» هذه ليس فيها أصلاً أن المشركين سيجيبون بذلك لو سئلوا كما هو الشأن في آيات الباب الثمانية كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

**وكذا قول الشنقيطي تعقيباً منه على آية «الروم»**: «ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي ليس من شركائنا...». اهـ. فهنا أيضاً الجواب المراد، هو جوابٌ مقدَّرٌ ومعلَّقٌ على شروط، وهو أنهم إن سئلوا عن الخالق وأعملوا عقولهم وأنصفوا فسوف يجيبون بأنه الله، وإلا فلن يجيبوا.

والآية نفسها أشارت في آخرها إلى ذلك فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠] فقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنهم مشركون في هذه الأمور التي ذُكرت في صدر الآية وهي الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، بل هم منكرون لإحياء الله للموتى وبعثهم للحساب كما بيناه مرارا.

**كلام ابن عاشور في أن آية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾... فيها قياسٌ اقترانيٌ من الشكل الثاني كدليلٍ على انفراده تعالى بالخلق وعلى المشركين أن يُعملوا عقولهم فيه.**

فضلاً عن أن الآية تضمنت دليلاً عقلياً على أن الله متفرِّدٌ بالخلق والرزق ونحوه دون أصنامهم، وفي ذلك يقول ابن عاشور «وجملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مستأنَفةٌ لإنشاء تنزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية. وموقعها بعد الجملتين السابقتين موقع النتيجة بعد القياس، فإن حاصل معنى الجملة الأولى أن الإله الحق وهو مسمى اسم الجلالة، هو الذي خلق ورزق ويميت

ويحيي، فهذا في قوة مقدمة هي صغرى قياس، وحاصل **الجملة الثانية أن لا أحد من الأصنام بفاعل ذلك**، وهذه في قوة مقدمة هي كبرى قياس وهو من الشكل الثاني، وحاصل معنى تنزيه الله عن الشريك **أن لا شيء من الأصنام بإله**. وهذه نتيجة قياس من الشكل الثاني. ودليل المقدمة الصغرى إقرار الخصم، **ودليل المقدمة الكبرى العقل**»[١].

إذن **فالآية تأتي بدليل عقلي لتثبت انفراد الله بالخلق** والرزق ونحو ذلك، دون الأصنام التي يعبدها المشركون، ومعلومٌ أن الدليل العقلي لا بد من التفكر وإعمال العقل فيه حتى يوصل إلى المطلوب عند المستدل به، فإذا لم يُعمل المشركون عقولهم في هذا الدليل العقلي في آية «الروم» فلن ينتج شيئاً لديهم، وسيبقون مقلدين لآبائهم ومتعصبين لدين أجدادهم.

وهذا ما وقع فعلاً من المشركين! حيث استمروا على شركهم وتقليدهم لآبائهم لأنهم لم يُعملوا عقلوهم، **وهذا كله يؤكد ما قلناه** سابقاً في آيات الباب الثمانية من أنهم إن سئلوا عن الخالق فسيجيبون بأنه الله، **أن هذا إن أعملوا عقولهم وأنصفوا وأذعنوا**.

وعليه فلا يسلَّم للشيخ البدر استدلاله بآيات سورة «النمل» السابقة تبعاً للشنقيطي على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، لأن تلك الآيات ليس فيها إقرارٌ بالله من المشركين أصلا، أي لا فيها إقرارٌ مقدَّرٌ كما في آيات الباب الثمانية ولا فيها إقرارٌ محقق، بل بعضها يشير إلى شِركهم حتى في توحيد الربوبية كما في آية «الروم»، أصلا كثير من السلفية بمن فيهم الشيخ البدر أقروا بأن المشركين غير موحدين في الربوبية على وجه الكمال كما بيناه مرارا.

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٠٨).

وعليه فقول الشوكاني في آية «الروم» السابقة: «ومعلوم أنهم يقولون: **ليس فيهم من يفعل شيئاً** من ذلك، **فتقوم عليهم الحجة**». اهـ. يُحمل على أنهم سيقولون ذلك هذا إن أعملوا عقولهم وأنصفوا، لأن **الشوكاني** نفسه يقول في موضع آخر: «﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وحدانيته بالقوة والإمكان **لو تدبرتم ونظرتم**. وفيه دليلٌ على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد»[١].

## استدلال الألباني بتلك الآيات - التي لا جواب فيها عن الخالق - على توحيد المشركين في الربوبية!

ننتقل إلى الألباني لنرى كيف استدل بتلك الآيات على أن المشركين موحدون في الربوبية مع أنه لا إقرار فيها منهم مطلقا، حيث يقول الألباني: «إن جميع الأمم لم تُرسل إليهم الرسلُ إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأنه هو الخالق للعالَم، **وأنه رب السماوات والأرض؛ فإنهم كانوا مُقِرّين بهذا** بباعث الفطرة - كما سبق عن الجاهليين -؛ ولهذا لم ترد الآيات في ذلك في الغالب؛ إلا بصيغة استفهام التقرير؛ نحو: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾. ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]»[٢].

فنرى الألباني يستدل بهذه الآيات الثلاثة على إقرار المشركين في الجاهلية والناس كافة بأن الله هو الخالق! مع أنه ليس في هذه الآيات - التي منها آية فاطر - إقرار محقق ولا حتى معلّق من المشركين أو من غيرهم بأن الله هو الخالق، وإنما هو استنباط من الألباني فحسب، لأن نص الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠).

(٢) موسوعة الألباني في العقيدة (٢/ ١٢٠).

﴿ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣] وكما ترى ليس فيها جواب من المشركين ولا من غيرهم، وإنما فيها الجواب من الله بأنه لا إله إلا هو، وهذا سبق بيانه.

## الناس أجمعين مقرون بتوحيد الربوبية عند ابن تيمية مستدلاً بآية الميثاق والفطرة

إن الناس أجمعين حسب نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية مقرون بتوحيد الربوبية إذ «لم ينكره أحد من بني آدم»(١) «مؤمنهم وكافرهم وسائر فرقهم»(٢) فجميع «الإنس والجن مقرون بالخالق معترفون به»(٣)!!

ويستدل ابن تيمية وأتباعه عليه بآية الميثاق ونصوص الفطرة(٤) بغض النظر عن آيات الباب الثمانية ونحوها من الآيات الأخرى بمجموعاتها الأربعة.

أي أنه لو لم ترد كل تلك الآيات - أي الآيات الثمانية ونحوها - في

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٤٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥٠٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٤٧٩).

(٤) وآية الميثاق هي قوله تعالى ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ونصوص الفطرة مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، ومثل حديث البخاري «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصراه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء». هذا وقد بسطنا في كتابنا الكبير استدلال ابن تيمية بهذه النصوص كلها، وردنا عليه بشكلٍ مفصل، وسيطبع ذلك في كتاب مستقل لاحقاً إن شاء الله.

القرآن أصلاً لربما قال ابن تيمية بأن المشركين موحدون في الربوبية مستدلاً على ذلك بآية الميثاق والفطرة!!

## لو قال تعالى: «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون اللات والعزى»، لما تغيرت نظرية ابن تيمية!!

وليس هذا فحسب حتى لو كانت صيغة آيات الباب الثمانية: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون اللات والعزى، لما تغيرت نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد ولا تغير أصلها القائل أن الناس أجمعين مقرون بتوحيد الربوبية، لأن ابن تيمية وأتباعه سيقولون: إن مشركي العرب مقرون بقلوبهم بأن الله خالقهم وإن أظهروا خلاف ذلك بألسنتهم، تماماً كما قال هو وأتباعه في فرعون والنمرود والنصارى، فهؤلاء لم يرد في القرآن أنهم لو سألتهم عن الخالق لقالوا هو الله، بل أورد عكسَ ذلك عنهم!!

## فرعون والنمرود والنصارى موحدون الربوبيةعند ابن تيمية مع تصريحهم بخلاف ذلك!!

**وفيما يلي بيان ذلك:**

أما فرعون ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]، فدلت الآية على أن «فرعون لم يكن مقرا لله بالربوبية وإنما كان يزعم أنه هو الرب»[١]، وأما النمرود فإنه ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فقد «حمله الجهل

(١) جامع البيان (١٧/ ٥٥٦).

والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع، فحاجَّ إبراهيمَ الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية»[١].

وأما النصارى فإنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] و﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧]، «فألَّهوا المسيح عليه السلام وجعلوه شريكًا لله، وعبدوه من دونه؛ بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة.. فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن المسيح؛ فهو عندهم الإله الخالق الرازق المحيي المميت»[٢]. ولذا قال ابن عمر: «إن الله حرم المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئاً أكبر من أن تقول المرأة: ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله»[٣].

ومع ذلك فإن هذا كله لم يقدح عند ابن تيمية وأتباعه في إجماع البشرية على توحيد الربوبية، بل جادلوا عن كل هؤلاء ليجعلوهم موحدين في الربوبية، غاية ما قالوه بأن «فرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق لكن أظهر خلاف ما في نفسه كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤]، وكما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء: ١٠٢]»[٤].

والنمروذ كفرعون هو منكرٌ فقط بلسانه، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه حاجَّ الذي حاجَّه في ربه في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي

(١) البداية والنهاية (١/ ٣٤٣)، طبعة هجر.
(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق لمحمد باكريم (ص: ٢٥١).
(٣) صحيح البخاري (٥/ ٢٠٢٤)، تحقيق البغا.
(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٤٤٠).

حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ...﴾ فهذا قد يقال: إنه كان جاحداً للصانع، ومع هذا فالقصة ليست صريحةً في ذلك؛ بل يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه وإن كان لا يصرح بإنكار الخالق مثل إنكار فرعون»(١). اهـ.

وأما النصارى فلا يؤثر قولهم بأن الله هو المسيح، أو أن الله ثالث ثلاثة، بل هم موحدون في الربوبية عند ابن تيمية وأتباعه الوهابية، فهذا دمشقية يقول: «حتى النصارى المثلثة ما زالوا يقولون: نحن نؤمن بالرب الواحد»(٢)!! وقس على ذلك الملاحدة الذين ينكرون وجود الله جهاراً نهارا، فهؤلاء أيضاً موحدون في الربوبية في فطرتهم عند ابن تيمية، وقد بسطنا ذلك في كتابنا الكبير.

وبالتالي فإن مشركي العرب هم موحدون في الربوبية عند ابن تيمية حتى لو لم ترد الآيات الثمانية ونحوها، بل حتى لو ورد عكسها، أي لو ورد أنهم سئلوا عن الخالق فصرحوا بأن اللات والعزى ومناة الثالثة هي الخالقة على وجه الاستقلال للسماوات والأرض والبشر والشجر والحجر ولكل شيء!! فحينها ربما يقول ابن تيمية: قول العرب هذا إنما هو بألسنتهم، وإلا فهُم في قلوبهم موحدون في الربوبية بحسب نظريته في تقسيم التوحيد!!

تماماً كفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، ومع ذلك فهو مؤمنٌ بالله بقلبه بل هو موحدٌ في الربوبية عند ابن تيمية!!! وكذا الأمر في النمروذ والنصارى والملاحدة فهؤلاء كلهم عنده مؤمنون بالله بل موحدون في الربوبية بقلوبهم وإن أظهروا خلاف ذلك بألسنتهم كما رأينا!!!

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/٥٣)، تحقيق رشاد سالم.
(٢) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٤٩).

# عبَّاد الأصنام موحدون في الربوبية عند ابن تيمية، كما أنهم موحدون في الألوهية عند ابن عربي!

وهذا الذي ذهب إليه ابن تيمية من أن المشركين موحدون في الربوبية: شبيه بما نقله هو نفسه عن الشيخ محيي الدين بن العربي الحاتمي الصوفي رحمه الله من أنه ذهب إلى أن كل الناس موحدون في الألوهية حتى من أشرك بالله!! «فعبَّاد الأصنام لم يعبدوا غيرَه عندهم لأنه ما عندهم له غير»[(١)]!! «ولهذا جعلوا قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بمعنى قدَّر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه؛ إذ ليس عندهم غير له تتصور عبادته **فكل عابد صنم إنما عبد الله**»[(٢)]، «لأنه ليس ثَم موجود سواه فلا يتصور أن يعبد غيره **فكل من عبد الأصنام والعجل ما عبد غيره** لأنه ما ثم غير»[(٣)]!

فكما ترى أن ابن تيمية يحكي - مستنكراً - عن ابن عربي أنه يرى أن عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله! مع أن ابن تيمية يقول أيضاً بأن عباد الأصنام يقرون بأنه لا رب ولا خالق لهم إلا الله!! وهكذا كل الناس موحدون في الربوبية عنده حتى من **قال أنا ربكم الأعلى كفرعون!** فقد رأينا أن فرعون عند ابن تيمية - في بعض أقواله - موحدٌ في الربوبية، وإن قال: أنا ربكم الأعلى!!

أي أن كليهما - أي ابن عربي وابن تيمية - لم يريا في قول فرعون أنا

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٣)، وسيأتي عن ابن قتيبة وأبي يعلى نحو من ذلك.
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٠).

ربكم الأعلى ما ينافي توحيده!!! ولكن المأخذ مختلف!! إذ ابن عربي يرى أن فرعون موحدٌ ولو قال أنا ربكم الأعلى لأن كل الناس أرباب بحكم عقيدة وحدة الوجود التي تُنسب له، وأما ابن تيمية فيرى أن فرعون موحدٌ في الربوبية بموجب أحد أصول نظريته وهو أن الناس أجمعين أكتعين أبصعين موحدون في الربوبية بمن فيهم المشركون وفرعون القائل: أنا ربكم الأعلى، والنصارى القائلون بأن الله هو المسيح ابن مريم!! والعياذ بالله.

## اضطراب ابن تيمية في شأن فرعون

والطريف أن ابن تيمية نقل مرارا[1] عن ابن عربي قوله: «ولما كان فرعون في مرتبة الحكم، قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي، وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته من الحكم فيكم، ولما علمَت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه، وأقروا»[2].

ثم راح يرد ذلك بشكل مطول ولكن هو كان يرد عليه لأن قوله هذا فيه وحدة وجود، فهو مثلا «يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات... فعبّاد الأصنام لم يعبدوا غيرَه عندهم لأنه ما عندهم له غير»[3]. اهـ

فإذن ابن تيمية كان ينكر هنا على ابن عربي قوله بوحدة الوجود، وإلا فإن

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٤/ ٣٠٦)، مجموع الفتاوى (٢/ ١١٣)، (٢/ ١٢٥)، (٢/ ٢٧٠)، (١١/ ٢٣٦)، (١٣/ ١٨٩)، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية (ص: ٣٧٩)، درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٦٥)، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٤/ ٩٣)، رشيد رضا.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٦٥) وانظر الدقيقة ٣٧ «مختلف عليه - ابن عربي.. مهرطق، متنبي، أم مجدد؟»
https://www.youtube.com/watch?v=P2gtpmN_mLE

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٣).

ابن تيمية أيضاً لم ير في قول فرعون أنا ربكم الأعلى ما يطعن في أنه موحد في الربوبية! وذلك ليحافظ ابن تيمية على إجماعه من أن البشر جميعاً يؤمنون بأن تعالى واحد في ربوبيته!!

ولكن للإنصاف فإن ابن تيمية ذكر في بعض المواطن أن فرعون كان منكراً لوجود الله، وهذا ذكره في صدد رده على كلام لابن عربي حيث يقول: «وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية الذين ينكرون وجود الصانع مطلقاً ولا يقرون بوجود واجب غير العالم. كما ذكر الله عن فرعون وذويه؛ وقوله مطابقٌ لقول فرعون لكن فرعون لم يكن مقرا بالله[1]. اهـ.

فهنا جعل ابنُ تيمية فرعونَ منكراً لوجود الله بخلاف ابن عربي الذي يقر بوجوده تعالى، أي أن ابن تيمية نقض غزله وإجماعه السابق على أن البشرية تؤمن بأنه تعالى واحدٌ في ربوبيته!! حيث تبين له هنا أن فرعون خرق هذا الإجماع حين زعم أنه الإله الأوحد كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وحين زعم أنه الرب الأعلى كما في قوله تعالى ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]!!

والحاصل أن ابن تيمية في قوله إن عبَّاد الأصنام موحدون لله في الربوبية: مشابهٌ لقولٍ نقله هو نفسه عن ابن عربي وهو أن عبَّاد الأصنام موحدون في الألوهية!! **والمفارقة أن ابن تيمية** حينما أنكر على ابن عربي ذلك كان من جملة ما قال: «وأمثال هذه التأويلات والتفسيرات التي يعلم كل مؤمنٍ وكل يهوديٍّ ونصرانيٍّ علماً ضرورياً أنها **مخالفةٌ لما جاءت به الرسل** كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٠).

**قلنا** : وكذا قول ابن تيمية بأن المشركين موحدون في الربوبية فهذا أيضاً مما يمكن أن يقال فيه بأن كل الناس تعلم: علماً ضرورياً أنها **مخالفة لما جاءت به الرسل** كموسى. . . اهـ. فإن الرسل عليهم السلام لم تطلق على المشركين قط بأنهم موحدون بشكل من الأشكال، وإنما سمتهم مشركين مطلقا، وهذا لا يرتاب فيه من نظر في القرآن الذي أنزله الله على النبي العدنان، فهو من أوله إلى آخره ينعتهم بالمشركين مطلقا، ولم يقل مرةً يا أيها الموحدون في الربوبية!! ولا تحدث عنهم بذلك ولا بنحوه، وهذا بسطناه في كتابنا الكبير، وبالله التوفيق.

## المطلب الثاني

# الآيات التي تفيد أنهم قالوا مقالاتٍ شنيعة في الله وصفاته العلية

فثمة آيات كثيرة تفيد أنهم قالوا فعلاً مقالاتٍ غايةً في السوء في الله وصفاته العلية، فالتعويل هنا في الحكم على المشركين يجب أن ينطلق من هذه المقالات التي قالوها فعلاً في حق الله وفي وحدانيته وفي صفاته وكل ما يتعلق به، لا على أقوالٍ سيقولونها أو يمكن أن يقولوها لو سئلوا، كما فعل ابن تيمية، حيث ترك ما قالوه فعلاً وتمسك بما سيقولونه!!

وبيان ذلك أن لدينا أقوالاً كثيرةً **شنيعةً جداً نسبها الله تعالى في كتابه للمشركين** وذكر أنهم قالوها فعلا في حقه تعالى مرارا وتكرارا، **ومع ذلك أعرض عنها ابن تيمية متمسكا بآيات الباب الثمانية** التي غاية ما فيها أنهم لو سئلوا عن الخالق لقالوا: الله!! وأورد هنا طائفة من تلك الأقوال الشنيعة:

١) حكى الله عن المشركين بأنهم كانوا ينسبون إلى الله الولد - سبحانه -، ويقولون عن الملائكة بنات الله، كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]، فترك ابن تيمية هذا القول الشنيع، الذي تحقق أنهم قالوه فعلا، وتمسك بقولٍ مفترَضٍ لهم، وهو أنهم لو سئلوا عن الخالق لقالوا هو الله، واعتبره إقراراً من المشركين بتوحيد الربوبية ولم يعتبر قولهم السابق - أي أن

الملائكة بنات الله - قادحاً في توحيد المزعوم!! وكذا فعل ابن تيمية في سائر الأقوال الشنيعة التالية حيث أعرض عنها والتفت إلى آيات الباب الثمانية التي فيه قولٌ مفترضٌ كما سبق بيانه!! أي ترك المحقَّقَ إلى المفترض كما سيأتي!!!

٢) نقل الله عن المشركين أنهم كانوا يسبونه إذا سبُت أصنامهم: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]!!

## اعتقاد المشركين أن أصنامهم ندٌّ لله تنصرهم وتعزهم وتضر رسله

٣) ذكر الله أنهم اتخذوا الأصنام آلهة من أجل أن تعزهم فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١]!!

٤) وذكر أنهم اعتقدوا أن آلهتهم تنصرهم من دون الله فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤-٧٥]!!

٥) وذكر أنهم يزعمون أن آلهتهم تقدر على إلحاق الأذى برسله فقال عنهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

٦) وزعموا أن لهم آلهة من دونه تعالى تضر وتنفع، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢-٤٣] أي: **ألهم آلهة تمنعهم** وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر **كما توهَّموا ولا كما زعموا**؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

﴿أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم»(١).

٧) وزعموا كذباً أن أوثانهم تشفع، وتقرِّب إلى الله، وتضر وتنفع من غير إذن الله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] فقد اتخذوهم «شفعاء بينهم وبين الله واعتقدوا أنهم يقضون **حوائجهم من دون إذنه سبحانه ولا رضاه**»(٢)، فقد «أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم **ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله**»(٣)، «في جلب ما ينفعُهم ودفع ما **يضرُّهم بذواتها وأنفسها بدون توقُّف ذلك على إذن الله ومرضاته** لمن شاء أن يَشْفَعَ فيه الشافع»(٤).

٨) وذكر عنهم أنهم يعدِلون بربهم الأصنامَ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١].

٩) وأنهم يسوونها به: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

١٠) وأنها عندهم نِدّ له، تعالى الله عن إفكهم، فقال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٤).
(٢) إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله لابن باز (ص: ٥٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٥).
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٣/ ١٥٩٢)، طبعة عطاءات العلم.

١١) وذكر أنهم كانوا يحبونها كحب الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالمشركون «يحبون معبوداتهم مثل حب الله أو أشد منه، يعني: قد يجمعون مع حب الله حب المعبودات، وقد **يفردون المعبودات بالحب والتعظيم دون أن يحبوا الله**»(١).

## شكُّهم في قدرته تعالى ولذا أنكروا البعث

١٢) ذكر أنهم كانوا يشكُّون في قدرته، ولذا «أنكروا البعث.. وجحدوا قدرة ربهم»(٢)، فهُم «المنكِرون لقدرته سبحانه على البعث...»(٣)، حيث كانوا «يَدَّعون أن **قدرة الله عاجزة عن إحيائهم** بعد إماتتهم، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء»(٤)، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

وبما أنهم منكرون للبعث فهذا يعود على إقرارهم بأن الله خالقهم بالنقض، وقد بين ذلك **ابن القيم** فقال: «فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسوله **وتعجيز قدرته ونسبة علمه إلى القصور** والقدح في حكمته، ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه **كافر بربه جاحد له لم يقر برب**

(١) شرح كشف الشبهات للحازمي (٤/٧)، ت.ش.
(٢) جامع البيان (١٣/ ٤٣٤).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٨١).
(٤) القيامة الكبرى (ص: ٧١)، عمر الأشقر، دار النفائس بالأردن، ط٦/ ١٩٩٥ م.

**العالمين** فاطر السموات والأرض»[1]، «وحديث **البخاري**[2] يدل على أن أشدَّ ما كان **المشركون يعتدُون** فيه في حق الله تبارك وتعالى هو شكُّهم في قدرته على البعث، وقد أخبَرَ به، ونسبتُهم إليه الولد. والقرآنُ يؤيد ذلك، فإنه كرَّر تثبيتَ البعث ونفيَ الولد في مواضع كثيرة»[3].

ومنها بعض آيات الباب نفسها مثل «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾، والمراد بذلك إقامة الحجة عليهم في **إنكار البعث**، فطابق ذلك وناسبه..».

## شكُّهم في عموم سمعه تعالى

١٣) فهم يشكُّون في سمعه لنجواهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠] قال **الطبري**: «**أم يظن هؤلاء المشركون بالله أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم**، وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا»[4]. اهـ.

ثم أخرج الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: «بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد: **إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع** فنزلت أم

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ٢٦٧).
(٢) أي حديث: «كذَّبني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني». انظر: آثار الشيخ المعلمي اليماني (١١/ ٤٤٠).
(٣) آثار الشيخ المعلمي اليماني (١١/ ٤٤٢).
(٤) جامع البيان (٢٠/ ٦٥٢).

يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم الآية»[(١)].

يقول ابن تيمية تعليقاً على آية الزخرف هذه: «ولا ريب أن **الاعتقادات الفاسدة، مثل اعتقاد الكفار في ربهم**، وما يتبعها من الإرادات **هي خيالاتٌ وأوهامٌ باطلة** كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾»[(٢)].

## شكهم في علمه تعالى

١٤) فالمشركون يشكُّون في علمه تعالى «بل إن من العرب من كان يعطِّل صفةَ العلم لله بكل شيء، كما جاء ذلك في قوله تعالى: . . . ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾»[(٣)]. وسبق آنفا قول ابن القيم: . «. . فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسوله **وتعجيز قدرته ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته**»[(٤)]. اهـ.

## شكهم في وجوده تعالى

١٥) بل هم شاكون في الله نفسه، قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾، قال أبو حيان: «﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾: أي إذا سئلوا: من خلقكم وخلق

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٦٥٣)، الدر المنثور للسيوطي (١٣/ ٢٣٩)، طبعة هجر. وأصل الحديث في البخاري كما سيأتي.

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٣٢١).

(٣) وانظر: الشرك في القديم والحديث ص٤٤٣، والآية بتمامها ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت: ٢٢]

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ٢٦٧).

السموات والأرض؟ قالوا: الله، **وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون**»(١).

وقال الطبري: «إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم **من أن ربكم رب السماوات والأرض**»(٢).

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: ٧-٩]: أي «بل **ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته**... **وإنما هو قولٌ ممزوجٌ بلعب**، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم، بصائر قلوبهم وأرواحهم»(٣).

## إنكار بعض العرب لوجود الله

وهذا أشارت إليه بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجاثية: ٢٤] أي «وما يهلكنا فيفنينا إلا مَرّ الليالي والأيام وطول العمر، **إنكاراً منهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم**»(٤). اهـ

ولذا قال الشهرستاني وهو يذكر أصناف المعطلة: «**معطلة العرب، وهم أصناف: ١- منكرو الخالق**، والبعث، والإعادة.. **وصنف منهم أقروا بالخالق** وابتداء الخلق والإبداع، وأنكروا البعث والإعادة»(٥)، وهذا أقر به ابن تيمية حيث قال «والعرب وإن كانوا مشركين لم يكن الظاهر فيهم التعطيل للصانع

(١) البحر المحيط (٨/ ١٤٩).
(٢) جامع البيان (٢١/ ١٢).
(٣) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٤٠٨)، دار الكتب العلمية.
(٤) جامع البيان (٢١/ ٩٦).
(٥) الملل والنحل (٣/ ٧٩).

وإن كان قد يكون في أضعافهم من هو من **المرتابين في الصانع** أو الجاحدين له . . »(١). اهـ.

## إساءتهم الظن بربهم وشكهم في حكمته

١٦) فقد كانوا يسيئون الظن بالله، ويشكّون في حكمته وفي نفوذ قضائه وقدره، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، **قال ابن القيم**: «يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية. وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسولَه، وأن أمْرَهُ سيضمحِلُّ، وأنه يُسلِمُه للقتل، **وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابَهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكارِ الحِكمة، وإنكارِ القدر**، وإنكارِ أن يُتمَّ أمرَ رسوله ويُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه، **وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذي ظَنَّهُ المنافقُونَ والمشرِكُونَ به** سبحانه وتعالى في «سورة الفتح» حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ...﴾ [الفتح: ٦]»(٢). اهـ

١٧) وأخرجوا المؤمنين لمجرد قولهم: **الله ربنا**، كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ولو كانوا يقرون بتوحيد الربوبية - كما يدعي ابن تيمية - لكذبوا هذه الآية، ولقالوا نحن أيضا نقرّ بأن ربنا الله، بل نزيد فنقول: ربنا الله وحده، ولكن لا نسلم بأنه لا إله إلا الله!!!

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/ ٧٢).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٢٨).

١٨) وكانوا يشمئزون من مجرد ذكره تعالى وحده أمامهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

## خلاصة لأقوال المشركين الشنيعة في حق الله

وبعد فهذا غيضٌ من فيض مما ذكره الله عن المشركين مِن أقوال شنيعة كانوا فعلا يقولونها ويعتقدونها في حقه تعالى؛ وهو أنهم اتخذوا من دونه الأصنام لتنصرهم وتعزهم وتلحق الأذى برسله وأوليائه تعالى، وجعلوها نداً لله وعدلاً يساوونها بالله، بل كانوا يسبون الله انتصاراً لأصنامهم إذا سُبَّت، ويشمئزُّون من مجرد ذكره وحده!!

ونسبوا لله البنات وهو ما لا يرتضونه لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٧-٥٩]!

وكانوا يسيئون الظن فيه، ويشكُّون في وجوده وسمعه وعلمه وحكمته وقدرته تعالى، فهم يعتقدون فيه العجز - حاشاه تعالى - عن إحياء الموتى، وهذا بحد ذاته إنكار لوجود الله، كما أقر بذلك ابن القيم.

فكيف يقال بعد كل هذا أن المشركين موحدون في الربوبية بحجة أنهم لو سئلوا عن الخالق ليقولن الله؟! مع أنهم هم أنفسهم وبنص القرآن أخرجوا المؤمنين من ديارهم لقولهم: ربنا الله؟!!

# نصٌّ للحفيد النجدي يكفي لوحده أن ينسف دعوى توحيدهم في الربوبية

إن المشركين ما اتخذوا الأصنامَ أنداداً لله إلا لشكِّهم في علمه تعالى وفي قدرته وأنه بحاجة إلى من يعينه بعلمه وقدرته!! تعالى الله عن ذلك.

ولندع الحفيد يبسط ذلك، حيث يقول: «فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله **هضمٌ لحق الربوبية**، وتنقُّصٌ للعظمة الإلهية، وسوء ظنٍّ برب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، **ولو أحسنوا به الظن لوحَّدوه حق توحيده**، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه ندًا، أو شفيعًا يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له..؟!».

إلى أن يقول: «المتخذ للشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى مَنْ يدبِّر أمر العالم معه **من وزيرٍ أو ظهيرٍ أو مُعين**، **وهذا أعظم التنقص** لمن هو غنيٌّ عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه **إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع**، وإما أن يظن أنه **لا يعلم حتى يُعلمه الشفيع**، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، **أو لا يكفي وحده**.. وهذا أصل شرك الخلق!».

**إلى أن يقول**: «أو يظن **أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك**، أو يظن أن للشفيع عليه حقًا، فهو يقسم عليه بحقه،... **وكل هذا تنقص للربوبية**،

وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم»[1]. اهـ.

**قال وليد - وفقه الله -: فتأمل هذا النص بمفرد،** كيف بيّن الحفيد أن اتخاذ المشركين الأنداد **إنما سببه سوء ظنهم بالله وشكهم في علمه تعالى وإرادته وقدرته** ونحوه ذلك مما سبق، وأن هذا تنقيص بل هضم لحقوق الربوبية، **فأين إقرارهم بتوحيد الربوبية إذن!!**

## ابن تيمية يغض النظر عن أقوال المشركين الشنيعة في حقه تعالى ويركز على ما لم يقولوه

إن هذا - أي التنقيص للربوبية الذي ذكره الحفيد في النص السابق - ثابتٌ عن المشركين، اعتقدوه وقالوه فعلاً في حق تعالى وليس أنهم سيقولونه أو ربما يقولونه كما هو الحال في آيات الباب الثمانية التي عوَّل عليها ابن تيمية في إثبات أن المشركين موحدون في الربوبية، فترك ابن تيمية كل تلك الأقوال الكثيرة الشنيعة السابقة الثابتة عنهم في حق الله، وراح يعوَّل على أن المشركين لو سئلوا عن الخالق ليقولن: **الله!!**

ثم زاد هو وأتباعه من عندهم أن المشركين قد «**اتفقوا على أن خالق العالم** ورازقهم، ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم، ومجيرهم واحد، **لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره**؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[2].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٩٩)، وانظر إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٦٢) قوله: فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى.. اهـ، وانظر آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٣/ ٨٥١)

(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٦-١١٧).

ثم يتقدم ابن تيمية خطوة فيزعم أن التوحيد قسمان ربوبية وألوهية، وأن المشركين حققوا توحيد الربوبية دون الألوهية، ثم يقفز قفزة هائلة فيزعم أن المشركين والمتكلمين كليهما حققوا توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية!!

وفي ذلك يقول عن **المتكلمين** «**غاية توحيدهم هو توحيد المشركين** الذين كانوا يعبدون الأصنام»(١)، «فتوحيد **الربوبية كان المشركون مقرين به**، وهو نهاية ما يثبته هؤلاء المتكلمون»(٢)، «وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء.. من الجهل بالتوحيد»(٣)، لأن هذا «غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية **الذي اعترف به مشركو العرب**»(٤)!!!

وهذا بالضبط ما أراد أن يصل إليه ابن تيمية من نظريته في تقسيم التوحيد، وهو الانتقام من خصومه المتكلمين برميهم بالشرك، وتكفيرهم أو التلويح بذلك على الأقل.

## صنيع ابن تيمية هذا باطل من وجوه

**وصنيع ابن تيمية هذا من أعجب العجب!!** وهو أن يُعرض عن أقوالهم التي قالوها فعلا في الله، ويتمسك بأقوال سوف يقولونها فيما لو سئلوا!! **فهذا لا يصح وذلك لأمور:**

**الأول:** لأنك بذلك تترك المقطوع إلى المظنون أو المشكوك فيه أصلا، فالآيات الثمانية التي يستشهد بها ابن تيمية على أن المشركين موحدون في

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠١).
(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٧٤).
(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٩/ ٣٤٥).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٩٦).

الربوبية كلها لا دليل فيها على أنهم أقروا بشيء وإنما هو إقرار معلق على سؤالهم، أي سؤال النبي لهم عن الخالق، وهذا السؤال إما أمرٌ غير واقعٍ أصلاً لأنه لا دليل يثبت سؤاله لهم، ولا المقصود بتلك الآيات أن يذهب ويسألهم كما سبق بيانه.

أو هو على الأقل مشكوك فيه لأن «إن» - أي التي في «ولئن سألتهم» - الشرطية لا تدخل إلا على المشكوك فيه على رأي القرافي كما سبق بيانه، وبالتالي يكون قولهم بأن الله خالقهم المتوقف على سؤالهم: مشكوكا فيه، لأن ما توقف على مشكوك يكون مشكوكاً فيه أيضا!

فكيف يَترك ابنُ تيمية ما قالوه فعلاً وما كانوا يقولونه في حق الله من أقوالٍ شنيعةٍ من شكهم في سمعه تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، كما سبق بيانه، ثم يتمسك بقولٍ لهم لم يقع، وقد يقع منهم في المستقبل، وهو أنهم لو سئلوا عن الخالق ليقولن الله؟!!

أيُترك المقطوع إلى المظنون؟!!! المقطوع أنهم شكّكوا في سمعه تعالى وعلمه وحكمته وقدرته كما سبق، وأخرجوا المؤمنين لقولهم: ربنا الله، بل سبوا الله لسب أصنامهم، وجعلوا الملائكة بنات الله، والمظنون أنهم لو سئلوا عن الخالق ليقولن: الله!!

وهكذا نرى كيف أن ابن تيمية غضَّ النظر عن أقوال المشركين الشنيعة في حق ربنا، والتي نقطع أنهم قالوها فعلا، وراح يركض وراء وهم إقرارهم المعلق على شروط لم تتحقق كما سيأتي إثباته!!!

**الثاني**: أنك إذا لم تعبأ بأقوالهم التي قالوها فعلا، فالمفروض من باب أولى ألا تعبأ بأقوالٍ سيقولونها أو ربما يقولونها، وهذا ظاهرٌ جدا، أما ألا تعبأ

بأقوالهم الشنيعة التي قالوها فعلاً في حق الله، وتعوِّل على أقوال سيقولونها أو ربما يقولوها، فهذا من أعجب العجب!!!

**الثالث وهو الأهم**: أن واحداً فقط من أقوال المشركين الشنيعة السابقة التي قالوها في حق الله كان يكفي لنقض ما زعمه ابن تيمية من أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، مثل أنهم جعلوا الملائكة بنات الله، ويسبون الله انتصاراً لأصنامهم، فأحد هذين القولين فضلاً عن كليهما يكفي لنقض توحيدهم المزعوم في الربوبية!!

وإلا فقومٌ ينسبون لله الولد، ويسبون الله انتصاراً لأصنامهم ثم تأتي تحدثني بأنهم موحدون في الربوبية معوِّلا في ذلك على آيات الباب التي غاية ما دلت عليه هو أنهم لو سئلوا عن الخالق فسيقولون: الله!!! حتى لو قالوا ذلك فأين التوحيد في قولهم هذا؟!

ثم لو سلمنا أنهم وحدوه في الربوبية بذلك، فهل هذا يَجبُّ قولهم عن الملائكة بأنهم بنات الله، وسبَّهم لله إذا سُبَّت أصنامهم، أم أن سبهم هذا ونسبته البنات لله ينقض توحيدهم المزعوم؟!

❀ ❀ ❀

## المطلب الثالث

# حمل آيات الباب الثمانية على الإيمان الفطري بالصانع عند بعض العلماء

مما يؤكد ما خلصنا إليه من أن آيات الباب الثمانية ليس فيها إقرارٌ محققٌ بالله من المشركين، وأن أقصى ما في تلك الآيات هو إقررٌ مستقبليٌ ومشروطٌ بشروط، وهي أن يسألهم عن الخالق ويحاججهم بالأدلة فيُعمِلوا عقولهم فيها وينصفوا ويذعنوا فحينها سيقرون بالله، أقول: يؤكد هذا هو ما ذهب إليه فريقٌ من العلماء من حمل آيات الباب الثمانية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ...﴾ على آية الميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وعلى حديث الفطرة «كل مولود يولد...»، حيث جعلوا هذه النصوص الثلاثة من بابٍ واحدٍ **وحاصلها**:

أن الإيمان القلبي بالصانع من حيث الجملة - أي بغض النظر عن ماهية الصانع وصفاته ووحدانيته ونحو ذلك -: شيءٌ متقررٌ في النفوس غالبا، لا لأن هذا شيءٌ فطريٌ ضروريٌ يولد مع الإنسان؛ إذ الإنسان يولد ولا يعلم شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وإنما لعلم الإنسان المكتسب بأن كل حادثٍ لا بد له من محدث، بل إن المُحدثات كما دلت على أن لها خالقاً فكذلك دلت على أنه «**لا بد لها من مُحدِثٍ قادرٍ** عليمٍ مريدٍ حكيم، فالفعل يستلزم القدرة،

---

والإحكام يستلزم العلم، والتخصيص يستلزم الإرادة، وحسن العاقبة يستلزم

الحكمة، **وكل حادث يدل على ذلك...**»[١] كما **قال ابن تيمية**. وأسوق هنا نصوص العلماء في هذا المعنى:

١) قال ابن قتيبة: «فلست واجداً أحداً إلا وهو مقرٌّ بأن له صانعاً ومدبراً وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئاً دونه ليقربه منه عند نفسه[٢]، أو وصفه بغير صفته أو أضاف إليه ما تعالى عنه علوا كبيرا، قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[٣]. اهـ. وسنبين لاحقاً أن كلام ابن قتيبة هذا لا يصدُق على الإقرار اللساني بالله لأنه ثمة من أنكر اللهَ بلسانه كفرعون والنصارى القائلين بأن المسيح ربهم «وخالقهم وباعثهم ومرسلهم»[٤]، وإنما غايته أن يصدق على الإقرار القلبي فقط، هذا إن سُلِّم كلامه أصلاً بأن الناس كافةً مقرون بقلوبهم بوجود الله.

٢) ونحو قولِ ابن قتيبة قولُ ابن التمجيد: «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ إشعاراً بأنهم لا جواب لهم سواه سواء نطقوا به أم كانوا صامتين»[٥]. اهـ. وهذا يفيد أن الآية تتكلم عن إقرارهم القلبي بالله وليس بالضرورة أن يكون لسانيا.

٣) **وقال قوام السنة** أبو القاسم الأصفهاني: «وأما قوله **خلقت عبادي حنفاء**

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ١٢٤).

(٢) ونحوه ما قاله القاضي أبو يعلى: «فليس أحدٌ إلا وهو يقر بأن له صانعاً ومدبراً وإن سماه بغير اسمه»، وسيأتي نصه بتمامه، وكلا هذين النصين - أي الذي عن ابن قتيبة وأبي يعلى - قريبٌ مما ينسب إلى ابن عربي من أنه لا أحد إلا وهو يعبد الله وإن كان عابداً للأصنام!!

(٣) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٧٠).

(٤) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٣٢٥).

(٥) حاشية العصام القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي (١٣/ ٢١٤).

فهو.. إشارة إلى **المعرفة الغريزية** التي هي مركبة فيهم.. التي هي موجودة في كل إنسان. فإن كل أحدٍ يرجع إلى غريزته عرفَ خالقه. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ **وهذه المعرفة هي المعرفة التي أخبر الله تعالى بوجودها من الكفار**، وذلك في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، **فحين ظهرت لهم حال الضرورة** وانقطعوا عن أسباب الخلق، ولم يبق لهم تعلق بأحد **ظهرت فيهم المعرفة الغريزية** - إلا أنها غير نافعة. إنما النافعة هي المعرفة الكسبية، إلا أن الله تعالى **فطر الناس على المعرفة الغريزية، وطلب منهم المعرفة الكسبية**، وعلق الثواب بها والعقاب على تركها»[(١)].

٤) وقال ابن بطة: «**لأن قريشاً قد كانت تعرف الله** عز وجل، وتعلم أنه خلقها، وبذلك وصفهم الله عز وجل في آيٍ كثيرٍ من كتابه، **وكذلك اليهود والنصارى قد عرفوا الله**، وعرفوا رسوله، **وعلموا ذلك بقلوبهم**، قال الله عز وجل.. وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ...﴾. وقال في قريش: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾»[(٢)].

٥) قال الإمام الغزالي: «... ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، فالمراد به **إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة**، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص **إلى مقرٍّ وإلى جاحد**، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: معناه إن **اعتبرتَ أحوالهم شهدت**

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤١).
(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٨٩٤).

**بذلك نفوسهم** وبواطنهم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، أي **كل آدمي فطر على الإيمان بالله عز وجل** بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعني أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك، **ثم لما كان الإيمان مركوزاً** في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من **أعرض فنسي وهم الكفار**، وإلى من **أجال خاطره** فتذكر فكان كمن حمل شهادةً **فنسيها بغفلةٍ** ثم تذكرها»[١].

٦) قال الشهرستاني: «أما تعطيل العالم عن الصانع العالم القادر الحكيم فلست أراها مقالةً لأحد.. فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت **بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها** على صانع حكيم عالم قدير ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾، وإن هم **غفلوا عن هذه الفطرة** في حال السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء.. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك»[٢]. اهـ.

فتأمل كيف جعل آياتِ الباب ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ...﴾ محمولةً على الفطرة حيث قال بعد ذلك «وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة»، وكان قال قبل ذلك «فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت...» طبعاً الفطرة أي معرفة قلبية وليست بالضرورة إقراراً لسانيا.

٧) قال **الرازي** عند قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾، «والثاني: وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية، وكل من في

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٤٨).
(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام لأبي الفتح الشهرستاني (ص: ١٢٤)، حرره وصححه الفرد جيوم.

السموات ومن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله»[(١)].

٨) ذكر ابن أبي العز قولين رئيسين في آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ...﴾:

**الأول**: ما ذهب إليه **البغوي** وغيره ونسبه الفخر **الرازي** لأهل السنة: أن معناها بأن الله **استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم**.

**والثاني**: وهو ما ذهب إليه الزمخشري ونسبه الرازي إلى المعتزلة، وهو أن معناها أنه تعالى: «**نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم** وبصائرهم التي ركبها الله فيهم».

ثم راح ابن أبي العز يذكر ما يشهد للقول الأول من روايات، ولكنه مال في نهاية المطاف للقول الثاني الذي ذهب إليه الزمخشري بل راح يبطل القول الأول من عشرة وجوه[(٢)].

**ومنها قول ابن أبي العز: الخامس**: أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجة عليهم، لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا

---

(١) مفاتيح الغيب (١٩/ ٣١).

(٢) حيث قال كما في تفسير ابن أبي العز جمعاً ودراسة (ص: ٨٣): **القول الأول متضمن لأمرين عجيبين**: أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ، وأقروا بالإيمان، وأنه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة. والثاني: أن الآية دلت على ذلك، والآية لا تدل عليه لوجوه: أحدها: أنه قال: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم. الثاني: أنه قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: من ظهره... إلى أن يقول بعد سردها: وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره، ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث التي فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم. وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدي في شرح التأويلات، ورجح القول الثاني، وتكلم عليه ومال إليه. اهـ.

غَٰفِلِينَ﴾، **والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فُطروا عليها**، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ...﴾ **التاسع**: أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليه بهذا الإشهاد في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، **فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها**، وذكرتهم بها رسله، بقولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلى أن يقول: **وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**، فما من مولود **إلا يُولد على الفطرة**، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه، لا يتبدل ولا يتغير...(١).

٩) **وقال الزبيدي** عند قول الغزالي السابق «حيث وجدت الألسنة والأشخاص»: على قسمين؛ فمنهم من بقي على إقراره الأصلي من أول وهلة، ومنهم من راجع إقراره فيما بعد بتوفيق من الله تعالى، ومنهم من لم يقر مطلقا، فالإقرار ثابت بنص الآية **ولكن لا بالألسنة**(٢).

١٠) **وقال أبو يعلى** الفراء فيما نقله عنه ابن تيمية: الإقرار بمعرفة الله تعالى وهي العهد الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم حين مسح ظهر آدم فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى فليس أحد إلا وهو **يقر بأن له صانعا** ومدبرا وإن سماه بغير اسمه قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول(٣).

---

(١) تفسير ابن أبي العز جمعا ودراسة (ص: ٨٥)، جمع ودراسة: شايع بن عبده بن شايع الأسمري، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، نشر في العددان: ١٢٠ و١٢١ (١٤٢٣ و١٤٢٤هـ).

(٢) إتحاف السادة المتقين (١/ ٤٦٣).

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٣٥٩).

## نص ابن الهمام أن الإقرار بالله في الفِطر

١١) **وقال ابن الهمام** في المسايرة: «فمن أدار نظره في عجائب تلك المذكورات **اضطره إلى الحكم** بأن هذه الأمور مع هذا الترتيب المحكم الغريب لا يستغني كل عن صانعٍ أوجده وحكيمٍ رتبه وعلى هذا دَرَجت كل العقلاء إلا من لا عبرة بمكابرته، **وإنما كفروا بالإشراك، ونسبة الحوادث إلى غيره تعالى، وإنكار ما جعل الله سبحانه إنكاره كفراً كالبعث وإحياء الموتى**، كالمجوس بالنسبة إلى النار، **والوثنيين بالأصنام**، والصابئة بالكواكب، **واعترف الكل بأن خلق السموات والأرض، والألوهية الأصلية لله** تعالى، **قال تعالى**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾ **فهذا كان في فطرهم**، ولذا كان المسموع من **الأنبياء دعوة الخلق إلى التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله دون أن يشهدوا أن للخلق إلها**»[1].

فصرَّح ابنُ الهمام أن الوثنيين ونحوهم كفروا بالإشراك وبنسبة الحوادث إلى غيره تعالى وبإنكار البعث، ولم يكفُروا في قضية شرك الألوهية وحدها كما هي نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية، وما يهمنا هنا هو قول ابن الهمام «قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ﴾ . . . **فهذا كان في فطرهم**» فظاهره أن إقرارهم بالله إقرارٌ قلبيٌّ فحسب، لأنه فسَّر الآية بالفطرة.

طبعاً ليس المقصود **بالفطرة هنا أنهم يولدون على الإقرار بالله، فهذا باطل** بنص القرآن ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وبإقرار ابن تيمية كما رأينا، وإنما المقصود بالفطرة أنهم بالتفكر في الكون شيئاً فشيئاً - كما يقول ابن الهمام نفسه في أول كلامه وهو قوله: «فمن

---

(١) المسايرة (ص: ٢٧).

أدار نظره في عجائب تلك المذكورات. . .» - يصِلون إلى أنه حادث؛ وذلك لما يعتريه من التغير والافتقار، وبالتالي فلا بد له من محدث، فمن ثَمّ يترسخ في عقولهم وقلوبهم وفِطرهم اليقين بوجود الله إلا إن طرأت عليهم شبهة أو عُلِّموا خلاف ذلك في صغرهم بتلقين أبويهم أو مجتمعهم، وهذا كله سبق تقريره ومن كلام ابن تيمية نفسه.

## ابن الهمام لا يفرق بين الربوبية والألوهية

ثم إنَّ ابن الهمام لم يقل بأن المشركين بأنهم يقرون بتوحيد الربوبية ويشركون في الألوهية، ولا عنده هذا التفريق بين الألوهية والربوبية، لأنه لو كان يفرِّق بينها لما قال: «ولذا كان المسموع من الأنبياء دعوة الخلق إلى التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله دون أن يشهدوا أن للخلق **إلها**»، وإنما لقال: «. . . دون أن يشهدوا أن للخلق **ربا**»، تماماً كما قال **ابن تيمية**: «وقول صاحب الشرع أمرت أن أقاتل الناس **حتى يقولوا لا اله إلا الله، لم يقل حتى يقولوا أن لهم ربًّا، إذ** هم عارفون بذلك، وإنما أمرتهم الرسل أن يصلوا معرفة التوحيد بمعرفة الربوبية والوحدانية فأبوا»[1].

بل ذكر هنا ابن الهمام كلمة «إلهاً» بدل رباً، كما لم يقل ابن الهمام: إن المشركين بأن الله وحده خلق السموات والأرض، فكلمة «وحده» لم ينسبها إلى المشركين، خلافاً لابن تيمية وأتباعه حيث ينسبونها إليهم، غاية ما قاله ابن الهمام أن المشركين يجعلون الألوهية الأصلية لله، وهذا يعني أنهم يجعلون لأصنامهم نصيباً في هذه الألوهية، ليس فقط بمعنى أنهم يعبدونها، وإنما أيضاً بمعنى أنهم ينسبون إليها الحوادث من دون الله كما صرح ابن

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥١٠).

الهمام نفسه حيث قال: «**وإنما كفروا بالإشراك، ونسبة الحوادث إلى غيره تعالى**...»، وبالتالي فالألوهية عند ابن الهمام شاملةٌ للربوبية أيضاً كما ترى، وهذا أيضاً خلاف نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية.

١٢) قال ملا علي القاري: «وقد أعرض الإمام - أي أبو حنيفة - عن بحث الوجود اكتفاءً بما هو ظاهر في مقام الشهود ففي التنزيل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ فوجود الحق ثابتٌ في **فطر الخلق**، كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، ويومئ إليه حديث: «كل مولود يولد على فطرة الإسلام»[1]. اهـ.

ويقال في هذا النص نحو ما قيل في نص ابن الهمام السابق، وحاصله أن آيات الباب الثمانية وآية الميثاق وآيات الفطرة وأحاديثها من بابٍ واحدٍ وهو الإقرار القلبي بأصل وجود الله، على الشكل الذي سبق بيانه.

**الخلاصة أن الإقرار بالله في آيات الباب الثمانية محمولٌ على ما جاء في آيات الميثاق والفطرة عند كثير من العلماء.**

وحاصل ما سبق من نصوص العلماء أن آيات الباب الثمانية تدل على الإقرار القلبي بالله، أو الإيمان القلبي به تعالى عند المشركين وغيرهم، وأن تلك الآيات الثمانية محمولةٌ على ما فهم من آية الميثاق وآية الفطرة وحديثها وهو الإيمان القلبي والفطري بالله على النحو الذي سبق.

---

(١) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الاكبر لملا علي القاري (ص: ٤٩)، بتحقيق وهبي سليمان غاوجي، دار البشائر الإسلامية، ط١/١٩٩٨. وانظر استدلال السلفية بهذا النص للقاري: جهود علماء الحنفية (١/ ١٣٢)، عداء الماتريدية للعقيدة السلفية (٣/ ٢٤٦)، كلاهما لابن قيصر الأفغاني، وانظر: عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي (١/ ٣٠٦).

وهذا يؤكد أن آيات الباب الثمانية ليس المراد منها أن يذهب الرسول فعلا، ويسأل المشركين عن ربهم ليجيبوا بألسنتهم بأنه الله، إذ لو كان الأمر كذلك لما كان لاستدلال العلماء - الذين سبق أن نقلنا نصوصهم قبل قليل - بآية الميثاق وحديث الفطرة مع استدلالهم بآيات الباب الثمانية: معنى؛ لأن آية الميثاق هذه وحديث الفطرة غاية ما يدلان عليه هو الإيمان القلبي بالله، وآيات الباب الثمانية دلت على إقرارهم بألسنتهم كما هو المفروض، فكيف حمل أولئك العلماء آيات الباب الثمانية على آية الميثاق وحديث الفطرة مع أن دلالة كل منها مختلفة؟!

والجواب: أنه إنما أراد أولئك العلماء باستدلالهم ذاك أن يبينوا أن المراد بآيات الباب الثمانية هو نفسه ما تقرر في نصوصٍ أخرى مثل آية الميثاق ونصوص الفطرة ونحو ذلك، وهو المعرفة القلبية بأصل وجود الله على الوجه الذي سبق بيانه.

وقد قلنا في موضع آخر إنَّ هذه المعرفة لا تكفي في الإيمان، بل يشترط لها الإذعان القلبي والنطق اللساني، وهذا مفتَقَدٌ عند المشركين، كما أن هذه المعرفة قد تتغير أو تنعدم في حق من انحرفت فطرته كما قرر ذلك ابن تيمية نفسه وأتباعه، والمشركون ممن انحرفت فطرتهم بنص حديث الفطرة نفسه حيث جاء في لفظٍ لمسلم: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة،** فأبواه يهودانه وينصِّرانه **ويشرِّكانه**»[(١)]، «أي يجعلانه مشركاً إن كانا مشركين بعبادة غيره تعالى كالمجوس التي تعبد النار **ومشركي العرب الذين يعبدون الأحجار** والأشجار»[(٢)]. ويقول ابن تيمية نفسه: «والرسل مبعوثون لتذكير وضع الفطرة

---

(١) صحيح مسلم (٤/٢٠٤٨).

(٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (٢٤/٥٥٩).

وتطهيرها عن تسويلات الشياطين فإنهم الباقون على أصل الفطرة وما كان له عليهم من سلطان»[1].

وبالتالي فإنه لا يمكن القول بتاتاً بأن المشركين موحدون في الربوبية بحكم فطرتهم، لأن فطرتهم انحرفت - بنص حديث الفطرة نفسه، وبنص ابن تيمية أيضا - ولذلك أشركوا في الألوهية والربوبية معا، وشكّكوا في صفات الله العلية كعموم سمعه وعلمه وإرادته وقدرته، بل تشككوا في أصل وجود الله كما سبق بيانه[2].

## خلاصة الوجه الأول

**وهكذا نكون** قد انتهينا من تقرير الوجه الأول وخلاصته أن آيات الباب الثمانية لا إقرار فيها من المشركين في الحال وإنما إقرار مستقبلي معلق على سؤالهم وقد أيد ذلك الأمورُ الثلاثة السابقة:

**الأول**: الآيات التي فيها سؤال عن الخالق ولا جواب فيها من المشركين.

**الثاني**: الآيات الأخرى التي تدل على مقالات المشركين الشنيعة في الله والتي فيها تشكيك في وجود الله فضلا عن التشكيك في سمعه وعلمه وقدرته.

**والثالث**: حمْلُ كثيرٍ من العلماء الآيات الثمانية على علم الإنسان القلبي بالله وهو ما يسمى بالفطرة، ولكن الفطرة كثيراً ما تتغير بفعل الوالدين وبغيرهما.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ١٣٢).

(٢) انظر (ص: ٤١٥).

# المبحث الثاني

# إن إقرارهم هو إقرارٌ معلّق على شروط

وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: توجيه السؤال إليهم عن الخالق.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الدليل على هذا الشرط من آيات الباب الثمانية.

المطلب الثاني: بيان أن هذا الشرط لم يتحقق.

الشرط الثاني: أن يتفكروا في أدلة وجود الله بإنصاف ثم يذعنوا لها.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الدليل على هذا الشرط.

المطلب الثاني: بيان أن هذا الشرط غير متحقق.

# الشرط الأول

# توجيه السؤال إليهم عن الخالق

## المطلب الأول
## الدليل على هذا الشرط من آيات الباب الثمانية

جاء معظم آيات الباب الثمانية بتعليق إقرارهم على توجيه السؤال لهم عن الخالق، وذلك كقوله تعالى مثلا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، أي أن المشركين لو قُدِّر أن يسألهم رسولُ الله عن خالقهم لقالوا هو الله، فحاصلها «هو تقريرهم على ما كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه بخلق السماوات والأرض واعترافهم بذلك **إن سئلوا**، ثم أتبع ذلك.. بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ...﴾، فأَعلَم تعالى أنهم لو سئلوا أيضاً عن **هذا لاعترفوا**»(١).

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٩١)، وهذا النص سنعيده لاحقاً لنجيب عنه وعن أمثاله من النصوص التي فيها دعوى أنهم «**كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه** بخلق السماوات والأرض واعترافهم بذلك إن سئلوا»، لأنه ليس في آيات الباب أنهم سئلوا عن أنه الخالق وحده كما سبق، ولكن أتينا به هنا لتصريحه بأن هذا الاعتراف منهم معلق على توجيه السؤال لهم عن الخالق، بغض النظر الآن عن أنه اعتراف بمطلق خالقٍ أو بالخالق وحده، فهذا سيأتي بحثه والجواب عنه. والله الموفق.

وهذا لا يعتبر إقراراً محققاً من المشركين بوجود الله ولا بأنه خالقهم ولا بأنه ربهم، وإنما هو إقرارٌ معلقٌ على شرط سؤالهم، يدل على ذلك أمران:

**الأمر الأول:** دلالة لفظ الآية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم...﴾ على أن قولهم أو إقرارهم ليس واقعاً ولا هو محقق، بل معلقٌ ومشروط بسؤالهم، وهذا يُعلم من إعراب ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، فإن: «الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم، وإن شرطية، وسألتهم فعل ماض.. وهو في محل جزم فعل الشرط»(١).

وقوله ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: «اللام جواب القسم، وجواب الشرط محذوف على القاعدة المعروفة وهي اجتماع قسم وشرط»(٢)، أي إذا اجتمع الشرط والقسم وسبق أحدهما الآخر فيكون الجواب له، ويحذف جواب الآخر لدلالة جواب الأول عليه.

قال ابن مالك في ألفيته:

**واحذِفْ لدى اجتماعِ شرطٍ وقَسَمْ ... جَوَابَ ما أخَّرْتَ فهو مُلْتَزَمْ**

**وإن تَوَالَيَا وقبلُ ذُو خَبَرْ ... فالشرطُ رَجِّحْ مطلقا بلا حَذَرْ**

قال ابن عقيل: «**أي إذا اجتمع الشرط والقسم أجيب السابق منهما وحذف جواب المتأخر**، هذا إذا لم يتقدم عليهما ذو خبر. فإن تقدم عليهما ذو خبرٍ رجح الشرط مطلقاً، أي سواء كان متقدماً أو متأخراً فيجاب الشرط ويحذف جواب القسم، فتقول: زيدٌ إن قام والله أكرمه، وزيدٌ والله إن قام أكرمه.. وقد جاء قليلاً ترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم وإن لم يتقدم ذو خبر»(٣). اهـ.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه لدرويش (٧/ ٤٥٧)، دار ابن كثير.

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٩/ ١١٣).

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٤/ ٤٤).

وقال عباس حسن: «ومما يدل عليها: «جواب القسم» إذا كان القسم متقدماً على أداة الشرط نحو: والله إن رعيت اليتيم ليرعينك الله. فالقسم محتاج لجواب، وكذلك أداة الشرط؛ فحذف جواب المتأخر منهما؛ وهو الشرط، لدلالة جواب المتقدم - وهو القسم - على المحذوف. **ولهذا تعتبر اللام في المثال داخلةً على جواب القسم؛ كدخولها عليه في قوله تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وفي قوله تعالى بلسان الكفار يهددون الرسل: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ فاللام الداخلة على أداة الشرط: «إن» هي علامة القسم، واللام المتأخرة داخلة على جوابه - أما جواب الشرط في الآيتين فمحذوف: لتأخر أداة الشرط - ويدل عليه في كل منهما جواب القسم المذكور»[1].

وخلاصة ما سبق هو أن الشرط والقسم إذا اجتمعا يكون الجواب للمتقدم منهما، ويقدَّر مثله للمتأخر، إلا إن كان المتقدم ذا خبر فيكون الجواب للشرط مطلقا، وهنا في الآية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم...﴾ اجتمع الشرط والقسم وتقدم القسم، فيكون الجواب المذكور ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هو جواب القسم، ويقدَّر مثله لجواب الشرط، فيكون التقدير: إن سألتهم عمن خلقهم ليقولن الله.

وإذا كانت جملة ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هي جملة جواب الشرط المحذوفة المقدرة، فهذا يعني أن قولهم أو إقرارهم هذا لم يقع بعد بل هو مشروطٌ بسؤال النبي لهم، كما في قولك: إن جئتني أكرمتك، فالإكرام هنا لم يقع بعد، وإنما هو مشروطٌ بمجيئك، فإن وقع المجيءُ وقع الإكرامُ، وإن لم يقع المجيء لن يقع الإكرام.

---

(١) النحو الوافي (٤/ ٤٥٣).

# نماذج من أسلوب الشرط في القرآن وأنه لو فهم على طريقة ابن تيمية لنتج معنا كفراً بواحا

أسلوب الشرط أسلوب معروف في اللغة العربية، وموجود في القرآن بكثرة، وهو تعليق وقوع شيء على وقوع شيء آخر، ومن ذلك:

١) قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فإحباط العمل متوقف على الشرك، فإن حدث الشرك حبط العمل والعياذ بالله، وإن لم يحدث الشرك لم يحدث حبوط العمل، ولا أحد يفهم من الآية أن الرسول قد حبط عمله مطلقا، حاشاه ﷺ.

٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فالآية تتحدث عن فرضية اتباع الرسول للأهواء «**فلو فُرض وقوعه كما يفرض المحال** لم يكن له ولي ولا نصير يدفع عنه العذاب.. وقيل: الخطاب هناك وهنا وإن كان ظاهراً للنبي إلا أن المقصود منه أمته»[1].

٣) وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، فهذه الآية والتي قبلها ليس فيهما أن النبي من الظالمين ولا أن الله ليس وليه ولا نصيره، حاشاه، بل الآية تعلق ذلك على شرط وهو اتباع النبي لأهواء أهل الكتاب.

ولا أحد يفهم من هذه الآيات السابقة وقوع المشروطات فيها دون تحقق شروطها المذكورة كما فعل ابن تيمية في آيات الباب الثمانية؛ حيث جعل

---

(١) روح المعاني (١/ ٣٧٢).

إقرارهم المعلق بمنزلة إقرارهم المحقق! وبالتالي ففَهم من تلك الآيات أن المشركين مقرون بالله مطلقاً حتى قبل سؤالهم!!!

ولو طردنا هذا الفهم لابن تيمية وأتباعه وهو تنزيل المعلق منزل المحقق دون الالتفات إلى تحقق الشرط المعلق عليه جواب الشرط، لنتج معنا أن آيات الزمر والبقرة السابقة تدل على أن رسول الله من الخاسرين - والعياذ بالله -، وأنه من الظالمين!!! وأنه لا ولي ولا نصير له، وأن عمله محبط، حاشاه من ذلك بأبي هو وأمي..!!

ولكان من قال لزوجته «إن قلتِ كذا أو فعلتِ كذا فأنت طالق» لطلُقت بنفس قوله، ولم يكن هذا متوقِّفاً على قولها ولا على فعلها..!! وقس على ذلك كل مسائل الطلاق والعتاق والنذر وغيرها مما يكثر فيه التعليق، ومعلوم بطلان ذلك، فإن كل هذا لا يقع إلا إن وقع الشيء المعلق عليه، على تفصيل في ذلك عند الفقهاء[1].

## قول البهاء السبكي أن آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ شرطية مستقبلة المعنى

وكذا الآية هنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فليس فيها أنهم قالوا ذلك في الماضي أو الحاضر، وإنما دلت على أن قولهم هذا سيقع لو سئلوا، أي أنه قول وإقرار معلق بسؤال النبي لهم، بمعنى أنه سيقع في المستقبل إن

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٧/ ٢٧٢)، و(٢٩/ ٣٧)، المغني لابن قدامة (١٠/ ٤٢٥) قوله: اختلف أصحابنا في الحلف بالطلاق، مجموع الفتاوى (٣٣/ ٢٢٣)، الأقوال الشاذة في بداية المجتهد لابن رشد (ص: ٥٤٢) لمؤلفه صالح بن علي بن أحمد الشمراني، دار المنهاج بالرياض، اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهية (١٠/ ١٠٩)، د. عايض الحارثي، كنوز إشبيليا.

سألهم النبي عن الخالق، وسيأتي قول البهاء السبكي: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ تقديره: خلقهن الله، والمعني بتحقق السؤال هاهنا تحققه قبل **الجواب لا أنه محقق الوقوع عند نزول الآية؛ لأن فعل الشرط مستقبل المعنى**»[(١)]. اهـ.

فإن ثبت أن النبي سألهم فقد تحقق الشرط، وبالتالي سيتحقق المشروط حتما، وهو أنهم أقروا فعلاً بألسنتهم بأن الله خالقهم، لإخبار الله بأنهم سيقولون ذلك إن سألهم، وخبره حق وصدق، ولكنه تعالى لم يخبرنا بأنهم قالوا فعلا: الله خالقنا، بل أخبرنا بأنهم سيقولون ذلك إن سألهم النبي عن الخالق، وهل وقع هذا الشرط؟ أي هل سألهم النبي فعلا؟ هذا ما سنبحثه في المطلب الثاني بحول الله، هذا فضلا عن أننا سنبين أنه ثمة شروط أخرى لإقرارهم وهي أن يقيم عليهم النبي الحجة على وجوده ووحدانيته وأن يتفكروا فيها ويذعنوا لها.

## كونهم لا يقرون بالله إلا إن سئلوا عنه دليلٌ على أنهم لا يقرون به ابتداء

بما أن الآية علَّقت إقرارهم بالله على شرط سؤاله عليه الصلاة والسلام لهم عن خالقهم، وما دام مفهوم الشرط هو أن يتعلق «الحكم بوجوده إجماعاً وينتفي بعدمه عند القائلين بالمفهوم»[(٢)]، وبالتالي فمفهوم هذا الشرط أنهم لا يقرون بالله إذا انتفى الشرط وهو سؤاله لهم، وهذا يعني أنهم لا يقرون بالله

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للبهاء السبكي (١/ ٣٠٧).

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤/ ٣٧)، وانظر للتوسع: مفهوم المخالفة عند الأصوليين (ص: ١١٢)، للأستاذ الدكتور أحمد عبد العزيز السيد، دار المصطفى، ط١/ ١٩٩٨.

من تلقاء أنفسهم ابتداء، وإنما لا بد من أن يسألهم النبيُّ نفسُه عن الخالق حتى يقروا به.

وذلك لأن سؤاله لهم عن الخالق سيكون سؤال محاجَّةً وليس سؤالاً عابراً أو مجردا، أي أنه سيكون سؤالاً مقروناً بالحجة على وجوده تعالى، بمعنى أنه عليه الصلاة والسلام سيقيم عليهم الدليل والبرهان على وجوده عز وجل، ثم يعملون عقولهم في تلك الحجة ويذعنون لها كما سيأتي بسطه.

وبالتالي فسواء ثبت أنه عليه الصلاة والسلام سألهم عن الخالق فأقروا بأنه الله، أو لم يسألهم أصلا، فإن الآية دلت على أنهم لا يقرّون بالله بمحض إرادتهم ومن تلقاء أنفسهم، وإنما لا بد من سؤال النبي لهم سؤال محاجة يعقبه تفكر وإذعان، فثبت أنهم غير مقرين به تعالى ابتداء، وهذا ينقض زعمكم بأن المشركين كانوا مقرين بتوحيد الربوبية حتى في الجاهلية قبل بعثة النبي!!

## دعوى أن المشركين يقرون بالله ولو لم يُسألوا عنه

**قد يقال**: ولكن هذا الذي ذكرتموه - من توقف إقرارهم على سؤاله لهم - قد لا يؤثر ولا يفرق كثيرا، لأنهم لو كانوا منكرين لوجوده تعالى لصرحوا بذلك عند سؤال النبي ﷺ لهم عن خالقهم ولقالوا مثلا: لا خالق لنا، أو خالقنا الأصنام استقلالاً أو بالشراكة مع الله، أو على الأقل لسكتوا وما أجابوا بشيء، وهذا كله غير وارد هنا؛ لأن الآية تصرح بأنه لو سألهم عن الخالق لأجابوا بأنه الله، فعُلم أن ذلك الإقرار مستقر في قلوبهم.

**قلنا**: هذا مخالفٌ لظاهر الآية حيث دلت على أنهم لا يقرون بالله ابتداء، وإنما بعد أن يسألهم عن الخالق ويحاججهم كما سبق، فضلا عن أنه

قد دلت آيات أخرى على أنهم متشككون في وجوده تعالى كما سبق في قوله تعالى ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: «إذا سئلوا: من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، **وهم شاكُّون فيما يقولون لا يوقنون**»(١).

**هذا إن لم يكونوا منكرين** له كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤] أي «وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، **إنكارًا منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم**»(٢). اهـ. ولذلك جاءت بعض الآيات لتقيم عليهم الحجة في أن الله خالقهم كما بيناه في موضعه.

وقد أقر ابن تيمية نفسه بأن من المشركين من ينكر الصانع حيث قال: «**والعرب وإن كانوا مشركين** لم يكن الظاهر فيهم **التعطيل للصانع** وإن كان قد **يكون في أضعافهم** من هو من **المرتابين في الصانع أو الجاحدين له...**»(٣). اهـ.

والحاصل أن زعمكم بأنهم مقرون به تعالى حتى لو لم يسألهم: غير صحيح، لأن هذا خلاف ظاهر الآية التي دلت على أن إقرارهم متوقفٌ على سؤالهم، وقد قلنا إنَّ سؤالهم عن الخالق ليس سؤالاً عابرا، وإنما هو في حقيقته سؤال محاجَّةٍ ودعوة إلى التفكير العميق والتعقل بإنصاف في المحدثات والمخلوقات كلها وعن سبب وجودها وما فيها من بديع الصنع حتى يدركوا أن لها خالقا وأنها لم تخلق نفسها ولا وجدت من غير خالق كما قال تعالى ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، ثم يذعنوا لما علموا به، فيسلموا ويصدقوا الرسول في كل ما جاء به ويتبعوه.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٤٩).
(٢) جامع البيان (٢١/ ٩٦).
(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/ ٧٢).

وهكذا ندرك السر والنكتة في قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾، أي لئن سألتهم سؤالَ مقرِّرٍ ومحفِّزٍ لهم على التفكر والتعقل والإنصاف والإذعان، فإذن إقرارهم بالخالق يأتي بعد سلسلة أمور، وسيأتي بسط ذلك.

## دعوى أن المشركين مستحضرون دائما للجواب بأن خالقهم هو الله

**لا يقال أيضاً**: إن تعليق إقرارهم على توجيه السؤال إليهم عن الخالق: لا يدل على أنهم لا يقرون به إلا إن سئلوا عنه، بل هذا دليل على استحضارهم للجواب عن الخالق إن سئلوا عنه في كل الوقت أي في الماضي والحاضر والمستقبل، بحيث إن سألتهم عن الخالق فسيجيبون بأنه الله دون تردد، أي أن هذا الجواب حاضر عندهم ماثل في أذهانهم دائما، بدليل تأكيد جوابهم بلام القسم في قوله ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فهذا يدل على «**إيمانهم بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم يعترفون بهذه الحقيقة بتلقائية**، لذلك فهم يقولون في جواب السؤال عمن خلق السموات والأرض **دون تريث**: «**الله**»، وجاء التعبير القرآني: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[1].

## الكلام عن آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وعلاقتها بآيات الباب الثمانية

وهذا تماماً مثل قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥]، فهذا لا يعني أنهم لم يخوضوا ويلعبوا قبل أن يوجه السؤال إليهم، بدليل أنهم قالوا ﴿إِنَّمَا

(١) توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما، للشيخ حبنكة، (ص: ١١١).

كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾، فإذن هم كانوا يخوضون **ويلعبون قبل سؤالهم**، ولكن حينما سئلوا أخبروا عما اقترفوه وأقروا به.

وكذا هنا في آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لا يدل على أنهم لم يقروا به تعالى إلا قبل سؤالهم. وأما آية ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ فهي وإن جاءت بصيغة المستقبل، ولكن هذا لا ينفي أنهم يقولون ذلك في الماضي والحاضر أيضا؛ فإنك لو قلت سأقرأ كتاباً غدا، فهذا لا يعني أنك لم تقرأ كتاباً قبله، وكذا لو قلت سأزور صديقي الأسبوع القادم، فهذا لا يعني أنك لم تزره من قبل، أيضا لو قلت سأسافر بعد يومين، لا يعني أنك لم تسافر من قبل، وهكذا.

**أقول**: لا يقال هذا كله لأننا نقول في الجواب عنه:

**أولاً**: قولكم بأن الآية «دليلٌ على استحضارهم للجواب عن الخالق إن سئلوا عنه في كل الوقت...»، **فجوابه إن** هذا يكون مسلَّماً لو أنها جاءت مثلاً بصيغة: «إنهم مقرون بالله فلو سألتهم عن الخالق لقالوا هو الله»، أو كانت بصيغة «وإذ سألتهم من خلقهم فقالوا: الله»، فلو كانت صيغة الآية هكذا أو هكذا، فحينئذٍ سيكون سؤالهم عن الخالق لا لينشؤوا إقراراً به لم يكن من قبل، وإنما ليكشف لنا عن إقرارهم السابق، وحينئذ يمكن أن يقال ما ذكرتم من أنهم مستحضرون للجواب والإقرار به تعالى، ولكن الآية لم تأت بهذه الصيغة أو تلك التي يمكن أن يقال فيها إنها تكشف عن إيمانهم أو إقرارهم بالله المستقر في قلوبهم.

## سؤالهم عن الخالق يدل على تشككهم فيه

وإنما آيات الباب الثمانية تسألهم عن خالقهم ورازقهم وخالق السموات والأرض ومدبرهما ومالكهما، وهذا سؤالٌ لا يدل على أن المسؤول مؤمنٌ

بالله، بل ظاهره يدل على أن المسؤولَ منكرٌ لوجود الله!! أو على الأقل يدل على أنه متشكِّكٌ في وجوده تعالى! وإلا فهل يقال مثلا: ولئن سألتَ الأنبياءَ - عليهم السلام -: من خلقهم ليقولن الله؟! طبعاً لا يقال هذا؛ لأن الأنبياء عليهم السلام لا نشك في إيمانهم بالله حتى نسألهم هكذا سؤال!!

وإنما نسأل هذا السؤال لمن نشكك في إيمانه؛ لنعلم منه هل هو مقرٌّ بالله؟ أو نسأله عن الخالق لندعوه للإيمان إن كنا نعلم أنه غير مؤمنٍ بالله أصلا، فنسأله: من خلقك وخلق السماوات والأرض؟ فهذا السؤال هو بحد ذاته دعوةٌ للتأمل في نفسه وفي سائر المخلوقات حوله؛ ليُعمل عقله ويتساءل عمن خلقها، ليتبين له في نهاية المطاف أن لها خالقا[1].

إذ العقل يوجب أن هذا الكون حادث لما يعتريه من تغيرات وحوادث، وبالتالي لا بد له من محدِث وخالق، ويستحيل أن يوجد من غير خالق، ويستحيل أيضا أن يَخلق نفسَه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، وبالتالي فلا بد أن يجيبوا إذا سئلوا عن الخالق: بأنه الله، وليس تلك الأصنام التي صنعوها بأيديهم، طبعا هذا الإقرار سيكون إن أعملوا عقولهم وأنصفوا، وإلا فلن يقروا بالله، وإن أقروا بالله فليس في إقرارهم هذا توحيد، ما لم يقولوا بألسنتهم: الله وحده هو الخالق لا خالق سواه، ثم يذعنوا بقلوبهم وجوارحهم.

---

(١) كما قال في جوهرة التوحيد:

فَأَنْظُرْ إلى نَفْسِكَ ثُمَّ انْتَقِلِ ... لِلعَالَمِ العُلْوِيِّ ثَمَّ السُّفْلِي
تَجِدْ بِهِ صُنْعَاً بَدِيْعَ الحِكَمِ ... لَكِنْ بِهِ قَامَ دَلِيْلُ العَدَمِ
وكُلُّ ما جَازَ عَلَيْهِ العَدَمُ ... عَلَيهِ قَطْعَاً يَسْتَحِيْلُ القِدَمُ

انظر: عمدة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص: ٢٠٦)، شرح الكبير للناظم اللقاني، دار النور المبين.

**ثانياً**: أما قولكم بأنهم سيجيبون بأن الخالق هو الله، ولن يترددوا في ذلك، فهذا غير مسلّم أيضا، لأن ثمة آيات مشابهة يطرح فيها السؤال عن الخالق، ويكون الجواب فيها من الرسول، أو لا جواب فيها أصلا، وقد بيَّن كثيرٌ من المفسرين أن هذا لأنهم يترددون في الجواب أحيانا فيجيب عنهم الرسول، كما سبق بيانه.

**ثالثاً**: وأما قولكم «فهم يقولون في جواب السؤال عمن خلق السموات والأرض **دون تريث**: «**الله..**» فهذا سبق الجواب عنه.

## الجواب على قياس إقرار المشركين على إقرار المنافقين

**رابعاً**: وأما قولكم «وهذا تماما مثل قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾ فهذا لا يعني أنهم لم يكونوا يخوضون ويلعبون قبل أن يوجه السؤال إليهم... وكذا هنا في آية: ولئن سألتهم من خلقهم».

**فالجواب** أن: هذا قياس مع الفارق، من وجهين:

**الأول**: أن المراد بآية «التوبة» هو: «ولئن سألتهم **عما قالوا من القبيح في حقك** وحق أصحابك»[1]، أي تسألُ الآيةُ عن سبب ما اقترفوه فعلاً من المكر والنفاق والاستهزاء والكفر كما ذُكر في سبب النزول[2]، ولذا فقال

(١) البحر المحيط في التفسير (٥/٤٥٣).

(٢) جاء في تفسير البغوي (٤/٦٩، طبعة طيبة): «وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين، **اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول**، والثالث يضحك». وفي تفسير ابن كثير (٤/١٧٢): «وقال =

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ وذلك «توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به، وإلزاماً للحجة عليهم»(١).

إذن فآية «التوبة» تسأل عن سبب شيءٍ قاموا به فعلاً فوُبِّخوا عليه، وأما آية «الزخرف» وهي ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ...﴾ ومثيلاتها، فهذه تسأل عن اعتقادهم، هل يقرون بالله؟ لا أنها تسألهم عن سبب إقرارهم بالله!! وشتان بين السؤال عن سبب شيء حدث فعلا، وبين السؤال هل حدث ذلك الشيء أم لا؟! وهذا يوضحه أكثر الوجه:

**الثاني**: إن آية «التوبة» جاءت في سياق آياتٍ كثيرةٍ(٢) تتحدث عن المنافقين الذين فضحهم الله على رؤوس الأشهاد، حتى سميت سورة «التوبة» بالفاضحة، إذ تسمى سورة «براءة والتوبة والفاضحة والحافرة **لأنها حفرت عن قلوب المنافقين**»(٣)، أي أنها فضحت مكرهم ولعبهم واستهزاءهم بالدين وكفرهم(٤)، وبالتالي فهم حينما أقروا بلعبهم واستهزائهم وكفرهم أقروا

---

= قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها. هيهات هيهات. فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «علي بهؤلاء النفر». فدعاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا». فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب». وفي الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤/ ٢٣٠): «عن ابن عمر قال رأيت عبد الله بن أبي وهو يشتد قدام النبي ﷺ والأحجار تنكيه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب والنبي ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون».

(١) تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٣/ ٨٧).

(٢) قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٩).

(٤) قال الطبري في جامع البيان (١١/ ٥٤٢): «ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا =

بما قاموا ويقومون به فعلا، وبما هو من شأنهم وبما يتناسب مع حال نفاقهم.

وأما **الآية الثانية - أي آية «الزخرف»** - ومثيلاتها فهي تتحدث عن المشركين، وهؤلاء حينما سُئلوا عن الإيمان أو الإقرار بالله تعالى سئلوا عن شيء يخالف ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أربابا وآلهة من دون الله، فإذا زعمتم أنهم أقروا بالتوحيد، فهذا يعني أنهم أقروا بما هم قائمون على خلافه وهو الشرك! وهذا لا يستقيم كما ترى.

وبالتالي فكيف تقيسون إقرار المنافقين باستهزائهم الذي صدر منهم فعلا، على إقرار المشركين بالتوحيد المتوهَّم والذي لم يصدر منهم أصلا!! بل هم يتبرؤون منه دائماً كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]؟!

## السين وسوف تتكلم عن المستقبل دون أن تدل على الحاضر والماضي نفياً أو إثباتا

**خامسا**: أما قولكم «وأما آية ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فهنا وإن جاءت بصيغة المستقبل ولكن هذا لا ينفي أنهم يقولون ذلك في الماضي والحاضر أيضا بدليل لو أنك قلت سأقرأ...».

فالجواب نعم، لا ينفي الماضي والحاضر ولكن أيضاً لا يدل عليه، أي أن السين في ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ كما أنها لا تدل بالضرورة على أنهم لم يقولوا

---

= من الباطل والكذب، ليقولن لك: إنما قلنا ذلك لعبا، وكنا نخوض في حديث لعباً وهزوا. يقول الله لمحمد ﷺ: قل يا محمد أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزئون». وفي تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٣٠): «كانوا يستهزءون بالله وبآياته وبرسوله، والاستهزاء بذلك كفر...».

ذلك في الماضي والحاضر، فكذلك لا تدل على أنهم كانوا يقولون بأن الله هو الخالق، وإنما الذي تدل عليه السين وسوف هو وقوع الحدث في المستقبل بغض النظر هل وقع مثله في الماضي أو الحاضر؟ فهذا يحتاج إلى دليلٍ مستقلٍّ أو دليلٍ خارجيٍّ يدلُّ على النفي أو الإثبات، فهل عندكم دليلٌ على الإثبات؟!

نحن لدينا أدلةٌ على أنهم على الأقل شاكُّون بوجود الله، يدل على ذلك آيات كثيرة كآيات «الطور» السابقة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ...﴾، والآيات التي جاء فيها الجواب من الرسول، والآيات التي لا جواب فيها أصلا، وذلك لأنهم أحيانا يترددون، وقد سبق بسط ذلك كله، وبدليل أقوالهم الشنيعة باتخاذ الله ولداً، وبعجزه عن إحياء الموتى للبعث، ونحو ذلك مما سبق بيانه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

وقد سبق قول **ابن كثير**: «﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ **أي: كيف تجحدون وجوده** أو تعبدون معه غيره!». اهـ. وقال **الألوسي**: «والمراد بكفرهم به تعالى إلحادهم في ذاته سبحانه وصفاته عز وجل وخروجهم عن الحق اللازم له جل شأنه على عباده من توحيده واعتقاد ما يليق بذاته وصفاته جل جلاله **فلا ينزهونه تعالى عن صفات الأجسام ولا يثبتون له القدرة التامة والنعوت اللائقة به سبحانه وتعالى** ولا يعترفون بإرساله تعالى الرسل وبعثه سبحانه الأموات..»[1].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: ٧ - ٩]: أي «بل **ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته**...

(١) روح المعاني (٢٤/ ٩٩).

**وإنما هو قول ممزوج بلعب**، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم، بصائر قلوبهم وأرواحهم»[١].

❁ ❁ ❁

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٨/٤٠٨)، دار الكتب العلمية.

## المطلب الثاني

# بيان أن شرط سؤالهم عن الخالق لم يتحقق

في الواقع لم ترد - على حد علمي - آيةٌ، أو حديثٌ، أو أثرٌ، فيه أن النبي ﷺ سألهم عن الخالق فأجابوه بأنه الله، ومن زعم ذلك فليأتنا بالدليل عليه، بل نحن نأتي بالدليل على عدم وقوع ذلك، وذلك من وجهين:

الأول: أن آيات الباب نفسه أشارت إلى أن هذا الشرط مشكوكٌ في وقوعه.

الثاني: المقصود بآيات الباب إثبات الخالق والبعث ونحوه لا سؤالهم.

وفيما يلي بسط هذين الوجهين كلٌّ منهما في مرصد، وبالله التوفيق.

❀ ❀ ❀

## المرصد الأول

# إن آيات الباب نفسها أشارت إلى أن هذا الشرط مشكوك في وقوعه

فالآيات نفسها تشير إلى أن سؤاله ﷺ لهم عن الخالق: مشكوكٌ فيه، لأنها معلقة بأداة «إن» لا بأداة «إذ»، وفرقٌ بين «إن» الشرطية التي تفيد وقوع الشيء في المستقبل فيما لو وقع الشرط، وبين «إذ» التي تفيد وقوع الشيء في الماضي فعلا.

## خلط ابن تيمية بين «إذ» وبين «إن» الشرطية

فكأن ابن تيمية هنا نزَّل «إن» في آيات الباب منزلة «إذ»، فجرَّه ذلك إلى أن يعتبر آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ...﴾ كما لو كانت بلفظ: «وإذ سألتهم من خلقهم فقالوا: الله»..!!

وهذا خطأٌ وخلطٌ فاحشٌ بين أداتي «إن» و«إذ»، فثمة فرقٌ ظاهرٌ بين الأداتين، إذ لو كانت الآية بلفظ «وإذ سألتهم..» فحينها تفيد أن المشركين قالوا فعلا: الله هو خالقهم وخالق السموات والأرض وما بينهما، وأن هذا الإقرار وقع منهم فعلا في الماضي، لأن «إذ» تفيد أن الفعل الذي تقترن به قد حدث وانتهى بخلاف «إنْ» فهو يقترن بفعل سيحدث في المستقبل، كما قرر ذلك النحاة، وإليك بعض نصوصهم:

**قال ابن هشام**: «**إذْ**: على أربعة أوجه: أحدها: أن تكون اسماً للزمن الماضي، ولها أربعة استعمالات: أحدها: أن تكون ظرفاً، وهو الغالب، نحو... ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، والثاني: أن تكون مفعولاً به نحو ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾. والغالب على المذكورة في أوائل القصص في التنزيل أن تكون مفعولاً به، بتقدير اذكر، نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]»(١). اهـ.

**وقال البهاء السبكي**: «لا بد لحذف المسند من قرينة تميزه، والقرينة إما سؤالٌ محقَّقٌ أي واقع نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ تقديره: خلقهن الله، والمعني بتحقق السؤال هاهنا تحققه قبل **الجواب لا أنه محقق الوقوع عند نزول الآية؛ لأن فعل الشرط مستقبل المعنى**، بل الاقتصار على لفظ الجلالة الكريمة يستدعي تقدم سؤال استغنى به عن ذكر خلقهن»(٢). اهـ.

**وجاء في النحو الوافي**: «أدواته إحدى عشرة، تسمى «الأدوات الشرطية الجازمة»، وهي: «إن، إذ ما...»، إلى أن يقول: «ومهما كانت صيغة فعل الشرط أو جوابه فإن زمنهما لا بد أن يتخلص للمستقبل المحض بسبب وجود أداة الشرط الجازمة، بالرغم من أن صورتها أو صورة أحدهما قد تكون - أحياناً - غير فعل مضارع؛ إذ من المقرر أن أداة **الشرط الجازمة** تجعل زمن شرطها وجوابها مستقبلاً خالصا، ومن المقرر كذلك أن تحقق الجواب **ووقوعه متوقِّف على تحقُّقِ الشرط** ووقوعه، ومعلَّق عليه؛ **فإذا حصل الشرط حصل ما تعلق عليه**، وهو: الجواب. لا فرق في هذا بين أن تكون الأداة

(١) مغني اللبيب لابن هشام (٢/ ٥)، تحقيق د. الخطيب.

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للبهاء السبكي (١/ ٣٠٧).

مقتصرةً في معناها على التعليق - مثل: «إن» - أم متضمنة معه معنى آخر: كالزمانية، أو المكانية»[١]. اهـ.

والحاصل أن أداة «إن» الشرطية والجملة الداخلة عليها هي في المعنى مستقبل، وإن كان الفعل فيها بصيغة المضارع! أي أنه يتحقق الفعل فيها مستقبلا إن تحقق الشرط، وهو ما ينطبق على قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ونحوه، وهذا بخلاف الأداة «إذ» المجردة فإن هذه تدخل على الجملة المتحققة في الماضي، ولا تتوقف على تحقق شرط لأن «إذ» ليست شرطيةً أصلاً بخلاف «إذ ما» فإنها شرطيةٌ كما سبق.

## دلالة «إن» في الآية على أن سؤالهم عن الخالق أمر مشكوكٌ فيه

**الأمر الثاني:** الآية لم تدل على أن قولهم أو إقرارهم بالله مشروطٌ بسؤاله لهم فحسب، بل إن الآية دلت على أن سؤاله لهم عن الله أمر مشكوك فيه أصلا، لأن أداة الشرط التي في الآية وهي «إنْ» التي في «ولئن» تفيد الشك كما قرر الجمهور، بل الظاهر من كلام القرافي أن هذا إجماع الأصولين والنحاة، وإن تعقَّبه بعض العلماء، وبعضهم يرى أن الأصل في «أن» هو دخولها على المشكوك في تحققه، وإن دخلت أحياناً على المتيقن حصوله، وبعضهم يرى أن «إن» لمطلق الربط، وإليك تفصيل المذاهب في ذلك:

**المذهب الأول:** أنّ «إنْ» لا تدخل إلا على المشكوك في تحققه، وهذا ما جزم به القرافي ونقله عن النحاة والأصوليين[٢]، وهو ظاهر كلام

(١) النحو الوافي (٤/ ٤٢١).
(٢) الفروق «أنوار البروق في أنواء الفروق» للقرافي (١/ ١٦٣).

الجرجاني في دلائل الإعجاز حيث قال: «وينظرُ في الحروف التي تشتركُ في معنًى ثم ينفردُ كلُّ واحدٍ منها بخصوصيّةٍ في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاصِّ معناهُ نحوُ أن يجيءَ بـ«ما» في نفيِ الحال وبـ«لا» إذا أرادَ نفيَ الاستقبال **وبـ«إنْ» فيما يترجَّحُ بينَ أن يكونَ وألا يكونَ**، وبـ«إذا» فيما عُلمَ أنه كائنٌ»[1]. اهـ.

## إنكار الزمخشري على من يخلط بين إن وإذا في الاستعمال

وهو أيضا ظاهر كلام الزمخشري كما نقله عنه القزويني في الإيضاح[2]، **قال الزمخشري**: «وللجهل بموقع «إن وإذا» يزيغ كثير من الخاصة عن **الصواب فيغلطون** ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع في قوله يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها، ثم شفع له فيها فقضاها:

**ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتي ... تولى سواكم أجرها واصطناعها**

**أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها**

**إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها**

فلو عكس لأصاب». اهـ.

أي أنه أصاب لو قال:

**إن هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإذا همت بشر أطاعها**

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ص: ٧٧)، تحقيق د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة (٢/١١٨).

لأنه هكذا - أي بالشكل المعدل - سيكون غايةً في الذم الذي أراده الشاعر فيمن يهجوه، فإن المعنى سيكون حينئذٍ: أن نفس ذاك الوالي لخبثها لا تحثه عادة على الخير، وإن حدث أن حثَّته عصاها! وإنها كثيراً ما تهم بالشر فيطيعها!!

**وأجاب البهاء السبكي** فقال: «ويمكن الجواب بأن المقصود إثبات حثِّ نفسه له على الخير ومع ذلك يعصيها، وهو أبلغ فى الذم، وبذلك يعلم الجواب عن قوله: وإن همت، قلت ذلك بحثا ثم رأيته فى بعض الحواشي، وقد سبق غيرى إليه»(١). اهـ.

## «إنْ» تجزم اللفظ دون المعنى بخلاف إذا

ومن الطريف هنا قول النحاة: «إنْ» تجزم اللفظ دون المعنى، وقد ألغز بعضهم في ذلك فقال:

**سلِّم على شيخ النحاة وقل له ... عندي سؤال من يجبه يعظم**

**أنا إن شككت وجدتموني جازما ... وإذا جزمت فإنني لم أجزم**

فأجابه آخر بقوله:

**قل في الجواب بأنّ «إن» في شرطها ... جزمت ومعناها التردّد فاعلم**

**و«إذا» بجزم الحكم إن شرطية ... وقعت ولكن شرطها لم يجزم(٢)**

والمقصود أنَّ «إنْ» تُفيد الشكَّ في حصول فعل الشرط، ولكن تجزمه في الإعراب فيكون ساكن الآخر، و«إذا» تُفيد الجزم أي اليقين في حصول فعل الشرط ولا تجزمه في الإعراب.

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٣٢٥).

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ١٩٠)، لابن العماد الحنبلي، دار ابن كثير، ط١، ١٩٨٦م.

## الأصل في «إن» أن تدخل على المشكوك في تحققه عند القزويني

**المذهب الثاني**: أن الأصل في «إن» أن تدخل على المشكوك في تحققه، وقد تدخل على المتحقق وقوعه، وهو رأي **القزويني في الإيضاح** حيث قال: «أما: إن، وإذا، فهما للشرط في الاستقبال لكنهما يفترقان في شيء، وهو أن الأصل في «إن» **ألا يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه** كما تقول لصاحبك: «إن تكرمني أكرمك»، وأنت لا تقطع بأنه يكرمك».

ثم قال: «والأصل في «إذا» أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه.. وقد تستعمل **«إن» في مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة**: **كالتجاهل** لاستدعاء المقام إياه. **وكعدم جزم المخاطب** كقولك لمن يكذبك فيما تخبر: إن صدقت فقل لي ماذا تفعل. **وكتنزيله منزلة الجاهل** لعدم جريه على موجب العلم كما تقول لمن يؤذي أباه: **إن كان أباك فلا تؤذه**..»[1]. اهـ.

**والزركشي** في البرهان حيث قال: «إن» المكسورة الخفيفة تَرد لمعانٍ: الأول: الشرطية وهو الكثير نحو: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾، ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾، ثم الأصل فيه **عدم جزم المتكلم** بوقوع الشرط كقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ وعيسى جازم بعدم وقوع قوله، وقد تدخل على المتيقن وجوده إذا أبهم زمانه كقوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾، وقد تدخل على المستحيل نحو: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٌ﴾[2]. اهـ.

والأستاذ عباس حسن حيث قال في النحو الوافي عند الكلام على

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة (٢/ ١١٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٢١٥).

أدوات الشرط: «ومنها: ما يختص إما بالأمر **المتيقن منه أو المظنون**. ولكن الأول هو الأغلب، وهو «**إذا**» الشرطية. وإما **بالمشكوك فيه أو بالمستحيل**، وهو باقي الأدوات الشرطية... والقرائن وحدها هي التي تعين اليقين، أو الظن، أو الشك، أو الاستحالة.. **مع الدلالة على الشرطية في كل حالة**.. ومنها ما وضع - في الأكثر - لتعليق الجواب على الشرط تعليقاً مجرَّداً يُراد منه الدلالة على وقوع الجواب وتحققه، **بوقوع الشرط وتحققه**، من غير دلالة على زمان، أو مكان، أو عاقل، أو غير عاقل؛ وهو: «**إن**» و«**إذ ما**» **مع دلالتهما على الشك أو الاستحالة** كدلالة الأدوات الشرطية الأخرى عليهما»(١). اهـ.

## «إن» لمطلق الربط سواء كان ما دخلت عليه مشكوكاً أم لا، عند المحشين على الفروق للقرافي

**المذهب الثالث**: أنّ «إن» لمجرد الربط بين فعل الشرط وجوابه، وهو رأي المشتغلين بكتاب الفروق للقرافي، كابن الشاط حيث تعقب القرافيَّ بقوله: «قلت: ليس الأمر كما نصوا عليه **بل هي لمطلق الربط سواء كان ما دخلت عليه مشكوكاً** فيه أو غير مشكوك، غير أنها ليست بظرف، وإذا ظرف، وقد آل كلامه في جوابه عن الإشكال وجوابه بعد ذلك عن السؤال **إلى أنها تستعمل في المشكوك وغير المشكوك** ودعوى المجاز على خلاف الأصل»(٢). اهـ.

---

(١) النحو الوافي (٤/ ٤٣١).

(٢) إدرار الشروق على أنواء الفروق (١/ ٩٣).

أيضاً ابن حسين المكي تعقب القرافيَّ بقوله: «لا فرق بين إن وإذا في كونهما لمطلق الربط **سواء كان ما دخلا عليه مشكوكاً فيه** أو غير مشكوك، غير أن إن ليست بظرف، وإذا ظرف...»، إلى أن قال: «**فظهر أن ليس الأمر** كما نص عليه النحاة والأصوليون من أن «**إن**» **لا يعلق عليها إلا المشكوك فيه**، وإذا يعلق عليها المشكوك والمعلوم»(١). اهـ.

أيضا **البقوري** تعقب القرافيَّ فقال في ترتيب الفروق واختصارها: «والظاهر عندي أن القاعدة التي يذكرها النحويون وهي التي مرت لنا أن «إن» ليست محصلة، **وأن** «**إن**» **تقع في الموضعين معا**... كقوله تعالى ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ والآية الأخرى مع الفرض فيهما نظر»(٢). اهـ.

فهؤلاء كلهم قد ردوا على القرافي وتعقبوا عليه في قوله بأن «إن» لا تدخل إلا على المشكوك في تحققه، **فذكروا أنها أعم من ذلك**.

والحاصل مما سبق أن «إن» الشرطية هل تدخل على المشكوك فيه فقط كما قاله القرافي في الفروق وهو ظاهر كلام الجرجاني في الدلائل والزمخشري، أم أن هذا يكون غالباً أو الأكثر أو الأصل كما قال القزويني والبهاء السبكي، أم أنها لمجرد الربط أي أنها تدخل على المشكوك فيه وعلى المتحقق حصوله على حد سواء، كما قال المتعقبون على كلام القرافي في الفروق كابن الشاط والبقوري وابن حسين المكي؟ ثلاثة أقوال!

---

(١) تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية (١/ ١٦٣).

(٢) ترتيب الفروق واختصارها (١/ ٨٦).

# حاصل الوجه الثاني في الجواب عن آيات الباب الثمانية

وبذلك نكون قد انتهينا من الوجه الثاني في الجواب عن استدلالهم بآيات الباب الثمانية على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وحاصله هو أنه ليس في آيات الباب إقرارٌ محققٌ من المشركين بشيء، وإنما غاية ما فيها هو أن إقرارهم معلقٌ على سؤالهم، وهل وقع هذا السؤال أم لا؟ لا يوجد دليلٌ يفيد ذلك، ومن زعم فعليه به، بل إن تصدير الآية بـ«إن» الشرطية يفيد أن سؤاله هذا مشكوكٌ في وقوعه على مذهب القرافي والقزويني، إذ إنها - أي «إن» - تدخل على المشكوك فيه دائماً عند القرافي، وغالباً عند القزويني ومن معه.

ولكن قد يَرد على هذا الحاصل اعتراضان:

**الاعتراض الأول**: أن يقال إن النبي ﷺ لا بد أن يكون سألهم، لأن الله أمره بذلك كما في قوله في آية «المؤمنون»: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ...﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾، ولذا قال بعض علماء البلاغة أن السؤال في الآية محققٌ كما سبق من كلام البهاء السبكي(١)، وبالتالي فهم لا بد وأن يكونوا أقروا بأن الله خالقهم، لأن الله أخبر بأنهم سيقولون ذلك، وخبره حقٌّ وصدقٌ لا يتخلف.

**الاعتراض الثاني**: هبْ أنه لم يسألهم ولم يقولوا، ولكن الله يعلم أنهم لو سئلوا لقالوا وأقروا بأن الله هو الخالق، وهذا يدل على أنهم يعلمون بأن الله هو الخالق حتى لو سلَّمنا أنهم لم يقرُّوا بذلك بألسنتهم.

فهذا غاية ما يمكن أن يعترض به هنا، وإليك بسط هذين الاعتراضين مع الجواب عليهما.

---

(١) انظر (ص: ١٣٢).

## الاعتراض الأول: إن النبي لا بد أن يكون سألهم لأنه مأمورٌ بذلك.

وبيان ذلك أن يقال «قد أمر اللهُ رسولَه أن يسأل المشركين، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ...﴾ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾»[1]، فقوله تعالى ﴿قُل﴾ في هذه الآيات هو أمرٌ للنبي بأن يسألهم هذا السؤال، ولا بد أن يمتثل رسولُ الله الأمرَ فيسألهم عن خالقهم، وإلا يكون الرسولُ عاصياً - حاشاه - إن لم يسألهم، وهذا غير جائزٍ في حقه لعصمته.

فإذا سألهم فلا بد حتماً أن يجيبوا بأنه لله؛ لأن الله أخبر بأنهم سيجيبون بذلك، لقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وخبره صدقٌ لا يتخلَّف، فيكون إقرارهم بالخالق في نهاية المطاف هو إقرارٌ محقق، وليس فقط إقراراً معلقاً كما زعمتم تمسُّكاً بظاهر آيات الباب، غاية ما في الأمر أنه إقرارٌ مستقبليٌّ محتَّم وليس إقراراً حدث في الماضي ولا حالَ نزولِ آيات الباب الثمانية.

ولعله من أجل ذلك قيل إن السؤال هنا محققٌ لا معلق، وفي ذلك يقول **التفتازاني**: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: أي: خلقهن الله؛ فحذف المسند لأن هذا الكلام عند تحقق ما فرض من الشرط والجزاء يكون جواباً عن **سؤال محقق**»[2].

**والجواب عن هذا الاعتراض** - وبالله التوفيق -: إن هذا مبنيٌّ على أن قوله في هذه الآيات ﴿قُلْ﴾ يُقصد به أن يذهب الرسول فعلاً إلى المشركين فيسألهم عن الخالق، ولكن هذا غير مسلَّم لسببين:

---

(١) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٣٥).

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني للسعد التفتازاني للعلامة محمد بن عرفة الدسوقي (١٨/٢)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت.

**الأول**: لأن ﴿قُلْ﴾ في القرآن ليس المقصود بها حقيقتها.

**الثاني**: لأنه يخالف أصل نظرية تقسيم التوحيد وهو أن الرسل قد بُعثوا بالدعوة إلى توحيد العبادة، **لا بالدعوة إلى توحيد الربوبية**.

**وفيما يلي بسط هذين السببين**:

**السبب الأول**: أن ﴿قُلْ﴾ في القرآن ليس المقصود بها حقيقتها وهي أمرٌ بقول كذا وكذا؛ لأن كل ما في القرآن سواء صُدِّر بـ﴿قُلْ﴾ أو لم يُصدَّر بها فإن النبي مأمورٌ بتبليغه كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

## الحكمة في تصدير الآيات بـ﴿قُلْ﴾ هو لتشريف الأمة

وإنما صُدِّرت بعض الآيات بـ﴿قُلْ﴾ تشريفاً للأمة، فالخطاب في القرآن أقسامٌ كثيرة أوصلها السيوطي إلى ٣٤ قسما[(١)]، منها «خطاب التشريف وهو كل ما في القرآن مخاطبة بـ﴿قُلْ﴾، فإنه تشريفٌ منه تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة»[(٢)]، «إذ ليس من الفصيح أن يقول

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١١٥) ومن ذلك قوله: «... الثامن والعشرون: خطاب الجمادات خطاب من يعقل نحو: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾. التاسع والعشرون: خطاب التهييج نحو: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. الثلاثون: خطاب التحنن والاستعطاف نحو: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾. الحادي والثلاثون: خطاب التحبب نحو: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾، ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾، ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾. الثاني والثلاثون: خطاب التعجيز نحو: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾».

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ص: ١٥٠١)، طبعة مركز الدراسات القرآنية، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/ ١٧٩)، وانظر: الزيادة والإحسان في علوم القرآن =

الرسول للمرسل إليه قال لي المرسل قل كذا وكذا، ولأنه **لا يمكن إسقاطها فدل على أن المراد بقاؤها** ولا بد لها من فائدة فتكون أمرا من المتكلِّم للمتكلَّم بما يتكلم به، أمره شفاها بلا واسطة كقولك لمن تخاطبه افعل كذا»[1].

## ثمة آيات صُدرت بـ﴿قُلْ﴾ وأخرى بنفس المضمون لم تصدر بذلك والكل مأمور بتبليغه

ومما يدل على ذلك أن ﴿قُلْ﴾ هي للتشريف ليس إلا، أن ثمة آيات كثيرة مشابهة لبعضها البعض، والفرق بينها هو كلمة ﴿قُلْ﴾ فقط، مثلا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ٣٦] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١]، وجاء نحو هاتين الآيتين في المضمون ولكن بدون كلمة ﴿قُلْ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل: ٩١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ...﴾ [النحل: ١١٥] فكلا الآيتين فيهما تحريم لبعض الأشياء، ولكن الأولى مصدَّرة بـ ﴿قُلْ﴾، والثانية غير مصدَّرة بها، وهذا لا يغيّر من الأمر شيئاً، وهو أن تلك الأشياء في كلا الآيتين من المحرمات، **وأن النبي مأمور بتبليغهما كليهما**، وقد بلَّغهما فعلاً عليه الصلاة

= (٢/ ٢٦٤)، جمال الدين ابن عقيلة المكي (ص: ٢٦٤)، الموسوعة القرآنية لإبراهيم الأبياري (٢/ ٢٠٣)، مؤسسة سجل العرب.

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥١)، وانظر: أدب الخطاب في القرآن الكريم (ص: ١٠٩)، د. عبد الرحمن سعود أبداح، دار دروب.

والسلام كما بلغ آيات القرآن كلها سواء ما صدر منها بـ ﴿قُلۡ﴾ أو لم يصدر، فعلم أنها للتشريف.

وكذا قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٠] فكلا الآيتين مضمونهما واحد كما ترى، ولكن الأولى صُدِّرت بقل والثانية لم تصدَّر.

وكذا قوله ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج: ٤٩]، وجاء مضمون ذلك في آيات أخرى كثيرة غير مصدرة بقل كقوله: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١١٥]، وقوله ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، إلى غيرها من الآيات الكثيرة.

## يستحيل أن يقول النبي للناس: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كما هو ظاهر بعض الآيات

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الزمر: ١٠]، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، فكلاهما خطاب مباشرٌ من الله لعباده المؤمنين بأن يتَّقوه ويعبدوه، بيد أن الأولى مصدَّرة بـ﴿قُلۡ﴾، والثانية غير مصدَّرة بها، وهذا كما قلنا لا يغيِّر من الأمر شيئاً، وهو أن النبي مأمورٌ بتبليغهما معا، وقد فعل ﷺ.

وكان المفروض أن تكون آية الزمر المصدَّرة بـ ﴿قُلۡ﴾ هكذا: قل يا عباد الله الذين آمنوا اتقوا ربكم.. وكذا يقال في قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ...﴾ [الزمر:

٥٣]، فكان المفروض أن تكون بصيغة: «قل يا عباد الله الذين أسرفوا...»، فلما جاءت آيتا «الزمر» بصيغة الخطاب المباشر من الله على الرغم من تصديرهما بـ﴿قُلْ﴾: دلَّ ذلك بشكلٍ قاطعٍ على أنَّ ﴿قُلْ﴾ للتشريف، وليس هي أمراً بقول ما بعدها؛ لأنه يستحيل أن يقول النبي للناس: «يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم»، أو يقول: «يا عبادي الذين أسرفوا...»، وإنما النبي مأمور بتبليغهما معا كما أنزلتا أي مع لفظة ﴿قُلْ﴾، وهكذا كل القرآن مأمور بتبليغهما سواء صُدِّرت آياته بقل، أو لم تصدَّر بها.

## لا يراد بنحو قوله ﴿قُلْ مَن رَّبُّ...﴾ أن يسألهم وإنما أن يبلغهم بها

وكذا يقال في بعض آيات الباب الثمانية التي صُدِّرت بـ﴿قُلْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، فقد جاءت آياتٌ أخرى مماثلةٌ فيها سؤالٌ عن الخالق، ولكن بغير ﴿قُلْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وكذا قوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]، والنبي مأمورٌ بأن يبلِّغ كل هذه الآيات التي تضمَّنت السؤال عن الخالق سواء صدِّرت بقل أو لم تصدَّر؛ وذلك بأن يقرأها كما أُنزلت على الناس مؤمنهم وكافرهم.

فثبت بما تقدم أن قوله تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ ونحوه ليس المراد به أن يذهب ويسألهم، وإنما هو مأمورٌ بأن يبلغهم ذلك؛ بأن يقرأ عليهم وعلى غيرهم تلك الآيات وغيرها سواء آمنوا بها أم لم يؤمنوا، وسواء تجاوبوا معها ام لا. وننتقل إلى:

## سؤال النبي إياهم عن الخالق يخالف نظريتكم في أن الرسل لم تبعث بتوحيد الربوبية

**السبب الثاني**: أنه يخالف أصل نظرية تقسيم التوحيد وهو أن الرسول وسائر الرسل قد «بعثوا بالدعوة إلى توحيد العبادة، لا بالدعوة إلى توحيد الربوبية، فليس هناك آية واحدة قالت أقروا بالربوبية[(١)]... لأن الفِطَر تقتضيه...»[(٢)]، و«جميع بني آدم مفطورون على الإقرار به»[(٣)]، فإذا كان الإقرار بالخالق أمراً مفطوراً عليه، ومجمعاً عليه بين البشرية كافة، ولم يأت من أجله الرسل عليهم السلام، فلماذا يؤمر النبي بسؤالهم عن الخالق من هو؟!!

## بطلان زعم التدرج بهم من توحيد الربوبية إلى الألوهية

**إن قلتم**: هو سألهم عن توحيد الربوبية ليقيم عليهم الحجة في مسألة توحيد الألوهية ويتدرج بهم إلى الإقرار به، لأن توحيد الربوبية «يستلزم توحيدَ الألوهية»[(٤)]، إذ «من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو

---

(١) طبعا وهذا غير صحيح، بل ثمة آيات تدعوا إلى الإيمان بربوبية الله، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨]، وهذا بسطناه في فصلٍ مستقل من كتابنا الكبير وسيطبع لاحقاً بحول الله.

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للفوزان (١/ ٥٢).

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٧٥).

(٤) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية للدكتور عثمان ضميرية (ص: ٢٢٦).

المستحق لأن يعبد وحده»[1]، فإن «المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة»[2]، وعليه فإنه حين يسألهم عن الخالق فيقولون بأنه الله فهذا يُلزمهم أن يُقروا بتوحيد الألوهية، وبالتالي فإن سؤالهم عن الخالق ليس مراداً لذاته، أي لا ليقروا بتوحيد الربوبية لأنه تحصيلٌ حاصل، إذ إنهم يقرون بذلك من غير سؤال، وإنما هو خطوة ليُقروا بعده بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه.

**قلنا**: هذا غيرُ صحيحٍ لوجوه:

**الوجه الأول**: أنه مبنيٌّ على مقدِّماتٍ غير مسلَّمة:

أولها: تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية. وهذا هو محل النزاع أصلاً، فكيف يُجعل مقدمة مسلَّمة يُبنى عليها.

وثانيها: أن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية، وهذا أيضاً غير مسلَّم، بل هذا نقضناه في مبحثٍ مطوَّل من كتابنا الكبير من نيفٍ وعشرين وجها[3].

**الوجه الثاني**: أننا لو سلمنا بكل هذا الذي قلتم، فإن النتيجة التي رتبتم عليها كل هذه المقدمات وكل هذه المزاعم: لم تحصل! وهي أن يقروا بتوحيد الألوهية بعد أن يقروا بتوحيد الربوبية بحجة أن الأول لازمٌ للثاني، فهذا الإقرار لم يحصل منهم.

وبيانه أننا لو فرضنا جدلاً أن المقصود بآيات الباب الثمانية هي أن يذهب النبي ﷺ ليسأل المشركين عن الخالق ليتدرج بهم ليقروا بتوحيد

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣/ ٤٩٠).
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي (٣/ ٤٩٣)، ونقله عن الشنقيطي البدرُ في القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٢٧).
(٣) وسيطبع هذا المبحث لاحقاً في كتابٍ مستقلٍّ إن شاء الله.

الألوهية بعد أن يقروا بتوحيد الخالقية، وفرضنا أنه ذهب فعلاً وسألهم عن الخالق وأنهم أجابوا فعلاً أنه الله، بل أجابوا بأنه الله وحده.

فلو فرضنا أن كل هذا حصل فإن النتيجة التي زعمتم أنها تترتب على هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام وعلى ذلك الجواب منهم لم تحصل وهي الإقرار بتوحيد الألوهية، فالقوم لم يقروا بتوحيد الألوهية بعد سؤالهم عن الخالق وبعد جوابهم بأنه الله، لأنهم بقوا على شركهم في الألوهية من عبادة الأصنام وحاربوه على ذلك، فما الفائدة إذن من تلك الآيات طالما أن المراد منها لم يحصل؟!

**فإن قيل**: بل حصل المقصود منها، لأن المقصود منها هو إقامة الحجة عليهم وهو أنهم إذا أقروا بتوحيد الربوبية يجب أن يقروا بتوحيد الألوهية لأن «من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده»[(١)].

وأمَّا كونهم يصرُّون بعد ذلك على الشرك في الألوهية فهذا من شدة عنادهم وغطرستهم، ولا يعني أن النتيجة أو المقصود من تلك الآيات لم يحصل بل حصل بإقامة الحجة عليهم، والرسول ما عليه إلا البلاغ وإقامة الحجة كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾[الأنفال: ٤٢]، وقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٨]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

**قلنا**: حتى لو سلمنا المقصود هو إقامة الحجة، فالحجة لا تقوم عليهم بهذا الذي قلتم لأمرين:

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣/ ٤٩٠).

**الأمر الأول**: لأنهم لا يسلِّمون بتوحيد الربوبية، ولو كانوا يسلمون به لسلموا فوراً بتوحيد الألوهية، لأنه لازم عن الأول حسب كلامكم أنتم[(١)].

**والأمر الثاني**: أنهم عبدوا الأصنامَ لشبهاتٍ استقرت عندهم، ككونها شفعاء ونحو ذلك، وآيات الباب الثمانية لا تتعرَّض لتلك الشبهات، وإنما أجابهم عنها البيان الإلهي في آيات أخرى كما سنبسطه، وبالتالي فالحجة لزمتهم من تلك الآيات الأخرى لا من آيات الباب الثمانية.

## هل ستعتبرون آية ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ تدرجاً بالنبي من توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية؟!!!

**الوجه الثالث - وهو الأهم -**: أن ثمة آيات أخرى مشابهة لآيات الباب الثمانية، جاء فيها السؤال عن الخالق ولم يجب المشركون فيها بشيء وإنما أمر الله رسوله أن يجيبه كقوله ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤]، وقد سبق بسط الكلام عن هذه الآية وأمثالها[(٢)]، وكلها تنقض ادعاءكم القائل بأن السؤال في الآيات الثمانية عن الخالق إنما هو ليستدرجهم من الإقرار بتوحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية!!

(١) وفي ذلك يقول الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٤٩٠): «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيد في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم منكِراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده». اهـ.

(٢) انظر (ص: ٥٠).

وبيان ذلك أن آيات «الأنعام» وأمثالها التي سبقت، والتي فيها سؤال عن المغيث والمنجي وعن الخالق والرازق والرب والمالك، وليس فيها جوابٌ من المشركين مطلقا، أي لا جواب محقق ولا حتى معلق، ولا جواب حالي ولا مستقبلي، بخلاف آيات الباب الثمانية حيث فيها جوابٌ معلَّقٌ مستقبليٌ من المشركين.

أقول هذه الآيات التي في سورة الأنعام وغيرها مما سبق، والتي لا جواب فيها من المشركين أصلا، وإنما فيها أمرٌ من الله للنبي بأن يجيب بأن المغيث والخالق والرب والرازق هو الله، لو كان الأمر كما تزعمون وهو أن الآيات الثمانية - كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾ جاءت لإقامة الحجة عليهم في توحيد الألوهية أو ليتدرج بهم من الإقرار بتوحيد الربوبية إلى الإقرار بتوحيد الألوهية: لما كان لهذه لآيات الخمسة معنى سوى أن تقولوا أو تلتزموا أن الله أراد أن يقيم الحجة على نبيه في توحيد الألوهية ليقر به، بأن يتدرج بنبيه من الإقرار بتوحيد الربوبية ليصل به إلى أن يقر بتوحيد الألوهية!!

فهل كان النبي ﷺ لا يقر بتوحيد الألوهية أي لا يقر بأنه لا إله إلا الله حتى يجعله اللهُ يقرُّ بذلك من خلال إقراره بتوحيد الربوبية؟!! حاشاه ﷺ، كيف؟ وهو قد بُعث مع سائر الأنبياء بلا إله إلا الله كما في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فقد دلت الآية على أن الله قد «بعث رسله، وأنزل كتبه، لإخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة»[(١)]، و«كانت أول دعوتهم إلى: توحيد الألوهية»[(٢)]، كيف؟ وقد «تواتر عنه ﷺ أنه أول ما دعا الخلقَ إلى شهادة أن

(١) دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ٣٣٦).
(٢) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٩٥).

لا إله إلا الله وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله..»»(١).

## المقصود بآيات الباب الثمانية إثبات التوحيد والرسالة والبعث

**الوجه الرابع**: أن المقصود بآيات الباب الثمانية ليس فقط إثبات ما تسمونه توحيد الألوهية، وإنما المراد به إثبات التوحيد والرسالة والبعث، والتوحيد المراد إثباته هنا ليس هو فقط ما يسمى بتوحيد الألوهية وهو أن يعبدوه وحده، بل المراد إثباته أيضا هو توحيد الربوبية؛ بأن ينسبوا الخلق والتأثير والضر والنفع لله تعالى وحده، وأن لا ينسبوا له البنات والأولاد، هذا خلاصة ما ذكره المفسرون ودلت عليها سياق آيات الباب، وفيما يلي بسط ذلك:

## سياق آيات سورة المؤمنون كان لإثبات البعث

أما إثبات البعث فدل عليه سياق آيات المؤمنون فقد قال فيها: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٤]، فتأمل كيف بدأت الآيات بالحديث عن إنكارهم للبعث، ولذلك جاء في تفسير الرازي بعد سرد آيات المؤمنون: «اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات **الرد على**

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٥٦).

**منكري الإعادة** وأن يكون المقصود الرد على عبدة الأوثان، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله زلفى**!!**».

ثم إنه سبحانه احتج عليهم **بأمور ثلاثة**: **أحدها**: قوله: قل لمن الأرض ومن فيها، ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى **لما كان خالقاً للأرض ولمن فيها من الأحياء**، وخالقاً لحياتهم وقدرتهم وغيرها، **فوجب أن يكون قادراً على أن يعيدهم** بعد أن أفناهم»[(١)].

«ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان، من حيث إن عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع...»[(٢)].

وكذا قوله تعالى ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: «أفلا تذكرون فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء، **فهو قادر على إحيائهم** بعد مماتهم وإعادتهم خلقا سويا بعد فنائهم؟»[(٣)].

أو «أفلا تذكرون أي أفلا تتعظون بعد هذا الاعتراف فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعا، **كان قادرا على إعادة الخلق**، **حقيقا بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية** واستحقاق العبادة لأن المستحق لها هو الرب الخالق دون الرب المربوب المخلوق الذي لا يضر ولا ينفع... وأنا لا أدعوكم إلا إلى أن **توحدوه وتخلصوا** العبادة له تعالى»[(٤)].

أو «أفلا تذكرون أي أتعلمون ذلك أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أن من

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ١١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ١١٦).

(٣) جامع البيان (١٧/ ٩٨).

(٤) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي (٣/ ٤٠٩).

فطر الأرض وما فيها ابتداءً **قادرٌ على إعادتها ثانياً** فإن البدء ليس بأهون من الإعادة»[1]، «بل الأمر بالعكس في قياس المعقول»[2].

وأما قوله «﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾: يقول: فمن أي وجه تصرفون عن التصديق بآيات الله، والإقرار بأخباره، وأخبار رسوله، **والإيمان بأن الله القادر على كل ما يشاء وعلى بعثكم أحياء بعد مماتكم**، مع علمكم بما تقولون من عظيم سلطانه وقدرته؟»[3].

وقال القرطبي: «﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ **كنه قدرته وربوبيته ووحدانيته**، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه، **وأنه قادر على البعث**... ف﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أفلا تتعظون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداءً **فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر**»[4].

فأنت ترى أن سباق الآيات وسياقها يتكلم عن البعث الذي ينكرونه، أي أن الآيات جاءت لإثبات البعث وإثبات قدرة الله على إحياء الموتى، فكيف يقال بعد هذا بأنهم يقرون بأن المحيي المميت هو الله؟! إذن لماذا أقام الله الحجة على إمكان البعث وقدرة الله على ذلك؟ بل لماذا شكَّكوا أصلاً بالبعث وقدرته على إحياء الموتى؟!

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٧).

(٢) تفسير الألوسي «روح المعاني» (٩/ ٢٥٧)، «روح البيان» (٦/ ١٠٠)، التفسير الوسيط، مجمع البحوث (٦/ ١٣٢٤).

(٣) جامع البيان (١٧/ ١٠٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٥/ ٧٨).

# دعوى أن القرآن يثبت توحيد الألوهية عن طريق إثبات توحيد الربوبية

**فإن قلتم**: نعم السياق يدل على البعث، ولكن يدل أيضاً على إثبات توحيد الألوهية بعد أن يقررهم بتوحيد الربوبية ليستدرجهم إلى توحيد الألوهية.

وفي ذلك يقول السعدي: «﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، أي: **قل لهؤلاء المكذبين بالبعث**، العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه، **وأقروا به، من توحيد الربوبية**، وانفراد الله بها، **على ما أنكروه من توحيد الإلهية** والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، **على ما أنكروه من إعادة الموتى**، الذي هو أسهل من ذلك»[1].

**قلنا**: قولكم «...محتجاً عليهم بما أثبتوه، وأقروا به، من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة» غير مسلَّم لما سبق بيانه، بل هذا مصادرة على المطلوب، ويمكن أن يعارَض بالقول بأن الآيات جاءت لإثبات توحيد الربوبية والألوهية، ولذا قال «أفلا تتقون عبادة غيره دونه، وإشراك غيره في ألوهيته **وربوبيته**»[2]، وقال: «فأنَّى تصرفون أيها الحمقى المسرفون المفرطون، وكيف تنصرفون وترجعون الى غيره من الأظلال الهالكة المستهلكة، وتنسبونها الى الألوهية **والربوبية** ظلماً وعدوانا»[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٥٧).

(٢) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٣٨).

(٣) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية (١/ ٣٣٢)، =

هذا بالنسبة للسباق والسياق، وأما اللحاق، فقد دل على ذلك أيضاً لحاق الآيات فإن الله بعد أن قال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٠ - ٩٢]، أي «بل أتيناهم بالحق من **التوحيد والوعد بالنشور**. وإنهم لكاذبون حيث أنكروا ذلك. ما **اتخذ الله من ولدٍ** لتقدسه عن مماثلة أحد. وما كان معه من إله يساهمه في الألوهية. إذاً لذهب كل إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض جواب محاجتهم»[1]، و«قوله: «من التوحيد والوعد بالنشور» من **التوحيد بنفي الولد** أو ما فهم من سياق ما قبله..»[2].

وقوله: «وإنهم لكاذبون فيما يدعونه من الشرك **والولد وإنكار البعث** ونحو ذلك مما يخالف ما أتيناهم به من الحق ثم صرح في جملة ما كذبوا بإعادة قول بعض الكفار **والملائكة بنات الله** وزعم آخرين أن الأصنام آلهة وكذبهم فيهما بقوله ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾»[3].

وقال ابن القيم «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البيّن **فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً** يوصِل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، **فلو كان معه سبحانه إله لكان له خَلَق وفعَل**، وحينئذٍ فلا يرضى شركة

---

= نعمة الله بن محمود النخجواني (ت ٩٢٠ هـ)، دار ركابي، مصر، ط١، ١٩٩٩م.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٩٤).

(٢) عنايه القاضي وكفاية الراضي (٦/ ٣٤٣).

(٣) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي (٣/ ٤١٠).

الإله الآخر معه. . .»، إلى أن يقول بأن هذا: «**من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره**»(١). اهـ.

وأطال ابن القيم في ذلك وسيأتي كلامه بتمامه، وكلامه وكلام من سبقه بيِّنٌ واضحٌ في أن الآية السابقة ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جاءت **لإثبات ما يسمى بتوحيد الربوبية**، وبالتالي فكيف يقال إن الآيات التي قبلها وهي ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾ فيها إقرارُ المشركين بتوحيد الربوبية لينقلهم بإقرارهم هذا إلى توحيد الألوهية؟!

هذا غير صحيح لسببين:

**الأول**: أنهم لو كان مقرِّين بتوحيد الربوبية في تلك الآيات الأولى وهي ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾، لما أتبعها بالبرهان عليه في الآيات الأخرى وهي. . . ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

**الثاني**: بأنه لو كان المقصود من الآيات الأولى إثبات توحيد الألوهية بأن يعبدوه وحده فهذا إنما يتأتى لهم بعد أن يعتقدوا بأنه لا يستحق العبادة سواه تعالى، وهذا بدوره لا يتأتى لهم إلا بعد أن يعتقدوا بأنه تعالى وحده هو الخالق وحده، وأنه وحده بيده الضر والنفع والعطاء والمنع، فإن اعتقدوا ذلك كله فلن يعبدوا سواه تعالى، بل هذا سيكون تحصيلٌ حاصل، لأنهم ما عبدوا أصنامهم إلا بعد أن اعتقدوا كونها مستحقة للعبادة لأنهم «**كانوا يتصورون أن هذه الآلهة لديها قدرات**، كما يقع عند بعض من **يشركون في الربوبية**، حيث يعتقدون أن هؤلاء **لهم قدرات مستقلة** يؤثرون في العالم بسببها، **فهذا شرك في الربوبية**»(٢). اهـ.

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٨١).
(٢) شرح كتاب التوحيد لعبد الرحيم السلمي (٨/٥، ت. ش).

ولشركهم في الربوبية أثبت الله لهم أنه واحد في ربوبيته حتى يوحدوه في العبادة، وهذا ما فعلته آيات سورة «المؤمنون» السابقة، وليس كما زعمتم من أنها تدرجت بهم فاحتجت عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية للتوصل بهم إلى توحيد الألوهية.

بل بعضهم كانوا يزعمون بوجود شريك قديم يُعبد معه**!!** وفي ذلك يقول الطبري: «وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون من أن له ولدا، **وعما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القِدم إلها يُعبد تبارك وتعالى**»[1]. اهـ. وسيأتي كلامه بتمامه مع التعليق عليه**!!**

## خلاصة الاعتراض الأول

**وخلاصة الاعتراض الأول** هو أن النبي ﷺ لا بد أن يكون سألهم عن الخالق لأن الله أمره بذلك، ولا بد أن يجيبوا بأنه الله، فيكون إقرارهم محققاً لا معلقا، غاية ما في الأمر أنه سيتحقق مطلقاً في المستقبل بخبر الله.

وخلاصة الجواب عن هذا الاعتراض أنه غير مسلم، لأن ﴿قُلۡ﴾ ليست على ظاهرها إنما هي خطاب تشريفٍ للأمة كما سبق، أي ليس المراد منها أن يذهب ويسألهم عن الخالق بدليل أن بعض الآيات تسألهم عن الخالق وليس فيها كلمة ﴿قُلۡ﴾، وكما قلنا فإن النبي مأمورٌ بتبليغ كل القرآن سواء ما كان منها مصدَّرا بكلمة ﴿قُلۡ﴾ أو ما ليس مصدراً بها.

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠١).

## الجواب عن قول التفتازاني أن السؤال في آيات الباب الثمانية محقق

وقبل أن ننتقل إلى الاعتراض الثاني نجيب عن كلام التفتازاني السابق «ليقولن الله: أى: خلقهن الله؛ فحذف المسند لأن هذا الكلام عند تحقق ما فرض من الشرط والجزاء يكون جواباً عن **سؤالٍ محقق**»(١). فأفاد أن سؤال النبي ﷺ لهم عن الخالق أمر محققٌ وإن كان هو في الظاهر سؤالاً معلقاً أو مشكوكاً في حصوله.

والجواب ما قاله العلامة الدسوقي في حاشية على التفتازاني: «قوله: (لأن هذا الكلام إلخ) علة لمحذوف أى: وصح التمثيل بالآية لوقوع الكلام **جواباً لسؤالٍ محقق**؛ لأن إلخ، وهذا جواب عما يقال التمثيل بهذه الآية لا يصح، **إذ السؤال فيها غير محققٍ**، بدليل التعبير **بأن التى للشك فقوله: إن سألتهم قضية شرطية لا تقتضى الوقوع ولا عدمه**، فلا يصح التمثيل بالآية لحذف المسند للقرينة المذكورة إلا لو قيل الله فى جواب من خلق وكان ذلك **السؤال وقع بالفعل**».

ثم يقول الدسوقي: «**وحاصل ما أجاب به الشارح** أن المراد بكون الكلام جواباً **لسؤالٍ محقَّق أنه إذا تحقق ما فرض من السؤال** يكون الكلام جواباً عنه، **ولا شك أن السؤال هنا محقَّقٌ على تقدير أنهم سئلوا به، فأجابوا بذلك الكلام عنه**؛ لأنه لو فرض أنهم سئلوا، وأجابوا بذلك لكان جوابهم هذا جواباً بالسؤال المحقق، **فالمراد بكون السؤال محققاً تحققه ولو باعتبار الفرض**»(٢). اهـ.

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (٢/١٨).

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (٢/١٨).

إلى أن يقول «أي: أنه **لو فرض أن النبى قال لهم من خلق السموات والأرض**، وقالوا له: الله، كان قولهم: «الله» الذي هو الجزاء: جواباً **لذلك السؤال المحقق كونه سؤالا**»[1].

ولعل حاصل ما سبق هو قول الدسوقي: «فالمراد بكون **السؤال محققاً تحققه ولو باعتبار الفرض**»، أي أن قول التفتازاني بأن «السؤال محقق» مؤول؛ حتى لا يخالف ظاهر الآية التي تدل على أن السؤال هنا أمر مشكوك فيه كما تدل عليه أداة الشرط «إن» على قول بعض العلماء كما سبق بيانه، وبالتالي هذا يدعم ما قلناه من أن الإقرار الذي في الآية هو إقرار مفترض لأنه مبني على سؤال مفترض كما حقق ذلك العلامة الدسوقي. والله أعلم.

## الاعتراض الثاني: إن الآية دلت على إيمانهم القلبي بالله على أقل تقدير.

**وبيان ذلك أن يقال**: هبْ أن النبي ﷺ لم يسألهم عن الخالق ولم يجيبوه بأنه هو الله، لكن الله يعلم أنهم لو سئلوا لقالوا وأقروا بأن الله هو الخالق، وهذا يدل على أنهم يعلمون في قلوبهم بأن الله هو الخالق ويؤمنون بذلك، فهذا أقل ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحوه من آيات الباب.

**قلنا: نعم**، هذا القَدْر قد تدل عليه آيات الباب وهو ما صرح به **الزمخشري** في تفسيره لآية «سبأ» حيث قال كما سبق: أمره بأن يُقرِّرهم بقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. **وذلك بالإشعار بأنهم مقرُّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن**

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (٢/ ١٩).

**يتكلموا به**؛ لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد **وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق** مع علمهم بصحته. اهـ.

ولكن غاية ما يفيده هذا أن قلوب كثيرٍ منهم أو معظمِهم مصدِّقةٌ بأصل فكرة وجود الله الخالق، ولكن لعنادهم وشركهم أبوا أن ينطقوا بأن الله ربهم وخالقهم، بل هم أخرجوا المؤمنين لقولهم: ربنا الله!! فأين إقرارهم بتوحيد الربوبية إذن؟!

هذا فضلاً عن أن عقيدتهم في الله فيها خللٌ كبير، فهم يشكُّون في قدرته تعالى وسمعه وبصره وعلمه وإرادته كما بسطناه في موضعه[1]، هذا فضلاً عن تشككهم أحياناً أو تشكك بعضهم على الأقل بوجود الله نفسه كما في حديث جبير بن مطعم كما بسطناه سابقا[2]، أي أن إيمانهم بالله ليس إيماناً يقينيًّا لأنه مبنيٌّ على التقليد كما بسطناه في موضعه[3].

## الإيمان القلبي لا يكفي ما لم يقترن بالإقرار باللسان

أضف إلى كل ذلك أن هذا كله مجرد معرفةٍ قلبيةٍ بوجود الله، وهذا لا يكفي في الإيمان بل لا بد من شرطين آخرين لم يتحقَّقا عند المشركين.

**الأول**: الإذعان لهذه المعرفة، وهذا سيأتي تقريره.

**وأما الثاني** وهو: الإقرار باللسان، فلا يكفي في الإيمان ما وقر في القلب بل لا بد أيضاً من الإقرار باللسان، فـ«**التصديق لا يتحقق إلا بالمعرفة**

---

(١) انظر (ص: ٩٢).

(٢) انظر (ص: ٤١٥).

(٣) انظر (ص: ٤٢٢).

والإقرار»(١) **بل يمتنع «وجود التصديق بالقلب وتحققه إلا مع الإقرار باللسان»(٢) كما قال ابن تيمية**، بل أضاف أيضا: «إن الإيمان معرفة بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان»(٣)، «**وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً** يوجب الثواب يوم القيامة بلا قولٍ ولا عملٍ ظاهرٍ، **وهذا باطلٌ شرعاً وعقلاً**. وقد **كفَّر** السلف كوكيع وأحمد وغيرهما من يقول بهذا القول»(٤). بل «**من صدَّق بقلبه ولم يتكلم بلسانه** فإنه لا يتعلق به شيءٌ من أحكام الإيمان لا في الدنيا ولا في الآخرة»(٥).

**وقد قال الفضيل بن عياض**: «أهل الإرجاء يقولون: «الإيمان قول لا عمل»، **وتقول الجهمية: «الإيمانُ: المعرفةُ بلا قولٍ ولا عمل»**، ويقول أهل السنة: «الإيمان المعرفة والقول والعمل»»(٦). **وروى الخلال بسنده عن** أحمد بن حنبل أنه قال: «والجهمية تقول: **إذا عرف ربه بقلبه وإن لم تعمل جوارحه، وهذا كفرُ إبليسَ قد عرف ربه**، فقال: رب بما أغويتني»(٧).

**وقول الجهمية بأن الإيمان هو المعرفة بالقلب فاسدٌ جداً** «**فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين**: فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون، ولم يؤمنوا بهما.. وأهل الكتاب كانوا **يعرفون النبي** ﷺ كما يعرفون أبناءهم، **ولم يكونوا مؤمنين به، بل كافرين به**. معادين له، وكذلك أبو طالب عنده يكون

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٥١٢).
(٢) الفتاوى الكبرى (٦/ ٥١٢).
(٣) الفتاوى الكبرى (٦/٥٠٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٢١).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٠) و(٧/ ٥٨٥) و(٧/ ٥٩٦).
(٦) تهذيب الاثار مسند ابن عباس (٢/ ٦٦٠).
(٧) السنة للخلال (٣/ ٥٧٠)، قال محقق الكتاب: إسناده صحيح.

مؤمنا، فإنه قال: **ولقد علمت بأن دين محمد.. من خير أديان البرية دينا..** بل إبليس يكون عند الجهم مؤمنا كامل الإيمان! فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف به، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾[١]. اهـ.

وقول جهم هذا «**هو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة** وقد تقدم أن الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظاهر»[٢]. فمن «صَدَّق **ولم يتكلم بلسانه بالإيمان** مع قدرته على ذلك، ولا صلى، ولا صام، ولا أحب الله ورسوله، ولا خاف الله؛ بل كان مبغضاً للرسول معادياً له يقاتله؛ أن **هذا ليس بمؤمن**. كما قد علمنا أن الكفار من **المشركين وأهل الكتاب** الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله وفعلوا ذلك معه»[٣].

وهكذا نرى أن ابن تيمية - وغيره - يقرر أن المعرفة فقط ليست إيماناً ما لم تقترن بالإقرار باللسان، فجعل الإقرارَ ركناً من أركان الإيمان، وهو أحد قولي الأشاعرة، فقد اختلفوا في الإقرار هل هو شرطٌ أو شطر[٤]، بيد أن أتباع ابن تيمية أنكروا على الأشاعرة مجرد اختلافهم هذا، وعابوا عليهم أنهم لم يجعلوا الإقرار باللسان ركناً في الإيمان قولاً واحداً دون اختلاف إذ «مجرد اختلافهم - أي اختلاف الأشاعرة - في النطق يغني عن ذكر شذوذهم في نفي العمل، لأن خروج العمل عن الماهية أولى بلا ريب، ولأن من

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٤٦٠)، تحقيق الأرناؤوط.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٩)، ومقالات الجهم بن صفوان وأثرها في الفرق الإسلامية (١/ ٢٧٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٣١).

(٤) كما قال صاحب الجوهرة:

وَفُسِّرَ الْإِيمَانُ: بِالتَّصْدِيقِ وَالنُّطْقُ فِيهِ الْخُلْفُ بِالتَّحْقِيقِ

فَقِيلَ: شَرْطٌ كَالْعَمَلْ. وَقِيلَ: بَلْ شَطْرٌ، وَالاسْلَامَ اشْرَحَنَّ بِالْعَمَلْ

انظر: حاشية الإمام البيجوري على جوهرة التوحيد (ص: ٩٠)، طبعة دار السلام.

أخرج الركن الأول من أركان الإسلام - أي النطق بالشهادة[1] - أو أجاز خروجه فهو لما بعده أضيع»[2]. اهـ.

**ولذلك فإن** «الأشاعرة في الإيمان مرجئة جهمية أجمعت كتبهم قاطبة على أن الإيمان هو التصديق القلبي، **واختلفوا في النطق بالشهادتين أيكفي عنه تصديق القلب أم لا بد منه**»[3]. اهـ. **بل قول الأشاعرة هذا** «أشد بدعةً من مرجئة الحنفية الذين يطلق عليهم (مرجئة أهل السنة)، أو (مرجئة الفقهاء). بل نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أنهم أبعدُ قولًا من الكرامية الذين يقولون: إن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط. **فهم في هذه المسألة على أسوأ الأقوال، وأكثرها بدعةً وضلالًا**، وهو قول جهم.. وبعد إجماعهم على هذا، **اختلفوا في النطق باللسان، أهو واجبٌ**، أم يكفي مجرد حصول **التصديق القلبي** الذي هو مجرد كلام النفس!!. قال في (الجوهرة): وفسِّر الإيمان بالتصديق والنطق فيه الخلف بالتحقيق»[4].

وأهل الحديث قاطبةً، بمن فيهم «مرجئة أهل السنة، **يخالفون الأشاعرة والماتريدية في جعل الإقرار باللسان رُكْناً من الأركان** وليس على الخلاف الذي ذكرته في كلامك»[5]. **وعليه** «يُعتبر الأشاعرة والماتريدية مرجئةً في الإيمان حيث أخرجوا العمل من حقيقة الإيمان، **وجعلوه مجرد التصديق القلبي**»[6].

---

(١) ما بين مزدوجين هنا وما قبله من كلامي.
(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي للحوالي (ص: ٣٣١).
(٣) منهج الأشاعرة في العقيدة، تعقيب على مقالات الصابوني (ص: ٣٩).
(٤) منهج الأشاعرة في العقيدة، الكبير (ص: ٢٠٣)، وانظر: الرد على الحوالي في منهج الأشاعرة في العقيدة بين الحقيقة والأوهام (ص: ١١٥)، وعقائد الأشاعرة (ص: ٧٩).
(٥) الرد الشامل على عمر كامل للدكتور عبد الله الموجان (ص: ١٣٥)، الناشر: مركز الكون، ط١/٢٠٠٦.
(٦) حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين (ص: ٤٦٢).

**وعليه** «نستخلص أن عامة الأشاعرة والماتريدية قد أخرجوا جميع أعمال الجوارح بما في ذلك النطق بالشهادتين من الإيمان، **فالمؤمن عندهم من يصدق الله ورسوله بقلبه وإن لم ينطق بلسانه** أو تتحرك جوارحه لله..»[1] فقد قال الإمام أحمد: «من قال **إن المعرفة تنفع في القلب من غير أن يتلفظ بها فهو جهمي**»[2]، «وهذا القول هو قول عامة الأشاعرة والماتريدية»[3].

**والحاصل من هذه النصوص هو** إنكار السلفية والوهابية على الأشاعرة لأنهم لم يجعلوا النطق بالشهادة من الإيمان، ونحن لسنا بصدد التعرض لهذه المسألة فليس هذا محلها ولكن فقط نذكر أنه لا داعي لهذه الحملة الشعواء على الأشاعرة بعد معرفة مذهبهم في هذه القضية الذي بسطه الزركشي فقال: «قال الأشاعرة: ولا يكفي مجرد التصديق **بالقلب مع القدرة على الإقرار باللسان ولا ينتفي الكفر إلا بهما**، لأن **القول مأمور** به كالعقد قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية. وقال عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»، **فلا بد من العقد والقول جميعا**، وعلى هذا فالتلفظ شرط لا ركن، فمن صدق بقلبه ولم يتلفظ بالشهادتين **إن عجز عن التلفظ لخرس** أو اقتران منية قبل التمكن منه فهو **من الناجين**، وإن قدر عليه بأن عُرض عليه **التلفظ وأبى لم ينفعه التصديق القلبي** بالاتفاق كأبي طالب».

ثم قال الزركشي: «وإن لم يُعرض عليه أو لم يتفق له التلفظ ومات

(١) مقالات الجهم بن صفوان وأثرها في الفرق الإسلامية لياسر قاضي (١/ ٢٧٨).
(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية (ص: ٥١٥).
(٣) مقالات الجهم بن صفوان وأثرها في الفرق الإسلامية لياسر قاضي (١/ ٢٧٨).

مصدقاً بقلبه فالجمهور على أن مجرد التصديق لا ينجيه والحالة هذه ومال الغزالي إلى أنه ينجيه، وقال: كيف يعذب من قلبه مملوء بالإيمان وهو المقصود الأصلي؟ غير أنه لخفائه يناط الحكم بالإقرار الظاهر، وعلى هذا فهو مؤمن عند الله تعالى غير مؤمن في أحكام الدنيا»(١). اهـ.

فأنت ترى كيف يصرح الأشاعرة بأنه «**لا يكفي مجرد التصديق بالقلب مع القدرة على الإقرار باللسان ولا ينتفي الكفر إلا بهما** «وأين هذا من قول جهم من أن الإيمان هو مجرد المعرفة بالقلب حتى ولو كفر بلسانه وأبى أن ينطق بالشهادة اختيارا؟!

## اختيار ابن تيمية لقول الجهمية في الإيمان حين جعل المشركين موحدين في الربوبية

والمفارقة أن هذا الذي ذهب إليه جهم هو عين ما سلكه ابن تيمية وأتباعه هنا!! حيث جعلوا مشركي العرب وسائر المشركين الآخرين مقرين ومؤمنين بأنه لا خالق إلا الله مع أنهم لم ينطقوا بذلك!!

أي أن المشركين لم يقولوا بألسنتهم لا خالق إلا الله، ولا دلت على ذلك آياتُ الباب الثمانية التي سردها ابن تيمية كدليل على أن المشركين موحدون بألسنتهم في الربوبية، وإنما غاية ما تدل عليه أنهم عارفون بقلوبهم بالله، فاكتفى ابن تيمية بهذه المعرفة القلبية - كما هو مذهب الجهمية - فجعل المشركين مقرين بتوحيد الربوبية!!!

---

(١) تشنيف المسامع بجمع الجوامع (٤/ ١٨٤)، وانظر الغيث الهامع شرح جمع الجوامع (ص: ٧٧٠).

# لو طردنا مذهب ابن تيمية لكان المشركون موحدين في الألوهية أيضاً

هذا فضلاً عن أن هذا المنهج لو طُرد في توحيد الألوهية لكان المشركون موحدين في الألوهية أيضا!! لأن المشركين وإن أبوا أن يقولوا لا إله إلا الله بألسنتهم، فإنهم كانوا يعلمون «أنه لا رب غيره، **ولا إله سواه**»(١)، إذ «**إن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله** وأن محمدا عبده ورسوله»(٢)، ولذا فإن المشركين يوم القيامة يقولون ﴿يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، فالقوم **كانوا يعلمون** أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله... فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن **الشرك باطل**، وانما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله»(٣).

إذن فالمشركون كانوا يعلمون أنه لا إله إلا الله، وأن هذا حقٌّ مركوزٌ في فطرهم «ولم يُقِرُّوا لمحمد بأنه **رسول الله مع تحققهم صدقه**، وتيقنِهم صحةَ رسالته»(٤)، إذن هم يعلمون أيضا أن محمداً رسول الله كما بسطناه في موضع آخر(٥).

ولكن هل يقال أنهم مقرُّون بالشهادتين - أي بلا إله إلا الله محمد رسول الله - بناءً على أنهم يعلمون الحق فيهما؟!!! كيف؟! والباري عز وجل

(١) جامع البيان (٥/ ٢٨٦).
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٥٩٢).
(٣) عدة الصابرين لابن القيم (ص: ١٥٦)، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية.
(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٣١٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٥).
(٥) انظر (ص: ٣٥٦-٣٥٧).

يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]، وقال أيضا: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٤ - ٦]، إذن هم استكبروا عن قول لا إله إلا الله مع علمهم بأنها حق، وكذا هم كذّبوا الرسول وجحدوا رسالته مع علمهم بصدقه، وكذا هم كذّبوا بتوحيد الربوبية مع علمهم أنه لا ربّ سواه تعالى.

## حاصل الاعتراض الثاني والجواب عنه

**والخلاصة**، أن غاية ما يمكن أن يسلَّم به هو أن آيات الباب الثمانية دلَّت على أنهم يعلمون في قلوبهم بأنه سبحانه هو الخالق، ولكن طالما أنهم لم ينطقوا بهذا الذي علموه بقلوبهم، فإن المعرفة والإيمان القلبي بأنه تعالى هو الخالق غير معتبرة، وإلا لكانوا مقرِّين بالشهادتين لعلمهم بصحتهما كما سبق!!

وبذلك نكون قد انتهينا من المرصد الأول وهو «إن آيات الباب نفسها أشارت إلى أن هذا الشرط مشكوك في وقوعه» لننتقل إلى المرصد الثاني.

## المرصد الثاني

# المقصود بآيات الباب.. إثبات الخالق والبعث ونحوه لا سؤالهم

قد ذكرنا أنه ليس المقصود أصلاً بآيات الباب أن يذهب ليسألهم عن الخالق، وإنما المراد أن يتلوَ على مسامعهم آيات الباب الثمانية وغيرها، **فتقوم عليه الحجة في أمر العقائد من الإيمان بالله، وإثبات البعث والنشور**، ونحو ذلك كما سبق بيانه[1].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الغرض الأعظم من هذه الآيات التي تسأل عن الخالق هو إثبات البعث والنشور الذي ينكره المشركون، فمثلاً يقول أبو جعفر الغرناطي في قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]: «إن إنزال الماء من السماء، وهو ماءٌ واحدٌ يكون عنه مختلف النبات.. فمن عقَل هذا، عقَل وجود الإنسان من نطفةٍ واحدة، كوحدة الماء النازل من السماء، ثم يكون عن تلك النطفة شكل الإنسان.. **فكيف يَستبعد العودة من يشاهد ذلك أو يعتبر به**[2].. والمراد بذلك **إقامة الحجة عليهم في إنكار البعث**، فطابق ذلك وناسبه تأكيد قول المؤمنين المقول لهم»[3].

---

(١) انظر (ص: ١٤١).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٩٣).

(٣) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٧٥).

«فمقصودها إقامة **البرهان على الإحياء من بعد الموت**. . ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وذلك أبين شيء. ووجه تخصيص سورة «العنكبوت» بهذه الآية مناسبتها لما تردد فيها وتكرَّر من ذكر **العودة الأخراوية**[1]، **أو الإشارة إليها** في ما نيف على عشرة مواضع، أولها: قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ...﴾ [العنكبوت: ٥]، وأنصها. . ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١٩﴾ [العنكبوت: ١٩][2].

وهكذا نرى كيف أن سياق بعض آيات الباب - أي آيات: ولئن سألتهم من خلق. . .- جاءت لإثبات البعث والنشور الذي كان ينكره المشركون.

وبذلك نكون انتهينا من الكلام على الشرط الأول لإقرارهم بالله وهو أن يسألهم عن الخالق، وننتقل إلى الشرط الثاني بحول الله.

---

(١) كذا وقع مرارا في المطبوع «أخراوية» بزيادة ألف، وكذا وقع في غيره من الكتب كما في كتاب «نعمة الذريعة في نصرة الشريعة»، فقال مثلا (ص: ١٦٣): «فليت شعري مَاذَا يحصل لَهُ من الْمَرَاتِب الدنياوية أَو **الأخراوية**». والقياس «أخروية» بحذف الألف، إذ النسبة إلى المقصور الرباعي الذي ثانيه ساكنٌ إما أن تُقلب ألفه واواً، أو تحذف كـ«حبلى» فتصير «حبلوي» أو «حبليّ»، وهنا كذلك كان المفروض أن نقول «الأخروية»، لأن الأصل أخرى فتصير أخروي. جاء في «توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك» (٣/ ١٤٤٤):

**وإن تكن تربع ذا ثان سَكَنْ ... فقلبها واوا وحذفها حَسَنْ**

«مثال ذلك حبلى، فتقول على الأول: حبلوي، وعلى الثاني: حبلي». اهـ. ثم وجدتُ أن فيها وجهاً ثالثاً بإبقاء الألف فتقول أيضاً في حبلى: **حبلاوي**. وكذا هنا «أخرى» يجوز فيها أخراوي. جاء في «شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك» (ص: ٥٦٦): «وإن كانت رابعة ساكنا ثاني ما هي في جاز فيه الحذف وقلبها واواً مباشرة للام **أو مفصولة بألف**، كقولك في النسب إلى حبلى: جبلي وحبلوي **وحبلاوي**، والأول هو المختار»، وانظر أيضاً: شرح ألفية ابن مالك المسمى تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة (٢/ ٧٠٨)، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (٩/ ٤٦٩٠)، شذا العرف في فن الصرف (ص: ١٠٧).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٩٢)

# الشرط الثاني

# أن يتفكروا في أدلة وجود الله ثم يذعنوا لها

وفيه مطلبان:

الأول: في الدليل على هذا الشرط.

الثاني: في بيان أنه لم يتحقق.

## المطلب الأول
## الدليل على هذا الشرط

كما سبق أن أشرنا إن إقرار المشركين بالله في حال سألهم النبي ﷺ عن الخالق لا يتم إلا بعد أن يتفكروا بعقولهم في أدلة وجود الله وينصفوا ثم يذعنوا، وإلا فلن يقرُّوا بالله ما لم يتفكروا وينصفوا ويذعنوا.

### الاعتراض من ثلاثة وجوه على تلك الشروط

**أي إن قيل**: إن اشتراطكم لتلك الشروط لإقرارهم مردود من وجوه ثلاثة:

**الوجه الأول**: من أين أتيتم بأنهم سيقرون بالله «إن أعمَلوا عقولهم وأنصفوا وأذعنوا؟»، إذ قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، وسائر آيات الباب دلت

على أنهم سيقرون بالله بمجرد أن يسألهم، فمن أين أتيتم بهذه الشروط الأخرى؟!

أي أنه ثمة شرط واحد لإقرارهم وهو أن يسألهم عن الخالق فيجيبوا بأنه الله، وهذا الشرط لا بد أنه تحقق، أي أن النبي ﷺ لا بد أن يكون قد سألهم؛ ولا بد أن يكونوا قد أجابوا، لأن الله أمره بذلك وأخبر أنهم سيجيبون بأنه الله، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

**الوجه الثاني**: لا حاجة أن يُعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا ليقروا بالله، إذ الصحيح أن معرفة الله فطريةٌ ضروريةٌ وليست نظرية.

**الوجه الثالث**: على التسليم بأن إقرارهم بالله معلَّقٌ على هذه الشروط كلها، فإن هذه الشروط قد تحققت فعلاً ضرورةَ أن الله أخبرنا بتحقق المشروط وهو أنهم سيقولون: «الله»، وتحقُّقُ المشروطِ يُؤذِن بتحقق الشروط، أي أنه سألهم عن الخالق فأعملوا عقولهم وأنصفوا وأذعنوا فقالوا هو «الله».

**قال وليد - وفقه الله -**: هذا أقصى ما قد يقال هنا، أو يُعترض به على ما سبق، ولا أذكر أني وجدت ذلك - أي هذه الأوجه الثلاثة - في كتب القوم أو حتى في كتب خصومهم، وإنما أنا الذي صغتها إنصافاً للقوم، لأنظر فيها وأجيب عنها في ثلاثة مراصد، أي أن كل اعتراض أخصص له مرصداً بحول الله.

❁ ❁ ❁

## المرصد الأول

# دعوى أن المشركين سيقرون بالله بدون هذه الشروط وهي: التفكر، والإنصاف، والإذعان

أي قد يقال: إن المشركين إن سئلوا عن الخالق فسيقرون بأن الخالق هو الله، دون توقفٍ أو دون اشتراطِ أن ينظروا ويُعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا كما ذكرتم، لأن الآية علَّقت إقرارهم بمجرد سؤالهم، ولم تذكر هذه الشروط.

فنقول: بل هذه الشروط أشارت إليها بعض آيات الباب نفسها كما ذكر ذلك بعض المفسرين، فضلاً عن آياتٍ أخرى في ذلك، وإليكم تفصيل ذلك بإذن الله.

### أولاً: في دلالة آيات الباب على هذه الشروط

كما قلنا إن بعض آيات الباب أشارت إلى أن إقرارهم مشروط بالتفكر والتدبر والإذعان ونحوه، وبيان ذلك من وجهين:

**الوجه الأول**: أن بعض آيات الباب فيها نفي أو تشكيك بعلمهم بالخالق كما بينه السمعاني والبيضاوي والشوكاني.

**أولاً**: آية العنكبوت، يقول **السمعاني** في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]: أي: «**لا يعلمون أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله تعالى**»[١]. اهـ.

**ثانياً**: آية «المؤمنون»: قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، قوله: «﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ظاهر في ذلك، إذ المعنى: أي: إن كنتم تعلمون فأخبروني. وفي هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم»[٢].

أو المعنى «أجيبوني عما استعلمتكم منه **إن كان عندكم فيه علم**، وفيه استهانة بهم وتجويز - لفرط جهالتهم بالديانات - **أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين**»[٣]، «فيكون استهانة بهم وتقريراً لفرط جهالتهم **حتى جهلوا مثل هذا الجلي الواضح** إلزاماً بما لا يمكن لمن له مسكة من العلم إنكاره»[٤]، «وقوله (فيكون استهانة) على الوجهين للشك **في الأوَّل في كونهم عقلاء**، وفي الثاني **في علمهم بالضروريات**»[٥]. اهـ. فتحصل من ذلك أن الآية فيها تشكيك بعلمهم بالخالق.

---

(١) تفسير السمعاني (٤/ ١٩٣).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٨٦)، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ١٤٣).

(٣) الكشاف (٣/ ٢٠٢).

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ٩٣).

(٥) عنايه القاضي وكفاية الراضي (٦/ ٣٤٢).

## الجواب عن قول الرازي «قوله: إن كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك»

فإن قيل: ولكن قال الرازي هنا: «كيف قال: إن كنتم تعلمون، ثم حكى عنهم سيقولون الله؟ وفيه تناقض، الجواب: لا تناقض؛ لأن قوله: إن كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك. وقد يقال مثل ذلك في **الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك**»(١). فذكر الرازي أن هذا الأسلوب إنما يذكر مثله «في **الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم**. . »، أي لتأكيد علمهم بالله فانتفى ما قلتم من أنهم شاكُّون فيه تعالى.

**قلنا**: هذا غاية ما فيه أنهم عالمون به تعالى، ولكنهم مترددون بالإقرار بما علموه بقلوبهم، بدليل قول الرازي نفسه في تتمة كلامه «**والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك**»، **أي ليبعثهم على الاعتراف والإقرار به تعالى**، ولولا أنهم ممتنعون من الإقرار به أو على الأقل مترددون بالإقرار به لما بعثهم على الاعتراف به، **وبالتالي فكلام الرازي يؤكد ترددهم ولا ينفيه**، ولكنه يرى أنهم مترددون في الاعتراف به لا بالعلم به، وغيره من المفسرين ربما يرى أنهم مترددون في كليهما كما سبق بيانه. والله أعلم.

**ثالثاً**: آية الزخرف التي فيها التصريح بأنهم لا يؤمنون وذلك عقيب إحدى آيات الباب الثمانية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٧، ٨٨]، أي «يا رب إن هؤلاء **قوم لا يؤمنون بك** وبرسولك»(٢)، أو هم «قوم لا **يؤمنون**

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ١١٦)، وانظر أيضاً: اللباب في علوم الكتاب (١٤/ ٢٤٩)، البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٨٠).
(٢) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٣٩٠).

أي **بالتوحيد** والرسالة واليوم الآخر»[1]، إذن هم لا يؤمنون بالله أصلا، وهذا جاء بعد قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فلو كان هذا إقرارا بالله فكيف أشارت الآية إلى أنه قوم لا يؤمنون؟!!!

لا يقال: لعل المراد أنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية أو لا يؤمنون بالرسول أو بالقرآن أو بالآخرة!! لأننا نقول: كيف يسألهم عن توحيد الربوبية، ثم يقول إنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية؟! أو يسألهم عن التوحيد، ثم يقول إنهم لا يؤمنون بالرسول أو القرآن أو بالآخرة؟!! إن هذا مثل لو أني سألتك عن زيد فأجبتني عنه، ثم قلتُ للناس إنه لا يعرف خالدا!!!

**فإن قيل**: إنه من قبيل الاستدلال عليهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية، فالجواب أن هذا مصادرة على المطلوب؛ إذ نحن لا نسلّم أن التوحيد قسمان ألوهية وربوبية كما سيأتي بسطه[2].

**الوجه الثاني: أن هذه الشروط وإن لم تكن منطوقة ولكنها مفهومة**

أي أن فحوى الآية يدل عليها، لأن منطوق الآية أنه إن سألهم عن الخالق فسيقولون: «الله»، وفحوى هذا أنهم سيجيبون بهذا الجواب بعد أن يتفكروا وينظروا؛ لأن جواب هذا السؤال وأي سؤال آخر عادة ما يكون متردداً بين عدة احتمالات، فيطرح السائلُ سؤالَه وهو يريد من المسؤول أن يجيب بأحد تلك الاحتمالات التي يختارها بحسب ما يهديه عقله وتفكيره.

---

(١) تفسير القاسمي «محاسن التأويل» (٨/ ٤٠٤).

(٢) انظر (ص: ٢١٤-٢١٦).

# السؤال عن الخالق يحتمل عدة أجوبة.. يتعين الصواب منها بالعقل

فمثلا السؤال هنا عن خالق السماوات والأرض يحتمل عدة أجوبة أو عدة احتمالات عقلية، منها أن يكون الجواب بأنه «الله»، ومنها أن يقولوا: الخالق هو الكواكب أو الأصنام أو غير ذلك، ومنها أن يقولوا: لا خالق للكون أصلا، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦] كما بسطناه[١].

إذن لدينا عدة احتمالات أو عدة أجوبة ممكنة هنا، ولكن لماذا سيختارون الجواب الأول ويقولون: الله هو الخالق، كما ذكرت الآيات؟

لا شك أنهم سيختارون هذا الجواب تحديداً إذا أعملوا عقولهم وفكروا؛ إذ إن عقولهم هي التي سترشدهم إلى هذا الجواب، وهو أن الخالق هو الله لا الأصنام ولا الكواكب ولا غيرها، ولا أن هذا الكون وُجد من غير خالق، وأما إذا لم يعملوا عقولهم فسيكون هناك أجوبة أو احتمالات عقلية أخرى كما ذكرنا، فما الذي جعلهم يختارون هذا الجواب بالذات وهو أن الخالق هو الله لا الأصنام مثلا؟!

ربما يقال: الفطرة - لا العقل - هي التي ستعين الجواب بأن الخالق هو الله وحده!!! قلنا: إذا رجعنا إلى الفطرة فإن الفطرة كما تعين بأن الخالق هو الله وحده، فإنها أيضا تعين أن الإله المعبود بحق هو الله وحده، كما قرر ذلك ابن تيمية نفسه كما سبق[٢]، فإذا كان حكم الفطرة كافيا في الحكم

(١) انظر (ص: ٤١٥).

(٢) انظر (ص: ١٦٥).

عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية فهو أيضا كاف في الحكم عليهم بإقرارهم بتوحيد الألوهية، وهذا خلاف مذهبكم!!

والحاصل أن الجواب عن الخالق ليس متعيناً بأن يقولوا هو «الله»، وإنما ثمة أجوبة أخرى محتملة عقلاً للوهلة الأولى، بيد أن الجواب الصحيح الذي يمليه العقل بعد النظر والتفكير هو أن الله هو الخالق، وسيأتي قول بعض المفسرين في ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، أي «لظهور الدليل ووضوح السبيل **فقد تقرر في العقول وجوب انتهاء الممكنات** إلى واجب الوجود»[1].

وأما الأجوبة الأخرى - مثل أن الخالق هو الأصنام أو الكواكب أو لا خالق أصلا -فباطلة، لأنها من إملاء الهوى والتقليد الأعمى، أو هي في أحسن الأحوال ناتجة عن التفكير العقيم والعقل السقيم، وبالتالي فقوله تعالى في آيات الباب ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ محمولٌ على أن هذا الجواب سيكون منهم إن أعملوا عقولهم وأذعنوا لذلك، وإلا فإن أهملوها وكابروا فما المانع أن يقولوا الأصنام هي الخالق للكون؟ أو أن يقولوا: لا خالق أصلا؟ إذا كان المانعَ العقلُ فنحن نفترض أصلاً أنهم أهملوا عقولهم، فكيف يكون عقلهم مانعاً من ذلك الجواب النافي للخالق؟!!

## نصوص العلماء في أن التفكير هو الذي سيقود المشركين إلى الإقرار بالخالق

وأما أن هذه الشروط أشار إليها بعض المفسرين والعلماء، بل بعضهم نص عليها صراحة، هذا فضلا عن أن بعض السلفية أنفسهم ذكروا ذلك وحملوا آيات الباب الثمانية عليها، وفيما يلي بعض النصوص في ذلك:

---

(١) روح المعاني (٢٤/٦).

١) قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣]، «طوعًا: من أسلم من غير محاجَّة، وكرهًا: من **اضطرته الحجّة إلى التوحيد**»[١]، قال **القرطبي** معقِّبا: يدل عليه قوله عزوجل: «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله»[٢]. اهـ.

أي أن الحجة هي التي ستضطرهم في نهاية المطاف إلى الإقرار بالله، طبعاً الحجة تستلزم احتجاجاً ومُحاجَّة، وهذا يستلزم النظر والتفكير في تلك الحجة، أي أنه لن يكون الإقرار منهم بالله **بدون الاحتجاج عليهم**، وبدون أن يعملوا عقولهم ويفكروا ويذعنوا لما عقلوه. وسيأتي المزيد حول ذلك[٣].

٢) يقول الطبري عند قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]: «إذن لاعتزل كل إلهٍ منهم ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ من شيء، فانفرد به، ولتَغالبوا، فلعلا بعضهم على بعض، وغلب القويُّ منهم الضعيف؛ لأن القويَّ لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها، فسبحان الله **ما أبلغها من حجة وأوجزها، لمن عقل وتدبر**». اهـ.

فتأمل قول الطبري: «ما أبلغها من حجة وأوجزها، **لمن عقل وتدبر**» كيف جعل هذا البرهان العقلي على إثبات أنه تعالى واحد في ربوبيته، جعله

---

(١) تفسير الثعلبي «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» (٨/ ٤٨٣)، طبعة دار التفسير. موسوعة التفسير المأثور (٥/ ٣٣٦). وفي تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٧) بسنده عن عكرمة: «﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: أسلم من في السموات والأرض ثم استأنف طوعاً وكرهاً، فمن أسلم منهم كرها: مشركوا العرب والسبايا، ومن دخل الإسلام كرها».

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٩٤).

(٣) انظر (ص: ٤٢٦).

حجةً لمن تعقله وتدبره!! أي أن من لا يُعمِل عقلَه فيه فلن يستفيد منه، وإن كان مشركاً في الربوبية فسوف يستمر في الشرك في ربوبيته تعالى أو ربما ينفيها برمتها، أي لن يقر بربوبيته تعالى أصلاً، فضلاً عن أن يقر بتوحيد الربوبية ما دام أنه لا يتعقل ولا يتدبر!

٣) قال **ابن الأنباري**: «. . . **بل إذا فكَّروا بعقولهم** وجدوا الله هو المنفرد بالخلق، وسائر الشركاء لا يخلقون خلقاً يتشابه بخلق الله، وإذا كانوا بهذه الصفة **ألزمتهم الحجة**»[1]. اهـ. وقد سبق قوله بتمامه[2]، ولكن ما يعنينا هنا قوله «إذا فكَّروا بعقولهم. . .» فتأمل كيف أناط الإقرارَ بتوحيد الله في الخالقية، بالتفكير وإعمال العقل!!

٤) ويقول **القرطبي** عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: «المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين **وتقرير الحجة عليهم**، فمن اعترف منهم **فالحجة ظاهرةٌ عليهم**، ومن لم يعترف فيُقرَّر عليه أن هذه السموات والأرض لا بد لهما من خالق، **ولا يتمارى في هذا عاقل**. وهذا قريبٌ من مرتبة الضرورة»[3].

فتأمل قوله «ولا يتمارى في هذا عاقل» كيف ربط هذا الإقرار بالخالق ربطه بالعقلاء! طبعاً ولا يكون العقلاء عقلاء ما لم يُعملوا عقولهم، وإلا فإن أهملوها فهم والأنعام سواء!!

٥) وقال البيضاوي: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾، لما **تقرر في العقول من وجوب انتهاء**

(١) التفسير البسيط (١٢/ ٣٣٠).

(٢) انظر (ص: ٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٩٠).

**الممكنات إلى واحد** واجب الوجود»[١]. اهـ.

فتأمل قوله «لما **تقرر في العقول..**» واستحضرْ ما قلناه سابقاً من قضية ربط الإقرار بالله بإعمال العقل.

٦) وقال الألوسي: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، لظهور الدليل ووضوح السبيل **فقد تقرر في العقول وجوب انتهاء الممكنات** إلى واجب الوجود»[٢]. اهـ.

لاحظ قول الألوسي وكذا قول القاسمي الذي سيأتي، تأمل كيف علقوا الإقرارَ بالله على حكم العقل وإعماله، تماماً كما قال القرطبي والبيضاوي فيقال هنا ما قلناه هناك.

٧) وقال الشوكاني - وكذا صديق خان[٣] -: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، أي: سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات: أنَّ الفاعل لهذه الأمور هو الله سبحانه إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه **الفكر الصحيح، والعقل السليم**»[٤].

فتأمل قوله «**إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر والعقل السليم**»، فهذا نصٌّ صريحٌ على أن إقرارهم بالله متوقفٌ على التفكير وإعمالهم لعقولهم وإنصافهم.

٨) وقال القاسمي: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، **لِما تقرَّر في الفِطَر والعقول** من استيقان ذلك، ولوضوح الدليل عليه»[٥].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ١٩٨).
(٢) روح المعاني (٢٤/ ٦).
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/ ٥٧).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٠٤).
(٥) محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٤٠٤).

٩) ويقول الشنقيطي: «الذين ينفون ربوبية الله هم بهائم كالبغال والحمير **لا عقول لهم. . أما عامَّة العقلاء الذين ارتفع إدراكهم** عن إدراك الحيوانات فهم يعلمون أن الله ربُّ كلِّ شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيء»[(١)].

فتأمل قوله «**لا عقول لهم. . أما عامَّة العقلاء الذين ارتفع إدراكهم**. . .»، كيف يجعل أمر الإقرار بالربوبية لله من عدمه متوقف على إعمال العقل، فمن أعمله أقرَّ بها لله، ومن لا فلا.

١٠) وقال الشيخ عبد الرحمن حبنَّكة: «﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٠]، موضوعات الأسئلة الموجهة في هذا النص للمشركين تتعلَّق بعناصر ربوبية الله لكونه، وهي عناصر لا يؤمن المشركون بأن لله ربوبية عليها، بل يجعلون الربوبية عليها لشركائهم التي يعبدونها من دون الله، **لكن بعد أن يقدم الداعي إلى الله حججه وبراهينه** سيقول من لديه استعداد للإيمان بالحق منهم: إن الربوبية حقاً هي لله عز وجل في الموضوع الذي جرى حوله سؤال الداعي.

فتأمل قوله «لكن بعد أن يقدم الداعي إلى الله **حججه وبراهينه**. . .»، حيث جعل إقرارهم بالله متوقف على تقديم الأدلة العقلية لهم على وجوده تعالى، والتي لا بد أن يُعملوا عقولهم فيها ويُنصفوا.

كما نص على ذلك حيث قال **حبنكة بعد ذلك**: «. . . أن المشركين ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾، فجاء في العبارة حرف الاستقبال الذي هو السين للدلالة **على أن المشركين ليست لديهم عقيدة حاضرة بأن الربوبية في موضوعات**

---

(١) العذب النَّمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، تحقيق خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦هـ.

**الأسئلة الثلاثة هي لله بل لشركائهم، لكن الحجج والبراهين تلزمهم مستقبلا بأن يعترفوا بالحق ما لم يكونوا من المعاندين** المكابرين المصرّين على الباطل ليس لهم دليل عليه»[١].

**فتأمل** قوله «لكن **الحجج والبراهين** تلزمهم مستقبلاً بأن يعترفوا بالحق ما لم يكونوا من **المعاندين**»، كيف بيَّن أن إقرارهم بموجب تلك الحجج والبراهين على وجود الله لا يكون إلا بعد أن يتفكروا فيها وينصفوا ولا يعاندوا.

## خلاصة أقول العلماء في وجوب تفكر المشركين.. لكي يقروا بالله

**والحاصل** من الأقوال السابقة كلها أن المشركين لا بد أن يُعملوا عقولهم وينصفوا حتى يجيبوا بأن الله خالقهم، إذ جوابهم هذا هو أصلاً قرارٌ عقلي، أي نابعٌ أو متوقفٌ على إعمال العقل، فإذا لم يُعملوا عقولهم ولم ينصفوا ولم يذعنوا لما تمليه عقولهم من الحق، وتقرره من وجود الله أو وجود الخالق المدبر لهذا الكون: فلن يجيبوا بهذا الجواب وهو أن الخالق هو الله! بل سيعاندون ويجحدون ربوبية الله!! أو على الأقل سوف يشرِكون في ربوبيته كما يشركون في ألوهيته!

## نص ابن تيمية في أن الإقرار بالخالق متوقف على إعمال العقل وإلا قد يقع في الجحود حتى للضروريات

في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يقول ابن تيمية: «بيَّن سبحانه باستفهام الإنكار الذي يتضمن أن الأمر المنكر من العلوم

(١) توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما (ص: ١١٣).

المستقرة، الملازمة للمخاطب، التي يُنكر **على من جحدها**؛ لأنه سفسط بجحد العلوم **البديهية** الفطرية»[1].

فتأمل قوله «التي ينكر **على من جحدها**؛ لأنه سفسط بجحد العلوم **البديهية**...»، فهذا يشير إلى أنه ثمة من قد يكابر وينكر وجود الله حتى لو كان ذلك من العلم البدهي الضروري عند ابن تيمية ومن وافقه في ذلك خلافاً لمن يرى أن وجود الله أمر نظري!!

## نصوص ابن تيمية في إنكار بعض الناس للضروريات

**وقد قرر ابن تيمية** في مواضع كثيرة أن الناس قد تنكر الضروري، فمن ذلك قوله: «والشبهات القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجواب عنها بالبرهان... ولهذا كان من **أنكر العلوم الحسية والضرورية** لم يناظر»[2].

وقد ضرب على ذلك أمثلةً عديدةً من المسائل الضرورية التي قد ينكرها بعض الناس، بسطتها في كتابي الكبير، من هذه المسائل ما نحن بصدده وهو مسألة وجود الله، فقد أقر ابن تيمية في نهاية المطاف أن ثمة من أنكر وجود الله عنادا، وفي ذلك يقول: «**حتى جاحدو الصانع الذين** هم أجهل الخلق وأضلهم وأكفرهم **وأعظمهم خلافا للعقول**...»[3]. اهـ.

فتأمل قوله «**حتى جاحدو الصانع الذين... وأعظمهم خلافا للعقول**»،

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٨٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٨).

فهذا صريحٌ في أن من لا يُعمل عقله قد يجحد الصانع، بل قد يجحد الحس والضرورة كما في نصه السابق.

**ويقول ابن تيمية أيضا**: «**إن المُحْدَث قبل أن لم يكن، لا يتصور أن يحدث عن غير محدِث، ولا أن يحدث نفسه**. فلا يكون الشيء صانعاً لنفسه، لا مصنوعاً لنفسه، ولا يكون أيضاً علةً غائيةً لنفسه... **قال تعالى**: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ **قالوا: من غير خالق لهم**، قال جبير بن مطعم: لما سمعت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية في صلاة المغرب **أحسست بفؤادي قد انصدع**»[(١)]. اهـ.

**فأقر ابن تيمية** أن آية الطور جاءت لتثبت للمشركين - ومنهم جبير بن مطعم قبل إسلامه - وجود الله بالدليل العقلي، وأنه يستحيل أن يوجدوا من غير خالق، لأن «**المُحْدَث قبل أن لم يكن، لا يتصور أن يحدث عن غير محدِث، ولا أن يحدث نفسه**».

وهذا قرره ابن تيمية نفسه كما ترى، فأين ما زعمه من أنهم مقرون بالله وبتوحيده في الربوبية بحكم الفطرة والضرورة العقلية؟! لو كان الأمر كذلك فكيف احتج عليهم القرآن بهذا الدليل العقلي على وجوده تعالى ليقروا به مع أنهم أصلا مقرّون به بالفطرة؟!!

وهذا سبق بيانه، ولكن ما يهمنا هنا، هو أنه ما لم يتفكر المشركون بهذا الدليل العقلي على وجوده تعالى المذكور في آيات «الطور» على الوجه الذي شرحه ابن تيمية، فلن يثبتوا الصانع، ولن يقروا به تعالى!! بدليل قول جبير «**أحسست بفؤادي قد انصدع**» إذ لو لم يتفكر في آيات «الطور» ويمعن عقله فيها فأنى لفؤاده أن ينصدع؟!!

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٨٢).

# نص ابن القيم على الدليل العقلي على وجوده تعالى في سورة «الطور»

قال ابن القيم: «ومن هذا احتجاجه سبحانه **على المشركين بالدليل المقسم الحاصر** الذي لا يجد سامعه إلى رده ولا معارضته سبيلا حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾، **فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق** وأفصح عبارة، يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، **فهل خلقوا من غير خالقٍ خلقهم فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق**».

ثم يضرب مثالاً فيقول: «ولو مر رجلٌ بأرضٍ قفرٍ لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنياناً وقصوراً وعماراتٍ محكمةً، **لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعاً صنعها وبانياً بناها**، ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾».

ثم قال: «وهذا أيضاً من المستحيل **أن يكون العبد موجِداً خالقاً لنفسه**، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعةً واحدةً، ولا أصبعاً، ولا ظفراً، ولا شعرةً، كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟! **وإذا بطَل القسمان، تعيَّن أن لهم خالقاً خلقهم وفاطراً**»(١). اهـ.

**قال وليد** - وفقه الله -: فتأمل قوله «ومن هذا **احتجاجه سبحانه على المشركين** بالدليل المقسم الحاصر... فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن **لإقامة الحجة** بأقرب طريق... **وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا**»، تأمل كم مرةً ذكر ابن القيم الحجة والاحتجاج على المشركين بدليلٍ عقليٍّ على

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ٢٥١)، طبعة عطاءات العلم.

وجوده تعالى! وكيف بيَّن وجه الدلالة منها وبسط ذلك بالأمثلة!

**طبعاً ما لم يُعملوا عقولهم في ذلك كله فلن يستفيدوا قطعاً من هذا الاحتجاج ولا من تلك الحجج!!** أصلاً الاحتجاج لا يكون إلا مع ذوي العقول والحجى، وإذا أهملت هذه العقول - كما فعل المشركون - فوجودها كعدمها، ولذا خاطبهم البيان الإلهي بأنهم لا يعقلون كما سبق بيانه[١].

## نص ابن الهمام على اضطرار الخلق للإقرار به تعالى إذا تفكروا

**قال ابن الهمام** في المسايرة: «**فمن أدار نظره** في عجائب تلك المذكورات **اضطره إلى الحكم** بأن هذه الأمور مع هذا الترتيب المحكم الغريب لا يستغني كلٌ عن صانع...»، وأطال في ذلك وقد سبق[٢]، ولكن محل الشاهد منه هنا هو قوله: «**فمن أدار نظره**... لا يستغني كلٌ عن صانع»، فتأمل كيف جعل الإقرار بالصانع متوقفاً على النظر والفكر!!

## نص بعض السلفية على أن الله دلَّل على وجوده بحجةٍ لا بد للعقول السليمة من الإقرار بها

ونحو ما سبق ما قرره بعض السلفية فقال: «كان القرآن يحتج عليهم **بحجةٍ لا بد للعقول** من الإقرار بها، **ولا يجوز للعقل السليم رفضها**، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل

(١) انظر (ص: ١٩٧-١٩٨).
(٢) انظر (ص: ١٠٨).

﴿لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾. فالآية تقول لهم أنتم موجودون، وهذه حقيقة لا تنكرونها، وكذلك السموات والأرض موجودتان ولا شك، **والذي تقرر عقلاً** أن الموجود لا بد له من سبب لوجوده لأن العدم لا يوجد شيئاً، **هذا أمر مقررٌ في بدائه العقول**، ولأن الشيء لا بوجد نفسه. فقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ **دليلٌ قاطعٌ يُرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقاً معبودا**. . أي **من غير خالقٍ خلقهم** أم هم خلقوا أنفسهم؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل. **فتعين أن لهم خالقا خلقهم** - سبحانه وتعالى»[1].

فتأمل كم مرةً أعاد كلمة العقل في نصه السابق حيث قال: «**لا بد للعقول. . ولا يجوز للعقل السليم رفضها. . . والذي تقرر عقلاً. . . هذا أمر مقررٌ في بدائِهِ العقول. . . دليلٌ قاطع يرغم العقلاء. . .**»!!

كما أنه بيَّن في نصه السابق بشكلٍ واضحٍ أن الأدلة القرآنية على وجوده تعالى ومنها ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ...﴾ إنما تخاطب العقلاء، وأن الإقرار بها إنما يكون بعد إعمال العقل والتفكر فيها، وهذا يعني أن المكلف لن يقر بوجود الله أصلاً إن أهمل عقله.

بل أكثر من ذلك فقد قال في نصه السابق «**ولا يجوز للعقل السليم رفضها**»، فتأمل كيف شرط أن يكون العقل سليماً أيضا!! إذن فلدينا شرطان للإقرار بوجود الله، **الأول**: أن يكون العقل سليما، **الثاني**: أن يعمل عقله السليم هذا، فلو اختل شرطٌ منهما أي بأن كان العقل فاسدا، أو كان سليماً ولكن أهمل عقله ولم يعمله، ففي كلا الحالين لن يقر بوجوده تعالى اللهم إلا تقليدا!!

---

(١) مباحث العقيدة في سورة الزمر لناصر الشيخ (ص: ٣٦١)، والفقرة الأخيرة «أي من غير خالق» هي من كلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٩).

## المرصد الثاني

# الجواب عن قولهم: بأن الإقرار بالله ضروريٌ لا يحتاج إلى إعمال العقل

وأما الوجه الثاني وهو قولكم: ليس من الضروري أن يُعملوا عقولهم ويُحاجَجوا بالأدلة ليقروا بوجود الله فإن الفطرة والضرورة توجبان ذلك!!

**فجوابه** أن يقال: لا نسلِّم بأن الفطرة توجب ذلك كما أثبتناه مطولاً في كتابنا الكبير(١)، وبسطنا الرد على أدلة ابن تيمية على قضية الفطرة هذه، ثم على التسليم بذلك فإن ابن تيمية قرر هو وأتباعه أن الفطرة توجب الإقرار بتوحيد الربوبية كما توجب الإقرار بتوحيد الألوهية كما سيأتي(٢)، وبالتالي لو كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية لأن الفطرة توجبها لأذعنوا أيضا بتوحيد الألوهية للسبب نفسه، وباختصار لو أن المشركين أذعنوا لحكم الفطرة لسلموا بكلا التوحيدين معا وهو ما لم يحصل!

---

(١) حيث خصصت فيه مبحثاً مطولاً عن احتجاج ابن تيمية بآية وحديث الفطرة مستدلاً بهما على أن المشركين موحدون في الربوبية، وبينت ما في استدلاله من دَخَل ووَهَن واضطراب، وسيطبع هذا المبحث لاحقاً إن شاء الله في كتابٍ أو كتيب مستقلٍ يكون ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ صحيفة. والله الموفق.

(٢) انظر (ص: ١٦٥).

وأما قولكم بأن الضرورة تقتضي الإقرار بوجود الله، **فالجواب**: ماذا تقصدون بالضرورة هنا، أهي الضرورة الحسية أم الفطرية أم العقلية؟ إن كان المقصود بالضرورة الضرورة الحسية فالله غير محسوس فكيف تقتضية الضرورة الحسية؟ وإن كان المقصود بالضرورة الضرورة الفطرية فقد آل الأمر إلى الفطرة وقد سبق أن أجبنا عنها.

وإن كان المراد بالضرورة الضرورة العقلية فهذا يعني أن العقل يوجب بالضرورة أن يكون الله موجودا، وهذا بحد ذاته يكفينا، لأنه يشهد لما نقول من اشتراط التفكر وإعمال العقل والإذعان له حتى يقر المكلف بالله، وإلا فإذا أهمل الإنسان عقله ولم يفكر به، فيمكن أن ينكر البديهيات والضرورات العقلية كالواحد نصف الاثنين كما فعل السفسطائية، إذ كون الشيء ضرورة عقلية لا يمنع من إنكاره، وهذا سبق بيانه من كلام ابن تيمية نفسه، حيث قال: «ولهذا كان من **أنكر العلوم الحسية والضرورية** لم يناظر»[1]. وقال: «حتى **جاحدو الصانع الذين** هم أجهل الخلق وأضلهم وأكفرهم **وأعظمهم خلافا للعقول**...»[2]. اهـ.

## الجواب عن نصوص المفسرين في أن معرفته تعالى ضرورية غير متوقفة على الشروط التي ذكرتم

أي قد يقال: لقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير آيات الباب الثمانية أن المشركين سيقرون بالله دون أدنى شك أو تردد لأن وجوده تعالى ضروري،

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣١٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٨).

ولذا قال تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، «**إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره** ولا التردد فيه»(١). «ولا يقدرون على الإنكار، **ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر** وجلائه»(٢).

وأقر بذلك بعض مفسري الأشاعرة فقال البيضاوي: «﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾، لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها»(٣). فهم «سيقولون لله لأن **بديهة العقل تضطرهم** إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها»(٤)، وعليه «فسيقولون **اضطراراً** من غاية ظهوره ووضوحه بحيث **لا يمكنهم أن يكابروا**: **الله** المدبر لجميع الأمور الكائنة في الآفاق والأنفس، وبالجملة هم من غاية ظهوره وجلائه **لم يمكنهم أن يعاندوا** أو يكابروا»(٥).

ولذا قال البيضاوي في بعض الآيات التي فيها الجواب من رسول الله كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١٢]: «﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه **المتعين للجواب بالاتفاق**، **بحيث لا يمكنهم أن يذكروا غيره**»(٦). وقول البيضاوي «تقريرا لهم»: «**أي إلجاء إلى الإقرار** بأن الكل لله، لأنَّ هذا من الظهور بحيث لا يقدر أحد أن ينكره. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله أي: خلقنا **لتعذر المكابرة** فيه من فرط ظهوره»(٧).

فنصوص المفسرين هؤلاء بمن فيهم بعض الأشاعرة يفيد أن الحكم بوجود الله أمر ضروريٌّ اضطراريٌّ ليس متوقفاً على إعمال العقل ولا الإنصاف

---

(١) روح المعاني (٢١/ ١١).
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٢/ ٣٨١).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٩٣).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٧).
(٥) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (١/ ٣٣١)، نعمة الله النخجواني.
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٥٥).
(٧) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٣/ ٣٣٦)، نقلا عن السعد التفتازاني في حاشيته على الكشاف.

ولا غير ذلك من القيود التي ذكرتم، وهذا كافٍ لإبطال هذه الشروط والقيود التي زعمتم أن آيات الباب مقيدةٌ بها.

**قلنا**: ما قاله هؤلاء المفسرون الذين استشهدتم بأقوالهم كقول بعضهم «لأنَّ هذا من الظهور بحيث لا يقدر أحد أن ينكره» مقيدٌ بما **إذا أعملوا عقولهم** ونظروا ولو أدنى نظر، فإذا أعمل المرء عقله في هذا العالم فسوف يقر بأن له خالقاً وهو الله تعالى، وإلا فمن أهمل عقله ولم يعمله فيستطيع أن ينكر الله وينكر سائر الغيبيات، بل يمكن أن ينكر المحسوسات فضلاً عن إنكاره للضروريات العقلية، أو على الأقل يشك في وجودها كما هو مذهب الشكاك من السفسطائية وغيرهم، وقد رأينا آنفاً كيف أن ابن تيمية نفسه قرر أن بعض الناس قد ينكرون الضروريات والحسيات، وأنه لذلك وُجد من أنكر الصانع سبحانه كفرعون!

وفي ذلك يقول ابن تيمية في صدد ردِّه على ابن عربي: «وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية **الذين ينكرون وجود الصانع مطلقا، ولا يقرون بوجود واجبٍ غير العالم**. كما ذكر الله عن فرعون وذويه؛ وقوله مطابقٌ لقول فرعون لكن فرعون لم يكن مقرا بالله»[1]. اهـ.

فإذن لا بد من إعمال العقل هنا، وهذا أشار إليه من ذكرتم من المفسرين كما في قول البيضاوي: «﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن **العقل الصريح** قد اضطرهم بأدنى نظرٍ إلى الإقرار بأنه خالقها»[2]. وقول أبي السعود السابق: «سيقولون لله لأن **بديهة العقل تضطرهم** إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها»[3]. اهـ.

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٤١).
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٩٣).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٧).

فتأمل كيف ذكرا - أي البيضاوي وأبو السعود - العقلَ الذي به سيقر المشركون بالخالق، ولكن كيف؟ بإعمال العقل طبعاً، فإذن لا بد في نهاية المطاف أن يُعملوا عقولهم ليقروا بالخالق، وإلا فلن يقروا، فثبت بذلك أن إقرارهم بالخالق مشروطٌ بما لو أعملوا عقولهم، ولكن سبق أن بيَّنا أن القوم كانوا معطِّلين لعقولهم مقلِّدين لآبائهم، ولذا وصفهم البيان الإلهي أنهم لا يعقلون، وهذا الوصف جاء حتى في بعض آيات الباب مثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣].

## إن كان الإقرار بالخالق أمراً ضرورياً فهذا يدل على أنهم كانوا مضطرين

أي إن سلمنا أن الإقرار بوجود الله أمرٌ ضروريٌ لا مفر منه وأن الكل ملجأ إليه فهذا يؤكد ما قلنا من أنهم كانوا مضطرين للإقرار بوجود الله، أي أن «العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها»[(١)]!!

وكنتم قد أنكرتم ذلك، والآن عدتم للإقرار باضطرارهم، والمضطر لا يؤخذ بإقراره عند الجمهور كما هو معروف[(٢)]، ولذلك قالوا: «إذا كان المكره عليه عقداً أو حلاً أو أي تصرف قولي أو فعلي، فإنه لا يصح عملاً بعموم الحديث الصحيح: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان **وما استكرهوا عليه**»[(٣)].

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٩٣).

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٩/ ١٧) و(٣٥/ ١٦)، وانظر: مقال على شبكة الألوكة: الإكراه (تعريفه - أنواعه - شروطه - أثره).

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ١٠٩)، والحديث مخرَّج في حاشية الموسوعة في مواضع عدة، منها قولهم في حاشية الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٩٨): حديث: «رفع عن =

نعم قد يقال هذا إكراهٌ مجازيٌ، لأنه إكراهٌ اضطراريٌ عقلي، وأما الإكراه الحقيقي فهو الإكراه المادي الذي يكون بتهديدٍ وقهرٍ على فعل أمر ما؛ كمن يهدد مسلماً بالقتل إن لم يكفر بالله، وفي ذلك يقول تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولذا قال المناوي: «(وما استكرهوا عليه)، أي حملوا على فعله قهراً، والمراد رفع الإثم وفي ارتفاع الحكم خلف والجمهور على ارتفاعه»[(١)]. وقال ملا علي القاري: «أي ما طلب منهم من المعاصي على وجه الإكراه، وهو حمل الإنسان على ما يكرهه، ولا يريد مباشرته لولا الحمل عليه بالوعيد كالقتل والضرب الشديد»[(٢)].

والحاصل أن المشركين سيقرون بالله بعد المحاجة العقلية، فلا بد لهم من إعمال عقولهم هنا، وعليهم أيضا أن لا يعاندوا بل يجب أن يذعنوا لما تحكم به العقول من «وجوب انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود».

## قول الألوسي بأن إقرارهم نُزِّل منزلة العدم لعدم إذعانهم

إن إعمالهم للعقل لا يكفي بل يجب أن يذعنوا له بقلوبهم ويقروا بألسنتهم بما أوجبه عقلهم وما قادهم إليه نظرهم السليم إلى وجود الله، وأنه

---

= أمتي...»، عزاه السيوطي إلى الطبراني في الكبير عن ثوبان. انظر: فيض القدير (٤/ ٣٤/ ٤٤٦١) وضعفه المناوي فيه، والصواب رواية البيهقي عن ابن عمر بلفظ «وضع عن أمتي...»، وأخرجه الحاكم عن ابن عباس (٢/ ١٩٨) بلفظ «تجاوز الله عن أمتي الخطأ...»، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. اهـ. وانظر للتوسع: سنن ابن ماجه (٣/ ٢٠٠)، تحقيق الأرنؤوط.

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٢٤٨).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٥٢).

هو الخالق وحده لا شريك له، بل يجب أيضاً أن يذعنوا بالعمل وهو اتباع الشرع الذي جاءهم به النبي ﷺ، وهذا كله لم يتحقق منهم.

ولذا قال الآلوسي: «ولما لم يحقق تصديقهم المشعر به قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، عملهم حيث لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة، **بل اقترن بما ينبئ عن خلافه من الشرك** والعصيان: **نُزِّل منزلة العدم** والإنكار فحضوا على التصديق بذلك[1]، فإنه لو «كانوا مقرين بذلك، فكيف يَجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي؟!»[2].

## خلاصة الشروط الثلاثة لإقرارهم بالله وهي سؤالهم عن الخالق وتفكرهم وإذعانهم وأنها لم تتحقق

وهكذا نجد أن لدينا ثلاثة شروط - على الأقل - لإقرارهم بالخالق، لم يتحقق شيءٌ منها، وهي:

**الأول**: أن يسألهم ﷺ عن الخالق، وهو ما لم يثبت، أي لم يثبت أنه سألهم كما سبق بيانه.

**الثاني**: أن يعملوا عقولهم في أدلة وجود الخالق، بيد أن القوم كانوا مقلدين لآبائهم في عبادة الأصنام، ولو أعملوا عقولهم لما عبدوا أصلا أحجارا صماء، ولذا أنكر الله عليهم هذا التقليد الأعمى الذي كان على حساب عقولهم، وهذا أيضا سبق بيانه.

---

(١) روح المعاني (٢٧/١٤٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٦٣).

**الثالث**: أن يذعنوا لقرار عقولهم، فيؤمنوا بالله بقلوبهم، ويقروا به بألسنتهم، ويعملوا بجوارحهم، ولا يكابروا، فإن «الحجج والبراهين تلزمهم مستقبلا **بأن يعترفوا بالحق ما لم يكونوا من المعاندين** المكابرين المصرّين على الباطل ليس لهم دليل عليه»[1]. بيد أن القوم كانوا مكابرين معاندين. «فإن من **الكفار من كان يعرف الحق يقيناً**، وكان إنكاره عناداً واستكباراً، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾»[2]، وسيأتي بسط عنادهم للحق إن شاء الله[3].

❁ ❁ ❁

(١) توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما للشيخ حبنكة (ص: ١١٣).
(٢) الإيمان بين السلف والمتكلمين لأحمد بن عطية الغامدي (ص: ١٥٢)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١/ ٢٠٠٢م.
(٣) انظر (ص: ٤٥٣).

## المرصد الثالث

# الجواب عن دعوى تحقق شروط إقرارهم بالله

قد يقال بأننا لو سلمنا ما ذكرتم في الوجه الثاني من أن إقرارهم بالله يشترط لوقوعه شروطا، وهي التفكر والإنصاف والإذعان، وأن هذه الشروط قد دل عليها فحوى آيات الباب: فإن هذه الشروط قد تحققت فعلا؛ لأن الله أخبر بأنهم لو سئلوا عمن خلقهم ليقولن الله، أي أنهم قالوا ذلك بعد أن أعملوا عقولهم وأنصفوا وأذعنوا، ضرورة أن المشروط إذا وقع دل على تحقق شروطه.

**فجوابه**: أن هذا يكون صحيحاً لو أن آيات الباب جاءت بصيغة الماضي، أي لو كانت الآيات بصيغة: «وإذ سألتهم من خلقهم فقالوا: الله»، لصح كلامكم، وهو أنه قد تحققت تلك الشروط والقيود التي ذكرناها لجوابهم؛ لأن جوابهم بأن الله هو خالقهم: قد تحقق أيضا، ضرورة أن حصول الأمر المعلق على شروط دليل على حصول تلك الشروط.

وحيث إن آيات الباب جاءت بصيغة الشرط كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، فدلت على أن جوابهم معلق على سؤالهم، وهذا يدل على أن جوابهم سيكون في المستقبل إن سئلوا، وهو ما جاء صراحة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]
وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وإذا كانت آيات الباب دلت بنصها ومنطوقها على ما سبق وهو تعليق جوابهم في المستقبل على سؤال النبي لهم عن الخالق، فإنها أيضا دلت بفحواها ومفهومها على أن جوابهم معلق على تلك الشروط الأخرى سوى سؤالهم - وهي أن يُعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا - فيكون إقرارهم بالله معلقاً على تحقق تلك الشروط كلها التي تُفهم من المنطوق والمفهوم معا، وبالتالي فما لم تتحقق كل هذه الشروط مجتمعة فلن يقروا بالخالق.

## المطلب الثاني

# بيان أن هذا الشرط (وهو أن يعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا) غير متحقق

فهو في الواقع شرطٌ مركبٌ من عدة أجزاء أو من عدة شروط، وهي أن يعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا، فنقول: إن هذه الشروط المشترطة لإقرارهم بالله: غير متحققة بل من المستبعد أن تتحقق كما دلت على ذلك بعض الآيات، فيبعُد أن يُعملوا عقولهم حين يسألون عن الخالق، إذ لو أعملوها لما عبد المشركون من كل الأمم أوثانا صنعوها ونحتوها بأيديهم من الأحجار الصماء، ولذا قال تعالى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩١ - ٩٦].

## المشركون لا يعملون عقلوهم لأنهم مقلدون

ولما قلَّدوا آباءهم تقليداً أعمى في عبادة الأوثان، وفي كل شيءٍ ورثوه عنهم، حتى ولو كانوا على ضلال: أغفلوا عقولهم ولذلك فإنهم «وُصفوا في القرآن بأنهم لا يعقلون»(١)، حيث قال تعالى ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٢٦٥).

لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

وجاءت آيات كثيرة تنعى عليهم هذا التقليد الأعمى وتنعى عليهم وعلى آبائهم إغفال عقولهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠] وسيأتي بسطه(١).

## ختمت بعض آيات الباب بكونهم متناقضين وأنهم لا يعلمون ولا يعقلون

بل إن بعض آيات الباب نفسها خُتمت بأنهم لا يعلمون كما في قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥] «أي: إذا سئل هؤلاء... اعترفوا بأنه هو الله. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: ..على ما هدانا لدينه..وأوضح حججنا على من خالفنا فيه إذ قررهم بما فيه **الحجة عليهم**... ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي ليس شركهم لانقطاع الحجج عنهم، لكن أكثرهم لا يعملون بعلمهم؛ أي: يتركون التدبر في الدلائل فيفوتهم العلم بسفههم»(٢)، ولذا قال: «﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم»(٣) أو المعنى «لا ينظرون، ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره»(٤).

---

(١) انظر (ص: ٤٤٤).

(٢) التيسير في التفسير لأبي حفص النسفي (١٢/ ٨٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٧/ ٧٥).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٧٩).

وبعض آيات الباب نفسها خُتمت بأنهم لا يعقلون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]. أي «لا يتدبرون هذه الحجج»[١]، و«لا يعقلون الأشياء التي **يتعقلها العقلاء**، فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هي عليه عند كل عاقل»[٢].

فلذا قال «﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض، أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك **في توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن إقرارا عاطلا كإقرار المشركين**»[٣]. لأنهم «يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون.. **فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم** فقل الحمد لله **على ظهور تناقضهم** وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض أو فساد هذا التناقض»[٤].

## وُصفوا بأنهم بهائم لتقليدهم ولكونهم يعبدون ما يصنعونه ويستحسنونه ثم ربما أكلوه!

«فوُصف أكثرهم هنا بعدم العقل، فوجه ذلك.. التعريف بإفراط قصورهم حتى **استحقوا الوصف بصفات البهائم** ومن لا يصح خطابه»[٥] لأنهم «عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وغيره، فعبدوا الأوثان... فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٨٧).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٤٤).
(٣) تفسير النسفي (٢/ ٦٨٥).
(٤) مفاتيح الغيب للرازي (٢٥/ ٩١).
(٥) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٩٣).

**لم يقدر عليه ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم** وأمام غيره، **مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت**. . . فيخرج الرجل منهم، فيأتي بأربعة أحجار، فينصب ثلاثة لقدره، **ويجعل أحسنها إلهاً** يعبده، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره». فهذا مثالٌ دلَّ على **سذاجة اعتقاداتهم** تجاه هذه المعبودات، من ضمن أمثلة عديدة[(١)].

بل الأشد من ذلك أنهم كانوا يأكلون ما يعبدونه إذا جاعوا إن كان مصنوعاً مما يؤكل، ولذا قال الشاعر:

**أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّهَا ... زَمَنَ التَقَحُّمِ والمَجَاعَةْ**
**لم يَحْذَرُوا من ربِّهم ... سُوءَ العَوَاقِبِ والتِّبَاعَةْ[(٢)]**

قال ابن منظور: «لأنهم كانوا قد اتخذوا إلهاً من حَيْسٍ فعَبَدُوه زَماناً ثم أصابتهم **مَجاعة فأكلوه**»[(٣)].

وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي «تنحتون الأصنام بأيديكم وتعبدونها. وحكى أن بني حنيفة اتخذوا صنماً من الخيس[(٤)] - وهو التمر مع السمن - ثم إنه أصابتهم مجاعة فأكلوه، قال الشاعر:

(١) الشرك في القديم والحديث (١/ ٥٦٢).
(٢) الصحاح في اللغة (١/ ٦١)، تاج العروس (٢٠/ ٣٧٢)، وانظر: وأورده بعض السلفية أيضاً، انظر: الشرك في القديم والحديث (ص: ٥٦٧)، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، ط ١/ ٢٠٠١ م، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام (١/ ٥١٨)، د. حمود الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٤م.
(٣) لسان العرب لابن منظور (١/ ٤١٦).
(٤) كذا وقع في المطبوع من تفسير السمعاني: «الخَيس - بالخاء المعجمة - والأصوب أنها بالحاء المهملة كما جاء في الصحاح ولسان العرب، حيث جاء في الصحاح للجوهري، دار العلم للملايين (٣/ ١١٩٠): لأنَّهم كانوا قد اتخذوا إلهاً من حَيْسٍ، فعبدوه زماناً ثم أصابتهم مجاعةٌ فأكلوه». وانظر: لسان العرب لابن منظور (٨/ ٢٧)، دار صادر.

**أكــلــت حـنــيــفــة ربــهــا...»**[١]. اهــ.

فإذن هم كانوا لا يُعملون عقولهم فيما يعبدونه وإنما كانوا يعبدون ما يستحسنون من الأحجار، بل إن كان صنمهم مصنوعا مما يؤكل أكلوه إذا جاعوا حتى لو كانوا هم من صنعوه!!!

فالخلاصة أنهم مهملون لعقولهم ومقلدون لما وجدوا عليه آباءهم تقليداً أعمى وتعصبا لهم، ولو تفكروا وأنصفوا لما عبدوا تلك الحجارة، ولما أكلوا ما عبدوه!!

## بيان أنهم لم يذعنوا.. وإلا لوحدوه في الألوهية.. ولآمنوا بالنبي لعلمهم بصدقه

لو أعملوا عقولهم وأنصفوا وأذعنوا لما كذَّبوا النبيَّ ﷺ ولما أطلقوا عليه تلك الأوصاف الشنيعة من أنه مجنون وساحر وكذّاب - حاشاه بأبي هو وأمي - وغير ذلك، **إذ كانوا يقرُّون بصدقه وأمانته** ورجاحة عقلة.

«ومحمد ﷺ **ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين**، لم تجرَّب عليه كذبةٌ واحدة. ولما جاءه الروح بالوحي **لم يخبر بخبرٍ واحدٍ كذب**، لا عمداً ولا خطأً»[٢]. «وكان رسول الله ﷺ، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته»[٣]، وسيأتي بسطه[٤].

ولذا «كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل **وأن الرسل**

(١) تفسير السمعاني (٤/ ١٧٣).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٣٥٦).
(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٢٩٤).
(٤) انظر (ص: ٣٥٦-٣٥٧).

**صَدَّقُوهم فيما بلغوهم** عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه.. فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق **وأن الشرك باطل** وانما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله»(١).

وسيأتي بسطه أيضا(٢).

## بعض آيات الباب دلت على أن المشركين كان عندهم معرفة بالله ولكن لم تقترن بالإذعان

وهذا هو الواقع فعلا الذي **أفادته بعض آيات الباب نفسها**، **وهو** أن المشركين كان عندهم معرفةٌ وإقرارٌ بوجود الله، بيد أن هذه المعرفة وهذا الإقرار لم يقترنا بالإذعان بل واقع أمرهم أنهم خالفوا معرفتهم وإقرارهم هذا بل هم ناقضون له كما سيأتي.

وهذا دل عليه أيضاً بعض آيات الباب كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فقد أشير بقوله ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ إلى «أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون، وأنت تعلم وتعمل، فكذلك المؤمنون بك، فقل الحمد لله»(٣).

وبالتالي نُزِّل إقرارهم بالخالق «**منزلة العدم** والإنكار لأنه إذا لم يقترن بالطاعة، والأعمال الصالحة **لا يعد تصديقا**»(٤).

(١) عدة الصابرين لابن القيم (ص: ١٥٦).
(٢) انظر (ص: ٣٦٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩١).
(٤) حاشيه الشهاب «عناية القاضي وكفاية الراضي» (٨/ ١٤٥).

«حيث لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة بل اقترن بما ينبئ عن خلافه من الشرك والعصيان نزل منزلة العدم والإنكار فحضوا على التصديق بذلك»(١). لأنهم «إذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟**!** وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي؟!»(٢).

ومن ثَمّ شككتْ بعضُ آيات الباب نفسها في إقرارهم بالله كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩]. فقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: «إن كنتم تعلمون فأخبروني. وفي هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم»(٣). أو المعنى «أجيبوني عما استعلمتكم منه **إن كان عندكم فيه علم**، وفيه استهانة بهم وتجويز - لفرط جهالتهم بالديانات - أن **يجهلوا مثل هذا الظاهر البين**»(٤).

وقوله ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: «فمن أي وجه تصرفون عن التصديق بآيات الله، والإقرار بأخباره، وأخبار رسوله، والإيمان بأن الله **القادر على كل ما يشاء** وعلى بعثكم أحياء بعد مماتكم، **مع علمكم بما تقولون من عظيم سلطانه وقدرته**؟»(٥).

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ١٤٧).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٦٣).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٨٦)، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ١٤٣).
(٤) الكشاف (٣/ ٢٠٢).
(٥) جامع البيان (١٧/ ١٠٠).

# خلاصة وتعقيب على الشيخ حبنكة في تفريقه بين آيات الباب التي جاءت بصيغة المستقبل وبين غيرها:

فتحصَّل مما سبق أن آيات الباب الثمانية بقسميها؛ أي سواء التي دلت على أن إقرارهم هو إقرار مستقبلي لا حالي، كما دلت على ذلك الآيات التي جاءت بصيغة المستقبل مثل ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، أو الآيات التي علقت إقرارهم على سؤالهم كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فإقرارهم بالله في كل هذه الآيات بقسميها: مقيد بما إذا أعملوا عقولهم وأنصفوا وأذعنوا ولم يكابروا.

ومن ثَم فأنا لا أوافق الشيخَ عبد الرحمن حبنكة - رحمه الله - حينما فرَّق بين الصيغتين؛ حيث سلَّم بأن آيات الباب التي بصيغة المستقبل في ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أو ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ليس فيها تسليم بصفات الربوبية كلها لله إلا بعد جدال وإقامة الحجة وبعد أن ينصفوا ويذعنوا كما رأينا.

حيث قال حبنكة: «حرف الاستقبال الذي هو السين للدلالة **على أن المشركين ليست لديهم عقيدة حاضرة بأن الربوبية** في موضوعات الأسئلة الثلاثة **هي لله** بل لشركائهم، لكن الحجج **والبراهين تلزمهم مستقبلاً** بأن يعترفوا بالحق ما لم يكونوا من **المعاندين المكابرين المصرِّين** على الباطل ليس لهم دليل عليه». اهـ.

وهذا القدْر الذي قاله الشيخ حبنكة موافقٌ لما قررتُه أنا من قبل، أي أني متفق معه في ذلك، وهو أنهم لن يقروا إلا بعد إقامة البراهين لهم وإعمال عقولهم وإنصافهم وإذعانهم، ولكن ما لا أوافق عليه هو ما قاله بعد ذلك من

أن الآيات التي ليست بصيغة المستقبل، فيها فقط تسليم تلقائي بالله كخالق دون التسليم بكل صفات الربوبية الأخرى!!

حيث قال حبنكة: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ [الزمر: ٣٨]، في هذا النص تعليمٌ جدليٌ يبدأ من أرضيةٍ مشتركةٍ بين الداعي إلى توحيد الله في الربوبية وفي الإلهية، وبين المشركين. أما الأرضية المشتركة **فهي إيمانهم بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم يعترفون بهذه الحقيقة بتلقائية**، لذلك فهم يقولون في جواب السؤال عمن خلق السموات والأرض **دون تريث**: «**الله**»، وجاء التعبير القرآني: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، عندئذٍ ينقلهم الدَّاعي إلى عناصر أخرى من عناصر ربوبية الله، وهي من **الأمور التي يجعلونها لشركائهم فجرهم اعتقادهم** الباطل إلى عبادتها، **ويقيم لهم البراهين على أن آلهتهم لا تملك شيئاً منها**»[1]. اهـ.

وحاصل ما ذكر الشيخ حبنكة أن آيات الباب التي بصيغة المستقبل مثل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٩] ليس فيها تسليم من المشركين بخصائص الربوبية، بخلاف الآيات الأخرى التي ليست بصيغة المستقبل كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧] فإن فيها - بحسب حبنكة - تسليماً تلقائياً منهم بالله.

كذا قال مفرِّقاً بين المقامين، وأنا أخالفه في هذا التفريق، وذلك لأنه هذا تفريق بين متماثلين لأن الإقرار بأن الله خالق كالإقرار بأن صفات الربوبية كلها له، إذ كلا الأمرين لا بد فيه من الحِجاج وإعمال العقل والإذعان والإنصاف وعدم المكابرة، فإن كابر في بعض صفات الربوبية فإنه يمكن يكابر في غيرها، بل يمكن أن ينكر الربوبية نفسها كما أنكر خصائصها، أي أنه

---

(١) توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما (ص: ١١١).

يمكن أن ينكر اللهَ نفسه في نهاية المطاف، وبالتالي فكيف يقال إن قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ فيه تسليم تلقائي منهم بالله؟!

ثم إن آيات الباب كلها الإقرار فيها في المستقبل، غاية ما هنالك أن بعضها فيها سين الاستقبال صراحة، وبعضها ليس فيها تلك السين ولكنها مقدرة، لأن قوله ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، أي مستقبلا، لأنه معلق على شرط سؤالهم عن الخالق كما قال ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وما دام الإقرار في كل آيات الباب هو في المستقبل فلم التفريق بين مستقبل ومستقبل على الشكل السابق الذي انتحاه الشيخ حبنكة رحمه الله؟!!

وبهذا أكون قد انتهيت من الفصل الثاني بفضل الله، لأنتقل إلى الفصل الثالث والله المستعان.

## المبحث الثالث

# ما قد يقوم مقام إقرار المشركين بالله

قد يعترض على ما سبق بيانه فيقال على التسليم بأن آيات الباب الثمانية ليس فيها إقرار محقق من المشركين بالله خالقا، ولكن ثمة أمران يقومان مقام هذا الإقرار، وهما:

**الأمر الأول**: سكوت المشركين عند تلاوة آيات الباب الثمانية، وهذا يدل على رضاهم بما دلت عليه تلك الآيات.

**الأمر الثاني**: أن الله يعلم أنهم سيُقرِّون لو سئلوا عن خالقهم، وهذا يدل على إيمانهم القلبي بالله.

وفيما يلي بسط هذين الأمرين مع الجواب عليهما في مطلبين.

## المطلب الأول

# سكوت المشركين عند تلاوة آيات الباب الثمانية وهذا يدل على رضاهم بما دلت عليه تلك الآيات

وبيانه أن تلاوة آيات «المؤمنون» السابقة ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] ونحوها من آيات الباب الثمانية على أسماع المشركين وسكوتهم دون أن يعترضوا عليها: هو بحد ذاته إقرار منهم ورضا بصحة أمرين تضمنتهما هذه الآيات:

**الأول**: أنهم يعتقدون بوجود الخالق كما دلت على ذلك تلك الآيات، وإلا لاعترضوا وقالوا مثلا: «نحن لا نقر بأن الله هو رب السموات والأرض».

**والثاني**: البرهان على قدرته تعالى على البعث لأن الآيات السابقة جاءت في سياق إثباته، ولو لم يؤمنوا بأن الله خلقهم في المرة الأولى فكيف يقال لهم إن الله قادر على أن يعيدكم مرة أخرى كما خلقكم أول مرة؟!!

## سكوت المشركين ليس إقرارا بالله

**قلنا**: هذا ليس إقراراً، وإنما هو مجرد سكوت، والسكوت لا يفيد إقراراً ولا توحيداً لا في الربوبية ولا في الألوهية، ولا يفيد إيماناً ما لم يُعرب

الإنسان عن باطنه بلسانه، وإلا لما كان حاجة للنطق بالشهادتين أصلاً!

بيد أن الإجماع منعقدٌ على أن مناط الدخول في الإسلام هو النطق بالشهادتين إن لم يمنعه مانع كخرس أو إكراه أو نحو ذلك. إذ «لا إله إلا الله» - هي كلمة **الإخلاص المنافية للشرك**، وكلمة التقوى التي **تقي قائلها من الشرك بالله**... ولهذا كانت هذه الكلمة كلمة الإسلام، **ومفتاح دار السلام، والفارق بين المؤمنين والكافرين**(١) من الأنام»(٢).

## لو كان السكوت إقرارا لكانوا مقرين بتوحيد الألوهية وبالبعث

لو كان مجرد سكوتهم عند تلاوة تلك الآيات إقراراً منهم بتوحيد الربوبية، للزم أنهم مُقرُّون بتوحيد الألوهية للسبب نفسه، إذ هم سكتوا حين تُلي عليهم قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] كما سبق تقريره، بل لكانوا بذلك مقرين بالبعث والنشور عند تلاوة الآيات التي تثبت البعث كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: ١١]!!!!

طبعا هذا باطلٌ قطعاً، إذ المشركون منكرون للبعث قبل تلاوة هذه الآيات وبعدها إلا من دخل في الإسلام لاحقاً، وكونهم سكتوا عند تلاوة

(١) ومع ذلك لم يكتف الوهابية من المسلمين بنطقهم بالشهادتين بحجة أن لها شروطاً أخرى غير التلفظ بها!! وأما مشركو قريش وغيرهم من مشركي الأمم فشهد لهم الوهابيةُ بتوحيد الربوبية حتى بدون نطقهم بما يدل عليه، وإنما تبرعوا لهم به!!! بل حتى مع نطق الكفار بما ينافي توحيد الربوبية كقول فرعون: أنا ربكم الأعلى!! إذ فرعون من ضمن البشر المجمعين على توحيد الربوبية عند الوهابية!! كما بسطناه في هذا الكتاب، فتأمل!!!

(٢) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ١٤٥).

الآيات المتضمنة للبراهين على قدرة الله على البعث لا يعني أنهم أقروا به، غاية ما في الأمر أنهم أُفحموا فلم يستطيعوا أن يجيبوا فسكتوا!!

وهذا كما حكى الله عن بعضهم حجته في إنكار البعث فرد الله عليه فأُفحم هو وأمثاله، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وهذا لا يعني أن المشركين أقروا بالبعث بعد أن أفحمهم الله.

وكذلك ما تلي عليهم من الآيات الدالة على وجوده ووحدانيته في الربوبية لا يعني أنهم أقروا بما تضمنتها، وإلا لكانوا مقرين بتوحيد الألوهية، إذ كم من الآيات التي جاءت لتبطل دعواهم بألوهية أصنامهم، منها قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٤].

فهل سكوتهم عند تلاوة هذه الآيات مفحَمين يعني أنهم نبذوا عبادة الأصنام؟! كيف؟! وقد قال الله عنهم: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٤-٦]!!!!

فإذن هم استمروا على عنادهم وإنْ أفحمهم الله تعالى بحججه القاطعة فلم يستطيعوا أن يجيبوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]؛ وهذا أمر مشاهد، إذ كم من ملحد أو زنديق أو مبتدع تقيم عليه الدليل وتقطعه بالبرهان وتخرسه بالحجة، ومع ذلك يبقى مصراً على باطله ومستمرا على زيغه.

## المطلب الثاني

# دعوى أن الله يعلم أنهم سيُقرِّون لو سئلوا عن خالقهم وهذا يدل على إيمانهم القلبي بالله

**قلنا**: نعم يعلم، ولكن الإيمان والكفر ليس مناطه علم الله، بمعنى أن الله لا يثيب الناس أو يعذبهم لمجرد علمه بما سيكون عليه حالهم، وإلا لما كان لتكليفهم في الدنيا ولا لبعث الرسل إليهم معنى، بل لجعلهم من أول الأمر فريقا في الجنة وفريقا في السعير بسابق علمه بحالهم ولما ظلمهم بذلك.

ولكن شاء الله أن يُظهر علمه فيهم، فخَلَقهم وأرسل إليهم الرسل وكلّفهم وامتحنهم، وهو عالم من الأزل بمن سيطيع منهم وبمن سيعصي فيما لو أرسل لهم رسلا وكلفهم، ولكن من رحمته أنه لم يحاسب الناس بعلمه الأزلي بهم دون أن يرسل إليهم رسلاً ويكلِّفهم ويمتحنهم!

وذلك لئلا يحتج عليه أحدٌ فيما لو أدخله النار فقط بسابق علمه فيه بدون تكليفٍ أو امتحانٍ له في الدنيا، فيقول: لو أرسلت إلي رسولاً أو كلفتني لأطعتك كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤]، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].

وبذلك تكون الحجة للكفرة والمشركين على الله!! ولكن حاشا لله فله سبحانه الحجة البالغة، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، أي «أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، **لئلا يحتج من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، أو ضل عن سبيلي بأن يقول إن أردت عقابه**: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ **فقطع حجة كل مبطلٍ ألحد في توحيده** وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذره، إعذاراً منه بذلك إليهم، **لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه**»[١].

وهكذا نرى أن عِلْم الله بأنهم سيقرون به ليس كافياً في اعتبارهم مقرين بالله حقيقة ما لم يعلنوا ويصرحوا بذلك بألسنتهم ويذعنوا له بقلوبهم وجوارحهم، وهذا كله مفتقدٌ هنا! فالمشركون لا هم أقروا بألسنتهم ولا أذعنوا بقلوبهم ولا بجوارحهم كما سبق بيانه، فمن أين وكيف جعلتموهم موحدين في الربوبية؟!

**ثم العجب منكم!** كيف شهدتم للمشركين بتوحيد الربوبية مع أنهم لم ينطقوا بما يدل على إقرارهم به، وإنما تبرعتم لهم بذلك، مع أن مخالفيكم من المسلمين يُقرون بالشهادتين صباح مساء، سراً وعلانية، وتصريحاً لا تلميحاً، واختياراً لا اضطراراً، فلم تكتفوا بذلك منهم، ولا شهدتم لهم بالتوحيد، بل حكمتم عليهم بالشرك وسفكتم دماءهم مع قولهم لا إله إلا الله بحجة أنهم «**إنما قالوها بألسنتهم** وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم»[٢]!! وهذا سبق بسطه[٣].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٦٩٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٦)، دار الصميعي، الرياض.

(٣) انظر (ص: ٣٤٣).

## المطلب الثالث

# آيات سورة المؤمنون كآيات سورة النمل ليس فيهما إقرار المشركين بالتوحيد لا في الربوبية ولا الألوهية

والواقع أن آيات «المؤمنون»: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، كآيات سورة «النمل» التي قال الله فيها: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠].

فقوله في «النمل»: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ...﴾، كقوله في «المؤمنون»: ﴿مَن رَّبُّ...﴾، فكلا الآيتين مشتملتان على سؤال المشركين عن الخالق والمدبر وهو ما تسمونه بتوحيد الربوبية، فلو كان ما في آية «المؤمنون» إقراراً من المشركين بتوحيد الربوبية لكان ما في آيات «النمل» إقراراً منهم بتوحيد الألوهية، لأن الله قال فيها: أإله مع الله؟

ولا يخلو إما أنهم قد أقروا بأنه لا إله مع الله، وبالتالي فهم موحِّدون في الألوهية، أو أنكروا ذلك وقالوا إن آلهتنا هي شريك مع الله في الخلق والتدبير، وعلى كلا الاحتمالين يبطل مذهب ابن تيمية! أما الأول - أي أنهم

قد أقروا بأنه لا إله مع الله - فهو باطل؛ لأن ابن تيمية يُسلّم بأن المشركين أشركوا في الألوهية، وأما الثاني - أي أنهم قالوا بأن آلهتنا شريكة مع الله في الخالقية - فلأن ابن تيمية يدعي أن المشركين موحدون في الربوبية.

**فإن قلتم**: نحن نختار الاحتمال الثاني، وهو أن المشركين حين قال الله لهم في آية «النمل»: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ قالوا: نعم الأصنام آلهة مع الله، وهذا لا يلزم منه أن المشركين ادعوا في آلهتهم الخلق والتدبير ونحو ذلك من صفات الربوبية، وذلك لأن الإله هو المعبود لا الخالق كما ادعيتم.

**والجواب أن** الإله في آية «النمل» السابقة هو الرب الخالق وليس فقط المعبود، إذ لا يصح أن يكون المعنى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي أمعبود مع الله؟**!** حتى يجيب المشركون بقولهم: آلهتنا تُعبد مع الله؛ وذلك لسببين:

**الأول**: أن هذا لا داعي للسؤال عنه؛ لأن المعبودات مع الله كثيرة كما قررتم أنتم، ومن جملتها أصنام المشركين التي أقروا بعبادتها كما في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

السبب **الثاني**: لأن السؤال هنا هو عمن خلق السموات والأرض وأنزل المطر، وليس السؤال عمن يُعبد مع الله، بدليل صدر آيات سورة النمل، وهو قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠].

## هل صحيح أن قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هو من قبيل الاستدلال عليهم بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؟

**فإن قلتم**: هو من قبيل الاستدلال عليهم بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فالقرآن «**يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك**

**مستلزم أن لا يعبد إلا الله**، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، إذ كانوا يسلِّمون بالأول وينازعون في الثاني»[(١)].

وفي ذلك يقول ابن تيمية في آيات النمل السابقة: «**المقصود أن هذه الآلهة التي تدعونها من دون الله هل هي التي فعلت هذه الأمور أم الله وحده فعلها؟** فإن القوم كانوا مقرِّين بأن الله وحده هو الفاعل لهذه الأمور.. لكن كانوا **مع ذلك مشركين به الآلهة** التي يعلمون أنها لم تفعل ذلك فأُنكر عليهم ذلك وزُجروا عنه، **ومثل هذا في القرآن كثير**»[(٢)].

ويقول أيضاً: «وكذلك قوله:...... ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.. **أي: أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله**. ومن قال من المفسرين إن المراد: **هل مع الله إله آخر؟ فقد غلط**؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾»[(٣)].

**ونحوه قول ابن القيم**: فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود؟! **وكيف يجعلون معه شريكاً في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق؟! وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية**.. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾[(٤)]. اهـ.

---

(١) جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية (ص: ١٩٦)، سعيد إبراهيم مرعي خليفة، رسالة دكتوراة في جامعة أم القرى لعام ٢٠٠٠ م. وانظر أيضاً: منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل (ص: ٢٧١): المبحث الثاني: الاستدلال ببرهان الربوبية المستقر في الفطر والعقول على توحيد الألوهية.

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٦).

(٤) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٤٣).

**قلنا**: هذا غير صحيح لعدة أمور:

**أولاً**: قلنا مراراً بأن هذا مصادرة على المطلوب! فنحن لا نسلم أصلاً أن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وإلى توحيد الألوهية حتى تجعلوا آيات «النمل» من باب الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية!!

**ثانياً**: على التسليم بذلك، فإن آيات «النمل» هي في تقرير توحيد الربوبية لا في توحيد الألوهية، لأن كلا منهما له براهين تخصه بحيث لا تصلح للقسم الثاني من التوحيد؛ فتوحيد الربوبية براهينه إنما هي بإثبات حدوث العالم وأن له محدِثاً واحداً وإلا لفسد نظامه، وأما توحيد الألوهية فهو بإبطال الشفاعة لهذه الأصنام، وأنها جمادات صنعوها بأيديهم وأطلقوا عليها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، إلى غير ذلك مما بسطناه في كتابنا الكبير[1].

**ثالثاً**: إننا نجد آيات تقرر كلا التوحيدين - على التسليم طبعاً بانقسام التوحيد إليهما - معاً وليس كما زعمتم أنه يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، كما في قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]، فقررت أن الله خالق وهو ما تسمونه توحيد الربوبية، وقررت أنه لا شفيع من دونه وهو ما تسمونه توحيد الألوهية، وثمة آيات كثيرة بسطت البرهان على كلا التوحيدين؛ الربوبية والألوهية بسطناها في كتابنا الكبير كما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) وذلك في الفصل السابع وهو: الاستدلال - أي على تقسيم التوحيد - بأن توحيد الربوبية هو حجة الله على المشركين في إثبات توحيد الألوهية. وسيطبع بشكلٍ مستقلٍ بحول الله.

## دعوى ابن تيمية أنه تعالى أنكر عليهم عبادتهم غيره تعالى مع إقرارهم بأنه لا إله آخر فعل ذلك

**رابعاً وهو الأهم**: أن حاصل كلام ابن تيمية السابق وهو قوله في آيات «النمل»: «فإن القوم كانوا مقرين بأن الله وحده هو الفاعل لهذه الأمور.. لكن كانوا مع **ذلك** مشركين به **الآلهة** التي يعلمون أنها لم تفعل **ذلك** فأُنكر عليهم ذلك وزُجروا عنه، **ومثل هذا في القرآن كثير**»(١).

حاصله أن قوله تعالى ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ معناه أإله مع الله فعَل ذلك؟ وأنه سؤالٌ إنكاريٌّ، على معنى أن الله أنكر عليهم عبادتهم غيره مع أنهم يقرون أنه لا إله آخر فعل ذلك، وأن من قال: بأن معنى الآية أمعبود مع الله، فغير صحيح لأنهم يتخذون معه آلهة.

كذا قال مشيراً إلى أن الآية فيها قولان للمفسرين:

الأول: **أإله مع الله فعل هذا؟**

والثاني: هل مع الله إله آخر؟

وقد اختار ابن تيمية الأول، وغلَّط من قال بالثاني.

**والواقع أن الآية محتملةٌ** لكلا المعنيين اللذين أشار إليهما ابن تيمية، وقد ذهب إلى كل منهما فريقٌ من المفسرين من السلف والخلف نبسطهما فيما يلي:

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/٥٣٦).

# بسط قولَي المفسرين في معنى ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾

**المعنى الأول: أنه بمعنى أإله معه فعل هذا؟**

فهو ما ذهب إليه زيد بن أسلم(١) من السلف، والطبري(٢)، والبغوي(٣)، وأحد قولي البيضاوي(٤)، وهو ما ذهب إليه من المعاصرين الشيخ أبو زهرة في تفسيره فقال: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ **أي أإله مع الله يفعل ذلك؟**»(٥). وهو الذي اختاره ابن تيمية وقطع به، وغلَّط من ذهب إلى الثاني التالي الذي رده ابن تيمية!!

**والمعنى الثاني**: أن المعنى: أمع الله إله آخر؟ وهو ما ذهب إليه قتادة(٦) وسعيد بن جبير(٧) من السلف، والسمعاني(٨) وابن الجوزي(٩)

---

(١) فقد جاء في تفسير ابن أبى حاتم (٩/ ٢٩٠٨) بسنده عن زيد بن أسلم: «أإله مع الله قال: أإله مع الله فعل هذا؟».

(٢) جامع البيان (١٨/ ١٠١).

(٣) حيث قال في تفسيره (٦/ ١٧٣): «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على قولكم أن مع الله إلها آخر».

(٤) حيث قال البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل (٤/ ١٦٥): «أإله مع الله يقدر على مثل ذلك». اهـ.

(٥) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٣٨١)، دار الفكر العربي.

(٦) جاء في الدر المنثور للسيوطي (١١/ ٣٩٠، طبعة هجر): «وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي ليس مع الله اله». اهـ.

(٧) حيث روى ابن أبى حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩٠٨) عنه قوله: «أإله مع الله أي ليس مع الله إله». اهـ.

(٨) تفسير السمعاني (٤/ ١٠٨).

(٩) زاد المسير (٦/ ١٨٥).

والزمخشري[١] وأحد قولي البيضاوي[٢] واختاره ابن كثير[٣]، وأبو السعود[٤]، وهذا المعنى هو ما رده ابن تيمية.

وقد أشار إلى كلا المعنيين ابن كثير، فقال في تفسيره: أإله مع الله «**أي يقدر على ذلك، أو أإله مع الله يُعبد؟**»[٥]. اهـ. وقريبٌ منه قول **الطبري**: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقول: **أإله مع الله سواه يفعل هذه الأشياء بكم.. أمعبود مع الله أيها الجهلة خلق ذلك...**»[٦] اهـ. ولكن قوله «**أمعبود مع الله أيها الجهلة خلق ذلك**» يؤول إلى المعنى الأول لأنه قيده بقوله «أمعبود خَلق ذلك».

## الاستفهام في ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ إنكاري.. ولكن ليس بالمعنى الذي زعمه ابن تيمية

وأما بالنسبة للاستفهام في قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فجمهور المفسرين والعلماء بمن فيهم ابن تيمية على أنه استفهام إنكاري، ولكن ابن تيمية قصد بالإنكاري هنا أنه ينكر عليهم عبادة غيره تعالى، مع أنهم يعلمون أنه لا إله غيره فعل ذلك من إنزال المطر وإنبات الزرع، فضلاً عن خلق السموات والأرض ونحوه.

فابن تيمية اختار أن معنى قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، **أي أإله مع الله فعل**

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٧٦).

(٢) أنوار التنزيل (٤/ ١٦٤).

(٣) حيث قال في تفسيره (١٠/ ٤١٩): «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي أإله مع الله يُعبد». اهـ.

(٤) فجاء في تفسيره المسمى «إرشاد العقل السليم» (٦/ ٢٩٦): «أإله آخر موجود مع الله حتى يجعل شريكا له في العبادة». اهـ.

(٥) تفسير ابن كثير (١٠/ ٤٢٤).

(٦) جامع البيان (١٨/ ١٠١).

**ذلك؟!** ثم جعل هذا الاستفهام تقريرياً، لأنه قال: «ولكن المقصود أن هذه **الآلهة التي تدعونها من دون الله هل هي التي فعلت هذه الأمور** أم الله وحده فعلها؟ **فإن القوم كانوا مقرين بأن الله وحده هو الفاعل لهذه الأمور**.. لكن كانوا مع ذلك مشركين به الآلهة التي يعلمون أنها لم تفعل ذلك **فأُنكر عليهم ذلك**»[1]..

وهذا يؤول إلى أن الاستفهام عنده في قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ تقريري لا إنكاري، وهذا ما صرح به بعض أتباعه كالشنقيطي[2] والبدر[3] بأنه استفهامٌ تقريريٌّ بناءً على أصول نظريته في تقسيم التوحيد وهو أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، وهذا ما لم يثبت حتى الآن!!

وهذا الذي اختاره ابن تيمية والشنقيطي والبدر خلاف ما ذهب إليه جمهور المفسرين وهو أن الاستفهام في قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ للإنكار، بيد أنهم انقسموا إلى فريقين في معنى الإنكار تبعاً لانقسامهم في معنى الآية على

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٣٦).

(٢) **قال الشنقيطي** في أضواء البيان (٣/ ٤٩١): «﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.. ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السماوات والأرض وما ذكر معها، خير من جماد لا يقدر على شيء. فلما تعين اعترافهم وبَّخهم منكِراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.. ولأجل ذلك ذكرنا.. أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة.. وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقريرٍ وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية». اهـ.

(٣) **فقال**: «ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أنَّ كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهاماتُ تقريرٍ، يراد منها أنَّهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار...»، ثم نقل البدر سائر كلام الشنقيطي السابق. انظر: القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٢٧).

المعنيين اللذين سبقا، فمن ذهب إلى أن المعنى أإله مع الله يُعبد؟! ذهب إلى أن هذا السؤال لإنكار هذا المعنى عليهم، وفيما يلي سرد لبعض نصوص المفسرين في ذلك:

## نصوص المفسرين في أن الاستفهام إنكاري في ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا إله معه يعبد

١) قال **السمعاني** في تفسيره: «وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار أي: لا إله مع الله»(١). اهـ.

٢) وقال ابن الجوزي: «ثم قال مستفهماً **منكراً عليهم** ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، **أي ليس معه إله** بل هم - يعني كفار مكة - قوم يعدلون»(٢). اهـ.

٣) وقال الزمخشري: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أغيره **يُقرن به ويُجعل شريكاً له**.. إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنَّ مع الله إلها، فأين دليلكم عليه؟»(٣).

٤) وقال البيضاوي: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أغيره **يُقرن به ويجعل له شريكاً**، وهو المنفرد بالخلق والتكوين»(٤). اهـ.

٥) وقال النسفي: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على إشراككم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في **دعواكم أن مع الله إلهاً آخر**»(٥).

٦) وقال الشيخ محمد أبو زهرة: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ **الاستفهام إنكاريٌ لإنكار**

---

(١) تفسير السمعاني (٤/ ١٠٨).
(٢) زاد المسير (٦/ ١٨٥).
(٣) الكشاف (٣/ ٣٧٦).
(٤) أنوار التنزيل (٤/ ١٦٤).
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٦١٦).

الوقوع، والمعنى لَا إله مع الله.. **الاستفهام لإنكار الوقوع أي لَا إله مع الله تعالى**»[1].

٧) وقال محمد علي الصابوني: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ **استفهام إنكار أي هل معه معبودٌ سواه حتى تسوُّوا بينهما وهو** المتفرد بالخلق والتكوين؟»[2].

## نصوص المفسرين في أن الاستفهام إنكاري على معنى أإله مع الله فعل ذلك؟!

**ومن ذهب إلى أن المعنى** هو: أإله مع الله فعل ذلك؟! ذهب إلى أن هذا السؤال لإنكار هذا المعنى عليهم، وإليك بعض نصوص المفسرين في ذلك:

١) قال **الطبري**: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقول: **أإله مع الله سواه يفعل هذه الأشياء** بكم.. **أمعبود مع الله أيها الجهلة خلق ذلك**...»[3]. اهـ.

٢) **وقال البغوي**: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ **استفهام على طريق الإنكار**، أي: **هل معه معبود سواه أعانه على صنعه**؟ بل ليس معه إله»[4].

٣) قال **البيضاوي** في تفسيره: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ **يقدر** على مثل ذلك... أإله **مع الله يفعل** ذلك. قل هاتوا برهانكم على أن **غيره يقدر** على شيء من ذلك»[5]. اهـ.

٤) **وفي تفسير الجلالين**: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي لا يفعل شيئاً مما ذكر إلا الله

---

(١) زهرة التفاسير (١٠/ ٥٤٧٤).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٣٨٠).

(٣) جامع البيان (١٨/ ١٠١).

(٤) تفسير البغوي (٦/ ١٧١).

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٦٥).

ولا إله معه، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ **أن معي إلها فعل شيئاً مما ذكر**»[(١)].

٥) **وقال أبو بكر الجزائري**: «﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حججكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ **أن غير الله يفعل شيئاً مما ذكر** في هذا السياق الكريم»[(٢)].

٦) وقال الطنطاوي: «ثم يأتي **الاستفهام الإنكاري** ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ أي: أإله مع الله تعالى **هو الذي فعل ذلك**؟ كلا، ليس مع الله تعالى **آلهة أخرى فعلت** ذلك»[(٣)]. اهـ.

وكلا الفريقين من المفسرين سواء الذين ذهبوا إلى أن الإنكار هنا منصبٌّ على أنهم يقولون بأن إلهاً غيره فعل ذلك، أو الذين ذهبوا إلى أن الإنكار منصبٌّ على أنهم يقولون بإلهٍ غير الله يُعبد؛ كلا الفريقين مخالفٌ لابن تيمية! لأنه لا أحد منهم قال بقوله، وهو أن المراد بالإنكار هو الإنكار على قولهم بإلهٍ غير الله، مع أنهم يقرون بأنه لم يفعل ذلك سواه!!!

## أربعة احتمالات لمعنى الاستفهام في آية ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾

**وبذلك يتحصل** لدينا أربعة معانٍ محتملة لقوله تعالى في آيات «النمل»: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ وهي:

**الأول**: أن يكون معناها أإلهٌ مع الله فعل ذلك؟ والاستفهام تقريري، أي هم يقرون أنه لم يفعل إله غيره ذلك.

---

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي (٣/ ١٨٧).

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ٣٦).

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٠/ ٣٤٦).

**الثاني**: أن يكون معناها أإلهٌ مع الله فعل ذلك، والاستفهام إنكاري، أي هم يزعمون - حسب هذا المعنى الثاني - بأن مع الله إلهاً فعل ذلك! فأنكر عليهم ذلك.

**الثالث**: أن يكون معناها أإلهٌ مع الله يُعبد معه؟ والاستفهام تقريري، أي يُقرُّون أنه لا يُعبد معه غيره.

**الرابع**: أن يكون معناها أإلهٌ مع الله يُعبد معه، والاستفهام إنكاري، أي يزعمون بأنه يعبد معه تعالى غيره! فأُنكر عليهم ذلك.

والقول الأول هو ما يؤول إليه كلام ابن تيمية كما رأينا، وقد قطع به وغلَّط ما سواه، بيد أن جمهور المفسرين على الثاني، وبعضهم ذهب إلى الرابع، ولا أعلم أحداً ذهب إلى الثالث إلا على معنى أنهم يعلمون أنه تعالى هو وحده الإله الحق، كما يعلمون أنه الرب الخالق وحده، ولكنهم لم يذعنوا لعلمهم هذا، كما سبق بيانه[1].

لا على معنى أنهم يعلمون أنه الإله الحق وحده ويقرون بذلك!! لأن هذا خلاف الواقع؛ إذ المشركون يرفضون ذلك ولذا هم يعبدون مع الله آلهة كثيرة، فكيف يسألهم سؤالاً تقريرياً: أإلهٌ من دونه تعبدون؟!! هذا لا يكون أبدا.

## معنى السؤال التقريري.. لا ينطبق على قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ كما زعم ابن تيمية

إذ السؤال التقريري القصد منه «حمل المخاطب **على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده العلم به**»[2]، وذلك كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

(١) انظر (ص: ٤٦٢).

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (١/ ٢٧٥).

ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦] فسيدنا عيسى عليه السلام يوقن أنَّه وأمَّه من عباد الله، ولم يدَّعِ أنه أو أنها إلهٌ من دون الله.

ولذا طلب منه «**أن يقر بذلك في ذلك** المشهد العظيم **تكذيباً للنصارى** وتحصيلاً لفهمهم أنه لم يقل ذلك»[١]، إذن «هذا السؤال سؤال تقريرٍ وتعييرٍ لا غير؛ لأنه كان يعلم أنه لم يكن قال لهم ذلك، لكنه سألهم سؤال تقرير؛ ليقروا بذلك؛ **لئلا يقولوا: هو قال لهم ذلك**»[٢].

ولو كان الاستفهام تقريرياً في آية «النمل» لكان المعنى أن القوم لا يعبدون معه سواه، وسؤال ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ جاء فقط لتقريرهم بهذه الحقيقة أي ليقولوا: لا إله سواك نعبده! وهذا خلاف الواقع، فهم يعبدون معه غيره.

وهذا ما جعل ابن تيمية ينكر المعنى الثاني للآية وهو أإله آخر مع الله؟ حيث قال: «ومن قال من المفسرين إن المراد: **هل مع الله إله آخر؟ فقد غلط**؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾»[٣]. اهـ.

**بيد أن هذا لا يُبطل المعنى الثاني**[٤] **فقد ذهب إليه كثيرٌ من السلف والخلف كما سبق**، وهذا الذي أورده عليهم ابن تيمية ليس بوارد لأنهم يرون أن الاستفهام هو استفهامُ إنكارٍ لا إقرار، أي ينكر عليهم أنهم اتخذوا مع الله إلهاً آخر وعبدوه، وقد سبقت نصوصهم في ذلك، ولو أنهم - أي أولئك

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٤٦٠).

(٢) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٦).

(٤) وهو أن يكون معناها أإله مع الله فعل ذلك، والاستفهام إنكاري بمعنى أنه ينكر عليهم أن يدَّعوا ذلك، لا بالمعنى الذي زعمه ابن تيمية من أنه ينكر عبادة غيره من أنهم يقرون بأن أحدا لم يفعل معه ذلك!!

المفسرين - جعلوا الاستفهام تقريرياً لورد عليهم ذلك؛ لأن المعنى سيكون أإله مع الله، أي أنتم أيها المشركون تقرون أنه ليس معه إله آخر! طبعاً وهذا غير مراد، لأنهم يجعلون مع الله آلهةً أخرى، وليس فقط إلهاً واحداً، كما في قوله ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود: ٥٤]!!

ومهما يكن من أمر **فإن ابن تيمية** ومن تبعه كالشنقيطي قطعوا بأن الاستفهام في قوله ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ بأنه استفهامٌ تقريريٌّ على معنى أنه يقررهم بما كانوا يعتقدونه بأنه لا أحد معه تعالى فعل ذلك! طبعاً هذا بناءً على إحدى مقدمات تقسيم التوحيد، وهي أن المشركين مقرُّون بتوحيد الربوبية، وفرَّعوا عليها «أن كل الأسئلة المتعلقة **بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير**»(١).

وفرَّعوا عليها أيضاً أنه تعالى يقررهم بتوحيد الربوبية، لينقلهم بعد ذلك إلى توحيد الألوهية، أو يستدل بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إثبات توحيد الألوهية، بيد أن هذه المقدمة التي بنى عليها ابن تيمية فهْمه لآية «النمل» وهي أن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية: مصادرة على المطلوب، كما قلنا مراراً وتكرارا، وبالتالي فلا يسلَّم كل ما بَنَوا وفرَّعوا عليها.

علاوةً على أن الشنقيطي أقرَّ في بعض المواضع أن الاستفهام في هذه المواضع استنكاريٌّ لا تقريري، فمثلاً هو يقول عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: ٣]: قوله تعالى: هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء. الاستفهام في قوله: **هل من خالق غير الله، إنكاري، فهو مضمن معنى النفي**. والمعنى: لا خالق إلا الله وحده، والخالق هو المستحق للعبادة

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٩١).

وحده. . .وقوله. . يرزقكم من السماء والأرض، يدل على أنه تعالى هو **الرازق وحده**»(١).

فتأمل قوله «الاستفهام في قوله: هل من خالق غير الله، **إنكاري فهو مضمن معنى النفي**. والمعنى: لا خالق إلا الله وحده. . .»، فأقر بأنه استفهامٌ إنكاري، ولكنه زعم أنه للنفي!! نعم هو للنفي والإنكار معاً على المشركين الذي يتخذون الآلهة والأرباب معه تعالى! لا بالمعنى الذي زعمه ابن تيمية وهو أنه تعالى ينكر عليهم عبادة غيره مع أنهم يقرون بأنه وحده الخالق!!

## قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ...﴾ أي على وجود خالق معه.. لا على وجود معبود معه

ناهيك عن أن ثمة قرينة تدل على **أن الاستفهام إنكاري**، وهي قوله تعالى: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، فقوله: هاتوا برهانكم، عَقِب قوله ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يعيِّن أن الاستفهام إنكاري، ويكون المعنى هاتوا برهانكم على أن ثمة إلهٌ غيره خلق هذا، **وإلا لو كان الاستفهام تقريرياً** وأن المراد أإلهٌ مع الله خلق هذا، وأنهم مقرُّون بأنه لا إله غيره تعالى خَلق هذا، فعلام يقول لهم ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾؟!! هل يقول لهم هاتوا برهانكم على أن الله وحده هو الذي فعل هذا وخلق ودبر؟!!

وإنما المعنى كما قال الطبري: «﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أي **حجتكم على أن شيئاً سوى الله يفعل ذلك**»(٢). اهـ. أو «هاتوا برهانكم على أن غيره يقدر على شيءٍ من ذلك»(٣). اهـ. وكذا في تفسير الجلالين وغيره كما سبق.

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٦/ ٦٩٦).
(٢) جامع البيان (١٨/ ١٠١).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٦٥).

فإن قيل: سلَّمنا أن الاستفهام إنكاري، ولكن ليس هو استفهاماً إنكارياً على معنى أنه: أخالقٌ معه تعالى فهاتوا برهانكم على ذلك؟ فإنهم لم يدَّعوا أن آلهتهم تَخلق بل هم يسلِّمون أنه لا خالق سواه فكيف ينكر عليهم ما لا يعتقدوه أصلا؟! وكذا كيف يطالبهم بالدليل على شيءٍ لم يزعموه؟! وإنما هو استفهامٌ إنكاريٌّ على معنى أمعبودٌ معه تعالى فهاتوا برهانكم على ذلك؟

وهذا نص عليه أبو السعود فقال: «﴿أَءِلَٰهٌ﴾ آخر موجود ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ حتى يجعل شريكاً له في العبادة.. هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه تعالى إلهاً لا على أن **غيره تعالى يقدر** على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل، فإنهم لا يدعونه صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة، **فمطالبتهم بالبرهان عليه** لا على صريح دعواهم **مما لا وجه له**»[1]. اهـ.

فقوله: «فإنهم لا يدعونه صريحا...» أي هم لا يدَّعون أن آلهتهم تقدر على ما يقدر عليه الله، وبالتالي فلا يصح أن يطالبهم بالدليل على أن آلهتهم تَخلق معه ما دام أنهم لم يدعوا ذلك أصلا، وإنما طالبهم بالدليل على ما زعموه صراحةً وهو أن معه إلهاً آخر يُعبد.

قلنا: هذا المعنى الذي ذكره أبو السعود محتمِل، وذهب إليه بعض المفسرين قبله كالنسفي حيث قال: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على إشراككم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أن **مع الله إلهاً آخر**»[2]. اهـ.

ولكنه يَؤول إلى ما قلنا وهو: أخالقٌ معه تعالى؟ لأن قولكم إن الآية على معنى: أمعبودٌ معه تعالى؟ لا يخلو من أن المعبود هنا معبودٌ بحقٍّ أو بغير

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٩٦).

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٦١٦).

حق، فإن كان الأول فمعنى الآية: أمعبود بحق معه؟ إلى معنى: أخالق معه تعالى؟ لأن المعبود بحق هو الخالق وفيما يلي:

## بعض نصوص السلفية في أن المعبود بحق هو الخالق

إذ «العبادة لا تكون إلا لربٍ خالقٍ مدبر»[(١)]، أي «إنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق»[(٢)]، فـ«لا يصلح أن يُعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكاً مدبراً»[(٣)]، و«لا يكون إلهاً مستحقاً للعبادة إلا من كان خالقاً رازقاً مالكاً متصرفاً مدبراً لجميع الأمور»[(٤)].

«وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئاً»[(٥)]، كما في قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ «فأخبر أنه خالقٌ منعمٌ عالمٌ، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئاً، ولا تنعم بشيء.. فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق»[(٦)]. إذ إنه «لا يُتَأله إلا للرب عز وجل الذي يُعتقد أنه هو الخالق وحده»[(٧)]، «والإله اسم صفةٍ لكل معبودٍ بحقٍّ أو باطلٍ ثم غلب على المعبود بحقٍّ وهو الله تعالى، وهو الذي يخلق ويرزق ويدبر الأمور»[(٨)].

---

(١) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣٠٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٠/ ٤١٩).
(٣) قاله محمد السليماني في مقدمة تحقيقه لكتاب قانون التأويل لابن العربي (ص: ٣٧٩).
(٤) معارج القبول (٢/ ٣٩٥).
(٥) بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٢٦٣).
(٦) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٨).
(٧) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٧/ ٢٣).
(٨) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية (١/ ٣٧٦)، نقلاً عن مؤلفات الشيخ، القسم الخامس، الشخصية رقم ١٦، (ص: ١٠٦).

فهذه النصوص لابن تيمية وأتباعه تؤكد أن المعبود بحقٍّ هو الخالق، وبالتالي ثبت قولنا أنه إن كان المراد بالإله في قوله تعالى ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ المعنى الأولَ للإله وهو المعبود بحق فمعنى الآية: أمعبودٌ بحقٍّ معه؟ فهذا يَؤول إلى معنى: أخالقٌ معه تعالى؟ لأن **المعبود بحق هو الخالق**.

## لا يجوز أن يكون المراد.. «أمبعود معه؟»

وإن كان المراد المعنى الثاني للإله، وهو أن الإله هو مطلق المعبود بحق أو بغير حق، فيكون معنى الآية: أمعبود معه تعالى بحق أو بغير حق؟! ولكن هذا الثاني يرده سياقُ الآية وهي قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ...﴾!!

وذلك لأن المعبود بغير حقٍّ موجودٌ بل محسوس، فلا يحتاج إلى برهانٍ عليه أصلاً حتى يطالبهم به، «لأن آلهة الباطل موجودةٌ في الوجود كالوثن والمقصود نفي ما عدا إله الحق»[1]. ولذلك فإن «(لا) في كلمة التوحيد لنفي افراد الجنس على الشمول والاستغراق و(إله).. والمراد به جنس المعبود بالحق لا مطلق جنس المعبود حقاً أو باطلاً، وإلا فلا يصح في نفسه **لتعدد الآلهة الباطلة**»[2].

و«**لوجود المعبودين في الوجود كالأصنام والكواكب**.. تقديرها - أي كلمة لا إله إلا الله - لا معبود مستحق للعبادة إلا الله»[3]، و«يغلط من قدَّر خبرها بكلمة: (موجودة أو معبود) فقط، لأنه يوجد **معبوداتٌ كثيرةٌ من**

(١) معنى لا إله إلا الله للزركشي (ص: ٧٤).
(٢) روح البيان (٩/ ٤٥٤).
(٣) الذخيرة للقرافي (٢/٥٧)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.

**الأصنام والأضرحة**[١] وغيرها، ولكن المعبود بحق هو الله، وما سواه فمعبود بالباطل وعبادته باطلة»[٢]، ولذلك فإن «القول بوجود إلهٍ غير الله تعالى إن كان بمعنى مستحق للعبادة فشرك، وإن كان بمعنى معبود بالفعل غير مستحق **فلا**»[٣].

ومن ثَمّ قال ابن تيمية عن آية «النمل»: «ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر؟ فقد غلط؛ فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهةً أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾»[٤]. اهـ.

فثبت أنه حتى لو فسرنا قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، بمعنى أمعبود معه تعالى سيؤول إلى أن المعنى أخالق معه تعالى؟ أو بمعنى أمعبود معه تعالى خلق هذه السموات والأرض والأنهار وغيرها؟ ولذا قال لهم ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على أن ثمة معبوداً معه خلق هذه؟ وهو ما قاله كثيرٌ من المفسرين كالطبري والبغوي والبيضاوي والجلالين والشوكاني وغيرهم كما سيأتي.

**وهذا متعينٌ وإلا لما كان ثمة مناسبة بين سؤاله** ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ وبين أمور الخلق والتدبير التي ذكر في آيات «النمل» السابقة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ

---

(١) طبعا هذا وفق الرؤية الوهابية وهي أن من قصد قبر صالحٍ لزيارته أو للتبرك به أو للدعاء أو الصلاة عنده، أو للتوسل أو الاستغاثة به فقد عبده!! وهذا غير صحيحٍ لأن العبادة هي أصلاً لا تكون إلا لمن يُعتقد فيه الربوبية أو الألوهية، ولا أحد من المسلمين يعتقد بأن غير الله رب أو إله، وهذا كله بسطناه في كتابنا الكبير وملحقاته. وانظر هذه المسائل عامة في كتاب «كشف الستور عما أشكل من أحكام القبور» للشيخ محمود سعيد ممدوح، وانظر: تعريف العبادة في بحث «العبادة.. بوابة التوحيد وبوابة التكفير» للشيخ د. حاتم العوني (ص: ٥).

(٢) معنى لا إله إلا الله ومقتضاها للفوزان، (ص: ١٦).

(٣) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٢/٣٩٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٧٦).

بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]، أي أن السؤال هنا عن الإله الخالق على معنى: أثمة إله معبود خَلق السموات والأرض؟ فإن كان جوابهم - كما يقول ابن تيمية -: لا معبود سواه خلق السموات والأرض، فلماذا قال لهم بعد ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؟ فهل يسألهم دليلاً على ما هم مقرون به؟ وإن كان جوابهم - وهو المتعيِّن عندي -: نعم ثمة إله معبود خَلق معه، فحينها يصح أن يسألهم تعالى بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

## اختيار الطبري وغيره.. أن المعنى: أإلهٌ مع الله خلق ذلك

فلا جرم أن هذا هو الذي نص عليه شيخ المفسرين **الطبري** حيث قال كما سبق: «**أمعبود مع الله أيها الجهلة خلق ذلك**... ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ **سِوى الله يفعل ذلك**؟ وإن زعموا أن إلهاً غير الله يفعل ذلك أو شيئاً منه، فـ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي **حجتكم على أن شيئاً سوى الله يفعل ذلك**»(١). اهـ.

وكذا حيث قال البغوي: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.. أي: هل معه معبودٌ **سواه أعانه** على صنعه؟ بل ليس معه إله»(٢). اهـ.

واختاره **الشوكاني** فقال: «﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حجتكم على أن الله سبحانه شريكا، أو هاتوا حجتكم أن ثَم **صانعاً** يصنع كصنعه»(٣).

(١) جامع البيان (١٨/ ١٠١).
(٢) تفسير البغوي (٦/ ١٧١).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٧٠).

ونص عليه **أيضاً البيضاوي** فقال كما سبق: «... أإله مع الله يفعل ذلك. قل هاتوا برهانكم على **أن غيره يقدر على شيء** من ذلك»[١]. اهـ.

ونحوه في تفسير **الجلالين**: «﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **أن معي إلهاً فعل شيئاً مما ذكر**»[٢].

ونحوه قول **الطنطاوي**: «أإله مع الله تعالى **هو الذي فعل ذلك**؟ كلا، ليس مع الله تعالى آلهة أخرى فعلت ذلك[٣].. أحضِروا حجتكم.. على أن لله تعالى **شريكاً في ملكه**»[٤].

واختاره بعض السلفية فقال أبو بكر **الجزائري**: «﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.. **أن غير الله يفعل شيئاً** مما ذكر»[٥].

## المعنى السابق لآيات «النمل» لا يتناقض مع آيات الباب الثمانية

**لا يقال**: ولكن القول بأنهم **سيجيبون** بأن: ثمة إلهاً مع الله خلق السموات والأرض وغيرها، يتناقض مع آيات الباب الثمانية التي أقروا فيها بأن الله وحده هو الخالق كما في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

**لأننا نقول**: لا تناقض، لأن آية «لقمان» ونحوها من آيات الباب الثمانية فيها سؤالٌ عن الخالق، وليس فيها سؤالٌ عن الخالق الواحد الأحد،

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٦٥).
(٢) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي (٣/ ١٨٧).
(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٠/ ٣٤٦).
(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٠/ ٣٤٨).
(٥) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ٣٦).

وأما آيات «النمل» السابقة ففيها سؤالٌ عن إلهٍ خالقٍ آخر معه، وقد قلنا سابقاً إن المشركين في معظهم لا مشكلة عندهم في الإقرار بأن الله إلهٌ وربٌّ وخالق، ولكن يرفضون أن يكون وحده الإله المعبود أو وحده الرب الخالق، فجاءت آيات «النمل» - وغيرها - لتقيم لهم الأدلة على أنه الإله الخالق وحده، وتطالبهم ببرهانٍ عن أن ثمة خالقاً آخر معه كما أوضحنا توًّا.

❀ ❀ ❀

# الفصل الثالث

# لا يوجد في آيات الباب الثمانية.. أي صيغةٍ للتوحيد

لو سلمنا جدلاً أن آيات الباب يُقصد بها أن يسأل النبيُ ﷺ المشركين عن الخالق - وهو ما لم نسلمه من قبل - وأن النبي ﷺ فعلاً سألهم عن الخالق، وأنهم فعلا أجابوه بألسنتهم بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض وخالق كل شيء، ولكن لا نسلم بأن تلك الآيات دلت على أنهم أقروا بأن الله وحده هو الخالق لا شريك له، ضرورةَ أن الآيات خالية من الأساليب التي تدل على التوحيد!

غاية ما في آيات الباب هي السؤال عن الخالق، أما أنه هو الخالق وحده وأن المشركين أقروا بذلك، فهذا لم تتعرض له آيات الباب قط، وفيما يلي بيان ذلك:

**أولاً**: إن قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١] وسائر آيات الباب الثمانية

المماثلة والتي سبق سردها ويستدل بها ابن تيمية وأتباعه على أن المشركين موحدون في الربوبية: ليس فيها توحيد أصلا، إذ أين التوحيد المزعوم في آية «العنكبوت» السابقة وما شاكلها من آيات الباب الثمانية؟!!!

**أين فيها ما زعمه ابن تيمية** أن المشركين أقروا «بأن الله **وحده** خالق السماوات والأرض»[1]، **فأين كلمة «وحده» في تلك الآيات الثماني؟!** أين فيها قولكم: «فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره»[2]. اهـ. **أين هذا كله في آيات الباب الثماني؟!!**

**ثانياً**: إن غاية ما في تلك الآيات الثمانية كلها أنهم إن سألتهم عن الخالق ليقولن الله؟ فمن أين أتيتم بزيادة «وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو...»، كما قال ابن عبد الوهاب متبرعاً بها للمشركين؟!!! ثم اعتبرتم ذلك إقراراً من المشركين بتوحيد الربوبية!!! **بل** جعلتم من يقول بأن تلك الآيات لا توحيد فيها: **من المحرفين لتلك «الآيات الصريحة الناصعة على اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية»[3]!!!**

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٢٧)

(٢) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٤.

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ١٨٦)، وجاء في نفس الكتاب (١/ ١٩١): «الطامة الثامنة: تحريفهم لتلك الآيات الصريحة الناصة على أن **المشركين كانوا يعترفون بتوحيد الربوبية** - تحريفًا معنوياً قرمطياً -، ولهم في هذا التحريف القرمطي طرق عجيبة غريبة، كل هذه التحريفات لمحاولة إثبات أن المشركين لم يكونوا معترفين بربوبية الله تعالى». اهـ.
وانظر أيضاً: موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٤٩)، وانظر أيضاً: شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٩٦).

## من سئل عن إلهه فقال: هو الله.. هل تشهدون له بتوحيد الألوهية

فيا ترى إذا سألتم أحداً عن إلهه، فقال لكم: هو الله؟!!! هل تتبرعون له بزيادة «وحده لا شريك له ولا إله إلا هو» ثم تعتبرونه موحداً في الألوهية؟!! أبداً، لأن من يقول فعلاً وينطق بلسانه صباح مساء: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» لا تشهدون له بتوحيد الألوهية ما لم يحقق شروط «لا إله إلا الله» الثمانية التي ستأتي[١]، وإلا تعتبرونه أشد كفراً من أبي جهل[٢]..!!!

فكيف لمجرد أنَّ المشركين إن سئلوا عن الخالق لقالوا: «الله»، تبرعتم لهم بزيادة «وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو...» واعتبرتموهم موحدين في الربوبية!!! ومن يشهد فعلاً بلسانه صباح مساء: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» لا تشهدون له بتوحيد الألوهية إلا بعد تحقيق شروط ثمانية..؟!!

فلماذا تكيلون بمكيالين؟! تكيلون للمشركين بالكيل الوافي وتتبرعون لهم بسخاءٍ منقطعِ النظير، وأما المسلمون فتضنُّون عليهم وتطففون معهم الكيل وتجحفونهم حقهم!!!

أم أن الأمر - كما قلنا سابقا - هو: أنكم تراخيتم وتوسعتم في توحيد الربوبية فلم تشترطوا له شروطاً قط، وذلك لتُدخلوا فيه المشركين فتشهدوا لهم بتوحيد الربوبية، وأما توحيد الألوهية فتشددتم في شروطه لئلا يدخل فيه سواكم، **ثم لتوزعوا شهادات الشرك زرافاتٍ ووحداناً على من ليس منكم!! وهذا ما حصل منكم وللأسف!!!**

---

(١) انظر (ص: ٣٣٨).
(٢) انظر (ص: ٣٣٩-٣٤٠).

وهذا هو أصلاً الهدف من نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد وهو أن يستخدم أصولها التي وضعها هو وما بنى عليها من فروع، يستخدم كل ذلك كسلاحٍ ضد خصومه من المتكلمين والصوفية وغيرهم، حيث جعل التوحيد قسمين:

**الأول**: توحيد الربوبية فأدخل فيه العالمين أجمعين أكتعين أبصعين وعلى رأسهم مشركو العرب!! حيث زعم أنهم كانوا يقولون بأنه لا خالق إلا الله وحده، طبعاً هذا تبرع منه كما قلنا.

**والثاني**: توحيد الألوهية، وزعم أن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل، ولم يحققه المشركون من كافة الأمم مع إيمانهم بتوحيد الربوبية، ثم جعل المتكلمين وكثيراً من الصوفية وغيرهم، جعلهم كالمشركين في ذلك، أي أنهم حققوا توحيد الربوبية ولم يحققوا الألوهية، كما سيأتي بيان ذلك من نصوص ابن تيمية.

ولكن كيف تمكن من ذلك؟ تمكن من ذلك بتبرعه للمشركين بالتوحيد في الربوبية، وفيما يلي بسط ذلك:

## لولا تبرع ابن تيمية بكلمة «وحده».. لما كانت نظريته في تقسيم التوحيد من أصلها

لولا إضافة ابن تيمية لكلمة «وحده» ونحوها إلى آيات الباب الثمانية لما قامت نظريته في تقسيم التوحيد من أصلها، إذ كلمة «وحده» ليست في آيات الباب الثمانية، وإنما هي إضافةٌ أو تقديرٌ أو تبرعٌ من ابن تيمية ومن تبعه للمشركين، ونحن كلامنا قبل التبرع، أي أننا نريد أن نعرف هل آيات الباب الثمانية دلت على أن المشركين موحدون في الربوبية ولكن بدون أن تزيد عليها أو تقدِّر فيها شيئاً محذوفاً أو أن تتبرع للمشركين بكلمة «وحده»!

أمَّا أن تزعم أنهم موحدون في الربوبية، ثم تستدل بآيات الباب بعد أن تقدِّر فيها أو تزيد عليها كلمة «وحده» فهذا ليس استدلالاً، وإنما هو لَعب أطفال كما سيتضح من المثال التالي(١).

## ابن تيمية ورِهان اثنين على ما في جيب ثالث قبل التبرع!!

تماما كما لو أن زيداً وعمراً تراهنا على التخمين حول ما في جيب خالد؛ هل يوجد فيه درهم مثلا؟ فقال زيد: نعم يوجد في جيبه درهم، وقال عمرو: لا يوجد فيه درهم، ثم قام زيد فوضع في جيب خالد درهماً خفيةً أو علانيةً ليعلن في نهاية المطاف أنه فاز بالرهان بحجة أنه عرف أن في جيبه درهماً!!

طبعا هذا تلاعبٌ واضحٌ! إذ الفائز هنا بالرهان هو في الحقيقة عمرو لا زيد، لأنه اتضح أن جيب خالد كان فارغاً تماماً كما خمَّن عمرو، وكون أن زيداً تبرع بوضع درهم في جيب خالد فهذا لا يغير من حقيقة ما كان، بل هذا يؤكد أن جيب خالد كان فارغاً كما ادعى عمرو حتى جاء زيد فوضع فيه درهماً ليوهم الناس صدق ما ادعاه - أي ما ادعاه زيد - من أن في جيب خالد درهماً، بيد أن هذا خداع من زيدٍ لا أكثر، لأن عَمراً إنما ادعى أنه ليس في جيب خالد درهم بالنظر لوضعه الحالي لا بالنظر إلى تبرع زيد اللاحق له وما أدخله في جيبه خفيةً أو علانيةً!!

هذا هو في الواقع بالضبط ما فعل مثله ابن تيمية - وكذا أتباعه - حيث

---

(١) اللهم إلا أن تقيم الدليل على أن كلمة «وحده» ونحوها مقدَّرة هنا، فتغدوا الآية من مجاز الحذف، وهذا طبعاً يتطلب منك أن تُقر أولاً بالمجاز وتتراجع عن كونه طاغوتاً!

أضاف إلى الآيات الثمانية كلمة «وحده»؛ مع أن الآيات خالية منها!! تماماً كما أضاف زيد درهماً إلى جيب خالد مع أن جيبه كان فارغا!! ثم إن ابن تيمية بعد أن أضاف إلى تلك الآيات كلمة «وحده» أعلن أن المشركين مقرُّون بتوحيد الربوبية!! تماماً كما وضع زيد في جيب خالد درهماً ثم أعلن فوزه بالرهان!!

وهنا بدأت القصة؛ فبعد أن ادعى ابن تيمية أن المشركين موحدون في الربوبية، زعم أن هذا ليس كلَّ التوحيد!! بل ادعى أن ثمة قسماً آخر للتوحيد لم يقروا به وهو ما سماه «توحيد الألوهية»!!

ومن ثَم زعم أن التوحيد قسمان على الأقل: توحيد ربوبية، وتوحيد ألوهية!! ثم راح يرتب على هذه التقسيم نتائج خطيرة من تبديعٍ وتكفيرٍ ورميٍ بالشرك!!!

وكما ترى فهذا كله بناه على إضافته لكلمة «وحده» لآيات الباب الثمانية، ليزعم أنها دلت على إقرارهم بتوحيد الربوبية!! ومعلوم أن آيات الباب الثمانية ليس فيها كلمة «وحده»، ولا ما يدل على التوحيد فضلاً عن أن يكون فيها أقسام للتوحيد!! وإنما هذا كله من صنيع ابن تيمية، وغاية ما يقال فيه هو اجتهاد من ابن تيمية رحمه الله، ولكن اجتهاده هذا خطأ قطعا، لما قلناه من أن هذا الاجتهاد وهذا التقدير لكلمة «وحده» هنا يخالف منطوقَ خمس أو ست آيات تنص على أن المشركين ينكرون أشد الإنكار كلمة «وحده» إذا قرنت بالله سبحانه، وأيضاً اجتهاده وفهمه هذا لآيات الباب يخالف فهم السلف لآيات الباب كما بيناه في موضعه.

**ثالثاً**: إن آيات الباب الثمانية لا حديث فيها عن التوحيد، إذ التوحيد

لا بد له من صيغة تدل عليه، والذي يدل على التوحيد أحد أمرين أساسين وهما:

**الأمر الأول:** التوكيد بكلمة «وحده»، أو «لا شريك له»، ونحو ذلك.

**الأمر الثاني:** أسلوب من أساليب القصر والحصر وهي كثيرة(١)، وأشهرها أسلوبان:

**الأسلوب الأول:** وهو متفق على أنه يفيد القصر والحصر: أسلوب النفي والإثبات، نحو: لا خالق إلا الله(٢).

**الأسلوب الثاني:** مختلف فيه، والجمهور على أنه يفيد الحصر والقصر: استخدامُ «إنما»، نحو: إنما الخالق هو الله(٣).

وثمة أساليب أخرى للقصر والحصر في إفادتها للقصر والحصر خلاف أشد(٤).

---

(١) ذكر السيوطي أربعة عشر طريقاً للحصر في الإتقان في علوم القرآن (ص: ١٥٦٨)، طبعة مركز الدراسات القرآنية، وستأتي باختصار.

(٢) قال السيوطي في الاتقان (ص: ١٥٦٨): «طرق الحصر كثيرة، أحدها النفي والاستثناء سواء كان النفي بلا أو ما أو غيرهما، والاستثناء بإلا أو غير، نحو: لا إله إلا الله، وما من إله إلا الله، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به».

(٣) قال السيوطي في الإتقان (ص: ١٥٦٩) وهو يعدد أدوات الحصر: «الثاني: إنما، الجمهور على أنها للحصر، فقيل بالمنطوق وقيل بالمفهوم، وأنكر قومٌ إفادتها إياه منهم أبو حيان». اهـ.

(٤) وهي ما يلي:

١) «أنما» - بالفتح - عدَّها من طرق الحصر الزمخشري والبيضاوي.

٢) العطف بـ«لا» أو «بل»، ذكره أهل البيان، ولم يحكوا فيه خلافا، ونازع فيه الشيخ بهاء الدين في عروس الأفراح.

٣) تقديم المعمول، نحو: إياك نعبد ، لإلى الله تحشرون، وخالف فيه قوم.

٤) ضمير الفصل، نحو: فالله هو الولي ؛ أي: لا غيره.

=

فأين في آيات الباب الثماني أيُّ شيءٍ من هذه الصيغ أو الأساليب الدالة على التوحيد، وهي التوكيد أو الحصر أو القصر أو نحوه؟!!! وتعالوا لنعرض آيات الباب جميعها لنرى هل فيها شيء من ذلك؟!

## سرد الآيات الثمانية.. وبيان أنه لا إقرار للمشركين بالتوحيد فيها

١) قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

٢) وقال ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

---

= ٥) تقديم المسند إليه فإن ذلك قد يفيد التخصيص، وأحيانا التقوية لا التخصيص.

٦) تقديم المسند، ذكر ابن الأثير وابن النفيس وغيرهما أن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الاختصاص، وردَّه صاحب الفلك الدائر.

٧) ذكر المسند إليه. ذكر السكاكي أنه قد يذكر ليفيد التخصيص، وتعقبه صاحب الإيضاح.

٨) تعريف الجزأين، ذكر الإمام فخر الدين في نهاية الإيجاز أنه يفيد الحصر حقيقةً أو مبالغة، نحو: المنطلق زيد.

٩) نحو: جاء زيد نفسه، نقل بعض شراح التلخيص عن بعضهم أنه يفيد الحصر.

١٠) نحو: إن زيداً لقائم، نقله المذكور أيضاً.

١١) نحو: «قائم» في جواب: زيد إما قائم أو قاعد، ذكره الطيبي في شرح «التبيان».

١٢) قلب بعض حروف الكلمة، فإنه يفيد الحصر على ما نقله في الكشاف. اهـ.

**كذا باختصارٍ شديدٍ وبتصرف**، من الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ص: ١٥٦٨).

٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٤) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥].

٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

٦) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

٨) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

فكما ترون إن كل هذه الآيات ليس فيها كلمة «وحده» أو نحوها، ليس فيها أكثر من ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾، أو ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾، أو ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾، أو ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، **فأين في هذا كله التوكيد** بقوله مثلا: «الله وحده»، أو «الله لا شريك له»، أو بالحصر والقصر نحو «سيقولون لله لا خالق إلا هو»، أو «فسيقولون إنما الخالق الله»؟**!!!**

طبعا لا ذكر في آيات الباب الثمانية لشيءٍ من ذلك، وإنما هو شيءٌ زاده ابن تيمية وابن عبد الوهاب ومن تبعه تبرعاً وسخاءً على المشركين بما يضنُّون به على المسلمين كما سبق بيانه**!!** فهم تبرعوا للمشركين بالتوحيد ليسلبوه من المسلمين وللأسف.

**رابعاً**: إن ابن تيمية وأتباعه أنفسهم حينما يذكرون التوحيد يذكرونه مقروناً بأساليب التوحيد السابقة وصيَغها من الحصر والقصر والتوكيد، وعادةً لا يستخدمون أسلوباً واحداً منها بل اثنين فأكثر، وغالباً أو كثيراً ما يستخدمونها مجتمعة!! وهذا نجده في مواضع عديدة في كتب السلفية لا سيما في المواضع الثلاثة التالية وهي:

**الموضع الأول**: حينما عرَّفوا توحيد الربوبية.

**والموضع الثاني**: حينما نسبوا إلى المشركين توحيد الربوبية.

**والموضع الثالث**: حينما استدلوا بآيات الباب الثمانية السابقة، واستنبطوا منها أن المشركين موحدون في الربوبية.

طبعا فعَل السلفية ذلك في المواضع الثلاثة إدراكاً منهم أن تلك الأساليب والصيغ السابقة هي الفيصل في الدلالة على التوحيد، وأن هذه الأساليب إذا خلت من أي صيغة - كما هو الحال في آيات الباب الثمانية - لا تعتبر توحيداً أصلا! وإليك نصوصهم في هذه المواضع الثلاثة:

**الموضع الأول**: أساليب الحصر التي استخدمها السلفية حينما عرَّفوا توحيد الربوبية، وإليك نصوصهم في ذلك:

١) يذكر ابن تيمية: أن توحيد الربوبية هو الاعتقاد بـ«أنه **لا خالق إلا الله** فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور»[١].

٢) ويقول ابن القيم: «توحيد الربوبية المتضمن أنه **وحده** الرب الخالق الفاطر»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣١).

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٥٤٢).

٣) «من أقر بتوحيد الربوبية وعلم أن الله سبحانه **هو الرب وحده** لا شريك له في ربوبيته»[١].

٤) «**توحيد الربوبية**: معناه الاعتقاد الجازم والإقرار التام؛ بأن الله تعالى **وحده** رب كل شيء ومليكه، **لا شريك له**، وهو الخالق **وحده**، وهو مدبر العالم والمتصرف فيه والقادر عليه»[٢].

٥) «**تعريف توحيد الربوبية**: هو الاعتقاد بأن الله **هو وحده** الخالق الرازق والمدبر والنافع والضار والمجير والمحيي والمميت: **فلا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره سبحانه**»[٣].

**الموضع الثاني**: أساليب الحصر التي استخدمها السلفية حينما نسبوا توحيد الربوبية إلى المشركين، وإليك نصوصهم في ذلك:

١) قال ابن تيمية: «وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب الذي دخل (فيه) **من أقر أنه لا خالق إلا الله ولا رب غيره من أصناف المشركين**»[٤]. اهـ.

٢) وقال أيضا: «فإنهم كانوا يقرون بأنّ الله **وحده** هو الذي خلق السموات والأرض»[٥]. اهـ.

٣) **وقال ابن أبي العز**: «**فإن المشركين من العرب** كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، **وأن خالق السماوات والأرض واحد**، كما أخبر تعالى عنهم

---

(١) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات لمحمد بن خليفة بن علي التميمي (ص: ٤١).

(٢) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة (ص: ١١٥).

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٨)، وقد سقطت كلمة «فيه» من المطبوع.

(٥) يان تلبيس الجهمية (١/ ٤٧٩).

بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة لقمان: ٢٥]»[١].

٤) **وقال ابن عبد الوهاب: «فهؤلاء المشركون** يشهدون أن الله **هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو،** ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره»[٢]. اهـ.

٥) وقال الصنعاني: «ووبَّخهم منكراً **عليهم شركهم** به غيره، **مع اعترافهم بأنَّه هو الرب وحده**». اهـ.

٦) **وقال ابن باز: «أما الربوبية فكانوا معترفين بها لله وحده»**[٣].

٧) **وقال الألباني: «إذاً المشركون يؤمنون بتوحيد الربوبية** لا يعتقدون بأن هناك - كما هو دين المجوس - خالقاً للخير وخالقاً للشر مثلاً، **وإنما يعتقدون أن الخالق هو الله وحده لا شريك له»**[٤]. اهـ.

٨) **وقال دمشقية: «ومن ظن أن المشركين** لا يؤمنون **بأن الله هو الخالق الرازق وحده** فقد جهل القرآن وما كان عليه المشركون. . **فهم يعترفون بأن الله هو الرب وحده** ثم مع ذلك يشركون به»[٥]. اهـ.

٩) «توحيد الربوبية هو الذي أقرت به **الكفار جميعهم**. . **فقد اتفقوا على أن خالق العالم** ورازقهم، ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم، ومجيرهم **واحد،**

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص: ٨١).
(٢) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤).
(٣) العقيدة الصحيحة وما يضادها لابن باز (ص: ١٣).
(٤) موسوعة الألباني في العقيدة (٢/ ٨٠) و(٢/ ١٧٧).
(٥) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٣٥)

**لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره»**(١).

**الموضع الثالث**: أساليب الحصر التي استخدمها السلفية حينما استنبطوا واستدلوا بآيات الباب الثمانية، وإليك نصوصهم في ذلك:

١) قال ابن تيمية: «وأما توحيد الربوبية مجردا، **فقد كان المشركون** يقرون بأن الله وحده خالق السماوات والأرض، **كما أخبر الله** بذلك عنهم في غير موضع من القرآن قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»(٢).

٢) قال ابن القيم: «يشاهدون فيها **انفراد الرب** تعالى بالتكوين والإيجاد وحده... فإن عباد الأصنام شهدوا هذا المشهد... **قال تعالى**: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾»(٣). اهـ.

٣) يقول ابن عبد الوهاب: «وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق **وحده لا شريك له**، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت...»(٤)، ثم يقول: «فإذا أردت الدليل.. فاقرأ **قوله تعالى**: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾»(٥).

٤) «... ولذلك قاتل الرسول ﷺ المشركين مع أنهم **كانوا يقرون بأن الله سبحانه -وحده- هو الخالق الرازق**، المحيي والمميت... ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾»(٦).

---

(١) جهود علماء الحنفية (١/١١٦)
(٢) منهاج السنة النبوية (٥/٣٢٧).
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٤٧)، وانظر أيضاً: بدائع الفوائد (٤/١٥٤٣).
(٤) كشف الشبهات (ص: ١٤).
(٥) كشف الشبهات (ص: ١٥).
(٦) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية للدكتور عثمان جمعة ضميرية (ص: ٢٢٦).

٥) «توحيد الربوبية. . . وهذا النوع من التوحيد أقر به كفار قريش. . **فكلهم يعتقدون أن خالق العالم هو الله وحده**. . ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[(١)].

وقد سبقت نصوص مماثلة لابن أبي العز وابن باز ودمشقية[(٢)]، وهكذا نرى كيف أن ابن تيمية وأتباعه في كل موضع من هذه المواضع الثلاثة أصرُّوا على استخدام أساليب وألفاظ صريحة في الدلالة على التوحيد نحو كلمة «وحده» وكلمة «لا شريك له»، وأسلوب النفي والإثبات ونحو ذلك، وأسلوب الحصر والقصر، ونحن لا يهمنا الموضع الأول وهو استخدام السلفية لأساليب الحصر حينما عرفوا توحيد الربوبية، ولا الموضع الثاني وهو استخدام السلفية لأساليب الحصر حينما نسبوا توحيد الربوبية إلى المشركين، وإنما الذي يهمنا هو الموضع الثالث وهو استخدام السلفية لأساليب الحصر حينما استنبطوا واستدلوا بآيات الباب الثمانية.

وإنما ذكرنا أنه لا يهمنا سوى الموضع الثالث؛ لأن كون ابن تيمية وأتباعه يصطلحون على شيءٍ اسمه توحيد الربوبية ويعرِّفونه بما شاؤوا، ويستخدمون فيه أساليبَ وألفاظًا دالةً على التوحيد كما فعلوا ذلك في الموضع الأول، وكونهم أيضاً يدَّعون أن المشركين كانوا مُقرِّين بأن الله وحده هو الخالق لا شريك له، كما فعلوا ذلك في الموضع الثاني، فهذا كله لا يهمنا، إذ لكل من شاء أن يصطلح على ما شاء ويدَّعي ما شاء.

وإنما الذي يهمنا هو الموضع الثالث: وهو حين استنبطوا واستدلوا بآيات الباب الثمانية، حيث نسبوا أساليب وألفاظ التوحيد المتنوعة السابقة

(١) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة (ص: ١١٥).

(٢) انظر (ص: ٢٠-٢٢، ٢٤٦).

إلى تلك الآيات كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]!! لأننا حينها سوف نسأل: أين هذه الألفاظ والأساليب الدالة على التوحيد في هذه الآيات الثمانية؟!! لا يوجد شيء من ذلك في هذه الآيات، ولا علاقة لهذه الآيات أصلاً بقضية التوحيد ولا بموقف المشركين منها، وإنما تتكلم عن مطلق وجود الله وكونه خالقاً وموقف المشركين من ذلك، وأما أنه هو الخالق وحده وأن المشركين سلَّموا بقضية التوحيد هذه: فلا.

وإنما هذه - أي قضية التوحيد - بحَثَتْه آياتٌ أخرى كثيرة، وذكرت موقف المشركين الرافض لها بشكلٍ قطعي، فالحجة في تلك الآيات لا هذه الآيات الثمانية كما سنرى، فلا تُترك تلك الآيات التي فيها ذكرٌ للتوحيد صراحة، وفيها الموقف السلبي للمشركين منه، ثم يُحتكم إلى آيات الباب الثمانية، ويُستنبط منها أن المشركين أقروا فيها بتوحيد الربوبية، كما فعل ابن تيمية وأتباعه، مع أنه لا ذكر للتوحيد فيها أصلاً كما رأينا!!

وها هنا عدة قضايا نبحثها في المطالب التالية. وبالله التوفيق.

## المطلب الأول

# مصادرة السلفية على المطلوب.. في تقديرهم لكلمة «وحده» ونحوها في آيات الباب!

لعل السلفية أدركوا أن آيات الباب الثمانية لا دلالة فيها البتة على التوحيد فراحوا يزجُّون بكلمة «وحده» ويقدِّرونها عند تفسيرهم لآيات الباب!!

**فقالوا في آية «الزمر»**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: يعني: قل: أتقرُّون بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله **وحده**، ومع ذلك تدعون غيره.. أو يكون التقدير: أتقرون بأن الله هو الواحد في ربوبيته، وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وحده؟»[1]. اهـ.

والجواب من وجهين:

**الأول**: أن تقديرَ محذوفٍ هو نوع من **أنواع المجاز وأنتم منكرون** له.

**الثاني: مخالفة هذا المجاز وهذا التقدير لكلمة «وحده» لخمس أو ست آياتٍ من القرآن!!**

هذا مجمل الجواب، وإليك تفصيل ذلك في مرصدين.

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ (ص: ٩٥).

## المرصد الأول

# تناقض السلفية..
# في إنكار المجاز
# ثم اللجوء إليه في آيات الباب الثمانية

إن تقدير محذوف هو نوعٌ من أنواع المجاز وأنتم منكرون للمجاز برمَّته، لا سيما مجاز الحذف أو المسمى «إيجاز الحذف»[1]، فهو عندكم أحد الطواغيت[2]، بل المجاز والتأويل «أصل خراب الدين والدنيا»[3]، ولذا «فلا مجاز في القرآن، بل وتقسيم اللغة إلى **حقيقة ومجاز تقسيمٌ مبتدَعٌ** محدَث لم ينطق به السلف»[4] وسيأتي المزيد، فكيف اعتصموا بالمجاز ولجؤوا إليه في بناء نظريةٍ خطيرةٍ كنظرية تقسيم التوحيد هذه؟!!

ولعل قائلاً منهم يقول: إن المجاز أو التأويل «لا بأس به إذا قام الدليل

(١) الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني (ص: ١٧٧)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤/ ١٩٩٨م، والبلاغة العربية لحبنكة (٢/ ٢٢٤).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٦٩٠): فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية، لتعطيل حقائق الأسماء والصفات، وهو طاغوت المجاز.

(٣) أعلام الموقعين (٥/ ١٨٧ - ١٨٩)، طبعة دار ابن الجوزي، وانظر: مختصر العلو للألباني (ص: ٢٣)، و(ص: ٣٣)، وما بعدها.

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٣).

الشرعي أو العقلي المقطوع بدلالته»[1]، بل هو حقيقةٌ ولا يسمى أصلاً مجازاً ولا تأويلاً عندنا، إذ «مَن ظن أن الحقيقة في مثل قوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ هو سؤال الجدران؛ فهو جاهل»[2] لأن «هذا المعنى لا يتبادر إلى ذهنِ عربيٍ إطلاقًا وإنما المتبادر هو سكانها.. أهلها، ولأن هذا المعنى هو المتبادر لا يسمى هذا الكلام مجاز»[3]، «فإن القرية اسم للسكان في مسكن مجتمع، فإنما تطلق القرية باعتبار الأمرين.. فلا إضمار في ذلك **ولا حذف**»[4].

**قلنا: هذا ممنوع، أي لا نسلمه، ولكن على** التسليم بهذا الذي قلتم فما هو دليلكم أو ما هي القرينة على تقدير كلمة «وحده» في آيات الباب الثمانية؟!

في الواقع لم أعثر لهم على دليل أو قرينة على ذلك!! وإنما هم فقط يقدِّرون كلمة «وحده» ويعتبرون هذا التقديرَ أمراً مسلَّما لا يحتاج إلى دليلٍ أصلا!! لماذا؟ قالوا: لأن المشركين موحدون في الربوبية!!!

وهذا من أعجب العجب كما ترى لأن هذا الدليل هو عين الدعوى، وهذا هو ما يسمى بالمصادرة على المطلوب كما سنرى!! ولنستمع إلى مفتي السعودية محمد بن إبراهيم وهو يقرِّر ذلك فيقول: «﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ ملك له ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ المالك لها وحده هو الله.. ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ...﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ **يعني وحده فإنهم ما أشركوا في الربوبية إنما أشركوا في الألوهية بجعلهم الوسائط**»[5]، ولذلك كان

(١) موسوعة الألباني في العقيدة (٦/ ٥٠١)، وانظر أيضاً: موسوعة أهل السنة لدمشقية (ص: ٤٨٦)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لغنيمان (٢/ ١٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٦٣).

(٣) موسوعة الألباني في العقيدة (٦/ ١٠٦).

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ٨٧٢).

(٥) شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: ٣٠).

سؤالهم عن الخالق «تقريراً في صورة استفهام يفيد تحدي الله لهم بأن يقولوا: نعم نؤمن **بأن أصنامنا خالقة معك**، وهم لم ولن يقولوا ذلك»[١]؛ ولماذا؟ لأنهم «يعترفون **بأن الله هو الرب وحده** ثم مع ذلك يشركون به. وإنما كان شركهم شرك شفاعة وتوسل إلى الله بالصالحين أنبياء وأولياء لمكانتهم ووجاهتهم عند الله»[٢] كما قال دمشقية.

فتأمل قوله في النص الأول «**يعني وحده فإنهم ما أشركوا في الربوبية..**»، وهذا يعني أنه جعل دليله على أنهم موحدون في الربوبية هو آيات الباب الثمانية كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ولكن بعد تقدير **كلمة** «**وحده**» فيها، فيكون معنى الآية: أي: ليقولن الله وحده!! وما دليله على هذا التقدير؟ دليله هو أنهم لم يشركوا في الربوبية!!!

وهذا عين المصادرة على المطلوب، وهو جعل الدليل على الدعوى عين الدعوى نفسها، إذ الدعوى هنا أن المشركين موحدون في الربوبية والدليل عليها آيات الباب الثمانية، ولكن بعد تقدير كلمة «وحده» فيها بحجة أنهم موحدون في الربوبية!!

ونزيد الأمر بياناً فنقول: أنتم زعمتم أن المشركين مقرُّون بأن الله وحده هو الخالق مستدلين بآية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فقلتم: المعنى ليقولن **الله وحده!!** وحين سألناكم لم قدَّرتم كلمة «وحده» هنا، أو ما الدليل على هذا التقدير؟ قلتم: لأنهم موحدون في الربوبية؟!! فآل قولكم في نهاية المطاف إلى أنهم موحدون في الربوبية لأنهم موحدون في الربوبية!!! وهذا هو المصادرة على المطلوب.

---

(١) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٨٤).
(٢) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٨٤).

ولكن قد يقال إن قول الشيخ محمد بن إبراهيم: «إنما أشركوا في الألوهية **بجعلهم الوسائط**»، وكذا قول دمشقية: «وإنما كان **شركهم شرك شفاعة** وتوسل إلى الله بالصالحين»: كل هذا دليلٌ على أنهم لم يشركوا في الربوبية ما دام أن شركهم منحصرٌ في توحيد الألوهية، وبالتالي فلا مصادرة على المطلوب هنا كما ذكرتم!

**قلنا**: هذا مبني على أن التوحيد قسمان: توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، وهذا ما لم نسلمه حتى الآن على الأقل، بل ندعي أن الشرك في أحد القسمين هو شرك في الثاني، وهذا صرح به بعض الوهابية فذكر بأن أقسام التوحيد وأنواعه «**الثلاثة كلها متلازمة** يعني داخل بعضها في بعضٍ، ولا يمكن أن يتصور أنه يوجد نوعٌ دون الآخر بمعنى أن من وَحَّدَ الله تعالى في ربوبيته على وجه الكمال لزم منه أن يُوحد الله تعالى في أُلوهيته على وجه الكمال **والعكس بالعكس**. **فهي متلازمة من حيث الوجود**، ومتلازمة من حيث الانتفاء»[(١)]، «وبالجملة هذه الأنواع الثلاثة متكافئة متلازمة يكمل بعضها بعضا، **ولا ينفع إحداهما بدون الآخرين**..»[(٢)].

۞ ۞ ۞

(١) شرح كتاب التوحيد لأحمد الحازمي، وهو عبارة عن دروس مفرغة له. انظر النص أعلاه على الرابط:
https://al-maktaba.org/book/31683/1292

(٢) الشيخ محمد بن أنور شاه الكشميري وآراؤه الاعتقادية (ص: ١٠٦)، محمد عبد الله فاروق أنصاري، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، ١٤٢٠ هـ.

## المرصد الثاني

# مخالفة مجازهم وتقديرهم لكلمة «وحده» لستِّ آياتٍ من القرآن!!

وهذا هو الأهم، وهو أن تقديركم لكلمة «وحده» في آيات الباب الثمانية غايته أن يكون مفهوم تلك آيات، ولكن عارضه منطوقُ ستِ آياتٍ صريحةٍ في أن المشركين كانوا يرفضون كلمة «وحده» ويشمئزون منها إذا قُرنت مع «الله»، وإليكم تلك الآيات:

١) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

٢) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

٣) ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: ٨٤].

٥) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ

تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠].

فهذه ست آيات بيَّنت موقف المشركين من العرب ومن غيرهم من كلمة «وحده» التي تنسبونها لهم، وهو أنهم يرفضونها ويكفرون بها وليس هذا فحسب بل يشمئزون من ذكر الله حينها كما في آية «الزمر»، فكيف يصح بل كيف يُعقل بعد هذه الآيات الصريحة أن تقدِّروا كلمة «وحده» في آيات الباب «ولئن سألتهم من..»؟!! كيف تقدِّرون شيئاً قضت عليه ست آيات وأبطلته؟!!

وإذا كنتم تنكرون المجاز والتأويل إذا لم يدل عليه دليل إذ «لا يصار إليه إلا عند تعذّر الحقيقة.. أو لقرينة»(١) فما بالكم إذا كان هذا المجاز وهذا التقدير الذي تقدّرونه وهو كلمة «وحده»: يخالف منطوقَ ستِ آيات من القرآن؟!!!

## دعوى أن الآيات الست هو في رفض المشركين لتوحيد العبادة لا لتوحيد الربوبية الذي أقروا به في آيات الباب الثمانية

لا يقال إن تلك الآيات الست أو بعضها على الأقل هو في رفض المشركين لتوحيد العبادة لا لتوحيد الربوبية كما في آية الأعراف ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وآية غافر الأولى ﴿ذَٰلِكُم

(١) موسوعة الألباني في العقيدة (٦/ ٢٥٢).

بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، وأما آيات الباب الثمانية فهي في إقرار المشركين بتوحيد الربوبية.

لأننا نقول:

**أولاً**: إن هذا مصادرة على المطلوب، فنحن لم نسلِّم بعد بأن التوحيد قسمان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، بل هذا هو محل النزاع الذي من المفروض أن تقيموا الدليل عليه، فكيف جعلتم دعواكم عين الدليل عليها؟!!

نعم أنتم تستدلون الآن على هذا التقسيم بآيات الباب الثمانية، ولكن نحن ما زلنا ننازعكم في دلالتها فلا يجوز أن تجعلوا مطلوبكم منها وهو تقسيم التوحيد: مقدمةً مسلَّمة!!

**ثانياً**: أنه على التسليم بأن التوحيد قسمان: ربوبية وألوهية، فإن الآيات الست السابقة دلت على نفرة المشركين من كلا التوحيدين، سواء الربوبية أو الألوهية، أما نفرتهم من توحيد الألوهية فدل عليه قوله ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر: ١٢].

وأما نفرتهم من توحيد الربوبية فدل عليه آية «الإسراء» وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٦]، فدلت على أنهم كانوا ينفرون من توحيد الربوبية لأنه عبّر فيها بكلمة «ربك وحده» لا بكلمة «إلهك وحده» كما في آية «الصافات» وغيرها، وبالتالي فدلت آية «الإسراء» على فرارهم من توحيد الربوبية، وآية ا«لأعراف» و«غافر» [الآية: ١٢] دلّتا على فرارهم من توحيد الألوهية!

# آيات أخرى تدل على شركهم بالربوبية بل على كفرهم بها

وثمة آيات أخرى تدل على شركهم في الربوبية ليس هذا موضع بسط الكلام عليها، ولكن نسردها سريعا مع تعليق قصير عليها، وهي مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]، وقوله تعالى ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ [الكهف: ٣٨]، وقوله ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾ [الجن: ٢٠]، وقوله ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن: ٢].

فكل هذه الآيات جاءت بلفظ الرب في مقام ذكر الشرك مدحاً لمن تجنبه وقدحاً فيمن وقع به، وكان المفروض - لو لم يقع الشرك في الربوبية - أن تأتي الآيات بلفظ الإله؛ لأن هذا هو الذي وقع فيه الشرك بين البشر، وهو الشرك في توحيد الألوهية! وهذا هو الذي عليه الثواب والعقاب! وفيه المدح والقدح! وأما الشرك في الربوبية فلم يقع أصلاً ولا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ولا قدح ولا مدح!! وهذا كله حسب نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد!!

بل ثمة آيات تدل على كفرهم بالرب نفسه لكونهم جحدوا البعث! وفي ذلك يقول ابن القيم: «ولهذا يخبر الله سبحانه عمَّن أنكر ذلك **بأنه كافر بربه جاحد له لم يقرّ برب العالمين فاطر السموات والأرض**، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٥]. . . وقال المؤمن للكافر.. ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٧]، **فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مقر به**»[1]. اهـ. وسيأتي كلامه بطوله.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٦٧)، تحقيق مشهور.

بل كان المشركون يشمئزون من مجرد ذِكر الله إذا قُرن بكلمة «وحده»، كما دلت على ذلك آية الزمر وهي ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، فهل يقال بعد هذا أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية إذا كان مجرد ذكر كلمة «وحده» يشمئزون منها إذا قرنت مع الله أو مع الرب أو الإله؟!!

وأما آية «غافر» الثانية فقد دلت على أن المشركين آمنوا بالله وحده ولكن عند فوات الأوان ورؤيتهم للعذاب فلم ينفعهم ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] وهذا يعني أنهم قبل ذلك لم يؤمنوا بالله وحده ولا أقروا بتوحيد الله قط أيا كان نوع تلك الوحدة أو التوحيد هذا إن سلمنا أن التوحيد أنواع وأقسام أصلا.

**ثالثاً**: لو سلمنا تنزُّلاً أن الآيات الست السابقة إنما هي في توحيد الألوهية فإنما نسلِّمه لوجود صيغةٍ صريحةٍ تدل على التوحيد وهي كلمة «وحده» في الآيات الست، ولكن أين كلمة «وحده» - أو نحوها من النفي والإثبات - في آيات الباب الثمانية حتى تزعموا أنها في توحيد الربوبية؟!!

وأين في القرآن كله أن المشركين قالوا بأن خالقهم هو الله وحده، أو أنهم قالوا لا رب ولا خالق إلا الله كما تنسبون إليهم؟ أين قالوا كلمة «وحده» في مقام الإقرار لا الإنكار؟ لأنهم قالوا كلمة «وحده» ولكن في مقام الإنكار كالآيات الستة السابقة، ونحن نريد ولو آية واحدة أو حديثاً أو خبراً صحيحاً قالوا فيها بشكل صريح بألسنتهم كلمةَ «وحده» مقرونةً بإقرارهم بالله، لا أن تتبرعوا بها لهم أو تستنبطوها استنباطا أو تزجوها زجاً في آيات الباب الثمانية؛ وأنى لكم ذلك؟!!

بل بعض الآيات الستة السابقة تنصُّ نصاً على أنهم ينفرون من كلمة «وحده» إذا قُرنت بالله كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وغيرها من الآيات التي سبق ذكرها توًّا.

۞ ۞ ۞

## المطلب الثاني

# دعوى أن كلمة «وحده».. مفهومةٌ من السياق فلا حاجة أن ينطق بها المشركون

قد يقال: ليس من الضروري أن يقولوا حين سئلوا عن الخالق: هو الله وحده، ليدل على أنهم موحدون في الربوبية، بل يكفي قولهم: هو الله، دون كلمة وحده، إذ لو كانوا يعتقدون أن أصنامَهم خالقةٌ لقالوا حين سئلوا عن الخالق: اللات والعزى أو غير ذلك من أسماء أصنامهم، ولكنهم «لم يقولوا: أصنامنا هي الخالقة»(١)، ولا حتى قالوا: الخالق هو الله وأصنامنا، فظهر أن قولهم حين سئلوا عن الخالق: الله، كاف في بيان أنهم موحدون في الربوبية والخالقية.

**والجواب عن هذا الاعتراض في أربعة مراصد وهي:**

المرصد الأول: أنه لا بد من كلمة «وحده» في توحيد الربوبية كما قرر ذلك السلفية أنفسهم في خمسة مواضع.

المرصد الثاني: بيان أن كلمة «وحده» أو نحوها ضرورية لقطع احتمال الشركة.

---

(١) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٧١).

المرصد الثالث: الجواب عن قول دمشقية بأنهم حين سئلوا «لم يقولوا: أصنامنا هي الخالقة».

المرصد الرابع: لو قدرنا كلمة «وحده» لأفادت الآية أنهم موحدون في الألوهية.

وإليكم بيان هذه المراصد الأربعة بحول الله.

# المرصد الأول

## أنه لا بد من كلمة «وحده» في توحيد الربوبية

كما قرر ذلك السلفية أنفسهم في خمسة مواضع هي:

الموضع الأول: حين عرَّفوا التوحيد لغةً.

الموضع الثاني: حين عرَّفوا التوحيد شرعاً.

الموضع الثالث: حين قسَّموا التوحيد.

الموضع الرابع: حين نسبوا توحيد الربوبية للمشركين.

الموضع الخامس: حين استدلوا بآيات الباب على توحيد المشركين في الربوبية.

فهذه خمسة مواضع أكد فيها ابن تيمية وأتباعه على ألفاظ التوحيد الخاصة به، أي أنهم استخدموا فيها أساليب الحصر والقصر الدالة على التوحيد، وقد سبق سرد نصوصهم في معظم هذه المواضع، وبعضها لم نسرد نصوصهم فيه وهو حين عرفوا التوحيد لغة وشرعا، وأيضا حين قسموا التوحيد، فنفصل نصوصهم في هذين الموضعين، ونجملها في المواضع الأخرى التي سبق أن فصلناها.

## الموضع الأول: حين عرفوا التوحيد لغةً

فالسلفية حين عرَّفوا التوحيد لغةً ضمَّنوا تلك التعاريف أساليب التوكيد والحصر والقصر الدالة على التوحيد، ونقلوا ذلك عن أهل اللغة، وإليكم طائفة من نصوصهم في ذلك:

١) قال ابن فارس: «وحد: الواو والحاء والدال، أصل واحد يدل على **الانفراد**... والواحد: المنفرد...»[١].

٢) قال ابن سيده: «والتوحيد: الإيمان بالله **وحده لا** شريك له. والله الأوحد والمتوحد وذو الوحدانية»[٢]، ونحوه في كتاب العين[٣] المنسوب[٤] للخليل.

٣) وقال الأزهري: «والوحدة الانفراد... وقال الليث: رجل وحيد لا أحد معه يؤنسه، وقد وحد يوحد وحادة ووحدة ووحدا. قال: والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد»[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٠)، ونقله عنه د. عبد الله الغفيلي في «ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف» (ص١٣٧).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ٤٩١)، وهو في كتاب العين المنسوب للخليل (٣/ ٢٨١)، وفي تهذيب اللغة (٥/ ١٢٥)، وهو منقولٌ في كتاب مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. ضميرية (ص: ٢٢٦).

(٣) كتاب العين (٣/ ٢٨١)، تحقيق السامرائي ورفيقه، مكتبة الهلال.

(٤) قال النووي في تحرير التنبيه: كتاب العين المنسوب إلى الخليل إنما هو من جَمْع اللّيثِ عن الخليل. انظر ذلك في المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي (١/ ٦٣)، وقد خصص الإمام السيوطي فيه فصلاً بعنوان «ذِكْرُ قَدْحِ الناس في كتاب العين».

(٥) تهذيب اللغة (٥/ ١٢٥)، وهو في كتاب العين والمحكم كما في الحاشية السابقة، وهو في آراء ابن عجيبة العقدية عرضاً ونقداً (ص: ٢١١)، د. عبد الهادي العمري، ط١/ ٢٠١٩.

٤) وقال ابن منظور: «ومن صفاته الواحد الأحد.. **فالواحد** منفردٌ بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى.. وقال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى الواحد، قال: هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر»[1].

٥) وقال الجرجاني: «**التوحيد** في اللغة: الحكم بأن الشيء واحد والعلم بأنه **واحد**»[2].

٦) وقال الراغب الأصفهاني: «الوحدة: الانفراد... فالواحد لفظٌ مشتركٌ يُستعمل على ستة أوجه: الأول: ما كان **واحداً** في الجنس أو النوع، الثاني: ما كان واحداً بالاتصال، الثالث: ما كان **واحداً** لعدم نظيره... وأطال في ذلك»[3].

٧) وقال قوام السنة الأصفهاني - ونقله عنه ابن حجر[4] -: «**التوحيد** على وزن التفعيل، وهو مصدر وحَّدتُه توحيداً.. ومعنى وحدته: جعلته **منفرداً** عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته، والتشديد فيه للمبالغة، أي: بالغت في وصفه بذلك.. فالله تعالى واحد، أي: منفردٌ عن الأنداد والأشكال في جميع الأحوال... فكذلك وحدته أي: علمتُه **واحداً**، منزَّهاً عن المثل في الذات والصفات.. وقيل: التوحيد العلم بالموحَّد

(١) لسان العرب (٣/ ٤٥١)، وهو منقول في مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. ضميرية (ص: ٢٢٦).

(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ٨٤)، نقلاً عن التعريفات للجرجاني.

(٣) مفردات القرآن للراغب (ص: ٥١٤-٥١٥)، وهو منقولٌ في «ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف» (ص: ١٣٧)

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٤٤)، وهو منقول في «أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة» لمحمد الخميس (ص٢٠٣)، منهج الإمام جمال الدين السرمري في تقرير العقيدة (ص: ١١٩).

واحداً لا نظير له: فإذا ثبت هذا فكل من لم يعرف الله هكذا فإنه غير موحد له»[1].

٨) وقال الزبيدي: «وحَّده توحيدًا: جعله **واحدًا**، وكذا أحده؛ كما يقال: ثناه وثلثه»[2].

٩) التوحيد لغةً: **هو الإفراد** ولا يكون الشيء مفرداً إلا بأمرين: ١ - الإثبات التام. ٢ - النفي التام[3].

١٠) وقال البيجوري: «**التوحيد لغة**. العلم بأن الشيء **واحد**»[4].

١١) وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم: «**التوحيد** مصدر **وحده يوحده** توحيدًا جعله واحدًا أي فردًا ووحده قال: إنه واحد أحد»[5].

١٢) وقال ابن عثيمين رحمه الله: «**التوحيد لغة**: مصدر وحد يوحد أي جعل الشيء **واحدًا** وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات نفي الحكم عما سوى الموحد وإثباته له»[6].

١٣) «**(وتوحيدا)**: مصدر وحد يوحد توحيداً، أي: جعله واحداً، أي فرداً، فهو بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، وسمي دين الإسلام

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٠٥-٣٠٦)، ونقله ضميرية في مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ١٠٤).
(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ٨٤)، نقلاً عن تاج العروس للزبيدي.
(٣) التوحيد وأثره في حياة المسلم (ص: ٩)، حمد بن إبراهيم الحريقي، دار الوطن، الرياض، ط١/ ١٩٩٣ م.
(٤) تحفة المريد على جوهرة التوحيد (ص: ٣٨)، وهو منقول في «التوحيد وأثره في حياة المسلم» (ص: ٩).
(٥) حاشية كتاب التوحيد (ص: ١١).
(٦) مجموع فتاوى ابن عثيمين (٢/ ٧).

توحيداً؛ لأن مبناه على أن الله واحدٌ في ملكه وأفعاله، **وواحدٌ** في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحدٌ في ألوهيته وعبادته لا ند له»[(١)].

١٤) وعرف الشيخ عبد الرزاق عفيفي **التوحيد** لغةً بقوله: «جعلُ المتعدِّد **واحداً**، ويُطلَق على اعتقاد أن الشيء واحدٌ متفرد»[(٢)].

١٥) وقال ابن قيصر الأفغاني بأن **التوحيد** لغة: «يطلق على ثلاثة معان: الأول: جعل الشيء **واحداً**. الثاني: الحكم على الشيء بأنه **واحد**. الثالث: العلم والاعتقاد بأن هذا الشيء **واحد**. أي: نسبة الشيء إلى الانفراد، ونفي الشركاء عنه»[(٣)].

## خلاصة التعريفات اللغوية للتوحيد وأنها لا تنطبق على إقرار المشركين

قال وليد: فهذه النصوص كلها تبين أن التوحيد في اللغة جعل الشيء واحداً، وأن الواحد هو المنفرد أو الذي لا نظير له، ولذلك قال ابن سيده وغيره من أهل اللغة في معنى التوحيد الشرعي: هو الإيمان بالله **وحده** لا شريك له، ولم يقولوا بأن معنى التوحيد مجرد الإيمان بالله أو الإقرار به فهذا ليس توحيداً.

بل رأينا كيف ذكر أهل اللغة أن التوحيد يقتضي المبالغة كما قال قوام السنة حيث ذكر أن «معنى وحدته: جعلته منفرداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته، والتشديد فيه للمبالغة، أي: بالغت في وصفه بذلك. . فالله تعالى

---

(١) التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص: ٤).

(٢) منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين (ص: ٥٧).

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ٨٤)، نقلاً عن تاج العروس للزبيدي.

**واحد**، أي: **منفرد** عن الأنداد والأشكال في جميع الأحوال... فكذلك وحدته أي: علمته **واحدا**، منزهاً عن المثل في الذات والصفات».

**فأين هذه المبالغة في التوحيد** في آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وأمثالها؟!! وكيف فهمتم منها **مبالغة المشركين في التوحيد** مع أنه لا ذكر للتوحيد فيها لا من قريب ولا من بعيد؟!!! وإنما غاية ما فيها هو إقرارٌ بأن الله خالق، دون التطرق إلى وحدانيته في الخالقية، حتى هذا الإقرار ليس محققا بل هو إقرار مستقبلي معلَّق كما سبق!!

## الموضع الثاني: حين عرَّفوا التوحيد شرعاً

حينما عرف السلفية التوحيد شرعاً ضمَّنوا تعاريفهم للتوحيد صيغاً تفيد القصر والحصر، وكذا نقلوا عن العلماء تعاريف للتوحيد شرعاً كلها تتضمن أساليب القصر والحصر، وإليكم النصوص في ذلك:

١) قال الإمام أبو جعفر الطحاوي مبيِّناً عقيدة الأئمة الثلاثة للحنفية معرِّفاً للتوحيد: «نقول في **توحيد** الله – معتقدين بتوفيق الله –: إن الله **واحدٌ** لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره»(١).

٢) وقال الإمام البدر العيني: «**توحيد** الله تعالى هو الشهادة بأن الله إله واحد، والتوحيد في الأصل مصدر «وحد، يوحد»، ومعنى: «**وحدت الله**»: اعتقدته **منفرداً** بذاته وصفاته، لا نظير له ولا شبيه له...»(٢).

٣) وقال التفتازاني: «حقيقة **التوحيد**: اعتقاد عدم الشريك في الألوهية وخواصها»(٣).

---

(١) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ٨٧)، نقلاً عن عقيدة الطحاوي.

(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ٨٧)، نقلاً عن العيني في عمدة القاري.

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ٨٨)، نقلاً عن شرح المقاصد للتفتازاني.

٤) وقال الإمام ولي الله الدهلوي: «التوحيد: **اعتقاد حصر** وجوب الوجود، **وقصر خلق السماوات** والأرض وسائر الجواهر لله سبحانه وتعالى، واعتقاد حصر تدبير السماوات والأرض وما بينهما له تعالى؛ **فلا يكون غيره سبحانه واجبا ولا خالقا ولا مدبرا**، وأنه لا يستحق العبادة غيره جل وعلا»[١]. وقال أيضاً: «توحيد الله تعالى: الإقرار **بوحدانيته**، واتصافه بالمحامد، وتنزيهه عن النقائص، وطرد الإشراك به عبادةً واستعانةً وذبحاً ونذراً وحلفاً»[٢].

٥) وقال الجرجاني في بيان أركان **التوحيد** التي هي تعريف له وتبعه الشيخ البركتي: «وهو ثلاثة أشياء: معرفة الله بالربوبية، **والإفراد بالوحدانية، ونفي الأنداد** عنه جملة»[٣].

٦) قال السفاريني: «فمعنى **وحّدت** الله: نسبت إليه الوحدانية، لا جعلته **واحداً**، فإن **وحدانية** الله تعالى ذاتيه ليست بجعل جاعل»[٤].

٧) وقال ابن القيم: «وليس **التوحيد** مجرد إقرارِ العبد بأنه **لا خالق إلا الله**، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عبَّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل **التوحيد** يتضمن من محبة الله، والخضوع له.. وإخلاص العبادة له»[٥].

---

(١) جهود علماء الحنفية (١/ ٨٩)، نقلاً عن حجة الله البالغة للدهلوي.

(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ٩٠)، نقلاً عن حجة الله البالغة للدهلوي، وهو تعريف الفتني كما في «معالم التوحيد في فاتحة الكتاب» (ص: ٢٢)، عرفة طنطاوي، دار المأثور، ط٢، ٢٠٢٠ م.

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ٩٠)، نقلاً عن التعريفات للجرجاني.

(٤) لوامع الأنوار البهية (١/ ٥٧)، وهو منقولٌ أيضاً في «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» (ص: ١٠٤)، ومنقولٌ أيضاً - ولكن دون عزو إلى السفاريني - في «الشرك في القديم والحديث» (١/ ١٩).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٣٣٩).

٨) المعنى الاصطلاحي للتوحيد: «... وهو **إفراد الله تعالى بالربوبية** والطاعة أو العبادة»[١].

٩) والتعريف العام للتوحيد هو: «**إفراد الله تعالى بما يختص به في الربوبية** وفي الإلهية وفي الأسماء والصفات، وهذا أشمل ما يقال في تعريف التوحيد»[٢].

١٠) وقيل: «إن الله تعالى **واحدٌ** في ذاته لا قسيم له، **وواحدٌ** في صفاته الأزلية لا نظير له، **وواحدٌ** في أفعاله لا شريك له»[٣].

١١) وقيل: «**واحدٌ** في ذاته لا قسمه له ولا صفة له، **وواحدٌ** في أفعاله لا شريك له، فلا قديم غير ذاته، ولا قسيم له في أفعاله»[٤].

١٢) وقيل: «إثبات **الوحدة** لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد»[٥].

١٣) والتوحيد لغة: «العلم بأن الشيء **واحد**، وشرعا.. هو إفراد المعبود بالعبادة مع **اعتقاد وحدته** والتصديق بها ذاتاً وصفاتا وأفعالاً»[٦].

١٤) فقال: «هو **إفراد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته** وفي أسمائه وصفاته»[٧].

---

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ١٠٥).

(٢) شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (١/ ٦، ت.ش).

(٣) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٠)، تحقيق: محمد كيلاني، ١٤٠٤، دار المعرفة، بيروت. وانظر منهج الإمام جمال الدين السرمري في تقرير العقيدة (ص: ١٢١).

(٤) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٠).

(٥) رسالة التوحيد لمحمد عبده (ص: ٥)، دار الكتاب العربي، ١٩٦٦ م.

(٦) الشرك في القديم والحديث (١/ ١٠٩)، نقلاً عن تحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجوري (ص: ٣٨)، طبعة دار السلام.

(٧) شرح لامية ابن تيمية (٣/ ١١، ت.ش)

١٥) وقال الشيخ عبد الحميد الآلوسي: «**التوحيد** نفي العبد الآلهة الباطلة، والتصديق بأن الله تعالى **وحده لا شريك له** واحد في ذاته، واحد في صفاته»(١).

١٦) وعرف الشيخ عبد الرزاق عفيفي **التوحيد** شرعاً بقوله: «أما شرعاً فيطلق على **تفردّ الله بالربوبية** والإلهية، وكمال الأسماء والصفات»(٢).

١٧) وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «التوحيد مصدر وحده يوحد توحيدًا يعني وحد الله أي اعتقده **واحدًا لا شريك له في ربوبيته** ولا في أسمائه وصفاته ولا في ألوهيته وعبادته **فهو واحد** جلَّ وعلا وإن لم يوحد الناس»(٣).

## خلاصة التعاريف الشرعية للتوحيد وأنها لا تنطبق على إقرار المشركين

**قال وليد**: وبعد فهذه تعاريف كثيرةٌ جداً للتوحيد، وكلها على اختلاف المذاهب العقدية التي ينتمي إليها أصحابها تلتقي في أن التوحيد ليس هو مجرد الإيمان بالله بل لا بد - بالإضافة إلى ذلك - أن يُقرن بشيءٍ يدل على التوحيد، وذلك بالإقرار بأنه الواحد الذي لا ندَّ ولا نظير ولا مثيل ولا شِبه له تعالى، ولا بد أيضاً من حصر الألوهية والربوبية فيه تعالى، أي الإقرار بأنه وحده الخالق المدبر لا شريك له، وأنه وحده الإله المستحق للعبادة لا شريك له.

وكل هذه التعاريف السابقة هي إما للسلفية، وإما نقلوها عن العلماء من

(١) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ٩١).
(٢) منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين (ص: ٥٧).
(٣) مجموع فتاوى ابن باز (١/ ٣٤).

شتى المذاهب الفقهية والعقدية مقرين لها، وسيأتي أن التوحيد أصلاً لا بد أن يتضمن النفي والإثبات والحصر والقصر كما في التعاريف السابقة، طبعاً وهذا مفتقَدٌ في آيات الباب الثمانية التي يحتج بها السلفية على دعوى إقرار المشركين بتوحيد الربوبية.

## الموضع الثالث: حين قسَّموا التوحيد

فالسلفية حين قسموا التوحيد إلى ربوبية وألوهية، عرَّفوا كلا منهما بما يدل على الحصر والقصر، وقد سبقت نصوصهم في تعريفهم لتوحيد الربوبية فنعيد بعضها هنا مركزين على محل الشاهد وهو الحصر والقصر:

١) ذكر ابن تيمية أن توحيد الربوبية هو الاعتقاد بـ«**أنه لا خالق إلا الله**. . .»(١).

٢) وقال ابن القيم: «. . . **توحيد الربوبية** المتضمن أنه **وحده** الرب الخالق الفاطر»(٢).

٣) «من أقر بتوحيد الربوبية وعلم أن الله سبحانه **هو الرب وحده** لا شريك له في ربوبيته»(٣).

٤) «توحيد الربوبية: معناه الاعتقاد الجازم. . بأن الله تعالى **وحده** رب كل شيء ومليكه، **لا شريك له**، وهو الخالق **وحده**. . .»(٤).

٥) وقيل هو: «هو الاعتقاد بأن الله **هو وحده** الخالق الرازق. . . **فلا خالق ولا رازق. . غيره سبحانه**»(٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣١).
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٥٤٢).
(٣) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات لمحمد بن خليفة بن علي التميمي (ص: ٤١).
(٤) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة (ص: ١١٥).
(٥) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٥).

فلاحِظوا كيف تضمَّن تعريفهم لتوحيد الربوبية أنه الاعتقاد بأن الرب واحدٌ، وأن الخالق والمدبر واحد، وأنه لا خالق إلا الله وحده لا شريك له، **فأين هذا في آيات الباب الثمانية؟!**

## الموضع الرابع: حين نسبوا إلى المشركين كلمة «وحده» ونحوها

فقد نسبتم - معاشر السلفية - إلى المشركين كلمة «وحده» ونحوها من أساليب الحصر، فقلتم إنهم «كانوا يقرون بأنَّ الله **وحده** هو الذي خلق السموات والأرض»[1]، «لا شريك له»[2]، وأن القرآن دل على ذلك، كما قال ابن عبد الوهاب: «وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق **وحده لا شريك له**.. فإذا أردت الدليل.. فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾»[3]، وقد سبق أن نقلنا نصوصاً كثيرة للسلفية في ذلك[4].

## الموضع الخامس: حين استدلوا بآيات الباب الثمانية

فهم حين استدلوا بآيات الباب كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ - على أن المشركين موحدون في الربوبية - فسروها بأن المعنى: ليقولن الله وحده، وقد سبق أن نقلنا نصوصهم الكثيرة في ذلك[5]، ولكن نعيد فقط موضع الشاهد منها هنا وهو الحصر:

١) قال ابن تيمية: «وأما توحيد الربوبية مجرداً، فقد كان المشركون يقرون

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٧٩).
(٢) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤).
(٣) كشف الشبهات (ص: ١٥).
(٤) انظر (ص: ٢٤٤).
(٥) انظر (ص: ٢٤٤).

بأن الله **وحده** خالق السماوات والأرض، **كما أخبر الله. .** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[1].

٢) وقال ابن القيم: «يشاهدون فيها **انفراد الرب تعالى بالتكوين والإيجاد وحده**، . . فإن عبَّاد الأصنام شهدوا هذا المشهد. . **قال تعالى**: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ...﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[2]. اهـ.

٣) يقول ابن عبد الوهاب: «وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق **وحده لا شريك له. . .**»[3]، ثم يقول: «**فإذا أردت الدليل**. . فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾»[4].

٤) **وقال ابن باز**: «أما الربوبية فكانوا معترفين بها لله **وحده**، **كما قال سبحانه**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[5].

٥) وقال دمشقية: «ومن ظن **أن المشركين** لا يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق **وحده** فقد جهل القرآن. . **قال تعالى** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾»[6].

## تعقيب على المواضع الخمسة.. وأنها تنقض نسبة التوحيد للمشركين

فأين كلمة «وحده» ونحوها من أساليب الحصر والقصر التي وضعتموها

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٢٧).
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٤٧)، وانظر أيضاً: بدائع الفوائد (٤/ ١٥٤٣).
(٣) كشف الشبهات (ص: ١٤).
(٤) كشف الشبهات (ص: ١٥).
(٥) العقيدة الصحيحة وما يضادها لابن باز (ص: ١٣).
(٦) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٣٥).

في المواضع الخمسة السابقة؟!! وهي حين عرَّفتم التوحيد لغةً وشرعاً، وحين قسَّمتم التوحيد إلى ربوبية وألوهية وعرَّفتم كليهما، وحين نسبتم التوحيد في الربوبية إلى المشركين، وحين استدللتم بآيات الباب على توحيدهم في الربوبية!

أنتم أكدتم دائماً في هذه المواضع الخمسة على كلمة «وحده» ونحوها من أساليب الحصر، كما سبق بيانه من نصوصكم الكثيرة[1]، فأين هذا الحصر في آيات الباب التي تستدلون بها وتستنبطون منها الحصر في الربوبية وتنسبون الإقرار به إلى المشركين؟! طبعاً لا يوجدُ شيءٌ من ذلك، وإنما هو من كيس ابن تيمية كما سبق، ثم قلدتموه في ذلك!!!

## بطلان تقدير السلفية لكلمة «وحده» أو نحوها في آيات الباب

قد يقال: نعم كلمة «وحده» ونحوها ليست في آيات الباب الثمانية كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ...﴾، ولكن هي مقدرة لدلالة السياق عليها إذ لو كانوا يعتقدون بأن آلهتهم خالقة لقالوا حينما سئلوا عن الخالق: الخالق هو آلهتنا اللات والعزى ومناة و... إلخ، أو لقالوا على الأقل: الخالق هو الله وآلهتنا.

**قلنا: هذا مردود لأربعة أسباب، منها سببان سبق توضيحهما، وهما:**

الأول: إن هذا التقدير مردود لأنه يخالف منطوق خمس آيات كما سبق بيانه[2].

---

(١) انظر (ص: ٢٤٥).

(٢) انظر (ص: ٢٥٥).

**الثاني**: إنه يخالف تأكيدكم في أربعة مواضع على أن المشركين صرحوا بكلمة «وحده» ونحوها كما سبق أيضا.

**وسببان آخران لم يسبق بسطهما وهما:**

**الثالث**: تشددكم في شروط التوحيد على المسلمين دون المشركين، وهذا سنبسطه لاحقا بحول الله.

**الرابع**: اشتراطكم النفي والإثبات في التوحيد وهو غير متوفر عند المشركين، وهذا ما سنبسطه فيما يلي.

## اشتراط السلفية النفي والإثبات في التوحيد وهو غير متوفر عند المشركين

وإليكم نصوص السلفية في أن التوحيد في الاصطلاح الشرعي لا بد فيه من نفي وإثبات:

١) «**فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات**، وهذا حقيقة لا إله إلا الله»[١].

٢) «إن التوحيد له ركنان: النفي والإثبات؛ فمن لم يكفر بالطاغوت، ولم يبرأ من الشرك، فتوحيده باطل فاسد»[٢].

٣) «هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم؛ كما تقدم ذكره؛ وإثبات التوحيد لهذه الكلمة، باعتبار النفي والإثبات - المقتضي للحصر فإن الإثبات المجرد **قد يتطرق إليه الاحتمال**؛ ولهذا - والله أعلم -.

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٣٦)، ونقله في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: ١٧).
(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ٣٤٤).

لما قال الله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ قال بعده: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره؛ فقال تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[(١)].

٤) «والمقصود الأعظم - هو إثبات الإلهية لله تعالى - **بعد نفيها عن غيره**»[(٢)].

٥) «توحيد العبادة قائم على الركنين مؤسس على دعامتين ومركب من جزئين، **وهما النفي والإثبات**».

٦) و«لا يمكن لأحد أن يدخل في دين الإسلام **إلا بكلمة: لا إله إلا الله.** وأما غيرها من الكلمات مثل: لا رب إلا الله، لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، لا موجود إلا الله، لا مقصود إلا الله، الله موجود، الله إله»[(٣)].

وثمة نصوص كثيرة للسلفية تؤكد أن التوحيد لا بد له من نفي وإثبات[(٤)].

---

(١) جهود علماء الحنفية (١/ ١٥٢) نقلاً عن القاري وابن أبي العز. وأصل الكلام للرازي في حيث قال في مفاتيح الغيب (٤/ ١٩٢): «ولما قال: وإلهكم إله واحد أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هب أن إلهنا واحد، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا، فلا جرم أزال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق، **فقال: لا إله إلا هو** وذلك لأن قولنا: لا رجل يقتضي نفي هذه الماهية، **ومتى انتفت هذه الماهية انتفى جميع أفرادها**».

(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ١٥٣)، نقلاً عن القاري.

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ٢٠٠).

(٤) انظر: شرح ثلاثة الأصول لصالح الفوزان (ص: ١٠١)، شرح ثلاثة الأصول لابن باز (ص: ٥٩)، عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي (١/ ٥٤٢)، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية للدكتور ضميرية (ص: ٢٥٧)، جهود علماء الحنفية (١/ ٥٢٥)، المفيد في مهمات التوحيد (ص: ١٠)، عبد القادر عطا صوفي، دار الاعلام، ط١/ ١٤٢٢هـ- ١٤٢٣هـ. القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٢٢). شروط لا إله إلا الله ص ٤١٦، د. عواد بن عبد الله المعتق، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٢٦، العددان (١٠١، ١٠٢) - ١٤١٤/ ١٤١٥هـ.

# الجواب عن اعتراض أن النفي والإثبات مشترط في توحيد الألوهية دون الربوبية

إن قيل: إن النفي والإثبات مشترطان في توحيد الألوهية فقط لا في توحيد الربوبية، فالجواب من وجهين:

**الوجه الأول**: أن هذا يخالف نصوصكم أنتم التي ذكرتم أن أساليب الحصر ولاسيما أسلوب النفي والإثبات مشترطٌ في قسمي التوحيد كليهما الربوبية والألوهية، وهذه بعض نصوصكم:

١) فالتوحيد الكامل «متضمن لركنين أساسيين: **نفي، وإثبات**. فأما الإثبات فهو: إثبات ما يجب لله تعالى من **الربوبية والألوهية**... وأما النفي فهو: **نفي مشاركة غير الله تعالى فيما يجب له**»[1]. اهـ. فهذا نصٌّ صريحٌ في أن النفي والإثبات يجبَّان في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية على حد سواء.

٢) «الاعتقاد بأن الله **هو وحده** الخالق الرازق.. **فلا خالق ولا رازق ولا مدبر.. غيره سبحانه**»[2] وقد سبق المزيد من هذه التعريفات[3].

٣) وعرف الشيخ عبد الرزاق عفيفي التوحيد شرعاً بقوله: «أما شرعاً فيطلق على **تفرُّد الله بالربوبية والإلهية**، وكمال الأسماء والصفات»[4].

(١) تقريب التدمرية (ص: ٦).

(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٥).

(٣) انظر (ص: ٢٤٥).

(٤) منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين (ص: ٥٧).

٤) المعنى الاصطلاحي للتوحيد: «... وهو **إفراد الله تعالى بالربوبية** والطاعة أو العبادة»(١).

٥) والتعريف العام للتوحيد هو: «**إفراد الله تعالى بما يختص به في الربوبية وفي الإلهية** وفي الأسماء والصفات، وهذا أشمل ما يقال في تعريف التوحيد»(٢).

**الوجه الثاني - وهو الأهم -:** أننا لو غضضنا النظر عن الوجه الأول، فافترضنا أنكم لم تشترطوا النفي والإثبات إلا في توحيد الألوهية، فالسؤال: لماذا شرطتم النفي والإثبات والتوكيد في توحيد الألوهية، **ولم تشترطوه في توحيد الربوبية**؟ هل من دليل على هذه التفرقة؟ أم أنكم فرطتم في توحيد الربوبية فلم تجعلوا عليه ثواباً ولا عقاباً، ولم تشترطوا فيه أي شرط**!!** حتى مجرد النطق بما يعبر عنه ليس بشرطٍ عندكم**!!!** بل حتى النطق بخلافه غير مضرٍّ عندكم، وذلك لتُدخلوا فيه العالمين أجمعين أكتعين أبصعين فتجعلوهم كلهم موحدين في الربوبية بمن فيهم فرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى، والنصارى القائلين بأن ربهم وخالقهم عيسى عليهم السلام كما سبق بيانه**!!!**

وأما توحيد الألوهية فتشددتم فيه فشرطتم ثمانية شروط فضلاً عن التلفظ بما يدل عليه وأن يكون بأسلوب النفي والإثبات بل لا بد أن يكون بلفظ «لا إله إلا الله» حصراً، ومن لم يأت بتلك الشروط فلا تنفعه كلمة التوحيد بل يكون كالحمار يحمل أسفاراً كما بيَّناه أيضا(٣)**!!**

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: ١٠٥).
(٢) شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (١/٦، ت.ش).
(٣) انظر (ص: ٢٣٧).

## نص ابن تيمية على أن توحيد الربوبية لا بد فيه من نفي وإثبات وهو ما لا وجود له في آيات الباب

هذا وقد جمع ابن تيمية بين النفي والإثبات وبين التوكيد بكلمة «وحده» في قسمي توحيد الألوهية والربوبية، **فقال**: «وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه **وأقر بأنه وحده خالق** كل شيء، **لم يكن موحداً** بل ولا مؤمناً **حتى يشهد أن لا إله إلا الله فيقر بأن الله وحده** هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له. . .»، إلى أن يقول: «**فإن مشركي العرب كانوا مقرِّين بأن الله وحده** خالق كل شيءٍ وكانوا مع هذا مشركين»[1]. اهـ.

فلاحظْ كيف شرط ابن تيمية الحصر والقصر والتوكيد في كلا قسمي التوحيد، فذكر أن في توحيد الربوبية لا بد أن يقر بأنه تعالى «**وحده خالق** كل شيء»، وفي الألوهية ذكر أنه لا بد أن «**يشهد أن لا إله إلا الله. .**».

**فتحصَّل مما سبق**: أن ابن تيمية وأتباعه يرون أن التوحيد الشرعي لا بد في قسميه - الربوبية والألوهية - **من الإثبات والنفي والتوكيد** بكلمة «وحده» والنطق بذلك فعلاً لا تقديراً، أي أن ينطق بلسانه هذا النفي والإثبات والتوكيد ولا يكتفى بما في قلبه، فيقول لا رب ولا خالق ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، فبذلك يكون موحداً في الربوبية، وأن من لم ينطق بذلك إثباتاً ونفياً وتوكيداً فلا عبرة بتوحيده لا في الربوبية ولا في الألوهية.

ومعلوم أن آيات الباب الثمانية ليس فيها لا إثبات ولا نفي ولا توكيد،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣١٨٨).

وإذا كان الأمر كذلك فكيف اعتبرتم مجرد شهادة المشركين المستقبلية لله بأنه الخالق، اعتبرتم هذا توحيداً في الربوبية مع خلوِّه من أسلوب النفي والإثبات والتوكيد الذي كنتم قد شرطتموه أنتم بأنفسكم؟!

وبذلك نكون قد انتهينا من المرصد الأول وهو: أنه لا بد من كلمة «وحده» في توحيد الربوبية كما قرر ذلك السلفية أنفسهم في خمسة مواضع. لننتقل إلى المرصد الثاني بحول الله.

## المرصد الثاني

# بيان أن كلمة «وحده» أو نحوها.. ضرورية لقطع احتمال الشركة

إن كلمة «وحده» ونحوها من أساليب الحصر موضوعة في اللغة لأجل قطع الشك باليقين؛ بمعنى قطع احتمال المشاركة، وذلك بالنص على الانفراد والحصر، فإن قلت: «مررتُ به وَحْدَه»، فكأنك قلت: «مررتُ به منفرِداً»[1]. وكأنك حين تقول: «جاء زيد **وحده**» قد قلت: جاء زيد إيحاداً؛ أي انفراداً؛ وأنت تريد: جاء زيد **متوحِّداً؛ أي منفرداً**»[2]. فـ«وحده» حالٌ من فاعل «جاء» المستتر فيه، وهو معرفة بالإضافة إلى الضمير، فيؤوَّل بنكرةٍ من لفظه أو من معناه، أي: «**متوحداً أو منفرداً**»[3].

ومعنى ذلك أن يونس[4] يجعل «وحده» إذا قلت: «مررت به وحده»

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ١٩)، دار الكتب العلمية، ط١/ ٢٠٠١م.

(٢) حاشية يوسف البقاعي على أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (٢/ ٢٥٦)، دار الفكر.

(٣) شرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري (١/ ٥٧٨)، دار الكتب العلمية، ط١/ ٢٠٠٠م.

(٤) قال الزركلي في الأعلام (٨/ ٢٦١): يونس بن حبيب (٩٤-١٨٢هـ = ٧١٣-٧٩٨م) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن، ويعرف بالنحوي: علامة بالادب، كان إمام نحاة البصرة في عصره... أعجمي الاصل. أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم من الائمة... من كتبه «معاني القرآن» كبير، وصغير، و«اللغات»، و«النوادر». اهـ.

بمنزلة متوحِّداً ومنفرداً.. معناه على حياله في موضع الظَّرف... وأما مذهب سيبويه في «وحده» فالذي قاله المبرّد: إنه يحتمل أن يكون الفاعل والمفعول به، أما كونه للمفعول به فهو أن تقول: مررت به وحده أي: منفرداً في مكانه لم يكن معه غيره. والآخر: أن تجعل قصدك إليه دون غيره؛ فتقول: مررت به وحده أي: لم أعتمد غيره في مروري. وكان الزجَّاج يذهب إلى أنَّ «وحده» مصدر هو للفاعل دون المفعول فإذا قلت: مررت به وحده، كأنك قلت: أفردته إفرادا»[1]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]، «والمعنى: منفردٌ في ذاته وصفاته»[2].

فإذن كلمة «وحده» تقطع احتمال الشركة وتعيِّن الحصر والانفراد سواء في الفاعل كما تقول: جاء زيد وحده، أو في المفعول كقولك: رأيت زيداً وحده، أو في المجرور، كما في قولك: مررت بزيدٍ وحده، ولو أنك قلتَ هذه الجملَ الثلاث دون كلمة «**وحده**» لاحتمل أن يكون جاء زيدٌ وحده، ويحتمل أنه جاء مع أخيه مثلاً، هذا مع أنك لم تذكر إلا زيداً في الجمل الثلاث، فالمفترض أنه جاء وحده وإلا لذكرتَ من جاء معه، ولكن هذا الفرض غير صحيح لأمور:

**الأول**: أنه معارَضٌ بفرض آخر، وهو أنه لو جاء وحده لقلتَ جاء وحده، فالقاطع للاحتمال هنا هو كلمة «وحده».

**الثاني**: يحتمل أن القائل: جاء زيد، إنما اقتصر على ذكر زيد وإن كان جاء غيره معه؛ لأغراض أو أسباب عديدة، منها أنه اقتصر عليه لأنه أهم

---

(١) شرح كتاب سيبويه لأبي سعيد السيرافي (٢/ ٢٦٤)، تحقيق أحمد مهدلي، دار الكتب العلمية، ط١/ ٢٠٠٨م. وانظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/ ٣٠٣)، وإعراب القرآن وبيانه لدرويش(٥/ ٤٥٢).

(٢) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٧/ ٢٩)، طبعة العلمية.

شخص جاء، أو لأن الناس كانت تنتظر مجيئه، أو لغير ذلك من الأغراض والنكت البلاغية الكثيرة.

## ذكر الشيء لا ينفي ما عداه

**الثالث** وهو الأهم: أن القاعدة هي أن «تخصيص الشيء بالذكر لا يقتضي نفي الحكم عما عداه،»(١)، و«ذكر بعض أفراد العام الموافق له في الحكم لا يقتضي التخصيص عند الأكثرين»(٢)، ولذلك فإن «مفهوم اللقب.. عند جمهور العلماء لا يدل على التخصيص ونفي الحكم عما عداه»(٣) بمعنى أن «تعليق الحكم بالاسم العلم، نحو: قام زيد، أو اسم نوع، نحو: في الغنم زكاة، فلا يدل على نفي الحكم عما عداه، وقد نص عليه الشافعي»(٤)، «ومنع ذلك بُهتٌ واختراع على اللغات، إذ يلزم من أن يكون قوله: «زيد عالم» كفر؛ لأنه نفي للعلم عن الله وملائكته»(٥).

وبالتالي فقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ليس قاطعاً في الدلالة على أنهم يعتقدون بأنه وحده الخالق، بل قولهم هذا محتمِلٌ للشركة وعدمه، والذي يقطع احتمال الشركة هو كلمة وحده، ونحوها من أساليب

(١) نهاية الوصول في دراية الأصول لصفي الدين الأرموي الهندي (١/ ٢٩٤)، تحقيق صالح اليوسف، المكتبة التجارية بمكة المكرمة، ط١/ ١٩٩٦م.
(٢) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤/ ٣٠٠)، دار الكتبي.
(٣) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي لعبد العزيز البخاري الحنفي (٢/ ٢٥٣)، دار الكتاب الإسلامي.
(٤) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٥/ ١٤٨).
(٥) روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة (٢/ ١١٦)، مؤسسة الريان، ط٢، ٢٠٠٢م. وانظر للاستزادة: الإحكام للآمدي (٢/ ٣٣٥)، و(٣/ ٩٥)؛ وشرح مختصر الروضة للطوفي (٢/ ٧٧١)؛ وأضواء البيان للشنقيطي (١/ ٣٥٥)؛ والإبهاج لابن السبكي (٢/ ١٩٤)، والبديع لابن الساعاتي (ص: ٢٤١)، دار الكتب العلمية.

الحصر، فتقول: «الله هو الخالق وحده»، أو «لا خالق إلا الله»، أو «إنما خالق الله»، ونحو ذلك من العبارات التي تتضمن أساليب الحصر والقصر والتي - بالمناسبة - أنتم أنفسكم شرطتموها للدلالة على التوحيد في الربوبية والألوهية، ومعلوم أن أساليب الحصر تلك ليس شيءٌ منها في آيات الباب الثمانية التي تحتجون بها على أن المشركين موحدون في الربوبية!!

## الإثبات المجرَّد قد يتطرق إليه الاحتمال

هذا وقد اعترف بعض السلفية بأن الإقرار أو الإثبات المجرد أي دون حصرٍ وقصر: لا يفيد توحيداً لأنه يبقى محتملاً للشركة، فينقل ابن قيصر الأفغاني عن العلامة القاري مُقراً قوله: «هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم؛ كما تقدم ذكره؛ وإثبات التوحيد لهذه الكلمة، باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، **فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال**»[1]. اهـ.

فتأمل قوله «**فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال**»، فهو تصريحٌ بأن مجرد إثبات وجود الله وأنه خالق، دون نفيٍ وإثباتٍ كقولنا: لا خالق إلا الله، أو إنما الخالق الله، أو دون توكيد بأنه الخالق وحده، أي أن من يقول: الله خالق، فإن هذا لا يفيد توحيداً في الربوبية والخالقية، لأن احتمال الشركة يتطرق إليه كما رأينا.

وهذا ينطبق على آيات الباب الثمانية من باب أولى، لأن هذه الآيات ليس فيها إقرارٌ محققٌ من المشركين بأن الله خالق، وإنما هم سيقولون ذلك إن سئلوا، أي أن غاية ما فيها إقرار مستقبلي معلق كما بسطناه مراراً.

(١) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ١٥٢).

## المرصد الثالث

# الجواب عن قول دمشقية.. بأنهم حين سئلوا «لم يقولوا: أصنامنا هي الخالقة»

وأما قول دمشقية بأن المشركين لم ولن يقولوا بأن آلهتنا خالقة معك. وهذا قد يشير إليه قول النسفي في تفسيره: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **لا الأصنام والملائكة** ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف أو من أين يصرفون **عن التوحيد مع هذا الإقرار**»[(١)].

ونحوه قول الماتريدي: «وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يخرج على الصلة بقوله: (آلله خير أما يشركون)؛ كأنه يقول: من يملك إجابة المضطر وكشف السوء عنه وجعلكم الخلفاء في الأرض خير، أمن لا يملك من ذلك شيئاً؟ فجواب ذلك أن يقولوا: بل الذي يملك ذلك خير ممن لا يملك ولا يقدر على ذلك».

أو يخرج على الوجهين اللذين ذكرتهما:

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٢٨٤)، ونحوه في «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٥/ ٢٧٥)، الأساس في التفسير (٩/ ٥١٦٩).

أحدهما: أنكم تعلمون أن الذي يجيب المضطر ويكشف السوء هو الله تعالى، لا الأصنام التي تعبدونها، فكيف أشركتموها في الألوهية والعبادة؟!

والثاني: أنه إذا أجاب دعوة المضطر وكشف السوء والأحزان ومنع؛ فدل بقاء ذلك كله واتساق الأمر أنه واحد لا شريك له؛ فهذا على الثنوية، والأول على المشركين؛ لإشراكهم غيره في العبادة له وتسميته الإله»(١).

فجوابه من وجوه:

الوجه الأول: أن المشركين لم يقولوا شيئاً أصلاً.

الوجه الثاني: أن هذا معارَض بأنهم لم يقولوا أيضاً: الله وحده هو الخالق.

الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا الله هو الخالق على وجه التغليب.

الوجه الرابع: إن المشركين نسبوا إلى أصنامهم التأثير في عدة آيات

وفيما يلي بسط هذه الوجوه:

## الوجه الأول: أن المشركين لم يقولوا شيئاً أصلاً

وبيانه أن آيات الباب مثل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فيها جوابٌ افتراضيٌّ وليس حقيقياً، أي أنه لم يقع منهم جوابٌ بعد، لأنه معلَّقٌ على شرطٍ بدليل قوله «ولئن»، فهو من باب «إن جئتني أكرمتك» كما سبق بيانه، والشرط - وهو سؤالهم - لم يقع أو لم يدل دليل على وقوعه كما سبق، وبالتالي فالجواب لم يقع، أي لم يقع قولهم بأن الله هو الخالق.

ولذلك حمل كثير من العلماء هذه الآيات على آية الميثاق والفطرة

(١) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٨/ ١٢٨).

كما سبق بسطه، أي هذا الجواب منهم - وهو: ليقولن الله - هو حيث المبدأ قبل أن تتغير الفطرة بشركٍ ونحوه، والمشركون قطعاً تغيَّرت فطرتهم بنص حديث الفطرة نفسه.

أو أن معنى الآيات أنك لو سألتهم عن الخالق، وأقمت لهم الحجة فأعمَلوا عقولهم فيها وأنصفوا ليقولن الله، وإلا فلن يجيبوا بذلك، وإن أجابوا.. أجابوا مكرَهين، وهذا كله بسطناه في موضعه.

**الوجه الثاني: أن هذا معارَض بأنهم لم يقولوا أيضا: الله وحده هو الخالق**

فإنه على التسليم بأنهم قالوا بأن الله هو الخالق، ولكن كما أنهم لم يقولوا أصنامنا هي الخالقة، ولا حتى هم قالوا: أصنامنا معه تعالى شريك في الخلق، فهم أيضا لم يقولوا بأن الله **وحده** هو الخالق. وإنما كلمة «وحده» هذه إضافة أو تقدير أو تبرع من ابن تيمية لهم كما سبق بسطه، ونحن كلامنا قبل التبرع!! هذا فضلا عن أن هذا التقدير لكلمة «وحده» يخالف منطوق خمس أو ست آياتٍ من القرآن كما ذكرنا مراراً.

## الجواب عن الاحتجاج بمفهوم اللقب على أن المشركين موحدون في الربوبية

قد يقال إن آيات الباب الثمانية دلت على أن المشركين سيقرون بأن الله هو الخالق لو سئلوا عنه، فدل بالمفهوم أنه لا خالق عندهم سواه.

قلنا: هذا يسمى بمفهوم اللقب، وهو ضعيف الحجية عند الأصوليين كما سبق بيانه[1]؛ لأن النص على الشيء لا ينفي ما عداه، كشهادتنا بأن

---

(١) انظر (ص: ٢٨٤).

محمداً رسول الله، فهذا لا ينفي الرسالة عن غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكذا القول بأن الله خالقٌ أو إلهٌ، فهذا التعبير بحد ذاته لا ينفي خالقية أو ألوهية غيره.

**ولكن قد يقال:** نعم نحن نسلم بأن مفهوم اللقب ليس حجةً، وأن النص على الشيء لا ينفي ما عداه، ولكن هذا قد يصح مع الكلام المبتدأ لا مع الجواب عن سؤال، بمعنى أن من قال: جاء زيد، أو زيد عالم، فهذا لا يدل بالضرورة على أنه هو فقط من جاء، وأنه هو العالم دون ما سواه، ولكن إن قيل من جاء؟ فقيل: زيد، فهذا يدل على حصر المجيء فيه، وإلا لكان الجواب كذباً أو خطأً على الأقل، وكذا يقال في آيات الباب فحينما سئل المشركون عن الخالق فأجابوا بأنه الله، ولم يذكروا سواه من الأصنام دل ذلك على أنهم يعتقدون أنهم وحده الخالق، بخلاف ما لو قالوا من تلقاء أنفسهم دون سؤال: الله خالق، فهذا نعم لا يدل على أنهم يحصرون الخالقية فيه تعالى.

**قلنا:** هذا غير مسلم لما يلي:

**أولاً: أن مفهوم اللقب ليس بحجة سواء في الكلام المبتدأ أو في غيره.**

فالأمر سيان في الكلام المبتدأ وفي الجواب عن السؤال، لأن المجيب هنا يمكن أن يكون اقتصر على ذكر «زيد» من باب التغليب على اعتبار أن مجيئه أو فعله هو الأهم والأكثر أثراً دون سواه، أو لأنه عرف بالقرائن أن السائل يريد بسؤاله العام أن يعرف خصوص مجيء زيد وفعله لا من سواه فجاء الجواب مقتصراً على ذكر زيد مراعاة لحال السائل، وكأن المجيب حين اقتصر على قول: زيد، جوابا عن سؤال: من جاء؟ ولم يذكر سواه ممن جاء أيضاً، أراد أن يقول لسائله: أنا أعلم أنك تسأل عن زيد بالتحديد، فاطمئن: قد جاء زيد.

وأيضا إن قيل: من طبخ هذا الطعام؟ فقلتَ: أمي، فيحتمل أنك تريد أن أمك بمفردها طبخت الطعام ولم يعنها أحد، ويحتمل أن أختك أعانتها في الطبخ كإيقاد نار أو جلب ماء أو تحريك طعام أو رش ملح ونحو ذلك، ولكن لم تذكر أختَك لقلة أثرها، واقتصرتَ على ذكر أمك لعظيم أثرها، وذلك من باب التغليب كما سيأتي بسطه، وإنما الذي يقطع هذا الاحتمال أن تقول: أمي وحدها طبخت هذا الطعام.

**لا يقال**: لكن ثمة فارق بين المثال الذي ضربته وبين ما نحن فيه، إذ الله مطلق القدرة لا يحتاج من يشاركه أو يعينه على الخلق بخلاف الأم التي قد تحتاج من يشاركها في الطبخ أو يعينها. **لأننا نقول**: وهل كان المشركون يعتقدون بأن الله مطلق القدرة وأنه الغني عن الشركاء وعما سواه؟! هذا هو أصلا محل النزاع!!!

وكيف يعتقدون أنه مطلق القدرة؟! وهم استبعدوا قدرته تعالى على إحياء الموتى للبعث والنشور كما بسطناه[1]، بل بعضهم شكك في وجوده أصلا ولذلك أقام الله عليهم الحجة كما في قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦] كما سيأتي بيانه[2].

وبالتالي فإن جواب المشركين عن الخالق بأنه الله، إن قُدِّر أن الرسول عليه الصلاة والسلام سألهم عنه، وقُدِّر أنهم أجابوا بذلك، فهذا الجواب إن وقع فيحتمل أنهم أرادوا بأن الله وحده الخالق، ويحتمل أنهم أرادوا أن معه تعالى خالقِين آخرَين، «**فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال**»[3] كما سبق بيانه.

(١) انظر (ص: ٩١).

(٢) انظر (ص: ٤١٦).

(٣) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ١٥٢).

والذي يقطع الاحتمال أي احتمال الشركة هو كلمة وحده ونحوها من أساليب الحصر، بيد أن آيات الباب خالية من هذا التوكيد والحصر، بل دلت الآيات الأخرى أنهم رافضون لكلمة وحده إذا قرنت مع الله كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، فكيف يُقدَّر أنهم أرادوها - أي أردوا كلمة وحده - مع تصريحهم في آيات أخرى برفضها.

**ثانياً: أن السؤال عن الخالق جاء بصيغة الحصر تارة ومن دونها تارة**

وبيانه هو أن تفريقكم بين الكلام المبتدأ وبين الجواب عن السؤال بأن الثاني يفيد الحصر دون الأول: غير صحيح، بل كلاهما لا يفيد الحصر، لأن أدوات الحصر معروفة سبق بيانها، وليس منها الجواب عن سؤال، وبدليل أن السؤال عن الخالق مرة جاء بصيغة تفيد الحصر: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣]، ومرة جاء بصيغة لا حصر فيها كآيات الباب كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، فكيف يستوي الحصر مع عدمه؟ وهل دلالة آية «فاطر» كدلالة آية «الزخرف»؟ قطعاً لا؛ لأن آية «الزخرف» تسأل عن الخالق، مَن هو؟ دون التطرق إلى كونه واحداً أم متعدداً، وأما آية «فاطر» فتسأل عن الخالق، هل هو واحد أم متعدد؟ وهذا ترتيبٌ منطقي، لأنك تسأل الشخص أولاً هل تؤمن بإلهٍ أو بخالقٍ لهذا الكون، فإن قال نعم، فلك أن تسأله بعد ذلك: هل هو خالقٌ واحدٌ أم متعددٌ؟.

## الله أثبت لنفسه الملك، ثم نفى عنه الشريك، وهذا يؤكد أن الإثبات المجرد لا يعني التوحيد

ومما يؤكد ما سبق هو أن ثمة آيات أخرى ينفي فيها تعالى الشريك له في الملك بعد أن يثبت له ملك السموات والأرض، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]، وهذا النفي للشريك بعد تقرير ملكه تعالى للسموات والأرض في آية الفرقان إنما هو لبيان أنه المالك وحده، ولو كان إخباره بملك السموات والأرض في قوله ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدل بمجرده على أنه المالك وحده لما نفى بعد ذلك الشريك له في الملك في قوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، ولكان تكراراً محضاً أو تأكيداً، ومعلومٌ أن التأسيس أولى من التأكيد، وكذا يقال في آية «سبأ».

### الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا الله هو الخالق على وجه التغليب

أي أنه إن افترضنا أنهم سئلوا فعلاً عن الخالق فقالوا: «الله»، ولم يقولوا: أصنامنا خالقة مع الله تعالى، فيحتمل أنهم أرادوا أن الله هو الخالق على وجه التغليب، أي يعتقدون أن ثمة خالقِين وأرباباً مع الله تعالى، ولكن يعتقدون أنه تعالى الخالق الأكبر والرب الأعظم، لأنهم كانوا يقولون «وهم في الجاهلية. . : إلهنا القديم والعتيق وإله الآلهة ورب الأرباب وغير ذلك مع كفرهم»[1]، وقد أطلقت العرب على أصنامها أنها أرباب، كما أطلقت عليها

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥٠٩)، وانظر (٧/ ٤٥٨).

أنها آلهة، وقد سردنا في كتابنا «تنوير الرب الإله»[١] شواهد شعرية ونثرية كثيرة على إطلاق كلمة الرب والأرباب على الصنم والأصنام عند العرب في الجاهلية.

لا يقال: نعم أطلقوا على أصنامهم أرباباً لكن بمعنى أنها آلهةٌ معبودةٌ لا خالقة، لأن الإله هو المعبود لا الخالق. وفي ذلك يقول ابن تيمية: «فإن إبراهيم عليه السلام سلك هذه السبيل لأن قومه كانوا يتخذون الكواكب أرباباً، يَدعونها ويسألونها، ولم يكونوا هم ولا أحد العقلاء يعتقد أن كوكباً من الكواكب خلق السماوات والأرض»[٢]. اهـ. ويقول ابن عبد الوهاب: «ولذلك صارت العرب تطلق الرب على الإله، فسموا معبوداتهم أرباباً من دون الله لأجل ذلك أي لكونهم **يسمون الله رباً بمعنى إلهاً**»[٣].

لا يقال هذا؛ لأننا نقول بل هم يعتقدون بوجود خالقٍ ومؤثرٍ سوى الله وهذا سردنا عليه في كتابنا الكبير أدلةً كثيرةً تفوق العشرين، وقد أقر بذلك ابن تيمية وأتباعه، فمثلا قال: «والمقصود أن كثيراً من أهل الشرك والضلال قد يضيف وجود بعض الممكنات أو **حدوث بعض الحوادث إلى غير الله**»[٤]. اهـ. وقال البدر: «قول أهل العلم عن المشركين بأنَّهم يعترفون بتوحيد الربوبية ليس المراد به أنَّهم اعترفوا بهذا القسم من التوحيد **على التمام والكمال**... **إذ منهم من وجد عنده حتى الشرك في الربوبية**، ومنهم من **آمن ببعض خصائص الربوبية دون بعض**»[٥]. اهـ. وقد سبق أن

(١) تنوير الرب الإله (ص: ١٥١)، ط١.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢١/ ٣٤)، طبعة عالم الكتب.
(٣) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي (١/ ٣٧٦).
(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٩/ ٣٤٧).
(٥) القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٧٧).

سردنا نصوصا مماثلة لذلك[1].

ولا يقال أيضاً: نعم هم يعتقدون بوجود تأثيرٍ لآلهتهم ولكن هذا يقع بإذن الله عندهم، لأنهم يتصورون أن الله فوَّض لتلك الآلهة تدبيراً وتأثيراً جزئياً لبعض الأمور، لأننا نقول: هذا أيضاً أثبتنا بطلانه[2]، وبيَّنَّا أنهم يعتقدون بتأثير الأصنام والكواكب وغيرها من غير إذن الله، وقد نقلنا قول ابن القيم من أن الله: «نفى الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم **بذواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاته** لمن شاء أن يشفع فيه الشافع»[3]. اهـ.

**إذن فالمشركون يعتقدون بوجود أرباب وأشياء مؤثرة بدون إذن الله، وبالتالي فلا يبعد أنهم** حين سئلوا عن الخالق فقالوا: الله، ولم يقولوا أصنامنا خالقة مع الله تعالى، يحتمل أن ذكروا الله فقط على وجه التغليب، أي أنهم كانوا يعتقدون بوجود تأثيرٍ ما وخلقٍ ما لغير الله، وإن كان تأثير الله أعظم وأكثر عندهم، ولذا هو عندهم رب الأرباب والرب الأعظم والخالق الأكبر، فمن ثَم حين سئلوا عن الخالق ذكروا أنه الله، دون أن يذكروا الأصنام والكواكب، وذلك على وجه التغليب، أي لأن الله أكثر أثراً وأعظم خلقاً مما سواه فاقتصروا على ذكره دون ما سواه من باب التغليب، فما هو التغليب؟ هذا ما سنبحثه الآن بحول الله.

---

(١) انظر (ص: ٤٠).

(٢) انظر (ص: ٤٣٩-٤٤٠).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (٢/ ٢٦٩)، دار الكتب العلمية، بيروت. وانظر: مفتاح دار السعادة طبعة عالم الفوائد (٣/ ١٥٩٢).

# الكلام عن باب التغليب

## أولاً: تعريف التغليب وأنواعه وأغراضه البلاغية

باب التغليب هو من أبواب البلاغة، ويُعرَّف بأنه «إعطاء أحد المتصاحبين في اللفظ، أو المتشاكلين المتشابهين في بعض الصفات، أو المتجاورين أو نحو ذلك حكم الآخر، ومن فوائده الإيجاز في العبارة.. ويكون التغليب في أمور كثيرة، منها: تغليب المذكر على المؤنث، وتغليب الكثير على القليل، وتغليب المعنى على اللفظ، وتغليب المخاطب على الغائب، وتغليب أحد المتناسبين أو المتشابهين أو المتجاورين على الآخر، وتغليب العقلاء على غيرهم، إلى غير ذلك من أمور»[(١)].

ومن ذلك «طريق التغليب والاكتفاء عن الفعلين بفعل واحد يتضمنهما، وهو معروف من لغة العرب، بل وغيرها من الأمم، كقول الشاعر:

**علفتها تبنا وماء باردا     حتى غدت همالة عيناها**

وقول الآخر:

**ورأيت زوجك قد غدا     متقلدا سيفا ورمحا»[(٢)]**

ومن ذلك أن «جمع «الذين» لا يختص به المؤنث، وإن جاز إطلاقه عليهن مع الذكور تغليبا»[(٣)]، فقد «ذكر الله عز وجل في القرآن الذين آمنوا والذين كفروا في نصوص كثيرة، ويدخل المؤمنات في الذين آمنوا،

(١) البلاغة العربية لحبنكة (١/ ٥١٠).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٢٣).
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٣٩٦).

والكافرات في الذين كفروا، **لأن الاقتصار في اللفظ على المذكورين قد كان على سبيل التغليب**»[1].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ جاء في هذا النص وأشباهه ذكر الملائكة دون ذكر من كان معهم من الجن على **سبيل تغليب الكثير على القليل**، فالذين كانوا مع الملائكة من الجن داخلون في عموم الأمر بالسجود لآدم، دل على هذا استثناء إبليس، فقد كان من الجن ففسق عن أمر ربه، ولو لم يكن الجن الذين كانوا مع الملائكة مأمورين بالسجود لما استثناه الله من عموم المأمورين به إذ لم يسجد»[2].

أي إن الله اقتصر على ذكر الملائكة حين قال «وإذ قال ربك للملائكة»، ولم يقل: وإذ قال ربك للملائكة والجن؛ لأن إبليس من الجن وكان مأموراً بالسجود ولذا لُعن حينما استكبر عن السجود، لكن لم يُذكر الجن هنا وذكرت الملائكة فقط من باب التغليب؛ لأنهم كانوا أكثر من الجن بل لم يكن حاضراً منهم أحد سوى إبليس.

وكذا هنا في آيات الباب الثمانية، فيمكن أن يقال: لمَّا كان التأثير الأكبر عند المشركين لله اقتصروا على ذكر الله حين سئلوا عن الخالق، لا لأنهم موحدون في الربوبية، وإنما لأن ما سواه تأثيره أقل، وهذا من باب تغليب الكثير على القليل كما سبق.

---

(١) البلاغة العربية لحبنكة (١/ ٥١٠).

(٢) البلاغة العربية (١/ ٥١١).

## ثانياً: أمثلةٌ أخرى من القرآن على التغليب عند المفسرين

ويسمى أيضا الاكتفاء بذكر أحد الشيئين عن الآخر، قال الزركشي: «الاكتفاء: وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر.. وأمثلة هذا القسم كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾. فإنه قيل: المراد: «وما تحرك» وإنما آثر ذكر السكون **لأنه أغلب الحالين على المخلوق** من الحيوان والجماد، ولأن الساكن أكثر عدداً من المتحرك، أو لأن كل متحركٍ يصير إلى السكون، ولأن السكون هو الأصل والحركة طارئة.

وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ تقديره: «والشر»، إذ مصادر الأمور كلها بيده جل جلاله وإنما آثر ذكر الخير لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم إليه أو **لأنه أكثر وجوداً في العالم** من الشر ولأنه يجب في باب الأدب ألا يُضاف إلى الله تعالى كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»»[١]

ومنه أيضاً قوله ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ «أي بالقرآن واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة»[٢]. لأنه مصرَّح به في موضع آخر[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾، أي ليس له ولدٌ ولا والدٌ، فاكتفى بذكر أحدهما[٤]، «بدليل أنه أوجب للأخت النصف وإنما يكون ذلك مع فقد الأب لأنه يسقطها»[٥].

ومنه قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١١٨)، الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٦٣).
(٢) تفسير البيضاوي (ص: ٣٩٨).
(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٢/ ١٠٥)، تحقيق أحمد رسلان.
(٤) تفسير القرطبي (٦/ ٢٨).
(٥) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٦٤).

سَادِسُهُمْ﴾: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم ما يقولون سرا وجهرا ولا تخفى عليه خافية، فمن أجل ذلك **اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض**»[1].

ومنه قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: قال الفراء: «أي قدَّر، فهدى وأضل، **فاكتفى بذكر أحدهما**، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾»[2]. والحكمة أن «الخطاب للعرب وبلادهم حارة والوقاية عندهم من الحر أهم لأنه أشد من البرد عندهم»[3].

**وقال الرازي** عند قوله تعالى في سورة «الفتح»: «﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾ قال هاهنا وفي بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعض المواضع **اكتفى بذكر المؤمنين** ودخلت المؤمنات فيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحاً، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين»[4].

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾: «واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١١٨)، ولكن عقَّب الزركشيُّ ذلك بقوله: «والحق أن الآية ليست من هذا القسم فإن البرد ذكر الامتنان بوقايته قبل ذلك صريحا في قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾». ثم ذكر أمثلة أخرى.

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٦٩)، طبعة دار إحياء التراث العربي.

فما أدري إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يليني
ألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتليني[١]

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل السياق والكلام عليه، وكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، **اكتفى بذكر العنق عن اليدين**»[٢].

**قال ابن كثير** عند قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾: «واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾»[٣].

ومنه قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢]، يقول ابن بطال: «المراد وتجعلون رزقكم الذي رزقكم من الغيث الذي به حياتكم ووجب به **عليكم شكر ربكم** تكذيبكم به، فاكتفى بذكر الرزق من ذكر الشكر؛ إذ كان معلوماً أن من رزق إنساناً، فقد اصطنع إليه معروفا يستوجب به الشكر»[٤].

---

(١) كذا وقع «يأتليني» في تفسير ابن كثير، وكذا هو في تفسير الطبري «جامع البيان» طبعة دار التربية والتراث (٢٠/ ٤٩٣)، ووقع في كتب التفسير الأخرى مثل «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٧/ ٣٢٧): «أم الشر الذي هو يبتغيني»، وكذا هو في «البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٢٥)، وكذا تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٦٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٦٤)، تحقيق سلامة.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٦).

(٤) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٣/ ٢٩).

## عكس التغليب والاكتفاء..

## نحو: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾

هذا ويوجد في اللغة عكس التغليب والاكتفاء، فإذا كان التغليب أن يُكتفى بذكر أحد الشيئين عن الآخر، فعكسه أن يُنسب الفعل إلى اثنين، ويكون الفاعل أحدهما!!!

وفي ذلك يقول الزركشي: «قد يثنَّى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ قالوا: وإنما **يخرج من أحدهما**، وقوله ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ **وإنما نسيه الفتى**»[(١)].

ونحوه قول السيوطي: «**ومن سنن العرب أن تَنْسُب الفعل إلى اثنين وهو لأحدهما**، نحو: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ وإنما يخرَجان من المِلْح لا العَذْب»[(٢)].

### ثالثاً: مطلب أمثلة من السنة على التغليب

قال ابن حجر عند حديث: «فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»: «وهل تدخل الأم في لفظ الوالد إن أريد به من له الولد فيعم، أو يقال **اكتفي بذكر أحدهما** كما يكتفى عن أحد الضدين بالآخر؟ ويكون ما ذكر على سبيل التمثيل والمراد الأعزة، كأنه قال أحب إليه من أعزته، وذِكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص وهو كثير»[(٣)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٣٢).

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها (١/ ٢٦٤).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٩).

وقال أيضاً عند حديث «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: «قوله: «أنبيائهم» بإزاء المجموع من اليهود والنصارى، والمراد الأنبياء وكبار أتباعهم فاكتفى بذكر الأنبياء، ويؤيده قوله في رواية مسلم من طريق جندب: كانوا يتخذون قبور **أنبيائهم وصالحيهم** مساجد»[١].

وقال أيضاً عند حديث «إن في الجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة»: «مشتقٌ من الري وهو مناسبٌ لحال الصائمين، وسيأتي أن من دخله لم يظمأ، قال القرطبي: اكتفي بذكر الري عن الشبع لأنه يدل عليه من حيث أنه يستلزمه، قلت: أو لكونه أشق على الصائم من الجوع»[٢].

وقال أيضاً عند حديث: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوهم»: «قوله: «ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله»، قال القرطبي: لم يذكر الرسالة إما لأنهما لما تلازما في النطق غالباً وشرطاً اكتفى بذكر الأولى، أو لأن الكلام في حق جميع المؤمنين، هذه الأمة وغيرها، ولو ذكرت الرسالة لكثر تعداد الرسل، قلت الأول أولى»[٣].

وقال المناوي عند حديث الشيخين «إن في الصلاة شغلاً»: «قال القرطبي: اكتفى بذكر الموصوف عن الصفة، فكأنه قال: شغلاً كافياً أو مانعاً من الكلام وغيره»[٤].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٣٢).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٤/ ١١١).
(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٥٥).
(٤) فيض القدير - العلمية (٢/ ٥٩٧).

**رابعاً: في أمثلة من التغليب عند ابن تيمية وأتباعه**

قال ابن تيمية في مسألة مسح الرجلين في الوضوء: «وأيضاً فإن المسح الخاص هو إسالة الماء مع الغسل فهما نوعان: للمسح العام الذي هو إيصال الماء ومن لغتهم في مثل ذلك أن يكتفى بأحد اللفظين كقولهم:

**علفتها تبناً وماءً بارداً والماء سقيٌ لا علف**

وقوله:

**ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحا**

والرمح لا يتقلد.

ومنه قوله تعالى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾، «فكذلك اكتفى بذكر أحد اللفظين وإن كان مراده الغسل ودل عليه قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ والقراءة الأخرى مع السنة المتواترة»[1].

وقال أيضاً: «وفي ذكر المسح على الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجل، فإن السرف يعتاد فيهما كثيرا، وفيه اختصار للكلام، فإن المعطوف والمعطوف عليه إذا كان فعلاهما من جنس واحد اكتفي بذكر أحد النوعين، كقوله: علفتها تبنا وماء باردا حتى غدت همالة عيناها والماء يسقى، لا يقال: علفت الماء، لكن العلف والسقي يجمعهما معنى الإطعام. وكذلك قوله:

**ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحا**

أي: ومعتقِلاً رمحاً، لكن التقلد والاعتقال يجمعهما معنى الحمل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ

(١) مجموع الفتاوى (٢١/ ١٣٣).

مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾. والحور العين لا يطاف بهن، ولكن المعنى: يؤتى بهذا وبهذا»[(١)].

وقال ابن القيم: «قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، ولم يذكر بيوت الأبناء لأنها داخلة في بيوتهم أنفسهم، فاكتفى بذكرها دونها، وإلا فبيوتهم أقرب من بيوت من ذكر في الآية»[(٢)].

## خلاصة التغليب، ومحل الشاهد منه في آيات الباب الثمانية

وهكذا نكون استعرضنا أمثلةً كثيرةً من الكتاب والسنة والشعر والنثر في باب التغليب، وهو أن يُقتصر أو يُكتفى بذكر أحد الشيئين عن الآخر، وهذا كله يؤيد القول بأن آيات الباب الثمانية ربما تكون من باب التغليب، بمعنى أن المشركين لو سئلوا عن الخالق لقالوا هو الله، ولم يذكروا أصنامهم من باب التغليب كما في الأمثلة السابقة، أي غلَّبوا ذكر الله، لأن الله عندهم أعظم خلقاً وأكبر أثراً من أصنامهم، أي أنهم في نهاية المطاف يعتقدون لأصنامهم تأثيراً ما وإلا لما عبدوها أصلاً - كما سيأتي -.

وهذا أحد الأجوبة عن قول دمشقية وهو أنهم قالوا: الله خالقنا و«لم يقولوا: أصنامنا هي الخالقة»، وخلاصته أنهم ربما قالوا ذلك من باب التغليب، طبعاً هذا من باب التنزُّل، وإلا فالمشركون لم يقولوا: الله خالقنا،

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ١٧٤).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٨٨).

وإنما سيقولون ذلك إن سألهم وأنصفوا وأذعنوا كما سبق تقريره.

## الوجه الرابع: إن المشركين نسبوا إلى أصنامهم التأثير في عدة آيات

فالمشركون إن لم يذكروا أن أصنامهم خالقةٌ أو مؤثرةٌ مع الله هنا في آيات الباب حين سئلوا عن الخالق: فقد ذكروا تأثيراً لأصنامهم في آيات أخرى: كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١]، وكقوله ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٤]، إلى آيات أخرى توسعنا في ذكرها في كتابنا الكبير.

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] أي «لم يُخرَجوا من ديارهم **إلا بقولهم: ربنا الله وحده لا شريك له**»(١)، وهذا دليلٌ على أنهم غير موحدين في الربوبية، ولا هم مقرُّون أصلاً بمقولة «ربنا الله»!! وإلا لما أخرجوا المؤمنين بسبب قولهم: ربنا الله!! وهذا ظاهرٌ جداً - كما بسطناه هناك -.

❀ ❀ ❀

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٦٤٦).

## المرصد الرابع

# لو قدرنا كلمة «وحده».. لأفادت الآية أنهم موحدون في الألوهية

إن أبيتم إلا تقدير كلمة وحده في آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ومثيلاتها، أو لو سلمنا أن ظاهر الآية هو أنهم ليقولن الله وحده! أو أن هذا هو المراد! فهذا سوف يضركم لأنه سوف يؤدي إلى أنهم موحدون في الألوهية؛ لأن «الله أصله إلاه»[1]، إذ «الله: **هو المألوه المعبود**، ذو الألوهية»[2]، «فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام»[3]، «**فالإله: هو المعبود** وهو الله سبحانه»[4]، **واختاره ابن القيم** حيث قال: «ولهذا كان القول الصحيح أن **الله أصله الإله**، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا مَن شذ منهم»[5]، وقد بسطنا ذلك في كتابنا تنوير الرب الإله[6].

(١) الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٢٣) ونصه: «ومنه قولنا «الله» وأصله إلاه على فِعال، بمعنى مفعول، لأنه مألوه أي معبود».

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص: ١٦٤).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٢٦).

(٤) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٧٦).

(٥) بدائع الفوائد (٢/ ٧٨٢).

(٦) تنوير الرب الإله (ص: ٦٦).

## تأويل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وهو الإله والمألوه فيهما

ولذا قيل في قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أنه يحتمل «أن المعنى **وهو الإله** أي: المعبود بحق في السموات والأرض»(١)، أو «وهو **المألوه في السموات** وفي الأرض»(٢) إذ «الكلام مستأنَف مسوقٌ للتنبيه على **صفات الألوهية** التي لا يستحقها غيره»(٣)، وهذا «قرره أئمة العلم **أنه المعبود** في السموات والأرض»(٤)، منهم الإمام أحمد حيث ذكر أن معناها: «**هو إله من في السماوات** وإله من في الأرض»(٥)، يؤيده «قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ومعناه ذو الألوهية التي لا تنبغي إلا له، ومعنى أله يأله إلهة عبد يعبد عبادة **فالله المألوه أي: المعبود**»(٦).

بل يؤيده مطلع السورة إذ قوله ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ...﴾ هذا صلة قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فإذا كان خالقهما لم يشركه أحد في خلقهما، **كان إله من في السماوات وإله من في الأرض** لم يشركه أحدٌ في ألوهيته، ولا في ربوبيته»(٧).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٠).

(٢) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٣٨).

(٣) إعراب القرآن وبيانه (٣/ ٦٤).

(٤) غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٥٢٢).

(٥) الجامع لعلوم الإمام أحمد - العقيدة (٣/ ٣٠٣)، درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٤٠)، ط٢، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٥/ ١٠٨)، ط١، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

(٦) معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٦٧).

(٧) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٤/ ١٥).

وإذا كان «الله» معناه الإله أو المألوه، فيكون معنى الآية السابقة هو: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الإله وحده، على اعتبار أنكم تقولون بأن المراد بها: ليقولن الله وحده، وعليه فهم موحدون في الألوهية!! وهذا خلاف مذهبكم القائل بأنهم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية!! فانقلبت الآية ضدكم!!

❀ ❀ ❀

## المطلب الثالث

# في تقدير بعض المفسرين.. لكلمة «وحده» في آيات الباب الثمانية

قد يقال: إن ما قدَّره ابن تيمية من كلمة «وحده» في آيات الباب الثمانية سبقه ولحقه في ذلك كثير من المفسرين، وذلك كالواحدي والبقاعي، وبعضهم فهِم من تلك الآيات أن المشركين كانوا مقرِّين بأن الله وحده هو الخالق، وإنما أشركوا في عبادته كما صرح بذلك الطبري والرازي وابن كثير، بل روي ذلك عن ابن عباس ومقاتل بن سليمان أيضاً، وقال به بعض الباحثين المعاصرين مثل جواد علي في تاريخه، وفيما يلي سرد نصوص هؤلاء العلماء من السلف والخلف الذين قدَّروا كلمة وحده، ثم نجيب عنها مفصلاً لاحقاً بحول الله:

## أولاً: ما رُوِيَ عن ابن عباس

ورد في بعض التفاسير عند قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ **أن ابن عباس** قال بأن: «**أهل مكة قالوا**: «**الله ربنا وحده لا شريك له**، والملائكة بناته - فلم يوحدوا بل أشركوا[1] - وقال **عبدة**

(١) جملة «فلم يوحدوا بل أشركوا «وقعت هكذا في تفسير الفخر الرازي وتفسير الخطيب الشربيني، ولا وجود لها في تفسير مراح لبيد، ووقع بدلها في تفسير الواحدي «فلم يؤمنوا». والله أعلم.

**الأصنام: ربنا الله وحده**، والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقال عبَدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا، وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك له»[1]. اهـ.

فقوله في هذه الرواية: وقال عبدة الأصنام: «ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده» صريحٌ بأنهم كانوا يقولون بوحدانية الله في الربوبية، وأنهم أشركوا في الشفاعة وهو ما يسميه ابن تيمية بـ «توحيد الألوهية».

وثمة رواية أخرى **عن ابن عباس وهي** أنه قال في قوله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: «فكيف يكذبون **بتوحيدي**»، وهذه الرواية بحد ذاتها ليس فيها نسبة التوحيد للمشركين، بل على العكس فيها أنهم يكذِّبون بالتوحيد، فلا تحتاج إلى نظر، وإنما الذي يحتاج إلى نقاشٍ ونظرٍ هو شرح الواحدي لها الذي سيأتي، على كلٍّ سنعلق على كلام ابن عباس هذا بشكلٍ مستقل، ثم نناقش كلام الواحدي حوله لاحقاً بحول الله.

## ثانياً: قول مقاتل بن سليمان

فقد جاء في تفسيره عند قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]: «﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يعني- عز وجل- من أين تكذِّبون يعني بتوحيدي»[2]. اهـ.

وجاء في تفسيره أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]: «قل لهم: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، يقول **من أين**

---

(١) السراج المنير للخطيب الشربيني (٢/ ١٤١)، وهو أيضاً في تفسير الواحدي، وتفسير مراح، وتفسير الفخر الرازي - كما سيأتي -.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٣٨٩).

**يكذبون بأنه واحدٌ لا شريك له**، وأنتم مقرُّون أن الله خالق الأشياء وخلقكم، **ولم يشاركه أحد في ملكه فيما خلق**؟ فكيف تعبدون غيره؟»[1]. اهـ.

## ثالثاً: نص الطبري

حيث ينقل عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: «يقول: وأنتم تعلمون أنه لا ندَّ له في التوراة والإنجيل»، **ثم يقول الطبري** معقِّباً: وأحسب أن الذي دعا مجاهداً إلى هذا التأويل، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم، الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها **ورازقها بجحودها وحدانية ربها**، وإشراكها معه في العبادة غيره. وإن ذلك لقول، ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها **كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته** ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فالذي هو أولى بتأويل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم، نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين**. ولم يكن في الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه عنى بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أحد الحزبين، **بل مخرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم**»[2]. اهـ.

## رابعاً: قول الواحدي

قال في تفسيره: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ يقرون بأن الله خالق هذه الأشياء. قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: **فكيف يكذبون بتوحيدي**». ثم

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٨٠٦).

(٢) جامع البيان (١/ ٣٩٤).

عقَّب الواحديُّ بقوله: «**أي: إذا كان الله هو الخالق وحده**، وجب أن يكون هو المعبود وحده من غير شريك. والمعنى: فكيف يُصرفون عن التوحيد بعد قيام الدليل»[(١)]. اهـ.

## خامساً: قول الفخر الرازي

قال في قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾: «فالمعنى: أنهم كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» إلا أنهم كانوا يثبتون له **شريكا في المعبودية**»[(٢)]. اهـ.

وقال أيضاً: «**كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله** وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها»[(٣)].

وقال أيضاً: «فقوله ولئن سألتهم يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار، فبين تعالى أنهم **مقرون بأن خالق السموات والأرض** وما بينهما هو الله العزيز الحكيم، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى **يعبدون معه غيره** وينكرون قدرته على البعث[(٤)]. اهـ.

## سادساً: قول أبي جعفر الغرناطي

«... ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ

(١) التفسير البسيط للواحدي (١٧/ ٥٥٤).
(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ٢٢٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ١٢).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ١٩٧).

﴿ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾، وتواردت هذه الآي الثلاث على معنىً واحدٍ هو تقريرهم على **ما كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه بخلق السماوات والأرض** واعترافهم بذلك إن سئلوا، ثم اتبع ذلك.. بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ...﴾، فأعلم تعالى أنهم لو سئلوا أيضاً عن هذا لاعترفوا»[1].

## سابعاً: قول النسفي

«﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ إلزامٌ لهم على اقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض **هو الله وحده**، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر، وأن لا يعبد معه غيره. ثم قال ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا»[2].

## ثامناً: قول ابن كثير

«أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله **وحده لا شريك له**، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد»[3]. اهـ.

**وقال أيضاً** في آخر سورة «الزخرف»: «أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾، أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها **وحده لا شريك له** في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهُم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل، ولهذا قال تعالى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾»[4]. اهـ.

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (٢/ ٣٩١).

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٧١٩).

(٣) تفسير ابن كثير (١٢/ ٣٠١)، طبعة قرطبة.

(٤) تفسير ابن كثير (١٢/ ٣٣١)، طبعة قرطبة.

وقال أيضاً في سورة «النمل»: «﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾، أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك **المتفرد** به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما اعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك **وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره** مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق»(١). اهـ.

وقال أيضاً عند قوله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى **للمشركين في اتخاذهم آلهةً من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد**، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي **هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت**، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء»(٢).

فتأمل قوله: «للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد»، فأين توحيدهم في الربوبية المزعوم ما دام أنهم يرون أن آلهتهم المزعومة تنصر وترزق، وتجلب النفع وترفع الضر؟! ولابن كثير نصوص أخرى مماثلة(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٠٢)، تحقيق سلامة.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٩)، تحقيق سلامة.

(٣) مثل قوله في تفسير سورة «الزخرف» كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٠١، طبعة العلمية): «يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم أي **ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له**، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد».
**ومثل قوله في تفسير سورة «العنكبوت»** كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٤، طبعة العلمية):
=

## تاسعاً: نص البقاعي

حيث قال: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي فقلت لمن شئت منهم فرادى أو مجتمعين: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي على ما لها من الاتساع والعظمة والارتفاع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على ما لها من العجائب وفيها من الانتفاع ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بعد تخويفهم لك بشركائهم الذين هم من جملة خلق من أرسلك بما أنت فيه: الذي خلقها ﴿ٱللَّهُ﴾ **أي وحده** الذي لا سمي له وإلباس بوجه في أمره، ولا يصدهم عن ذلك الحياء من التناقض ولا الخوف من التهافت بالتعارض»[(١)]. اهـ.

## عاشراً: قول أبي السعود

«﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **معترفين بأنه الموجدُ** للممكنات بأسرها أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيءٍ ما أصلاً»[(٢)].

وقال أيضاً: «**وقيل المراد نفي** أن يكون معه تعالى إله آخر فيما ذكر من الخلق[(٣)]... كيف لا؟ **وهم لا ينكرونه** حسبما ينطق به قوله تعالى ولئن

---

= «يقول تعالى مقراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره **معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض** والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار.. وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف **بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك**». اهـ.
**ونقل السهسواني** في صيانة الإنسان (ص: ٤٤٦) هذه النصوص ونحوها عن ابن كثير.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٥١١).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٤٦).

(٣) كذا في الأصل من تفسير أبي السعود «من الخلق»، وفي تفسير الألوسي روح المعاني (١٠/ ٢١٦): «في الخلق». اهـ. وربما الثاني هو الصواب كما هو واضح من السياق، لأن المراد نفي أن يكون معه تعالى إله آخر في الخلق، والله أعلم.

سألتهم من خلق السموات والأرض **ليقولن الله، بل بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى**»[١]. اهـ.

## حادي عشر: قول السيالكوتي

«﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيـة... سـؤالٌ عـن الـفـعـل لأن المقصود منه إلزام المشركين بالحجة على نفي الشرك **بأنكم اعترفتم بأن الخلق الذي هو مناط العبادة منفردٌ به ذاته تعالى،** فيكون العبادة مختصةٌ به كما يدل عليه آخر الآية، أعنى قوله تعالى ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعنى على الزام الحجة عليهم... قال القاضي فى سورة لقمان فى تفسير قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق الى غيره بحيث اضطرهم الى اذعانه**»[٢].

## اثنا عشر: قال جواد علي:

«ويظهر من القرآن الكريم، أن قريشاً كانوا **يؤمنون بإلهٍ واحدٍ خلق الكون**، وهو رب السماوات والأرض. ففي سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾...﴾ ففي هذه الآية ونحوها «أسئلة موجهة إلى المشركين عن خلق السماوات والأرض، وأجوبة على ألسنتهم **فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله**».

و«كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحدًا، وأنهم كانوا يتضرعون إليه ويستغيثون به في

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٢٩٤).
(٢) حاشية السيالكوتى على كتاب المطول (ص: ٢٤٨).

الكوارث والملمات، **وأنهم جعلوا له بناتًا**[1] **وبنين وشركاء الجن**»[2]. اهـ.

وبعد فهذه نصوص العلماء من السلف والخلف ممن قدَّر كلمة «وحده» في آيات الباب الثمانية، أو فهم أنها تدل على توحيدهم في الربوبية إن صح التعبير، وفيما يلي الجواب عنها بشكل مجمل أولاً ثم بشكل مفصلٍ ثانياً. وبالله التوفيق.

## أولاً: الجواب الإجمالي عن تلك النصوص

أنه بالرجوع إلى التفسير بالمأثور المروي عن الصحابة والتابعين وأتباعهم، لا نجد أحداً منهم نسب إلى المشركين كلمة «وحده» في مقام إقرارهم بالله، وإليك الآثار في ذلك:

**قال البخاري في صحيحه**: «وقال **عكرمة** ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾. و﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، **فذلك إيمانهم**، وهم يعبدون غيره»[3].

**قال الحافظ**: «وصله الطبري... **عن عكرمة** في قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، قال: يسألهم من خلقهم ومن خلق السماوات والأرض؟ **فيقولون الله**، فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره. ومن طريق يزيد بن الفضل **عن عكرمة** في هذه الآية... قال: هو قول الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فإذا سئلوا عن الله وعن صفته وصفوه بغير صفته **وجعلوا له ولدا وأشركوا به**.

(١) كذا وقع في «المفصل فى تاريخ العرب»، والصواب «بناتٍ» منصوب بالجر لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: ١٦]، جاء في الجدول في إعراب القرآن (٢٥/ ٧٢): مفعول به أوَّل منصوب **وعلامة النصب الكسرة ملحقٌ بجمع المؤنَّث**». اهـ.

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي (١١/ ١٠٣).

(٣) صحيح البخاري بتحقيق البغا (٦/ ٢٧٣٣).

وبأسانيد صحيحة عن عطاء وعن مجاهد نحوه، وبسندٍ حسنٍ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: من إيمانهم **إذا قيل لهم من خلق السماوات**، **وبسندٍ حسنٍ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس** قال: من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال **قالوا الله**، وهم به مشركون»[(١)]. اهـ.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾: تسألهم من خلقهم ومن خلق السماوات والأرض **فيقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره**»[(٢)].

فهل ترون في كل هذه الآثار الواردة عن السلف المفسِّرة لآيات الباب الثمانية، أو هل تجدون فيها كلمة «وحده» منسوبة للمشركين؟!! والسؤال هنا لماذا لم يتبع السلفية فهمَ السلف لهذه الآيات كلها؟!

## تنظير السلفية لوجوب اتباع فهم السلف وتنكبهم عن ذلك هنا

أليس مذهب السلفية كله قائم على وجوب اتباعِ فهمِ السلف للكتاب والسنة؟! وأنه «من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين»[(٣)]، «فلهذا كله يجب على كل ناظرٍ في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٩٤) وانظر أيضاً: تغليق التعليق على صحيح البخاري (٥/ ٣٦٠)

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٧/ ٢٢٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٧).

أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل»[1].

و«من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه»[2]، و«لا يكفي الاعتماد على القرآن والسنة دون منهج السلف المبين لهما في الفهم والتصور، والعلم والعمل..»[3].

و«الانحياز إلى جانب الصحابة... والتمسك بطريقتهم هو عين الفلاح وأساس النجاة»[4] لأن «السلف أعلم بتفسير القرآن، ولما كان السلف بالمنزلة التي وصفتُها من تمكنهم من العربية وهي لغة القرآن كان **فهمُهم له أرسخ** وإداركهم أعمق من غيرهم ممن جاء بعدهم.. **فما فهمه الصحابة والسلف من القرآن أولى** أن يصار إليه مما فهمه من بعدهم»[5].

ولكن أين هذا كله؟ أين تطبيقه؟ أم أن هذا كان فقط للمزايدة؟! أو بالأحرى كان لتفريق لمسلمين والتميز عنهم باتباع فهم السلف؟ فأين هذا الاتباع المزعوم؟!!

أنتم أوجبتم على أنفسكم وعلى العالَمين أجمعين اتباع فهْم السلف، وهو غير واجبٍ، بل غير متصوَّرٍ أصلاً إلا إن أجمعوا، فحينئذٍ يجب اتباعهم لأنهم أجمعوا لا لأنهم سلف، إذ الإجماع حجةٌ سواء صدر من السلف أو

(١) الموافقات للشاطبي (٣/ ٢٨٩)، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان حسن (ص ٥٢٤).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٦١).
(٣) المنهج السلفي عند الشيخ ناصر الدين الألباني (ص٢١ و٢٦ و٢٧)، تأليف: عمرو عبد المنعم سليم، دون بيان دار وتاريخ النشر.
(٤) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة لعثمان حسن (ص ٥٢٥).
(٥) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة (ص: ٥٠٨).

الخلف على الرأي الصحيح عند الأصوليين الذين قرروا أن «**إجماع غير الصحابة حجةٌ خلافاً لأهل الظاهر**»(١)، حيث قال داود: «إجماع غير الصحابة ليس بحجة»(٢)، «وما يدل على كونه حجة لا يوجب الاختصاص بشيء من هذا»(٣)، «ولأنه اتفاق علماء العصر على حكم النازلة فكان حجةً قياساً على اتفاق الصحابة»(٤).

وبغض النظر عن ذلك فأنتم أنفسكم الذين أوجبتم اتباع السلف وجعلتم هذا فيصلاً بينكم وبين غيركم من المسلمين يعني فرَّقتم المسلمين لأجل شيءٍ أنتم أنفسكم لم تلتزموا به!!! وأقرب مثال على ذلك هو أنكم لم تتبعوا فهمَ السلف لما نحن بصدده وهو آيات الباب الثمانية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ...﴾!!

وهذا يذكرنا بأهل الكتاب الذين ابتدعوا الرهبانية ثم لم يلتزموا بها كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، «أي: لم يرعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم»(٥).

فابن تيمية استنبط كلمة «وحده» وقدَّرها في آياتِ الباب الثمانية ليخرج بنتيجة، وهي أن المشركين يقولون بأن الله هو الخالق والرب وحده، ثم سمى هذا توحيد الربوبية وجعله قسيماً لشيءٍ آخر سماه توحيد الألوهية، ثم رتب على ذلك نتائج خطيرة من تكفير وتبديع وتفسيق بسبب مسائل التوسل والقبور، وكل هذا مبني على **فهمٍ شخصيٍّ لابن تيمية** لآيات الباب، وهذا

(١) المحصول للرازي (٤/ ١٩٩).
(٢) التبصرة في أصول الفقه (ص: ٣٥٩).
(٣) شرح التلويح على التوضيح (٢/ ٩٢).
(٤) التبصرة في أصول الفقه (ص: ٣٥٩).
(٥) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢١٤).

الفهم لا يدل عليه منطوق آيات الباب ولا هو فهم السلف، **أي ابن تيمية لا هو اتبع منطوق القرآن، ولا اتَّبع فهمَ السلف لهذه الآيات!!** فلا جرم أن نظرية تقسيم التوحيد هي **نظريةٌ تيميةٌ بحتة!!!**

## كلمة «وحده».. لا نجدها في تفسير آيات الباب الثمانية عند أهل التفسير بالمأثور، ومعظم المفسرين بالرأي

تعالوا لننظر في كتب التفسير بنوعيها التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأي لنرى ماذا فهم أولئك المفسرون من آيات الباب الثمانية؟ هل فهموا ما فهمه ابن تيمية؟! هل قدروا كلمة «وحده» التي قدرها؟! هل أحد فعل ذلك؟! طبعاً سوى من ذكرنا نصوصهم والتي سيأتي الجواب عنها بإذن الله.

## نصوص المفسرين بالمأثور لآيات الباب الثمانية

إننا إذا استقرأنا كتب التفسير بالمأثور لا نجد تقدير كلمة «وحده» حين يوردون الأقوال المأثورة عن السلف في تفسير آيات الباب الثمانية، وإليك نصوصهم:

١) قال الطبري عند قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]: «ليقولن: **الذي خلق ذلك وفعله الله**»[(١)]. اهـ.

٢) وقال الطبري في تفسيره عند قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٣٨).

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣]: «ليقولن: الذي فعل ذلك الله الذي له عبادة كل شيء»(١). اهـ.

٣) وقال الطبري عند قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: ٣٨]: «ليقولن: الذي خلقهن الله»(٢). اهـ.

٤) وقال الطبري عند قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]: «ليقولن: خلقهن العزيز في سلطانه وانتقامه من أعدائه، العليم بهن وما فيهن من الأشياء، لا يخفى عليه شيء»(٣). اهـ.

٥) وقال الطبري في قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]: «ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك: من خلقهم؟ ليقولن: الله خلقنا»(٤). اهـ.

٦) وقال الطبري عند قوله ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: ٣١]: «فسوف يجيبونك بأن يقولوا الذي يفعل ذلك كله الله»(٥). اهـ.

٧) وقال الطبري: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٥]: «الحمد لله الذي خلق ذلك، لا لمن لا يخلق شيئاً»(٦). اهـ.

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٤٣٩).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ٢١١).
(٣) جامع البيان (٢٠/ ٥٥٣).
(٤) جامع البيان (٢٠/ ٦٦٣).
(٥) جامع البيان (١٢/ ١٧٦).
(٦) جامع البيان (١٨/ ٥٧٠).

٨) وقال الطبري: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]: «قل يا محمد **لهؤلاء المكذبين بالآخرة** من قومك: لمن ملك الأرض ومن فيها من الخلق إن كنتم تعلمون من مالكها؟ ثم أعلمه أنهم **سيقرون بأنها لله ملكا، دون سائر الأشياء غيره**.. قل لهم يا محمد: من رب السماوات السبع.. سيقولون: **ذلك كله لله، وهو ربه**.... قل يا محمد: من بيده خزائن كل شيء؟.. **فإنهم يقولون: إن ملكوت كل شيء، والقدرة على الأشياء كلها لله**.. فقل لهم يا محمد: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ يقول: فمن أي وجه تصرفون عن التصديق بآيات الله... **والإيمان بأن الله القادر على كل ما يشاء وعلى بعثكم أحياء بعد مماتكم**، مع علمكم بما تقولون من **عظيم سلطانه وقدرته**؟»(١). اهـ.

**وقال البغوي** عند قوله: «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذه الأشياء.. ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم»(٢). اهـ. **وقال البغوي**: «قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: **خالقهما ومدبرهما** [**فسيقولون الله**] **لأنهم يقرُّون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض**.. ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: **إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السموات والأرض**»(٣).. اهـ.

**وقال السمعاني**: «﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مَعْنَاهُ: قل يَا مُحَمَّد: من رب السَّمَوَات وَالْأَرْض؟ ثمَّ أمره بالإجابة، وَقَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.. وَإِنَّمَا صحت هَذِه الْإِجَابَة مَعهم؛ **لأنهم كَانُوا يقرونَ أَن الله خالقهم وخالق السَّمَوَات وَالْأَرْض**. وَقَوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ مَعْنَاهُ: **أَنكُمْ مَعَ إقراركم أَن الله**

(١) جامع البيان (١٧/ ٩٨).
(٢) تفسير البغوي (٤/ ١٣٢).
(٣) تفسير البغوي (٤/ ٣٠٧).

**خالقكم وخالق السَّمَوَات وَالْأَرْض** اتخذتم من دونه أَوْلِيَاء يَعْنِي: الْأَصْنَام»[1]. اهـ.

**وقال ابن أبي زمنين**: «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وأنتم **تقرون بالله عز وجل** أنه هو الذي يفعل هذه الأشياء، ثم لا تتقونه وتعبدون هذه الأوثان من دونه»[2]**!**

**وقال ابن الجوزي**: «قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ يعني كفار مكة، وكانوا **يقرُّون بأنه الخالق والرازق**. . .بل أكثرهم لا يعقلون توحيد الله **مع إقرارهم بأنه الخالق** والمراد بالأكثر الجميع»[3]. اهـ.

وقال **الحافظ الذهبي**: «المشركون والكتابيون وغيرهم عرفوا الله تعالى بمعنى أنهم لم يجحدوه، وعرفوا أنه خالقهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ وقال: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، **فهؤلاء لم ينكروا البارئ، ولا حجدوا الصانع، بل عرفوه**، وإنما جهلوا نعوته المقدسة، وقالوا عليه ما لا يعلمون»[4].

فكما ترى ليس فيما سبق من نصوص المفسرين بالمأثور كلمة «وحده» في تفسيرهم لآيات الباب الثمانية، **وكذا الأمر عند أصحاب التفسير بالرأي** كالسمرقندي[5] والواحدي[6] . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٨٦).
(٢) تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٢٥٥).
(٣) زاد المسير (٦/ ٢٨٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤٧).
(٥) تفسير السمرقندي «بحر العلوم» (٢/ ٦٤٠)، (٣/ ٢٨)، (٣/ ١٨٧)، (٣/ ٢٥٢)، (٣/ ٢٦٦).
(٦) التفسير البسيط (٢/ ٢١٩)، و(١٢/ ٣٢٩)، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي، حُقق في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.

والزمخشري[١] والرازي[٢] والبيضاوي[٣] وأبي السعود[٤]، وغيرهم.

**سرد كلام الفقهاء في آيات الباب الثمانية وأنه لم يفهم منها أحدٌ أن المشركين موحِّدون في الربوبية:**

**إن الفقهاء استشهدوا بآيات الباب الثمانية** حينما تكلموا عن بعض المسائل الفقهية كالأيمان وغيرها، وإليك نصوصهم:

١) **وقال الكاساني**: وإن كان الحالف كافراً فإنه يحلف بالله عز وجل أيضاً ذمياً كان أو مشركاً **لأن المشركين لا ينكرون الصانع، قال الله تبارك وتعالى** جل شأنه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾»[٥].

٢) **قال السرخسي في شرح السير**: «**وعبدة الأوثان كانوا يقرون بالله تعالى**. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، **ولكن كانوا لا يقرون بالوحدانية** قال الله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وقال فيما أخبر عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾»[٦]. اهـ.

٣) **وقال السرخسي في المبسوط**: «وغير هؤلاء من أهل **الشرك يحلفون بالله فإنهم يعظمون الله تعالى** كما قال عز وجل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وإنما يعبدون الأصنام تقرباً إلى الله تعالى بزعمهم قال الله تعالى

(١) تفسير الكشاف مع حاشية الطيبي (٢/ ٢٩٢) (١٠/ ٣١٥) (١٣/ ٢٧٥) (١٤/ ١١٠).
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٤/ ٢٢٦)، طبعة دار الفكر.
(٣) تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٤/ ١٩٩) (٤/ ١٩٨) تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٤٦)، (٧/ ٧٥)، (٧/ ٢٥٦)، (٨/ ٤٠).
(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٦/ ٢٢٧).
(٦) شرح السير الكبير للسرخسي (١/ ١٥٠).

﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فيمتنعون من الحلف بالله كاذباً[١]، ويحصل به المقصود وهو النكول»[٢]. اهـ.

٤) **وقال ابن عادل الحنبلي**: «والوثني لا يحلف إلا بالله تعالى؛ **لأن الكفرة بأسرهم يعتقدون الله**، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾»[٣]. اهـ.

وكذا في كتب فقهاء الحنفية الأخرى حيث نصوا في الأيمان على أن الكفرة يُحلَّفون بالله مستشهدين بآيات الباب «ولئن سألتهم من..» ولم يقل أولئك الفقهاء بأنهم يؤمنون بالله وحده[٤]، بل بعضهم نصَّ على أنهم يؤمنون به ولكن يشركون به غيره. كما قال السرخسي فيما سبق.

ونحوه قول **الزيلعي** - وغيره -: «والوثني وهو الذي يعبد غير الله تعالى **يعتقد أن الله خالقه**، وإنما يشرك مع الله تعالى غيره، قال الله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]»[٥].

**وجاء في بحر المذهب للروياني** الشافعي: «... ما من مشركٍ وإن خلا في شركه إلا **وهو عند رجوعه إلى نفسه يعترف بخالق خلقه وإن كان**

(١) كذا في المطبوع، والصواب كما هو ظاهر «كذبا»، والله أعلم.
(٢) المبسوط للسرخسي (١٦/ ١٢٠)، دار المعرفة.
(٣) اللباب في شرح الكتاب (٤/ ٤١).
(٤) انظر: المبسوط للسرخسي (١٦/ ١٢٠)، الاختيار لتعليل المختار (٢/ ١١٤)، الهداية في شرح بداية المبتدي (٣/ ١٥٩)، العناية شرح الهداية (٨/ ١٩٧)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق ومنحة الخالق وتكملة الطوري (٧/ ٢١٤)، البناية شرح الهداية (٩/ ٣٤٤)، المحيط البرهاني في الفقه النعماني (٨/ ١٦٢)، وكذا في ملتقى الأبحر (ص: ٣٥٦).
(٥) انظر: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي (٤/ ٣٠٢)، وكذا في قره عين الأخيار لتكملة رد المحتار على الدر المختار (٨/ ٦٨)، عمدة الرعاية بتحشية شرح الوقاية (٨/ ١٣٠)

**معانداً بلسانه**. . وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. . . في آيات كثيرة»[1]. اهـ.

**فهذه نصوص المفسرين والفقهاء قاطبة** هل تجدون فيها عن علماء السلف والخلف من فهم من آيات الباب ما فهمه ابن تيمية وأتباعه أن المشركين أقروا فيها بالربوبية والخالقية لله وحده لا شريك له؟!!! لا أحدَ منهم فهِم ذلك، وإنما غاية ما فهموه هو أن المشركين بالله يعترفون به خالقاً، لا أنهم اعترفوا أنه **الخالق الأوحد** كما ادعى ابن تيمية وأتباعه!!

## نصوص ابن تيمية في أن المشركين يعرفون الله، دون أن يتعرض لكونهم موحدين في الربوبية

والعجيب أن هذا الذي نص عليه المفسرون والفقهاء نص عليه أيضاً ابن تيمية نفسه في بعض المواضع، حيث ذكر أن المشركين كانوا مؤمنين بالله وبربوبيته مستدلاً على ذلك بآيات الباب، دون أن يستنبط منها أنهم مؤمنون بأن الله **وحده** هو الخالق، أي لم يتعرض لكونهم مقرين بتوحيد الربوبية، وإليك طائفة من نصوصه في ذلك:

١) «**وقد أخبر عن الكفار أنهم يعرفونه** مع ردهم على رسله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. . وذلك موجود منهم ضرورة **وهم في الجاهلية يعرفونه ولا ينكرونه**، ويقولون: **إلهنا القديم والعتيق وإله الآلهة ورب الأرباب** وغير ذلك مع كفرهم»[2].

(١) بحر المذهب للروياني (١٠/ ٣٣٩).
(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥٠٩)، وانظر: (٧/ ٤٥٨).

٢) وقال ابن تيمية نقلا عن ابن رشد: «فإن العرب كلها كانت **تعترف بوجود الباري** سبحانه وتعالى»[(١)].

٣) وقال: «**فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم** ورازقهم وهم يعبدون غيره»[(٢)].

٤) وقال: «**وأما الربوبية فكانوا مقرين** بها قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾»[(٣)].

**فأنت ترى أن** ابن تيمية لم يأت في هذه النصوص على ذكر توحيد الربوبية **ولا زجَّ بكلمة** «وحده» في هذه النصوص الأربعة السابقة، **فوافق بذلك المفسرين والفقهاء وظاهر آيات الباب**، بل ابن تيمية أشار بل صرح بأنهم أشركوا في الربوبية وأن بعض العرب أنكر الرب وجحد الصانع كما سبق[(٤)]**!!**

## ثانياً: الجواب التفصيلي عن تقدير بعض السلف لكلمة «وحده» ونحوها في آيات الباب:

أجيبُ هنا بشكل مفصل عن ما روي عن بعض المفسرين من السلف في تقدير كلمة وحده في آيات الباب الثمانية، مثل ما روي عن ابن عباس ومقاتل بن سليمان.

### أولاً: الجواب عما روي عن ابن عباس

وهما روايتان عنه كما سبق، وفيما يلي الجواب عليهما:

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٧٠)، وانظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٤٢).
(٢) الفتاوى الكبرى (٥/ ١٦١).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٩١)، وانظر: القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٦٥).
(٤) انظر (ص: ٥٩).

**الرواية الأولى: «أهل مكة قالوا: «الله ربنا وحده لا شريك له، والملائكة بناته»**

**فهذه روايةٌ لا أصل لها**، ولا ذِكر لها أصلاً في كتب التفسير بالمأثور، وإنما ذُكرت في بعض كتب التفسير بالرأي للمتأخرين دون سندٍ ولا تخريج، وأول من وردت فيه - على حد علمي - هو تفسير الواحدي (**ت ٤٦٨هـ**)[١]، ثم تفسير الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)[٢]، ثم تبعه الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ) في تفسيره[٣]، وذكرها أيضاً بعض من تأخر عنه مثل صاحب تفسير مراح[٤] وغيره[٥].

هذا فضلاً عن أنه يردها قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] إذ هذا يدل على أن المشركين يرفضون قول ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وإلا لما أخرجوا المؤمنين لقولهم هذا كما بسطناه سابقا.

**ثم على فرض صحتها فلا دلالة فيها** على أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية مشركين في الألوهية، ولا فيها هذا التقسيم للتوحيد، وبيان ذلك من وجوه:

**الأول**: أن ابن عباس عقَّب على قول مشركي أهل مكة: «الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته» بقوله «**فلم يوحِّدوا**، بل أشركوا»، وهذا صريحٌ في أنه لم يعتبر قولهم هذا توحيداً لا في الربوبية ولا في الألوهية ولا ذَكر هذا

---

(١) التفسير البسيط (١٢/ ٢٦١).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٨/ ٢٢٨).

(٣) السراج المنير للخطيب الشربيني (٢/ ١٤١).

(٤) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي (١/ ٥٥٠).

(٥) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين الأرمي العلوي الهرري الشافعي (١٤/ ١٣٤).

التقسيم أصلاً، وإنما أطلق القول بأنهم لم يوحِّدوا بل أشركوا، وذلك لقولهم «الملائكة بناته» الذي اعتبره نقضاً لقولهم الأول وهو «الله ربنا وحده لا شريك له...»، وهذا ما نقوله أصلاً، وهو أن نسبتهم الولد إلى الله نقضٌ لتوحيدهم في الربوبية إن سَلَّمنا جدلاً بأنهم كانوا مقرِّين به، كما بسطناه في كتابنا الكبير.

**الثاني**: أن قول المشركين في هذه الرواية «**الله ربنا وحده لا شريك له، والملائكة بناته**» قولٌ مضطربٌ ينقضُ أولُه آخرَه، فكيف يكون الله واحداً لا شريك له، وفي الوقت نفسه تكون الملائكة بناته؟! فهل هذا توحيد؟!! وهل قول النصارى بأن «**الله ربهم، والمسيح ابنه**»: توحيدٌ؟!!!

## قول المهاجرين والأنصار.. في ردهم على المشركين: «ربنا الله وحده لا شريك له».. يبطل تقسيم التوحيد

**الثالث**: أنها وإن دلت على أن المشركين قالوا بأن الله ربنا وحده، فإنها تفيد أيضاً أن توحيد الربوبية والألوهية شيءٌ واحد، لأن فيها: «وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده. وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده لا شريك له»، فقول المهاجرين والأنصار: «ربنا الله وحده لا شريك له» هو ردٌّ على عبدة الأصنام، ولكن هذا الرد لا يصلح بناءً على نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد، لأن عبارة المهاجرين والأنصار: «ربنا الله وحده لا شريك له» هي تعبير - عند ابن تيمية وأتباعه - عن توحيد الربوبية، والمشركون لا ينكرون هذا التوحيد ولا هذه العبارة «ربنا الله وحده لا شريك له» حسب نظرية ابن تيمية، بل المشركون عنده كانوا يقولون هذا وزيادة «**فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه**

**لا يرزق إلا هو**، ولا يحيي ولا يميت **إلا هو**، ولا يدبر الأمر **إلا هو**»[1]. اهـ.

وبالتالي فإنَّ ردَّ المهاجرين والأنصار على عبدة الأصنام بعبارة «ربنا الله وحده لا شريك له» لا يصلح لأن المشركين لا ينكرون ذلك، وإنما كان يجب أن يردوا عليهم بقول: لا إله إلا الله، فهذا هو الذي ينكره المشركون وهو المسمى - عند ابن تيمية - بتوحيد الألوهية، ولكن رد المهاجرين والأنصار بعبارة «ربنا الله وحده لا شريك له» يبيِّن أنه لا فرق عندهم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهذا عكس نظرية تقسيم التوحيد ابن تيمية، لأنها قائمة على وجوب هذا التقسيم، والإنكار الشديد على من يمتنع عنه!

هذا فضلاً عن أنَّ قوله في هذه الرواية: «وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده، وهؤلاء **أربابنا**» يدل على أن عبدة الشمس والقمر يتخذونهما أرباباً، فإذن هم مشركون في الربوبية، وهذا يُبطل إحدى مقدمات تقسيم التوحيد وهي أن توحيد الربوبية «لم ينكره أحد من بني آدم»[2] «مؤمنهم وكافرهم وسائر فرقهم»[3] فجميع «الإنس والجن مقرون بالخالق معترفون به»[4].

**الرواية الثانية: قول ابن عباس «فكيف يكذِّبون بتوحيدي»**

سبق أنه قد نقل الواحدي **عن ابن عباس** أنه قال في قوله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: «فكيف يكذبون بتوحيدي»، ونجيب عنها - مع أنه لا شاهد فيها كما أشرنا سابقاً - بما يلي:

**أولاً**: إن هذه الرواية وإن نقلها الواحدي عن ابن عباس ولكن لا تصح،

---

(١) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤).

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٤٩)

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية - (٨/ ٥٠٨)

(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٤٧٩).

وليست في كتب التفسير بالمأثور أصلاً، ومحقِّق تفسير الواحدي عزاها إلى تفسير ابن أبي حاتم، وبالرجوع إلى تفسيره نجد أنه لا ذكر للتوحيد في كلامه، حيث جاء في تفسير ابن أبي حاتم: «عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، قال: كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يكذبون»[1]. اهـ.

**ثانياً**: على التسليم بصحتها فلا حجة فيها، إذ ليس فيها أن ابن عباس فسَّر الآية بنسبة التوحيد للمشركين، بل على العكس نسب إليهم التكذيب بالتوحيد فقال «فكيف يكذبون بتوحيدي»، كما أنه ذَكر التوحيد مطلقاً دون تحديدٍ لأيِّ قسم من أقسام التوحيد يقصد، هل يقصد ابن عباس أن المشركين يكذِّبون بتوحيد الربوبية؟ أم يكذِّبون بتوحيد الألوهية؟ أم يكذِّبون بكليها؟

والحاصل أنه لا صحة لكلا الروايتين عن ابن عباس، الرواية الأولى: «وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده»، والرواية الثانية «فكيف يكذبون بتوحيدي»، وإن صحتا فلا حجة فيهما لما سبق بيانه.

**ثانياً: الجواب عن قول مقاتل بن سليمان**

ما قاله مقاتل بن سليمان في آيتي العنكبوت و«الزخرف» لا حجة فيه، إذ لم ينسب مقاتل المشركين في كلا الموضعين إلى التوحيد بل نسبهم في كلا الموضعين إلى التكذيب بالتوحيد، فقال في العنكبوت «**من أين تكذبون** يعني بتوحيدي»، وقال في «الزخرف»: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: «من **أين يكذبون بأنه واحد لا شريك له**».

**فإن قلتم**: هو كذَّبهم في توحيد العبادة أو الألوهية بدليل قوله «**فكيف تعبدون غيره**»، لا في توحيد الخالقية والربوبية لقوله: «وأنتم مقرون أن الله خالق الأشياء وخلقكم، **ولم يشاركه أحد في ملكه فيما خلق**»، فعبارة مقاتل

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧٩).

بتمامها في «الزخرف» كما سبق هي: «من أين يكذبون بأنه واحد لا شريك له، وأنتم مقرون أن الله خالق الأشياء وخلقكم، ولم يشاركه أحد في ملكه فيما خلق؟ فكيف تعبدون غيره».

**قلنا: أولاً**: لا يوجد في كلام مقاتل تقسيم التوحيد إلى توحيد ربوبية أو خالقية، وإلى توحيد عبادة أو ألوهية، أو نحو ذلك من التسميات التي اصطلحتم عليها، ولا ذَكر أن المشركين مقرُّون بالأول مكذِّبون بالثاني، بل ذكر أن المشركين مكذِّبون بالتوحيد مطلقاً، قال في العنكبوت: «من أين تكذبون يعني **بتوحيدي**»، وقال في «الزخرف»: «من **أين يكذبون بأنه واحد لا شريك له**».

**ثانياً**: قوله «فكيف تعبدون غيره» هل يراد به أنهم عبدوا غيره بعد أن نسبوا إلى معبوداتهم الخلق والتأثير والنفع والضر، أم بدون ذلك؟

أما الأول فمسلَّم، وأما الثاني فهو محل النزاع، وستأتي الأدلة على أنهم ما عبدوا آلهتهم إلا بعد أن نسبوا لها التأثير والضر والنفع.

**ثالثاً**: على التسليم بأن مقاتلا يشير كلامه إلى تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية وأن المشركين مقرّون بالأول دون الثاني، فهو رأي له لا تدل عليه آيات الباب الثمانية كما سبق مطولا، ولا نقله عن أحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ولو نقله عنهم لما قُبل لأنه مقدوح فيه بشدة، وإليك بعض الأقوال[1] في مقاتل بن سليمان هذا:

١) قال ابن المبارك - وأحسن[2] -: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة**!**».

٢) قال وكيع: «**كان كذاباً**».

---

(١) وانظر المزيد في ميزان الاعتدال (٤/ ١٧٣).

(٢) هذه من كلام الذهبي في السير.

٣) وعن أبي حنيفة قال: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبه».

٤) قال البخاري: «مقاتل لا شيء البتة».

٥) قال الذهبي بعد أن نقل هذه الأقوال وغيرها: «أجمعوا على تركه»(١).

٦) وقال ابن تيمية: «وأما الكلبي والسدي الصغير فمتروكان، وكذلك مقاتل بن سليمان بخلاف مقاتل بن حيان فإنه ثقة»(٢). اهـ.

٧) وقد لخَّص القول فيه الحافظ في التقريب فقال عنه: «كذّبوه وهجروه ورمي بالتجسيم»(٣). اهـ.

**فرجلٌ فيه هذه البدع والطعون الشديدة لا يُفرح بأن يكون سلفا له في تقسيم التوحيد ولا في غير ذلك.**

## الجواب عن باقي نصوص المفسرين والعلماء الذين قدَّروا كلمة وحده في آيات الباب

نُجيب هنا عن النصوص الأخرى لكل من: الطبري، والنسفي، والغزناطي، والواحدي، وابن كثير، والبقاعي، إضافةً إلى قول المؤرخ جواد علي، رحم الله الجميع.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠٢)، وفي الكامل لابن عدي (٨/ ١٨٥): «قال البخاري مقاتل بن سليمان خراساني منكر الحديث سكتوا عنه.. ثم نقل عن يحيى بن معين، قال: مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشيء. وقال السعدي: مقاتل بن سليمان كان دجالاً جَسوراً». اهـ

(٢) الرد على البكري (١/ ٧٤)، وانظر: شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في علوم الحديث (١/ ٦٠٤) د. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات لمحمد بن عبد الرحمن المغراوي (ص: ٢٩٧).

(٣) انظر تقريب التهذيب لابن حجر (ص: ٩٦٨)، تحقيق أبي الأشبال الباكستاني، دار العاصمة، وانظر التقريب بتحقيق الشيخ محمد عوامة ص ٥٤٥.

# إنصاف علمائنا مع خصومهم

وقبل أن أجيب عما سبق تجدر الإشارة إلى أن كثيراً من هذه النصوص لم أجدها في كتب ابن تيمية وأتباعه، وإنما وجدتها خلال بحثي فآثرت أن أوردها وإن كانت هي في ظاهرها حجة للقوم، وإنما فعلت ذلك إنصافاً لهم ولئلا أكتم علماً أو حجةً لهم قط كما علَّمنا علماؤنا!!

فلقد دأب أئمتنا على سلوك هذا النهج مع خصومهم حتى «تعرض الفخر الرازي لانتقادات شديدة من العلماء. لأنه **أفرط في تقرير شبهات الخصوم ومذاهبهم**، وبالغ في شرح عقائدهم وأفكارهم بشكل يعجز عنه خصومه أنفسهم»[(١)].

ومن قبله قال الإمام الغزالي «فجمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيباً محكماً للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق عليَّ **مبالغتي في تقرير حجتهم**، وقالوا هذا سعي لهم، فإنهم كانوا **يعجزون عن نصرة مذهبهم** بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها وهذا الإنكار من وجه حق»[(٢)]. اهـ.

والآن أجيب - بحول الله - عن تلك النصوص بشكل مجمل ومفصَّل:

**أولاً: الجواب المجمل**

أما الجواب المجمل فمن وجهين:

**الأول**: أن قول هؤلاء المفسرين معارَضٌ بنصوص جمهور المفسرين

---

(١) العلمانيون والقرآن الكريم ص٤٨٩، د. أحمد الطعان، مكتبة ودار ابن حزم بالرياض، ط١، ٢٠٠٧.

(٢) انظر: المنقذ من الضلال للغزالي (ص: ٥٧)، المكتبة الشعبية، بيروت.

الآخرين من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم الدليل كما سبق بيانه، لأن تقدير كلمة «وحده» يخالف منطوق ست آيات في القرآن سبق سردها.

**الثاني**: لو أن كل المفسرين - وليس هؤلاء الذين سبق ذكرهم فحسب - والعلماء أجمعين أكتعين أبصعين قدَّروا كلمة «وحده» هنا **لوجب على ابن تيمية وأتباعه بالذات ألا يقدِّروها، وذلك لثلاثة أسباب**:

## أولاً: تقدير ابن تيمية لكلمة وحده يخالف مذهبه في إنكار المجاز

**السبب الأول**: أن التقدير هو نوعٌ من أنواع المجاز وهو مجاز الحذف، وابن تيمية وأتباعه منكرون أشد الإنكار كما سبق[1]، وأما هؤلاء العلماء - أي الطبري والواحدي والرازي وغيرهم - فقائلون بالمجاز فلا حرج عليهم في التقدير، لأنهم منسجمون مع مذهبهم في جواز المجاز، وأما ابن تيمية الذي يعتبر تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز بدعة، بل يعتبر ابنُ القيم المجاز طاغوتا كما سبق[2]، فبأي حق يستخدمون المجاز بعد ذلك؟!!

**السبب الثاني**: أنكم منكرون للتقليد بل قلتم بأنه «لا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد»[3]، والحجة عندكم في الدليل ولا في قول زيد أو عبيد مهما كان قدره لأن «النصوص الشرعية قد أتت بوجوب عرض كلام العلماء على الكتاب والسنة **فما وافقهما قبلناه وما عارضهما رددناه**، فإن أقوال الرجال يحتج لها **ولا يحتج بها**، وقد ضُمِنت لنا العصمة في الكتاب

(١) انظر (ص: ٢٥١).
(٢) انظر (ص: ٢٥١).
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٣٩) نقلاً عن ابن وهب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩١م.

والسنة ولم تضمن لنا في أقوال العلماء»[1]. «وليس لأحدٍ أن يحتج بقول أحدٍ في مسائل النزاع **وإنما الحجة النص والإجماع**، ودليلٌ مستنبطٌ من ذلك تُقرر مقدماته بالأدلة الشرعية لا بأقوال بعض العلماء؛ فإن أقوال العلماء **يُحتج لها بالأدلة الشرعية، لا يُحتج بها** على الأدلة الشرعية»[2].

لا سيما وأن الأئمة أنفسهم قد نهوا الناسَ عن تقليدهم، وأمروهم باتباع الدليل، فمن ذلك أن أبا حنيفة قد «روى عنه أصحابه أقوالاً شتى وعباراتٍ متنوعة كلها تؤدي إلى شيء واحدٍ، وهو وجوب الأخذ بالحديث وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة لها - من ذلك -: «إذا صح الحديث فهو مذهبي». . «لا يحل لأحدٍ أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه». . «إذا قلتُ قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولي»»[3].

ومنهم أبو يوسف حيث قال: «لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم **من أين قلنا**»[4].

ومنهم مالك بن أنس رحمه الله حيث قال: «إنما أنا بشرٌ أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، **وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه**»[5].

ومنهم قول الشافعي: «مثل الذي **يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب**

(١) الأصول الشرعية في التوحيد والشرك، والسنة والبدعة، والتاريخ والصحابة، والدعوة والمنهج، والكفار والجهاد (ص: ٨٤)، ناصر بن حمد بن حمين الفهد. تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين (ص: ٢٠)، منقذ بن محمود السقار، الناشر: رابطة العالم الإسلامي.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٠٢).

(٣) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: ٤٦).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٤٠).

(٥) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: ٤٨).

**ليل**، يحمل حزمة حطب **وفيه أفعى تلدغه** وهو لا يدري»، ذكره البيهقي[١].

ومنهم الإمام أحمد حيث قال مثلا: «لا تقلدني ولا تقلد مالكاً، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، **وخذ من حيث أخذوا**»[٢].

وبعد فتلك «هي أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في **الأمر بالتمسك بالحديث وبالدليل بشكل عام**، والنهي عن تقليدهم دون بصيرة، وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلا ولا تأويلا»[٣].

**قال وليد** - جعله الله هادياً مهدياً -: وإذا كان الأمر كذلك وأن الحديث إذا صح فيجب الأخذ به وترك قول من خالفه كائناً من كان فما بالك إذا كان ذلك القول يخالف ست آيات صريحة من القرآن كما هنا، حيث إن استنباط أو تقدير كلمة «وحده» في آيات الباب يخالف منطوقَ الآيات الست الصريحة السابقة التي أنكر فيها المشركون اقتران كلمة «وحده» بالله كما سبق بيانه[٤].

## إفراط السلفية وتشددهم في شروط شهادة التوحيد مع المسلمين وتفريطهم فيها مع المشركين

**السبب الثالث** وهو الأهم: أنكم تشددتم جداً في شروط التوحيد على المسلمين، فاشترطتم عليهم سبعة شروط لتقبلوا منهم شهادة التوحيد «لا إله

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٣٩)

(٢) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: ٥٣)، إعلام الموقعين (٢/ ١٣٩)

(٣) صفة صلاة النبي ﷺ للألباني (ص: ٥٣)، مكتبة المعارف الرياض. وانظر أيضاً: كشف شبهات الصوفية (ص: ١٨)، شحاتة محمد صقر، مكتبة دار العلوم، البحيرة (مصر)، هي السلفية نسبة وعقيدة ومنهجا (٢/ ٧٩)، محمَّد إبراهيم شقرة، ط٢، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٤) انظر (ص: ٢٥٥).

إلا الله»!! وهذه الشروط يطول شرحها عند السلفية، ولذا لهم في ذلك أبحاث وتصانيف لبسطها[1].

## شروط كلمة التوحيد السبعة أو الثمانية عند السلفية

وقد نظمها الحكمي منهم بقوله:

**وبشروط سبعة قد قيدت ... وفي نصوص الوحي حقا وردت**

**فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها**

**العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادرِ ما أقول**

**والصدق والإخلاص والمحبه ... وفقك الله لما أحبه[2]**

وقوله: ««لم ينتفع قائلها» أي: قائل لا إله إلا الله، «بالنطق» أي: بنطقه بها مجرداً، «إلا حيث يستكملها» أي: هذه الشروط السبعة، ومعنى استكمالها اجتماعها في العبد والتزامه إياها بدون مناقضةٍ منه لشيء منها.. وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم **وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها**»[3]. اهـ.

ثم أضاف أحدهم شرطا آخر فقال: «ويمكننا أن نضيف إلى هذه الشروط السابقة السبعة **شرطًا ثامنًا**: ألا وهو الكفر بما يُعْبَد من دون الله»[4]،

---

(١) من ذلك بحث بعنوان «شروط لا إله إلا الله»، د. عواد المعتق، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العددان (١٠١، ١٠٢)، ١٤١٤-١٤١٥هـ..

(٢) معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٣٢).

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول (٢/ ٤١٨).

(٤) كذا قال صبري شاهين محقق كتاب التوحيد لابن رجب (ص: ٤٠)، دار القاسم بالرياض، ١٤١٥هـ.

«**فلا يكفي التلفظ بـ لا إله إلا الله** دون علم لمعناها وعمل بمقتضاها والكفر بما يعبد من دون الله، **ولا بد من تحقيق الشروط** السبعة أو الثمانية»[(١)].

«فكل من قال لا إله إلا الله **ولم يعلم معناها** أو حَرَّفَ المعنى أو أثبت المعنى مع اللفظ، **ولكنه لم يعمل بمقتضاها**، أو أثبت المعنى مع اللفظ وعمل بمقتضاها ولم يكفر بما يعبد من دون الله **فليس بمسلم**، **لا تنفعه** لا إله إلا الله»[(٢)]. «لأن المقصود هو اعتقاد معنى هذه الكلمة والعمل بمقتضاها، **أما مجرد حروف ولفظ** يكرر فهذا ليس المراد»[(٣)].

و«**التوحيد له ركنان: النفي والإثبات**؛ فمن لم يكفر بالطاغوت، ولم يبرأ من الشرك، فتوحيده باطل فاسد، وأعماله كلها - حتى إقراره بـ «لا إله إلا الله» - وغير ذلك من **العبادات حابطة**»[(٤)].

ولذا فإن «**إقرار القبورية بـ «لا إله إلا الله»**، وتصديقهم برسول الله ﷺ ونحو ذلك من العبادات، **لا يجديهم ولا ينفعهم**.. مع إظهار الأعمال الشركية الدالة على عقيدة الشرك.. وذلك كمن يقول: إني مصدق بما ذكر، ثم شد الزنار»[(٥)].

بل من «يقول: «لا إله إلا الله»، **ولكن لا يفهم معناها**، ولا يعمل به **فهو كمثل الحمار** يحمل أسفاراً»[(٦)]. و«جهال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله

(١) شرح كشف الشبهات للحازمي (٧/ ٢١، ت.ش).
(٢) شرح كشف الشبهات للحازمي (٨/ ٥، ت.ش).
(٣) شرح كشف الشبهات للحازمي (٩/ ١٢، ت.ش).
(٤) جهود علماء الحنفية (١/ ٣٤٤).
(٥) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ٣٠٦).
(٦) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ١٦٥).

إلا الله»[1] لأن «الكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو (إفراد الله تعالى) بالتعلق و(الكفر) بما يعبد من دونه والبراءة منه. . . فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة، **بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني**»[2]. و«هذا رجلُ سُوءٍ لا خير فيه. . . إذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة وأضرابه **أعلم منه بمعناها**»[3].

و«**إذا كان لا يدري معنى هذه الكلمة**. . نقول: هذا لا تنفعه لا إله إلا الله **لأن المنافقين**. . . علموا المعنى وتلفظوا بها ومع ذلك ما نفعتهم، بل يَظُنُّ أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، هذا صنف ثاني. الأول: **تلفظوا بها ولم يعرفوا معناها ما نفعتهم**. الصنف الثاني: ظن أن التوحيد هو **مجرد التلفظ** فحسب»[4].

وهذا باطل «بحديث: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة». فهذا الحديث صريحٌ في أنه **لا يكفي مجرد التلفظ** بكلمة التوحيد **دون فهم معناها** والاعتقاد بها من عمق القلب. . . وليس المراد قولها باللسان فقط، **مع الجهل بمعناها**. . . ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب والإذعان لها. . . »[5].

---

(١) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: ١٧).

(٢) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: ١٦).

(٣) شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: ٣٩).

(٤) شرح كشف الشبهات للحازمي (٧/ ١٨، ت.ش).

(٥) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ١٦٤).

## أنتم لم تشترطوا على المشركين حتى التلفظ بالتوحيد في الربوبية وإنما تبرعتم لهم بذلك

**قال وليد - عفى الله عنه -:** حاصل النصوص السابقة أنه لا يكفي عندكم التلفظ بكلمة الشهادة ما لم يأت بشروطها السبعة أو الثمانية، ولكنكم لم تشترطوا أيَّ شرطٍ على المشركين لتشهدوا لهم بالتوحيد في الربوبية!! حتى لم تشترطوا التلفظ بما يفيد التوحيد في الربوبية كالحصر والقصر والنفي والإثبات!! بل أنتم تبرعتم لهم بذلك مع أنهم لم يقولوا حرفا من ذلك كما سبق.

## المشركون أولى بأن يقال فيهم أنهم كالحمار يحمل أسفارا لعدم فقههم بتوحيد الربوبية الذي أقروا به

أي حتى لو سلمنا أنهم تلفظوا بأن الله هو الخالق وحده لكان المفروض أن تقولوا عنهم أنهم كالحمار يحمل أسفاراً؛ لأنهم قالوا بأن الله هو الخالق وحده دون أن يفهموا معناها ومقتضاها، إذ مقتضاها أن الخالق من لا شيء قادر من باب أولى على الإعادة والبعث الذي ينكرونه ويعجزون الله عنه، فلا جرم أن **ابن القيم** قال بأن منكر البعث منكر لوجود الله «فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسوله **وتعجيز قدرته** ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته، ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه **كافر بربه جاحد له لم يقر برب العالمين** فاطر السموات والأرض»[١].

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٢٦٧).

فكان المفروض أن المشركين لو أنهم فعلا تلفظوا بـ«لا خالق إلا الله وحده لا شريك له»: أن ترفضوا ذلك منهم للسبب نفسه الذي رفضتم تلفظ خصومكم بلا إله إلا الله وهو أنهم نقضوها بدعاء الموتى بزعمكم!!!

فالمشركون أيضاً نقضوا إقرارهم المفترض بأنه «لا خالق إلا الله»، لأنهم أقرُّوا أن الله خالقهم ولكن أنكروا قدرته على بعثهم مع أنه أهون عليه من خلقهم من البدء، وقالوا بأن الله هو الرازق وحده ثم نقضوا ذلك بقتلهم أولاًدهم خشية إملاق ونحو ذلك مما سبق بيانه، وهذا كله يبطل ما زعمتم من أن المشركين كانوا يعرفون معنى لا إله إلا الله، كيف؟ وهم لم يعرفوا معنى لا خالق إلا الله كما رأينا!!

## كيف تشددتم في شروط التوحيد مع المسلمين.. دون المشركين

إذا كان المسلم اشترطتم عليه كلَّ هذه الشروطِ لتعتبروه موحداً فمن باب أولى أن تتشددوا بالشروط على المشركين، لأن المسلم ينطق بالشهادتين صباح مساء، فهو دائماً مصرحٌ بإيمانه بالله الواحد الأحد في ربوبيته وألوهيته، فضلاً عن إيمانه بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وقدره، والمشرك بخلاف ذلك كله!

بيد أنكم عكستم فشددتم الشروط على المسلمين في توحيد الألوهية؛ فمن **نطق بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لا عبرة بنطقه بها** ما لم يحقق الشروط السبعة أو الثمانية لها عندكم، وأما المشركون **فلم تشترطوا عليهم حتى مجرد النطق** لكي تشهدوا لهم بالتوحيد في الربوبية، **بل تبرعتم أنتم بالنطق نيابة عنهم** فقلتم «فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده

**لا شريك له**، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو... فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء.. يشهدون بهذا فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾»[1]!!!

## كيف تتبرعون للمشركين بما سلبتموه عن المسلمين

فكيف شهدتم بأنهم يقولون: أن الله هو الخالق وحده لا شريك له...، وهم أنفسهم اقتصروا أو سوف يقتصرون حين يُسألون عن الخالق على كلمة واحدة وهي: «الله»[2]!! أي لن يقولوا: «الله وحده لا شريك له»، وإنما هذا تبرع منكم!! **فكيف تتبرعون للمشركين ما سلبتموه عن المسلمين؟!**

**أنتم لم تشهدوا للمسلمين بالتوحيد لا في الربوبية ولا في الألوهية مع تصريحهم بذلك بكرةً وعشياً.**

إن المسلمين الذي يشهدون بالتوحيد صباح مساء وينطقون به فعلا ويقولون: لا إله ولا رب ولا خالق ولا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ومع ذلك لم تشهدوا لهم بالتوحيد لا في الربوبية ولا في الألوهية!!!

فهذا ابن باز يقول: «ومن العقائد المضادة للحق ما يعتقده بعض الباطنية **وبعض المتصوفة** من أن بعض من يسمونهم بالأولياء **يشاركون الله في التدبير**

---

(١) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤)، وانظر أيضاً معنى لا إله إلا الله، محمد بن عبد الوهاب (ص: ٢، ت.ش)، وشرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: ٣٠).

(٢) طبعا هذا لو سلمنا أنهم قالوا: الله أي خالقنا، وإلا فهذا غير مسلّم كما سبق بيانه مطولاً. انظر (ص: ١١٤).

ويتصرفون في شؤون العالم ويسمونهم بالأقطاب والأوتاد والأغواث وغير ذلك من الأسماء التي اخترعوها **لآلهتهم، وهذا من أقبح الشرك في الربوبية** وهو شر من شرك جاهلية العرب، لأن **كفار العرب لم يشركوا في الربوبية** وإنما أشركوا في العبادة»[1].

فتأمل كيف جعل ابن باز خصومه من المسلمين ممن سماهم بعض المتصوفة جعلهم مشركين في الربوبية حين قال «يسمونهم بالأولياء يشاركون الله في التدبير. . وهذا من أقبح الشرك في الربوبية»، ثم جعلهم مشركين في الألوهية حين قال «الأسماء التي اخترعوها لآلهتهم»، ولذا جعلهم شراً من مشركي العرب بحجة أن مشركي العرب كانوا موحدين في الربوبية، دون أولئك المتصوفة الذي أشركوا في الربوبية**!!!**

ويفصِّل بعض السلفية أكثر فيقول: «لقد غالت القبورية في اعتقاد التصرف لرسول الله ﷺ تصرفاً مطلقاً في الكون بحيث **جعلوه رباً لهذا الكون** ومالكه يتصرف فيه ما يشاء كل ذلك»[2]، فالقادرية غلوا في الجيلاني حيث «**جعلوه رباً لهذا الكون** متصرفاً فيه تصرفاً مطلقاً، كما جعلوا **قبره وثناً يعبدونه** من دون الله تعالى، وكفريات القبورية في الغلو فيه واسعة الذيل»[3]، والرفاعية أيضاً غلوا في الرفاعي حيث «**جعلوه رباً لهذا الكون متصرفاً** فيه كيف يشاء؛ يعطي ويمنع، يرى ويسمع، ويعلم المغيبات، ويفرج الكربات»[4]. اهـ.

---

(١) العقيدة الصحيحة وما يضادها ونواقض الإسلام لابن باز (ص: ٢٤)، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.

(٢) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (٢/ ٧٠٣).

(٣) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (٢/ ٧٢٧).

(٤) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (٢/ ٧٣٤).

فتأمل قوله «**جعلوه رباً لهذا الكون**. . .» كيف جعل خصومه المسلمين مشركين في الربوبية، ثم جعلهم مشركين في الألوهية بقوله «كما جعلوا **قبره وثنا يعبدونه**»، فإذن المسلمون عنده مشركون في الربوبية والألوهية معاً، بخلاف المشركين فهم موحدون في الربوبية!!

والحاصل أنكم لا تشهدون لخصومكم المسلمين الذي يشهدون صباح مساء بأنه لا رب ولا خالق ولا إله ولا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له وينطقون ذلك بألسنتهم، لا تبرعاً منكم عليهم كما فعلتم مع المشركين، حيث تبرعتم لهم بالتوحيد في الربوبية لتشهدوا لهم بذلك، ولا تشهدون للمسلمين بالتوحيد بحجة أنه لا يكفي التلفظ بكلمة التوحيد!! بل لا بد أن يحققوا شروطها السبعة أو الثمانية!!! وأما المشركون **فحتى التلفظ بما يدل على التوحيد في الربوبية لم تشترطوا عليهم ذلك! بل أنتم تبرعتم لهم به كما سبق**[1]!!

## هل تعريف توحيد الربوبية الذي وضعتموه متحقق في المشركين وفي آيات الباب التي تستدلون بها؟

هذا على الرغم من أنكم أنتم أنفسكم حين عرَّفتم توحيد الربوبية قلتم بأنه: «الاعتقاد بأن الله **هو وحده** الخالق الرازق. . **فلا خالق ولا رازق ولا مدبر. . غيره سبحانه**»[2]، واشترطتم أن يكون اللفظ «متضمن لركنين أساسيين: نفي، وإثبات. فأما الإثبات فهو: إثبات ما يجب لله تعالى من

(١) انظر (ص: ٢٣٨).
(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ١١٥).

الربوبية والألوهية. . . وأما النفي فهو: **نفي مشاركة غير الله تعالى** فيما يجب له»[1]. اهـ.

فهل هذا التعريف الذي وضعتموه أنتم أنفسكم لتوحيد الربوبية ينطبق على المشركين حتى تستنتجوا أنهم موحدون في الربوبية؟!! أنتم اشترطتم النفي والإثبات - ونحوه ما أساليب الحصر - في توحيد الربوبية والألوهية، فأين هذا النفي والإثبات في آيات الباب الثمانية؟ أين النفي والإثبات في قوله تعالى مثلا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؟ هل قال عنهم «ليقولن الله وحده لا خالق سواه»؟ هل قال عنهم: «ليقولن الله وحده ونشهد أنه لا خالق إلا هو»؟! هل قال عنهم: «ليقولن الله وحده لا شريك له»؟!!

## هدف ابن تيمية من تبرعه للمشركين بالتوحيد

طبعا لم ينقل القرآن عنهم هذا ولا ذاك، ولذلك تبرعتم لهم بالنفي والإثبات من كيسكم لتزعموا بعد ذلك أنهم حققوا توحيد الربوبية، ولم يحققوا توحيد الألوهية فشابهوا بذلك متكلمي أهل الإسلام!!

وهذا بالضبط ما أراد ابن تيمية أن يصل إليه!! حيث قال عن المتكلمين بأن «غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام»[2]، «فتوحيد الربوبية كان المشركون مقرين به، وهو نهاية ما يثبته هؤلاء المتكلمون»[3]، «وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء. . من الجهل

(١) تقريب التدمرية (ص: ٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠١).
(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٧٤).

بالتوحيد»[١]، لأن هذا «غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب»[٢]!!!

## ثانياً: الجواب المفصل:

ما سبق كان جواباً مجملاً عن نصوص للمفسرين ممن قدَّر أو فهم كلمة «وحده» من آيات الباب الثمانية، وأما الجواب المفصَّل: فأجيب فيه عن تلك النصوص كل على حده:

**أولاً: الجواب عن قول الطبري أن العرب «كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته»:**

والجواب عنه من وجوه:

**الوجه الأول**: الطبري لا يقول بنظرية تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية، بل نصوصه صريحة في مخالفة كثيرٍ من أصول هذه النظرية، كما بسطتُه في كتابي الكبير، ولاسيما الأصل القائل بأن العرب عدَّدوا الآلهة ولم يعدِّدوا الأربابَ، فهذا ما نصَّ الطبري على خلافه مراراً وتكراراً؛ منها: قوله: «ويدعون **الآلهة والأوثان معه أرباباً**»[٣]، وقوله «ويزعمون كذباً وافتراءً أنهم **أربابهم من دون الله**»[٤]، وقوله «وعاد للشرك ودعوى **الآلهة والأوثان أرباباً معه**»[٥].

فنصَّ الطبري هنا وفي مواضع أخرى كثيرة ذكرناها في كتابنا الكبير،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٩/ ٣٤٥).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٩٦).
(٣) جامع البيان (١٨/ ٤٤٠).
(٤) جامع البيان (١٠/ ٢٤٤).
(٥) جامع البيان (١٢/ ١٣٣).

نصَّ على أن العرب اتخذوا الأصنام من دون الله آلهةً وأرباباً، وهذا بالطبع يخالف أصلاً أصيلاً من أصول نظرية تقسيم التوحيد، وهو أن المشركين عددوا الآلهة ولم يعددوا الأرباب!!

**الوجه الثاني**: لم يقل الطبري إن آيات الباب الثمانية دلت على أن مشركي العرب قالوا بألسنتهم أن الله وحده هو الخالق، فهذا ليس في نص الطبري السابق، وإنما أراد أن العرب تعلم بوحدانية الله، لا أنها فعلا أقرت به بألسنتها! وهو صريح قوله «إذ كان ما كان عند العرب من **العلم بوحدانية الله**، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم، نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين».

فقوله «عند العرب من العلم بوحدانية الله» يفسر لنا قول الطبري عن المشركين في النص نفسه وهو قوله «ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها»، فمعنى الإقرار هنا هو أنها تقر بقلوبها لا بألسنتها، أي أنها تعلم بوحدانيته تعالى في قلوبها، كما نص على ذلك في قوله «عند العرب من العلم بوحدانية الله».

وكون العرب تعلم بوحدانية الله فهذا يمكن أن يسلِّم، ولكن هذا لا يلزم منه أنها مقرَّةٌ بالتوحيد؛ لأنها حينئذٍ تكون كأهل الكتاب الذين يعلمون بصدق نبينا ومع ذلك كذَّبوه كما سيأتي ذلك[1]، فالعرب كانت تعلم بالتوحيد ولكن لم تكن تذعن أو تسلم به، بل كانت تنكره كما نص الطبري.

---

(١) انظر (ص: ٣٥٦-٣٥٧).

## قول الطبري عن المشركين: «إنكارًا منهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم»

فقد قال الطبري نفسه في تفسير سورة «الجاثية»: «وقوله ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾، يقول تعالى ذكره مخبرًا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، **إنكاراً منهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم** ويهلكهم»[(١)]. اهـ.

فنص الطبري هنا على أن المشركين ينكرون «أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم» فإذا كانوا ينكرون الرب طرا فكيف يوحدونه في الربوبية؟!!!
**لا يقال**: إن قوله «إنكارًا منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم» أراد به أنهم ينكرون أن يفنيهم الله أو يميتهم ثم يحييهم ليبعثهم، وهذا لأنهم ينكرون البعث والنشور، وليس في هذا كله أنهم منكرون لوجود الله تعالى ولا أنهم منكرون لوحدانيته في الربوبية.

**لأننا نقول**: كونهم ينكرون أن يميتهم الله ثم يحييهم هو بحد ذاته إنكار لتوحيد الربوبية الذي تنسبونه إليهم، لأن الإحياء والإماتة هو جزء من توحيد الربوبية، فإنكاره هذا الجزء إنكار لتوحيد الربوبية إذ «توحيد الربوبية توحيد بأفعال الله تعالى، مثل الخلق والرزق **والإحياء والإماتة**...»[(٢)]، بل من ينكر البعث فإنه «**كافرٌ بربه جاحدٌ** له لم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض»[(٣)] كما قرر ذلك ابن القيم نفسه.

(١) جامع البيان (٢١/ ٩٦).
(٢) جهود علماء الحنفية (١/ ٢١٨).
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ٢٦٧).

**فإن قيل**: ولكن هذا كله لا يعكّر على أن الطبري فهم من بعض آيات الباب الثمانية الوحدانيةَ ونسبها إلى المشركين، وأن شركها كان في العبادة، حيث قال «ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾». اهـ.

## قول الطبري: تعالى الله عما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القِدم إلها يُعبد

**قلنا**: **أولاً**: إن شركهم في العبادة ناتج - كما قلنا مراراً - عن شركهم في الربوبية، وهذا الطبري نفسه يقول في موضع آخر: «وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ يقول تعالى ذكره؛ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون من أن له ولداً، **وعما قالوه من أن له شريكاً، أو أن معه في القِدم إلهاً يُعبد تبارك وتعالى**»[(١)]. اهـ.

فتأمل قوله «وعما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القِدم إلها يُعبد»، تأمل كيف نسب إليهم أنهم يعتقدون بوجود إلهٍ قديمٍ شريكٍ لله يُعبد معه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!! طبعاً إلهٌ قديمٌ يعني أنه عندهم ندٌّ لله القديم!! وهذا ينافي قول الطبري بأن قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ المراد وأنتم تعلمون أيها المشركون أنه لا ندَّ له، فكيف يعلمون أنه لا ند له مع أنهم يزعمون بوجود إله قديم يُعبد معه؟!

وقال **الطبري**: «**إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم من أن ربكم رب السماوات والأرض**، فإن الذي أخبرتكم أن الله هو الذي هذه الصفات

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠١).

صفاته، وأن هذا القرآن تنزيله، ومحمدا ﷺ رسوله حق يقين، **فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائق الأشياء غيره»**[١].

**ثانياً**: ما قاله الطبري هنا - في سورة البقرة - معارَض بما قاله الطبري نفسه في سورة الجاثية كما سبق، ثم هو معارض أيضاً بما قاله الطبري نفسه في تفسيره لآيات الباب الثمانية، حيث إنه لم يتعرض لقضية التوحيد عندما فسّر تلك الآيات الثمانية، وقد سبق أن سردنا نصوصه الثمانية في ذلك، فهو مقدم على ما قاله في تفسيره لسورة البقرة لسببين:

**الأول**: أن تلك المواضع - أي في تفسيره لآيات الباب الثمانية - متأخرةٌ عن موضع كلامه في تفسيره لسورة «البقرة» الذي ذكر فيه عبارة «كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته»، فيكون كلامه في تلك المواضع المتأخرة ناسخاً لكلامه الأول، طبعاً هذا إن سلكنا الترجيح في كلامه لا الجمع، والجمع أولى وقد سبق أن جمعنا بين كلامه كله.

**والثاني**: أن تلك المواضع المتأخرة كانت مخصَّصة لتفسير آيات الباب الثمانية، فيكون نظرُه وتفسيره فيها أدق، بخلاف ما قاله في موضع سورة البقرة لأن نظره حينها لم يكن منصباً على تفسير آية «الزخرف» ونحوه من آيات الباب الثمانية، وإنما كان منصبا على الآية التي كان يفسرها وهي ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

## تناقض السلفية في مجاهد والطبري

فالطبري حمل آية «البقرة» هذه على أن العرب أيضاً يعلمون توحيد الله وليس أهل الكتاب وحدهم يعلمون ذلك كما ذهب مجاهد، ثم جاء الطبري

(١) جامع البيان (٢١/ ١٢)

بآية «الزخرف»: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ليؤيد ما قاله ويرد به على مجاهد، وكان المفروض على الخصم أن يقدم تفسير مجاهد على الطبري عند التعارض باعتبار أن مجاهداً من التابعين ومن السلف قطعاً، وأنه أخذ التفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة كما ذكر السلفية أنفسهم حين رجحوا تفسير مجاهد على تفسير غيره لبعض آيات الصفات.

فقد رجَّحوه على تفسير الطبري كما في تفسير آيات الاستواء حيث فسرها الطبري بعلو الملك والسلطان حيث قال: «فقل: علا عليها علو ملك وسلطان، لا علو انتقال وزوال»[1]، فقال بعض السلفية عن كلام الطبري هذا «هو من جنس كلام أهل البدع، فلا ينبغي، وهو خلاف الظاهر من النصوص، بل هو من التأويل الباطل»[2].

ثم فسر السلفية الاستواء بتفسير مجاهد وأبي العالية بالعلو والارتفاع[3]، فتمسكوا بتفسير مجاهد وقدَّموه على تفسير الطبري، فما بالهم صار الطبري الآن هنا - أي في تفسيره بآية البقرة: فلا تجعلوا لله أندادا. . - قوله مقدَّماً على قول مجاهد؟!

ثم أنت خبير أن نص آية «البقرة» هذه ليس فيها أن العرب كانوا يعلمون توحيد الله، غاية ما فيها هو قوله «وأنتم تعلمون»[4]، ولكن ماذا يعلمون؟ ثم من هم الذين يعلمون؟ أي مَن الفاعل وما المفعول به لفعل «يعلم» في آية «البقرة» هذه؟ الآية ليس فيها بيان لذلك!! ولذلك اختلف فيهما المفسرون على عدة أقوال، وفيما يلي بسط أقوالهم:

---

(١) جامع البيان (١/ ٤٥٧)

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٢٩١).

(٣) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٦٣٩).

(٤) أي قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

**أولاً: أقوال المفسرين في تحديد الفاعل في قوله تعالى ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**

الفاعل في قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هو واو الجماعة، ولكن على من تعود الواو في الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾؟ لقد اختلف المفسرون في عودة هذا الضمير على أقوال؛ فابن عباس - فيما رُوي عنه - حَمله على المشركين، وروي عنه أيضاً أنه قال: والخطاب للكافرين والمنافقين[(١)].

ومجاهد حمله على أهل الكتاب كما سبق، والطبري عمَّمه فحمله عليهم وعلى مشركي العرب. وقال ابن فورك: «يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً»[(٢)].

والحاصل من هذا: أن الفاعل أو المخاطب مختلف فيه على خمسة أقوال؛ فقيل المخاطب المؤمنون، وقيل: الكافرون، أو المشركون، أو المنافقون، أو أهل الكتاب، ويحتمل أن يراد الجميع فينتج قول سادس!!! والله أعلم.

**ثانياً: أقوال المفسرين في المفعول به في قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**

المفعول به لم يذكر في الآية أصلاً وإنما هو مقدّر، ولذلك اختلف المفسرون في تقديره على أقوال كثيرة نسردها فيما يلي:

١) «عن ابن عباس... وأنتم تعلمون: <u>أنه لا رب لكم يرزقكم غيره</u>»[(٣)].

٢) وقال مجاهد: «وأنتم تعلمون أي: <u>تعلمون أنه إله واحد</u> في التوراة والإنجيل»[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١/ ٣٨٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٨٦).
(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦١).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣١٠).

٣) وقال ابن فورك: «المعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلون لله أنداداً بعد علمكم - الذي هو نفي الجهل - بأن الله واحد»(١).

٤) وقال الزمخشري: «وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر»(٢).

٥) وقال الفخر الرازي: «معناه.. تعلمون أن هذه الأشياء لا يصح جعلها أنداداً لله تعالى»(٣).

٦) وقال القرطبي: «﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الانداد»(٤).

٧) وقال البيضاوي: «ومفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ مطروح، أي: وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي، فلو تأملتم أدنى تأملٍ اضطر عقلكم إلى إثبات موجدٍ للممكنات منفردٍ بوجوب الذات، متعالٍ عن مشابهة المخلوقات. أو منوي وهو أنها لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله»(٥).

٨) وقال الشيخ زاده: «وأنتم تعلمون أن الأنداد التي تزعمونها لا تماثله تعالى لا في ذاته ولا في شيء من صفات كماله ولا تقدر على مثل ما يفعله الله عز وجل فضلاً عن أن تقدر على منازعته بأن تدفع عنهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١/ ٣٨٦)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠).
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٩٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ١٢٢).
(٤) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠).
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٥٦).

بأس الله تعالى. . أو تمنحهم ما لم يرد الله تعالى[١].

٩) وقال الشوكاني: «وقد يقال: المراد «وأنتم تعلمون» **وحدانيته بالقوة** والإمكان لو تدبرتم ونظرتم. وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد»[٢].

١٠) وقال القاسمي: «وأنتم تعلمون ما بينه **وبينها من التفاوت**، وأنها **لا** تفعل مثل أفعاله، كقوله: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء»[٣].

فهذه عشرة كاملة، أي عشرة أقوال في المراد بضمير المفعول به في قوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وهي باختصار:

١) وأنتم تعلمون أنه لا خالق سواه، قاله ابن عباس.

٢) أو تعلمون أنه إله واحد، قاله مجاهد.

٣) أو تعلمون أيها المؤمنون أن الله واحد، قاله ابن فورك.

٤) أو تعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر، قاله الزمخشري.

٥) تعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد، قاله القرطبي.

٦) أو لو تأملتم لعلمتم أن ثمة موجداً للممكنات منفرد بوجوب الذات متعال عن مشابهة المخلوقات، قاله البيضاوي.

٧) أو تعلمون أن هذه الأشياء لا يصح جعلها أنداداً لله تعالى، قاله الرازي.

٨) أو تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم، أبداه الشوكاني احتمالاً.

---

(١) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي (١/ ١٩٠).
(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠).
(٣) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ٢٦٦).

٩) أو تعلمون أن الأنداد التي تزعمونها لا تماثله تعالى لا في ذاته ولا في شيء من صفات كماله ولا تقدر على مثل ما يفعله الله، قاله الشيخ زاده.

١٠) أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، قاله القاسمي.

وقد اختار ابن تيمية وأتباعه من الأقوال العشرة في تفسير الآية: القولَ الأول الذي روي عن ابن عباس!! وهو أن المراد وأنتم تعلمون أنه لا خالق سواه، ثم خرج بنتيجة أن مشركي العرب موحدون في الربوبية دون الألوهية، وأن التوحيد منقسم إلى ربوبية وألوهية، وهذا كله غير مسلَّم؛ لأنه لم يثبت هذا القول عن ابن عباس أصلاً، وإن ثبت فهو حجة على الخصم كما سنبينه[(١)].

## عِلمُ المشركين بأنه الرب الواحد.. لا يستلزم إقرارهم بذلك.. كأهل الكتاب الذين يعلمون صدق النبي ولم يؤمنوا به

ثم إن ابن عباس لم يقل إن العرب كانت تقر بأنه لا خالق سواه، وإنما قال كانت تعلم ذلك، والعلم بالشيء لا يستلزم الإقرار به أو بصحته، إذ قد يعلم ولا يقر به عناداً ومكابرة؛ دليله قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، فهنا «يخبر تعالى أن العلماء من أهل الكتاب **يعرفون صحة ما جاءهم** به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده. . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي. . لَيكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ **وهم يعلمون**»[(٢)]. اهـ.

---

(١) انظر (ص: ٤٦٤)، وفي السند علتان.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ١٢٠).

أي «هم مع ذلك به مكذبون، ولنبوته جاحدون. فيعلم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقةَ **ما قد ثبت عندهم صحته واستحكمت لديهم معرفته**»[(١)]. اهـ.

«بل **ومشركو قريش** قال الله عنهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾»[(٢)]، «فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك بل أكثرهم لا يعلمون أي ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك»[(٣)].

فهم «لم يُقِرُّوا لمحمد بأنه رسول الله **مع تحققهم صدقه، وتيقنِهم صحةَ رسالته** بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة»[(٤)]، و«**ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين**، لم تجرب عليه كذبة واحدة. ولما جاءه الروح بالوحي **لم يخبر بخبر واحد كذب**، لا عمدا ولا خطأ»[(٥)]. «وليس بمكة أحدٌ عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، **لما يعلم من صدقه** وأمانته»[(٦)].

«**وأبو جهل كان يتحقق رسالة النبي** ﷺ ويعلم أن ما جاء به حق، ومع ذلك أنكر نبوته، وأقام على الكفر، وكذلك الأخنس، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهما ممن كفر عناداً، مع **علمهم بصدق الرسل**»[(٧)].

(١) جامع البيان (١/ ١٣٠).
(٢) الرد الشامل للموجان (ص: ١٠٢-١٠٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٢٦)، السراج المنير للخطيب الشربيني (٣/ ١٩٤).
(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٣١٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٥).
(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٣٥٦).
(٦) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٢٩٤).
(٧) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٣٠٤).

# قول الله عن المشركين وعن أهل الكتاب أنهم قوم لا يؤمنون

والملاحظ أن الله ختم إحدى آيات الباب الثمانية بقوله ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهي نفس الخاتمة التي ختمت به آية تتحدث عن معرفة أهل الكتاب برسولنا الكريم ﷺ، قال تعالى في حق المشركين: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الأنعام: ١٢]، أي إنَّ «**عدم إيمانهم بسبب خسرانهم** فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في تقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار **على الكفر** والامتناع من الإيمان»[(١)].

وقال تعالى في حق أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠] «فأثبت لهم المعرفة بالنبي ﷺ ثم بين أنهم لا يؤمنون، وذلك مما **يوضح أن الإيمان غير العلم**؛ كما أن الجهل مغاير للكفر. نعم، قد يكون العلم فضيلة، وإن لم يقع العمل به على الجملة»[(٢)].

وقوله «﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحُلاهم ونعوتهم وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته»[(٣)]، و«الذين خسروا أنفسهم من أهل الكتابين والمشركين فهم لا يؤمنون بما يجب الإيمان به»[(٤)]، «أي أولئك هم

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١١٥).

(٢) الموافقات للشاطبي (١/ ٨٤)، طبعة دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(٣) تفسير النسفي (١/ ٤٩٦)، وانظر: تفسير الزمخشري (٢/ ١٢).

(٤) تفسير الألوسي (٤/ ١١٤).

الخاسرون لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات»[١].

## لا بد من الإذعان في الإيمان

فلا «بد من مفارقة المشركين بالاتباع والإذعان»[٢]، فضلاً عن النطق باللسان فمن «صَدّق **ولم يتكلم بلسانه بالإيمان** مع قدرته على ذلك ولا صلى ولا صام ولا أحب الله ورسوله ولا خاف الله؛ بل كان مبغضاً للرسول معادياً له يقاتله؛ أن **هذا ليس بمؤمن**. كما قد علمنا أن الكفار من **المشركين وأهل الكتاب** الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله وفعلوا ذلك معه»[٣].

بل إن مشركي العرب وسائر **المشركين يعلمون** أنه لا إله إلا هو كما بيَّن ذلك الطبري، بل ابن تيمية وابن القيم نصَّا كلاهما على أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله!!

## نص ابن تيمية وابن القيم على أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله

يقول ابن تيمية: «أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ، ويحبون علو كلمته، وليس عندهم حسد له، **وكانوا يعلمون صدقه**، ولكن كانوا يعلمون أن في متابعته فراق دين آبائهم، وذم قريش لهم، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم، **فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به**؛

(١) صفوة التفاسير (١/ ٣٥٦).
(٢) الرد الشامل للموجان (ص: ١٠٢-١٠٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٣١).

**بل لهوى النفس**»(١)، وقال ابن القيم «ولم يُقِرُّوا لمحمد بأنه **رسول الله مع تحققهم صدقه**، وتيقنِهم صحةَ رسالته»(٢).

## نص ابن القيم على أن المشركين كانوا يعلمون بطلان شركهم

ولنقرأ كلام ابن القيم وهو يقرر بأجلى بيانٍ أن المشركين يعلمون في الدنيا قبل الآخرة بطلان شركهم، ولكن كانوا يُخفون ذلك في الدنيا وعليه حُمل قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، حيث يقول: «فالقوم كانوا **يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل** وأن الرسل صَدَقُوهم فيما بلغوهم عن الله، **وتيقنوا ذلك وتحققوه**، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم، بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه **من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك** ويخفونه. فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالايمان ولعادوا الى الكفر والتكذيب فإنهم لم يتمنوا الايمان **لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل** وانما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله»(٣)، وقد رد ابن القيم قبل ذلك على من فسّر الآيةَ بخلاف ذلك(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٢).

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد - ط عطاءات العلم» (٣/ ٣٧٣).

(٣) عدة الصابرين لابن القيم (ص: ١٥٦)، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية.

(٤) وأول كلامه في عدة الصابرين (ص: ١٥٤): قد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله «ما كانوا يخفون من قبل» قدروا مضافاً محذوفاً.. إلخ. وانظر بدائع التفسير لابن القيم (١/ ٣٤٤).

## تصريح الطبري بأن المشركين يعلمون أنه لا إله ولا رب إلا الله

إن الطبري نفسه الذي قال هنا عن مشركي العرب بأنهم **كانوا يعلمون أنه لا خالق سواه**، يقول في موضع آخر عن مشركي العرب بأنهم كانوا يعلمون «أنه لا رب غيره، **ولا إله سواه**»[1]، وسيأتي نصه بتمامه، فهل هذا يعني أن المشركين كانوا يقرون بأنه لا إله إلا الله؟! كيف؟ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥]، فثبت أن علم مشركي العرب بأنه لا خالق إلا الله لا يعني أنهم يقرون بذلك، وبالتالي فإن أثر ابن عباس إن ثبت فلا حجة فيه على أن مشركي العرب كانوا موحدين في الربوبية.

والحاصل أن هناك أقوالاً كثيرةً في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، خمسةٌ أو ستةٌ في تعيين الفاعل، وعشرة أقوالٍ في المفعول به، ومجموعها خمسة عشر قولاً على الأقل، فجاء الخصمُ واختار واحداً من هذه الأقوال! وهو قول روي عن ابن عباس - ولم يثبت عنه كما سبق - وهو أن المراد: وأنتم أيها المشركون تعلمون أن الخالق هو الله وحده، وإن ثبت فلا حجة فيه للخصم كما رأينا توًّا.

## مجاهد يجهل العقيدة الوثنية للعرب في الجاهلية.. عند المعلمي

هذا ولم يكتف الخصم هنا بأنه انتقى من تلك الأقوال الكثيرة للآية، ثم وظَّفه واستغله لدعم نظريته في تقسيم التوحيد، القائلة بأن المشركين كانوا

---

(١) جامع البيان (٥/ ٢٨٦).

موحدين في الربوبية، بل راح ينكر الأقوال الأخرى في الآية حتى ولو كانت مروية عن السلف الذين يدعي الخصم الانتساب إليهم، وهنا أشير إلى المعلمي اليماني حيث أنكر على مجاهد قوله بأن المراد بالآية أهل الكتاب، وجعله **ممن يجهل العقيدة الوثنية** للعرب في الجاهلية مع أنه ليس بين مجاهد وبين عصر الوثنية إلا نحو عشرين سنة، وقد أدرك كثيراً ممن أدركوها، وأنه لذلك نعى الطبري على مجاهدٍ ذلك[1].

قال وليد - شرّفه الله بخدمة دينه -: كل هذا التشنيع على مجاهد لا محلّ له من الإعراب، فلا هو جاهل بعقيدة العرب في الجاهلية، كيف؟! وقد أدرك من أدركها، علاوة عن أن القرآن مليء بعقائدهم والرد عليها وتفنيدها، وهذا بإقرار المعلمي نفسه حيث يقول بعد أن يتهم مجاهد بالجهل بعقيدة العرب: «فليس بينه وبين عصر الوثنية إلا نحو عشرين سنة، وقد أدرك كثيرا ممن أدركوها ودانوا بها. ثم هي مما يهم المسلمين معرفته؛ فإن الإسلام إنما جاء

(١) ونص كلام المعلمي بتمامه حيث قال في مقدمة «الرسالة الخامسة: عقيدة العرب في وثنيتهم»: «ليس من الغريب أن تجهل حقيقة تاريخية مضت عليها آلاف السنين، أو كان العلم بها خاصاً بأفرادٍ قليلين، أو لم تكن مما يهم حفظه ونقله. **وإنما الغريب أن تجهل حقيقة أكبر من ذلك، كعقيدة العرب في وثنيتها، فإنها خفيت منذ أزمان، حتى نسمع ابن جرير - كما سيأتي - ينعى على مجاهد أنه لم يعرفها، ومولد مجاهد قبل العشرين من الهجرة، فليس بينه وبين عصر الوثنية إلا نحو عشرين سنة، وقد أدرك كثيرا ممن أدركوها ودانوا بها. ثم هي مما يهم المسلمين معرفته؛ فإن الإسلام إنما جاء لنقض المختل منها ومما يشبهها، وكثير من الآيات القرآنية إنما هي في محاجة أهلها ومناقشتهم، فمن لم يعرفها يصعب عليه فهم تلك الآيات** الكثيرة بل ربما يكون الأمر الأعظم من ذلك. وأحب أن ألقي في كلمتي هذه بعض الضوء على هذه الحقيقة، وإن لم أوفها حقها: ١ - توحيدهم: كان العرب يعتقدون وجود الله عز وجل وربوبيته.... إلى قوله: «... وأنتم تعلمون أنه لا ند له في التوراة والإنجيل»، قال ابن جرير: «وأحسب الذي دعا مجاهداً إلى هذا التأويل، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم...إلخ». اهـ. انظر: آثار الشيخ العلامة المعلمي اليماني (٦/ ١٥٥، ١٦٦).

لنقض المختل منها ومما يشبهها **وكثير من الآيات القرآنية** إنما هي في محاجة أهلها ومناقشتهم».

وكان مجاهد من أوائل من يفسر تلك الآيات وغيرها؟! فقد كان «ابن عباس وابن مسعود **ومجاهد** وعطاء وغيرهم قد فسروا القرآن كله»[١]. ومجاهد تلميذ ابن عباس ترجمان القرآن؟! قال مجاهد: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة»[٢]؛ وقال سفيان الثوري: خذوا التفسير من أربعة: مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك[٣]. وقال قتادة: أعلم من بقي بالقرآن مجاهد، يعني التفسير[٤].

ولا الطبري نعى على مجاهد جهله بلغة العرب، غاية ما في الأمر أنه اختار هنا قولا سوى الذي اختاره مجاهد محأولاً أن ينصره، وكلا القولين سواء قول مجاهد أو قول الطبري كلاهما محتمل وسائغ بل تحتمل الآية أقوالاً أخرى عديدة كما رأينا، فلا داعي للتشنيع على أي منها.

## تناقض السلفية في أخذهم بقول مجاهد في الاستواء وغيره

والطريف أن مجاهداً حينما فسر الاستواء بمطلق العلو، والطبري فسره بعلو القهر صار مجاهدٌ عندهم تلميذ ابن عباس، وصار الطبري قائلاً بقول الجهمية كما رأينا[٥]، وأما هنا فصار مجاهد جاهلاً بعقيدة العرب مع أنه ليس

(١) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٤٨٤).
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ١٩).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧/ ٢٨).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧/ ٢٨)
(٥) انظر (ص: ٣٥١-٣٥٢).

بينه وبين الجاهلية سوى عشرين سنة كما قال المعلمي نفسه، وأما الطبري الذي جاء بعده بثلاثة قرون فهو العالِم عندهم بعقيدة العرب في الجاهلية!! طبعا هذا كيل بمكيالي الهوى نعوذ بالله منه.

ثم ليت شعري ما هو الأمر الذي جهله مجاهد من عقيدة العرب وعلمه الطبري والمعلمي؟ طبعا المعلمي يقصد أن مجاهداً يجهل أن العرب موحدون في الربوبية، كما ذكر المعلمي نفسه ذلك مستدلاً بآية «البقرة»: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ومستدلاً بتفسير الطبري لها، بالإضافة إلى استدلال المعلمي بآيات الباب الثمانية!!

وقد رأينا أنه لا دليل في آية «البقرة» ولا في آيات الباب الثمانية - ولا في غيرها كما سنرى - على أنهم موحِّدون في الربوبية، ولا ابن عباس ولا الطبري الذي اختار قوله في آية «البقرة» هنا يقولون بذلك، غاية ما في الأمر أن الطبري اختار قول ابن عباس أنهم يعلمون أنه الخالق وحده، وقد رأينا أن هذا لا يعني أنهم مقرُّون بذلك، والطبري نفسه نص على خلاف ذلك مراراً وهو أنهم اتخذوا الأصنام آلهةً وأرباباً من دون الله، كما سنرى[1].

**ثانياً: الجواب عن قول الواحدي: «إذا كان الله هو الخالق وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده»**

هو أن الواحدي لم يقل بتقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية، ولا قال بأن المشركين مؤمنون بالأول مشركون بالثاني، ولا نسب إلى المشركين أنهم قالوا بأن الله وحده هو الخالق، ولم يفسِّر الواحديُّ الآيةَ بذلك، وهذا نصه حيث يقول فيه: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ يقرون بأن الله خالق هذه الأشياء»، فليس فيه قوله هذا كلمة «وحده» ولا ذِكر للتوحيد قط.

(١) انظر (ص: ٤٤٥).

وإنما قال بعد ذلك حينما فسَّر ما روي عن ابن عباس ومقاتل في قولهما في تفسير نهاية الآية فقال الواحدي: «﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: فكيف **يكذبون بتوحيدي. أي: إذا كان الله هو الخالق وحده**، وجب أن يكون هو المعبود وحده من غير شريك. والمعنى: فكيف يُصرفون عن التوحيد بعد قيام الدليل»، ونلاحظ هنا أن قول الواحدي «**أي: إذا كان الله هو الخالق وحده**» هو تفسير لقول ابن عباس ومقاتل «فكيف **يكذِّبون بتوحيدي**» والذي هو تفسير منهما - أي من ابن عباس ومقاتل - لآخر الآية وهي قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾! بيد أننا بيَّنا أن ابن عباس لم يصح عنه ذلك، وأما مقاتل فقد سبق توجيه كلامه، وأياً ما يكون.. فالواحدي يفسر كلامَ ابن عباس ومقاتل، ولا يفسر الآية نفسها.

**ثالثاً: الجواب عن كلام ابن كثير في أن المشركين موحدون في الربوبية**

فنقول: نعم ابن كثير كلامه واضحٌ في تفسيره لآيات الباب الثمانية في إقحام قضية التوحيد فيها ونسْبتها للمشركين، وابن كثير لم يتبع في ذلك تفسيراً صحَّ عن السلف، لأنه وكما سبق بيانه لم يرد عن أحد منهم بإسنادٍ صحيح أن آيات الباب دلت على إقرار المشركين بما يسمى توحيد الربوبية.

وإنما هو - أي ابن كثير - مقلدٌ في ذلك لشيخه ابن تيمية مخترِعِ نظرية تقسيم التوحيد! أو على الأقل هو متأثر به وبنظريته وما تضمنته من أصول، وأهمها أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، ودليله على ذلك آيات الباب الثمانية ومنها ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]!! وقد رأينا أن هذه الآيات كلها لا ذِكر فيها لقضية التوحيد ولا ما يدل على التوحيد من أساليب الحصر والقصر والتوكيد والتي اشترطها ابن تيمية وأتباعه كما رأينا[1]، ولا فهم ذلك أحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم من

(١) انظر (ص: ٢٧٦).

السلف ولا أصحاب التفسير بالمأثور سوى ما روي عن ابن عباس ومقاتل، وسوى ما قاله الطبري في آية «البقرة»: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا...﴾، وقد أجبنا عن ذلك كله.

## قول ابن كثير عن المشركين «كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره..»

هذا فضلا عن أن ابن كثير نفسه له مواضع أخرى خلاف ذلك، فهو مثلا يقول: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ «**أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم** وإحسانه إليهم بل يعرضون عن آياته وآلائه»[1]. اهـ.

ويقول عند قوله تعالى ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣] أي: **ألهم آلهة تمنعهم** وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر **كما توهموا ولا كما زعموا**؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم»[2].

بل يقول أيضاً عند قوله تعالى ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: ٢٨]: يقول تعالى **محتجا على وجوده وقدرته**، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ **أي: كيف تجحدون وجوده** أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ أي: قد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى:

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩/ ٤٠٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٤)، تحقيق سلامة.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾...﴾، وقال ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ والآيات في هذا كثيرة»[١]. اهـ.

فتأمل قوله: «لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم!»، وقوله: «ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا»!!، بل تأمل قوله: «كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره..؟»، كيف جعلهم ما بين جاحدين لنعمه وإحسانه، وما بين جاحدين لوجوده أو عابدين لسواه حيث اتخذوا تلك الأصنام آلهة لكونهم اعتقدوا أنها تكلؤهم أو تمنعهم من دونه تعالى!!

وهذا مثله قول الطبري: «وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، **إنكارًا منهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم**»[٢]. اهـ. ونحوه قول ابن تيمية نفسه: «**والعرب وإن كانوا مشركين** لم يكن الظاهر فيهم **التعطيل للصانع** وإن كان قد **يكون في أضعافهم** من هو من **المرتابين في الصانع أو الجاحدين له**..»[٣]. اهـ.

وهكذا نرى أن لابن كثير عدة نصوص، بعضها ينسب فيها بوضوح توحيد الربوبية إلى المشركين عند تفسيره لآيات الباب، وبعضها ينسب إليهم جحود وجوده تعالى، وبالتالي فيكون كلامه عند تفسير آيات الباب الثمانية خاص ببعض مشركي العرب، بدليل كلامه في المواضع الأخرى، أو أن إقرارهم بالله - الذي ذكره في تفسيره لآيات الباب الثمانية - مشروط بشروط لم تتحقق كما سبق، أو محمولة على معرفتهم الفطرية بالله على ما بيناه في موضعه[٤]. والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٢)، تحقيق سلامة.

(٢) جامع البيان (٢١/ ٩٦).

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/ ٧٢).

(٤) انظر (ص: ١٠٤).

## رابعاً: الجواب عن قول الرازي أن المشركين «كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله»

أما ما قاله الفخر الرازي من أن المشركين «**كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله**»، فهذا لم يقله أثناء تفسيره لآيات الباب الثمانية وهي ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾، وإنما جاء في تفسيره لآيات «فاطر» وهي ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ...﴾، وقد قيل بأن الرازي وصل في تفسيره إلى سورة الأنبياء[1]، **فيكون ما وقع في تفسير** «فاطر» **ليس من كلام الرازي أصلاً**، وإنما هو من كلام من أكمل تفسيره، لأن سورة «فاطر» بعد سورة الأنبياء بكثير.

---

(١) وقيل غير ذلك، قال د. حسين الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ٢٠٧) عن تفسير الرازي: «يقول ابن قاضي شُهبة: **إنه - أي الفخر الرازي - لم يتمه**، كما يقول ذلك ابن خلكان فى وفيات الأعيان، إذن فمَن الذي أكمل هذا التفسير؟ **وإلى أي موضع من القرآن وصل الفخر الرازى فى تفسيره؟** الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلاً حاسماً، لتضارب أقوال العلماء فى هذا الموضوع، فابن حجر العسقلانى، فى كتابه الدرر الكامنة.. يقول: «الذي أكمل تفسير فخر الدين الرازي، هو أحمدُ بن محمد.. القمولي، مات سنة ٧٢٧ هـ.. وصاحب كشف الظنون يقول: «وصنَّف الشيخ.. القمولى تكملة له، وتوفى سنة ٧٢٧ هـ، وقاضى القضاة شهاب الدين بن خليل الخويى الدمشقي، كمَّل ما نقص منه أيضاً، وتوفى سنة ٦٣٩ هـ.. وأما إلى أي موضع وصل الفخر فى تفسيره؟ فهذه كالأولى أيضاً، وذلك لأننا وجدنا على هامش كشف الظنون ما نصه: «الذي رأيته بخط السيد مرتضى نقلاً عن شرح الشفا للشهاب، **أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء**».. والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أن الإمام فخر الدين، **كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء**، فأتى بعده شهاب الدين الخُوَيّي، فشرع فى تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه. كما يجوز أن يكون الخويى أكمله إلى النهاية، والقمولى كتب تكملة أخرى غير التى كتبها الخويى. اهـ
وانظر بحثاً ضافياً حول الموضوع على الرابط:
https://ar.wikisource.org/wiki/السؤال_الأول:_ألم_يكمل_الفخر_الرازي_تفسيره؟#بحث_حول_تفسير_الفخر_الرازي

حتى إن سلمنا أنه من كلامه فهذا - أي قوله «كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله» - إن كان مأخوذاً من آيات الباب الثمانية فلا دليل فيها على التوحيد قط، غاية ما فيها أنهم سيقرون بالله خالقا إن سئلوا دون أن يتعرضوا لقضية التوحيد، كما سبق بيانه، وهذا ذكره الرازي نفسه في تفسيره لآيات الباب الثمانية وفي غيرها، ونسوق بعض نصوصه فيها:

١) قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال: ولئن سألتهم من خلق.. **بيَّن أنهم مع إقرارهم بذلك، جعلوا له من عباده جزءاً**، والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم»(١).

٢) وقال: «فقوله ولئن سألتهم يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار، **فبين تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم**، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره **وينكرون قدرته على البعث**»(٢).

٣) **وقال**: «إن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله»(٣).

٤) **وقال أيضاً**: «**وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً**، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٢٠١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ١٩٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٤/ ٢٢٦).

٥) **وقال**: «**دلائل وجود الله تعالى ظاهرة**.. ولذلك قال تعالى في صفة الكفار: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[١].

٦) وقال: «فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله، وملكه وتحت تصرفه وقهره وقدرته بهذا المعنى كما قال: ولئن سألتهم من خلق..»[٢]. اهـ.

٧) وقال: «القوم كانوا **معترفين بوجود الله تعالى** كما قال: ولئن سألتهم من خلق.. وما أطلقوا لفظ الله على أحد سوى الله سبحانه»[٣]. اهـ.

٨) وقال: «**كانوا مقرين بوجود الإله** بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾»[٤].

٩) **وقال**: «فبين تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم..»[٥].

**ففي كل هذه النصوص** لا نجد الرازي ينسب إلى المشركين سوى مجرد الإقرار بوجود الله، أو أنهم مقرون بالإله والخالق، وأما قضية التوحيد فلا نجده ينسبها إليهم في هذه النصوص والتي تعرض في بعضها لتفسير بعض آيات الباب الثمانية!

وأما قوله: «كانوا مقرين بوجود الإله.. إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكا في المعبودية» فهذا ليس فيه سوى أنهم مقرون بوجود الله كإلهٍ من ضمن آلهةٍ كثيرة، وهذا معنى قوله «كانوا يثبتون له شريكا في المعبودية»، وليس في هذا

(١) مفاتيح الغيب (١٨/ ١١).
(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ١٧٤).
(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣٠).
(٤) مفاتيح الغيب (١٨/ ٢٢٨).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ١٩٧).

أنهم مقرُّون بأن الله هو وحده الخالق والمؤثِّر والضار والنافع وإلا لما اتخذوا سواه إلهاً، إذ هم ما اتخذوا الآلهة من دونه تعالى إلا بعد أن أشركوهم مع الله الخلق والضر والنفع والتأثير كما بسطناه مراراً.

وهذا نصَّ عليه الرازي نفسه حيث قال في تفسيره لسورة الفاتحة «كل من اتخذ لله شريكاً فإنه لا بد وأن يكون مُقدِماً على عبادة ذلك الشريك من بعض الوجوه، إما طلباً لنفعه، أو هرباً من ضرره»[١]. اهـ. فتأمل كيف ربط اتخاذ الشريك وعبادته باعتقاد نفعه وضره؟!!

**خامساً: الجواب عن قول أبي جعفر الغرناطي «كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه بخلق السماوات والأرض»**

ذكر ابن الزبير الغرناطي أن المقصود من آيات الباب الثمانية «هو تقريرهم على ما كانوا يعترفون به من **انفراده سبحانه بخلق** السماوات والأرض واعترافهم بذلك **إن سئلوا**، ثم أتبع ذلك.. بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ...﴾، فأعلم تعالى أنهم لو سئلوا أيضاً عن هذا لاعترفوا»[٢].

وقال في موضع آخر: «إن تذكيرهم ورد أولاً بذكر ما كانوا يقرون **ولا يتوقفون فيه وهو ملكه سبحانه الأرض** ومن فيها قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، والخالق مالك لما خلقه، فكأن قد قيل لهم: **إذا علمتم بانفراده سبحانه** بذلك فهلا أفردتموه بالعبادة واستدللتم بالبدأة على العودة (أفلا تذكرون)؟ **ثم ذكروا بربوبيته** سبحانه وملكه السماوات

(١) مفاتيح الغيب (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٩١).

والسبع والعرش، فاعترفوا إلى اعترافهم بما تقدم وإقرارهم بملكه لما ذكر وقدرته وقهره»[1].

**فالجواب عنه ما** قاله هو نفسه في تتمة الموضع الثاني: ولو سبقت لهم سعادة لكان **تذكرهم لذلك يؤثر خوفهم من عذابه**، فلما لم يقع ذلك منهم قيل لهم: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ...﴾ ثم ذكر اعترافهم بهذا في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما تم تقريرهم على جميع ما تقدم مما ذكروا به، واعترافهم بكل ذلك، ولم يعقبهم إقرارهم ولا اعترافهم: **الإيمان والانقياد**، كانوا كمن **فقد عقله أو سحر**، فاختل نظره وعقله، فقيل لهم كيف تسحرون ما بالكم أنى تسحرون؟... فقد وضح تناسب هذا كله، وتبين التحامه»[2].

فتأمل قوله «ولو سبقت لهم سعادة لكان **تذكرهم لذلك يؤثر خوفهم من عذابه، فلما لم يقع ذلك منهم** قيل لهم: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ...﴾ ولم يعقبهم إقرارهم **ولا اعترافهم: الإيمان والانقياد**، كانوا **كمن فقد عقله أو سحر**...».

قال وليد - أمده الله بمدده -: فتأمل **كيف صرح أن إقرارهم لا ثمرة له من خوف ولا إيمان ولا إذعان أو انقياد!!** وإنما هو إقرارٌ أو علمٌ مجرد بوجوده تعالى وخالقيته وأنه واحد في ذلك، ولكن العلم ما لم تعقبه ثمرة ما فائدته؟ ولذا «**كانوا كمن فقد عقله أو سُحر..**» كما قال الغرناطي نفسه!

وقد قلنا بأن المشركين لا يعلمون أنه تعالى لا خالق سواه فحسب، بل يعلمون أنه لا إله إلا الله كما قرر ذلك الطبري وابن تيمية وابن القيم[3] بيد أن المشركين لا يذعنون لما علموه من وحدانيته في الألوهية ولا في الربوبية!!!

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٧١).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٧١).

(٣) انظر (ص: ٣٦٠-٣٦١).

**سادساً: الجواب عن قول النسفي بأنه الآية إلزام لهم على اقرارهم بأن الله وحده**

قول النسفي بأن آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾: «إلزامٌ لهم على اقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض **هو الله وحده** وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره ثم قال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا»[(١)].

**فالجواب عنه** ما قاله النسفي نفسه في موضع آخر: المراد «﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به **ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن إقرارا عاطلا كإقرار المشركين**»[(٢)]. اهـ.

فبين رحمه الله أن إقرارهم بالله وتوحيده هو إقرار عاطل! لأنه لم يَقدهم إلى الإيمان ولا هم أذعنوا لما علموا من وحدانيته! فهو مجرد علم كعلم أهل الكتاب بصدق النبي كما سبق بيانه.

**سابعاً: الجواب عن قول البقاعي بأنهم قالوا «الذي خلقها الله أي وحده»**

ما قاله البقاعي في تفسيره لآية «الزمر» ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الزمر: ٣٨]، وهو قوله: «﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بعد تخويفهم لك بشركائهم الذين هم من جملة خلق من أرسلك بما أنت فيه: الذي خلقها ﴿ٱللَّهُ ۚ﴾ **أي وحده** الذي لا سمي له ولا إلباس بوجه في أمره، ولا يصدهم عن ذلك الحياء من التناقض ولا الخوف من التهافت بالتعارض». اهـ. وموضع

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٧١٩).
(٢) تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٢/ ٦٨٥).

الشاهد هنا هو قوله «﴿ٱللَّهُ﴾ **أي وحده** «فذكر كلمة «وحده» مفسرا بها الآية، **والجواب عن كلام البقاعي هذا من وجهين:**

الأول: هو أن البقاعي لم ينسب إلى المشركين أنهم قالوا فعلاً بألسنتهم: الله هو الخالق وحده، ولا قال البقاعي بأن الآية تدل على ذلك، كيف وهو نفسه يقول في تفسير سورة «الجن»: ولما كان التقدير: فَضلَّ كل من الفريقين بالآخر ضلالاً بعيداً حتى أبعدوا عن الشرائع النبوية، واعتقدوا ما لا يجوز اعتقاده من التعطيل واعتقاد الطبيعة، فلا يزال الأمر هكذا؛ أرحام تدفع وأرض تبلع، ولا رسول يهديهم ولا بعث للأرض على بارئهم(١). اهـ.

فتأمل قوله «واعتقدوا ما لا يجوز اعتقاده من التعطيل واعتقاد الطبيعة» كيف نسب إليهم تعطيل الصانع واعتقاد الدهرية بالطبيعة، وأنها «أرحام تدفع وأرض تبلع»!!

وأما هناك في تفسيره لبعض آيات الباب الثمانية فهو إنما كان يفسر جوابَ الشرط في الآية؛ لأن الآية - كما ذكرنا سابقا - بصيغة الشرط وهي أنك إن سألت المشركين عن الخالق سيقولون هو الله، وهذا ليس فيه أنه سألهم ولا أنهم قالوا ذلك كما سبق بيانه مبسوطا، فهنا فسّر البقاعي جواب الشرط على فرض وقوعه وهو «لَيَقُولُنَّ اللهُ»: «أي وحده»، فجاء بكلمة «وحده» كتأكيد وتفسير لجواب الشرط المفترض!! وهذا واضح من أداة «أي» التفسيرية، أي أن المشركين إن سئلوا عن الخالق سيقولون هو الله، وهم يقصدون أن الله وحده هو الخالق!!

هكذا أراد البقاعي أن يفسر الآية ويفسر جواب المشركين المفترض،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٤٧٤).

وليس في هذا كله - كما ترى - أن المشركين قالوا فعلاً بألسنتهم بأن الله وحده هو الخالق، لأن الآية جاءت بصيغة الشرط كما قلنا مراراً، وليس فيه أيضاً أنهم سيقولون بألسنتهم بأن الله وحده هو الخالق، لأن كلمة «وحده» جاءت تفسيراً من البقاعي كما رأينا وليست من أصل كلام المشركين.

ولكن السؤال من أين أتى البقاعي بكلمة «وحده» التفسيرية؟! وهل في الآية ما يدل عليها؟ قلنا فيما سبق لا شيء يدل على ذلك في آيات الباب الثمانية، فلا دليل فيها على كلمة «وحده» ولا على التوحيد. فإما أن يكون البقاعي أخذها من بعض أحاديث الفطرة التي تدل على أن الأصل في الإنسان التوحيد[1]، وهذا يدل عليه قول البقاعي نفسه «مع ما ركز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك»، وبالتالي يكون البقاعي قد قصد أن جوابهم الفطري هو أن الله وحده الخالق، وسيأتي قوله «مع ما ركز. . .» بتمامه مع التعليق عليه.

أو لعل البقاعي فهِم ذلك من قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ على اعتبار - كما سبق[2] - أن المشركين لو سئلوا عن الخالق فلن يقولوا: الخالق هو أصنامنا، ولن يقولوا أيضاً: الخالق هو الله وأصنامنا، وإنما سيقولون: الله، ولن يزيدوا على ذلك، ولن يذكروا في جوابهم سوى الله خالقا كالأصنام أو الكواكب، فلعل البقاعي أتى بكلمة «وحده» من هنا!!

بيد أن هذا الاستنباط غير مسلَّم، لأن غايته هو أخذٌ بالمفهوم، وهو مفهوم اللقب وهو أضعف المفاهيم حجية كما سبق، فضلاً عن أنه عارضه منطوق، حيث جاءت آيات عديدة صريحة في أن المشركين يفرون ويشمئزون

---

(١) مثل حديث صحيح مسلم (٤/٢١٩٧): «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا».

(٢) انظر (ص: ٢٩٢).

من ذكر الله وحده كما بسطناه في موضع آخر[1]، علاوة عن أن السلفية يشترطون في التوحيد النفي والإثبات، بل هم اشترطوا ثمانية شروط فوق ذلك كما سبق!!

الثاني: أن قول البقاعي بعد ذلك «ولا يصدهم عن ذلك الحياء من التناقض ولا الخوف من التهافت بالتعارض» صريح في أن المشركين متناقضون متهافتون حين يقولون الله خالقهم ثم يتخذون من دونه الأصنام آلهةً وأرباباً! وينسبون إلى الله الولد!! وبالتالي فإن إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده - إن سُلِّم أنهم أقروا بذلك - قد خالفوه ونقضوه كما أشار إلى ذلك البقاعي نفسه في تفسيره لآيات الباب الأخرى!!

فقال البقاعي عند آية: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي كيف ومن أي جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والأمر ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أي يقلبون عن وجوه الأمور إلى أقفائها.. فيدعون أن له شريكاً تارةً بالولدية، وتارةً بغيرها، مع ما ركز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك له لأن له الخلق والأمر كله»[2]. اهـ.

وقال البقاعي أيضاً عند قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]: «﴿قُلِ﴾ معجباً منهم في جمودهم حيث يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون.. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يتجدد لهم عقل، بعضهم مطلقاً لأنه مات كافراً حيث هم مقرون بمعنى الحمد من أنه الخالق لكل شيء بدءاً وإعادة ثم يفعلون ما ينافي ذلك فيشركون به غيره

(١) انظر (ص: ٣٥).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٧/ ٤٩٧).

مما هم معترفون بأنه خلقه، ولا يتوكلون في جميع الأمور براً وبحراً عليه، ويوجهون العبادة خالصة إليه»[١].

فتأمل قوله «حيث يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون... ثم يفعلون ما ينافي ذلك فيشركون «تأمل كيف بيّن تناقضهم في التوحيد!

لا يقال: لعل البقاعي قصد بقوله «فيشركون» أي في العبادة بدليل قوله بعد ذلك «ويوجهون العبادة خالصة إليه»!! لأننا نقول: هو ذكر أيضاً الشرك باعتقادهم الولد له سبحانه وذلك قوله «فيدعون أن له شريكاً تارة بالولدية، وتارة بغيرها»، فقوله هذا صريح في أن شركهم أعم من أن يكون شركاً في العبادة فقط.

فضلا عن أن قوله السابق «مع ما ركز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك» يفسر لنا أن التوحيد الذي ينسبه البقاعي للمشركين وهو التوحيد الفطري!!! وقد قلنا إذا عاد الأمر إلى الفطرة فإن الإنسان بحكم الفطرة موحد في الألوهية وفي الربوبية معا كما قرر ذلك ابن تيمية وابن القيم وقد سبق ذلك[٢].

**ثامناً: الجواب عن كلام أبي السعود في تفسيره «معترفين بأنه الموجد للمكنات بأسرها»**

**أما قول أبي السعود:** «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **معترفين بأنه الموجد** للمكنات بأسرها أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً»[٣].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤/ ٤٧٣).
(٢) انظر (ص: ١٦٥).
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٤٦).

فالجواب عنه أن كلامه هذا لا يدل على أن أبا السعود فهم من الآية أن المشركين موحدون في الربوبية، فلم يقل بأنهم يعترفون بأنه **تعالى وحده** «**الموجد** للمكنات بأسرها أصولها وفروعها . .»، بل قوله «ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي **لا يكاد** يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلا «فيه إشارة إلى شركهم حتى في الخالقية كما هو ظاهر.

ثم حتى لو سلم أن قوله «**معترفين بأنه الموجد** للمكنات . .» فيه نسبة توحيد الربوبية لهم، فهو يقصد أنهم يعلمون أنه الخالق وحده دون أن يذعنوا لهذه الحقيقة كما بسطناه مراراً.

## الجواب عن قول أبي السعود «بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى»

وأما قول أبي السعود: «**وقيل المراد نفي** أن يكون معه تعالى إله آخر فيما ذكر من الخلق[1] . . . كيف لا؟ **وهم لا ينكرونه** حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ بل **بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى**.[2]. اهـ.

فالجواب أن أبا السعود أورد هذا القول من جملة احتمالات وأقوال أخرى في تفسير قوله تعالى ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ صدّرها كما ترى بقوله «وقيل . .»، ومن الأقوال التي أوردها أيضاً قوله: «وقيل المعنى: أغيره يُقرن

(١) كذا في الأصل من تفسير أبي السعود «من الخلق»، وفي تفسير الألوسي روح المعاني (١٠/ ٢١٦): «في الخلق». اهـ وربما الثاني هو الصواب كما هو واضح من السياق، لأن المراد نفي أن يكون معه تعالى إله آخر في الخلق. والله أعلم.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٢٩٤).

به، ويجعل له شريكا في العبادة، مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين؟! فالإنكار للتوبيخ والتبكيت»[١]، وليس في هذا القول نسبة التوحيد في الربوبية إلى المشركين، وإنما فيه أن الله هو وحده الخالق في واقع الأمر - أي بغض النظر هم يعتقدون هذا أم لا - فلم يُعبد غيره؟!!

وهذا القول الذي أورده أبو السعود هو ما جزم به البيضاوي[٢] والشوكاني[٣] وأستاذنا د. الزحيلي[٤]، رحم الله الجميع، بيد أن أبا السعود لم يرجحه وإنما رجح في نهاية المطاف المعنى الذي ذكره أولاً وهو قوله: «﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي أإله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى في العبادة، وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركونه به تعالى»[٥]، وهذا كما ترى ليس فيه أيضاً نسبة توحيد الربوبية إلى المشركين، وهو بالمناسبة قريب من القول الذي قبله الذي جزم به البيضاوي ومن معه.

**تاسعاً: الجواب عن قول السيالكوتي بأنهم اعترفوا بأن «بان الخلق الذي هو مناط العبادة منفرد به ذاته تعالى»**

قوله «**بأنكم اعترفتم بان الخلق (أي الخالقية)** الذي هو مناط العبادة منفرد به ذاته تعالى فيكون العبادة مختصة به» فهذا الاعتراف يُحمل على الاعتراف القلبي الفطري كما قال البيضاوي - الذي ينقل عنه السيالكوتي - «فهم مقرُّون به بقلوبهم» كما سيأتي في الفقرة التالية، وإلا فهم لم يصرحوا

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٩٤).
(٢) تفسير البيضاوي (٤/ ١٦٤).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٦٨).
(٤) التفسير المنير للزحيلي (٢٠/ ٩).
(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٩٤).

بألسنتهم بأنه الخالق وحده كما بسطناه مراراً. وقد قلنا بأن الفطرة تقتضي التوحيد في الألوهية والربوبية معا كما ذكر ذلك ابن تيمية.

وأما قوله «قال القاضى فى سورة لقمان فى تفسير قوله تعالى (ليقولن الله) لوضوح الدليل المانع من اسناد الخلق الى غيره بحيث اضطرهم الى اذعانه» فجوابه:

**أولاً**: أن هذا نقله هنا عن القاضي أي البيضاوي، وقد رأينا أن القاضي البيضاوي لم ينسب إليهم توحيد الربوبية، بل جعلهم مترددين في الإقرار بالله فقال «وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو **تلعثموا في الجواب** مخافة الإلزام فهم مقرون به بقلوبهم»[1]، وثمة نصوص أخرى له سبقت في ذلك[2].

**ثانياً**: قوله «لوضوح الدليل المانع من اسناد الخلق الى غيره»، هذا هنا يتكلم عن الدليل العقلي على أنه الخالق وحده.

**ثالثاً**: قوله «بحيث اضطرهم الى اذعانه» فهذا فيه أنهم اضطروا للإقرار والإذعان بذلك وهذا - أي الاضطرار - ما كنتم أنكرتموه كما سبق بيانه[3]!!

**عاشراً: الجواب عن قول جواد علي «أن قريشًا كانوا يؤمنون بإله واحد خلق الكون»**

**وأما ما قاله د. جواد علي** وهو قوله: «**ويظهر من القرآن الكريم، أن قريشًا كانوا يؤمنون بإله واحد خلق الكون**، وهو رب السماوات والأرض. ففي سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾».

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/٢٤٧).

(٢) انظر (ص: ٥٦-٥٧).

(٣) انظر (ص: ٣١٥).

**فالجواب**: أن جواد علي قال «أن قريشًا كانوا يؤمنون **بإله واحد** خلق الكون» ولم يقل كما هو المفروض - وفقا لنظرية تقسيم التوحيد - «يؤمنون **برب واحد** خلق الكون»!! أي عنده الرب والإله مترادفان كما يبدو، وهذا خلاف الأصل الذي قامت عليه نظرية تقسيم التوحيد وهو التباين بين الكلمتين كما بسطناها في كتابنا «تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله».

وبالنسبة لاستدلاله بآية «العنكبوت» على توحيد المشركين فهو في غير محله لأنه لا توحيد في هذه الآية ولا في غيرها من آيات الباب الثمانية كما قلنا بذلك مرارا، وإنما فيها الكلام عن وجود الله فحسب واعتراف المشركين المفترض بذلك.

وهذا ما قاله جواد علي نفسه بعد ذلك حيث إنه سرد آيات الباب ثم قال: «وهناك آيات أخرى على هذا النحو، فيها **أسئلة موجهة إلى المشركين عن خلق السماوات والأرض**، وأجوبة على ألسنتهم **فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله**. وفي القرآن الكريم أيضاً **أن قريشاً كانت تعتقد أن الله** هو الذي ينزل المطر ويحيي الأرض بعد موتها، وفيه أنهم كانوا يقسمون به».

فأنت ترى أن جواد علي لم يتحدث هنا على التوحيد قط ولا على اعتراف المشركين به، وإنما غاية ما فيه أن المشركين مقرون بوجود الله وأنه الخالق المنزل للمطر وللمحيي للأرض بعد موتها.

بل صرَّح بعد ذلك جواد علي بأن المشركين «**جعلوا له بنات وبنين وشركاء الجن**»[١]. اهـ. يعني أن المشركين نقضوا توحيدهم المزعوم - إن سُلِّم - بافترائهم على الله بنسبتهم الأولاد إلى الله.

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي (١١/ ١٠٣).

# خلاصة

وهكذا أكون قد أجبت عن النصوص السابقة عن ابن عباس ومقاتل والطبري والواحدي والرازي وابن كثير وابن الزبير الغرناطي والنسفي والبقاعي وجواد علي، والتي تضمنت نسبة التوحيد بشكل ما إلى المشركين بحجة آيات الباب الثمانية ونحوها، وكان خلاصة الجواب عن النصوص السابقة:

١) أن بعض هذه النصوص لم تصح أصلاً مثل نص ابن عباس رضي الله عنه، أو في صحتها نظر مثل كلام الرازي في تفسير سورة «فاطر» فقد قيل هو أصلا وصل في تفسيره إلى ما قبل ذلك وهو سورة الأنبياء، ثم أُكمل من بعده.

٢) أن معظم هذه النصوص كان له سياق معين وضحناه، مثل كلام الواحدي حيث كان يشرح كلام ابن عباس الذي لم يثبت عنه أصلاً كما سبق.

٣) أن كثيراً من تلك النصوص ليست دلالتها قاطعة، إذ قد يقصد أولئك العلماء في نصوصهم تلك بنسبة التوحيد للمشركين أنهم مفطورون عليه أو أنهم يعلمون به، ولكن قد قلنا أن هذا غير كاف لنسبة توحيد الربوبية إليهم ما لم يذعنوا له، وإلا لوجب أن تقولوا بأنهم موحدون في الألوهية أيضاً؛ لمجرد أنهم مفطورون أيضاً على توحيد الألوهية وعالمون بأحقيته كما بسطناه في موضعه.

٤) أن معظم هؤلاء العلماء لهم نصوص أخرى تثبت شرك المشركين في الربوبية، بل بعضهم نصوا على أنهم جاحدون للرب نفسه، وذلك مثل

ما ذكره الطبري وابن كثير، حتى ابن تيمية نفسه ذكر أن بعض العرب جحدوا وجود الصانع وإن كان الأغلب عنده أنهم مثبتون له!! وهذا يؤيد ما رجحناه من أن التوحيد الذي نسبه أولئك العلماء للمشركين إنما هو من حيث المبدأ وبحسب الفطرة التي قد تنحرف وتتغير.

٥) أن العبرة بالدليل لا بالقائل، فهؤلاء العلماء استدلوا بآيات الباب الثمانية على نسبة التوحيد للمشركين، بيد أننا بينا على طول هذا الكتاب أن تلك الآيات لا تدل ذلك.

وننتقل الآن إلى المطلب التالي.

❀ ❀ ❀

## المطلب الرابع

# دعوى أن آيات الباب الثمانية تدل على التوحيد بالمفهوم لا المنطوق

قد يقال إن آيات الباب الثمانية وإن كانت لا تدل بالمنطوق على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، ولكن تدل بالمفهوم، وذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: إن المشركين لو كانوا يعتقدون أن أصنامهم تخلق لقالوا حين سئلوا عن خالقهم وخالق السموات والأرض وما بينهما: «نعم نؤمن بأن أصنامنا خالقة معك، وهم لم ولن يقولوا ذلك... فهم يعترفون بأن الله هو الرب وحده..»[1]. اهـ.

الوجه الثاني: قوله تعالى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥] يدل على إقرارهم بتوحيد الربوبية، إذ اللام في«لله» من قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ قد يقال إنها لام الاختصاص، فيكون معنى الآية: السماوات السبع مختصة بالله وحده، وذلك كما قال المفسرون في اللام التي في لفظ الجلالة من الحمدلة الواقعة في سورة الفاتحة وغيرها، فقوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يدل -كما قال الزمخشري -: «على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق»، وأنه ليس «أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو اهله»[2]،

(١) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ٨٤).
(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ٥٥).

قال ابن عاشور تعقيبا عليه: قوله: «الحمد» ولام الاختصاص في قوله: «لله» يستلزم انحصار أفراد الحمد في التعلق باسم الله تعالى لأنه إذا اختص الجنسُ اختصت الأفراد؛ إذ لو تحقق فرد من أفراد الحمد لغير الله تعالى لتحقق الجنس في ضمنه فلا يتم معنى اختصاص الجنس المستفاد من لام الاختصاص الداخلة على اسم الجلالة، ثم هذا الاختصاص اختصاص ادعائي فهو بمنزلة القصر الادعائي للمبالغة(١). اهـ.

وقال الزمخشري عند قوله ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل: ٥]: «﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمْ﴾ أي ما خلقها إلا لكم(٢)، قال الطيبي: قوله: (ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم)، دل على الحصر لام الاختصاص في (لَكُم)»(٣). اهـ.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩] فقوله ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، دليلٌ على أنهم يُسلِّمون بأن كل شيءٍ بيد الله وملك له، وهذا يعني أنهم لم ينسبوا ملك أي شيء لأصنامهم، وهذا هو التوحيد في الربوبية.

فهذه الأوجه الثلاثة أقصى ما قد يقال في إفادة الآيات الثمانية لإقرار المشركين بتوحيد في الربوبية، ذكرتها للإنصاف مع أني لم أرها في كتب السلفية، وفيما يلي الجواب عليها، في ثلاثة مراصد، كل واحدة في مرصد. وبالله التوفيق.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٦٠).
(٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٩٤).
(٣) حاشية الطيبي على الكشاف «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» (٩/ ٧٨).

## المرصد الأول

# دعوى «أنهم لم يقولوا أصنامنا خالقة مع الله»

وهذا سبق الجواب عنه في ردنا على دمشقية[1]، ولكن وجدت قولاً لبعض المفسرين مشابهاً لقول دمشقية، وهو للإمام الماتريدي في تفسيره، أورده مع الجواب عنه.

## الجواب عن قول الماتريدي: «تعلمون أن الله هو فطرنا وخلقنا لا الأصنام»

ولكن نزيد الأمر بيانا هنا، فنجيب عن قول مشابه وهو قول **الماتريدي** حيث قال في تفسير سورة يس «ثم تعلمون أن **الله هو فطرنا وخلقنا لا الأصنام** التي تعبدونها»، فقوله هذا يمكن أن يستدل به على أن المشركين كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق لا الأصنام، وأنهم حينما يسألون عن الخالق فسيقولون إنه الله، ولن يقولوا: الأصنام، كما قال دمشقية.

**والجواب:**

أولاً: إن هذا أحد وجهين ذكرهما الماتريدي لآية ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي

---

(١) انظر (ص: ٢٥٣).

فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢٢]، فأورد وجهين في معناها، أحدهما ما سبق، وكلامه بتمامه: «وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يخرج على وجهين:

**أحدهما**: . . إنكم **تعبدون هذه الأصنام رجاء أن يقربكم ذلك إلى الله زلفى**، وما لي لا أعبد الذي ترجون أنتم الزلفى والقربة منه؟!

**والثاني**: . . **أنتم تعلمون أن الذي فطرنا وخلقنا هو المستحق للعبادة** لا من لم يفطر ولم يخلق، ثم تعلمون أن **الله هو فطرنا وخلقنا لا الأصنام** التي تعبدونها، وما لي لا أعبد الذي فطرنا وأترك الذي لم يفطرنا؟!»[1]. اهـ.

أي أن الآية محتملة عنده لكلا المعنيين:

**الأول**: ليس فيه قضية توحيد الربوبية أصلاً وهو قول الماتريدي «وما لي لا أعبد الذي ترجون أنتم الزلفى والقربة منه».

**والثاني** قوله: «تعلمون أن الله هو فطرنا وخلقنا لا الأصنام» ولكن هذا الوجه لا يساعده ظاهر الآية، فإنه قال فيها: «وما لي لا أعبد الذي فطرني»، ولم يقل «الذي فطرنا» كما ترى.

**ثانياً**: أن الماتريدي قال «**تعلمون** أن **الله هو فطرنا** . . .»، فهم عنده يعلمون بالله الخالق، ولكن لا يذعنون، بدليل أنهم يعلمون أنه لا إله إلا الله، محمد رسول الله كما بسطته في موضعه!!

**ثالثاً**: أن الماتريدي أشار في تفسيره لسياق الآيات أن المشركين يعتقدون في أصنامهم الضر والنفع ولذا كانوا يخوِّفون بها الناس، وهذا ما أشارت إليه الآيات.

---

(١) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٥١٢).

حيث قال الماتريدي مثلا: «وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾، يقول: أأتخذ من دون الله معبودا لو أراد الله بي ضراً لم يملك ذلك المعبود دفع ذلك عني، **ولو نزل بي شدة أو بلاء منه، لم يقدر استنقاذي منه**، ولو طلبت منه جر نفع لم يقدر على جلبه إلي، وأترك عبادة من أعلم أن ذلك كله منه، وهو المالك لذلك كله: **من جر نفع، ودفع ضر وبلاء**، وفي الحكمة: **العبادة لمن يملك ذلك كله لا لمن لا يملك**.. ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾، يحتمل قوله: (فاسمعون).. أي: اسمعوا قولي وإيماني، **لا يمنعني عنه ما تخوفونني**»[1].

فتأمل قوله بعد أن بيَّن أن الله وحده هو المالك للضر والنفع لا الأصنام: «لا يمنعني عنه ما تخوفونني»، أي ما تخوفونني به من أن أصنامكم ستمسني بسوء إن كفرت بها، وهو كما قال تعالى ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود: ٥٤]».

❀ ❀ ❀

(١) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٥١٢).

## المرصد الثاني

# دعوى أن «لام» ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.. هي للاختصاص والحصر

**وجوابها** أن لام الاختصاص اختلف العلماء في معناها، وفي الفرق بينها وبين لام الاستحقاق، واختلفوا في إفادة الاختصاص للحصر، واختلفوا أيضاً في لام الجر التي في لفظ الجلالة من الحمدلة، وفيما يلي بسط هذه الخلافات الثلاثة:

## الخلاف الأول: في الفرق بين لام الاختصاص ولام الاستحقاق

فقد اختلف في معنى الاختصاص والفرق بينها وبين لام الاستحقاق، **فقيل: معنى لام** «الاختصاص نحو: هذا ابن لزيد، أو هذا أخ لزيد، أو هذا صاحب لزيد، ومنه قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾، وتعرف لام لاختصاص بإضافة ما لا يَقبل الملك لمن يَقبل الملك»[1]. اهـ. وقيل: وهي تدخل بين شيئين، الثاني منهما لا يملك، مثل السرج للدابة[2].

وقد اختلف العلماء في الفرق بين لام الاختصاص ولام الاستحقاق،

(١) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (٢/ ٢٤٥).

(٢) إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك (١/ ٤٤٧)، برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (المتوفى ٧٦٧ هـ). التحفة السنية شرح المقدمة الآجرومية لمحمد محيى الدين عبدالحميد (ص: ١٤).

فمن قائل أنهما بمعنى واحد ومن قائلٍ بالفرق بينهما، أي لدينا قولان في المسألة ولكن يتفرعان إلى أقوال أخرى وفيما يلي بيان ذلك:

**القول الأول**: أن لام الاختصاص هي نفسها لام الاستحقاق، لأن «لام الاستحقاق تفيد الاختصاص»(١)، ولكن اختلف فيها هل تدخل بين ذات ومعنى، أم هي أعم من ذلك؟ فقيل هي التي تدخل بين ذات ومعنى فقط، وفي هذا يقول قال الغلاييني: «الاختصاصُ، **وتُسمَّى لامَ الاختصاصِ، ولامَ الاستحقاقِ** - وهي الداخلة بين معنًى وذات - نحو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والنجاحُ للعاملين، ومنه قولهم «الفصاحةُ لِقُريش، والصبَاحةُ لِبَني هاشمٍ»(٢).

وقيل: هي التي «**تقع**: **إما بين ذاتين** والثانية منهما لا تملك ملكاً حقيقياً؛ وإنما تختص بالأولى، وتقتصر الأولى عليها، دون تملك حقيقي من إحداهما للأخرى؛ نحو: «السرج للحصان - المفتاح للباب - الباب للبيت»، وإما قبلهما نحو: للصديق ولد نبيه، حيث تقدمت «اللام» على الذاتين..، **وإما بين معنى وذات**؛ نحو الحمد للأمهات، والشكر للوالدين.. وتسمى هذه اللام بصورها الثلاثة: **لام الاستحقاق، أو: لام الاختصاص**»(٣).

ونحوه ما قيل من أن: «معنى اللام الاختصاص، إما بالملكية نحو الدار لخالد، أو بغيرها نحو الجل للفرس. وذكر سيبويه أن معناها الملك والاستحقاق. وفصل المتأخرون فذكروا لها معاني يرجع **أكثرها إلى الاختصاص أو الاستحقاق**، فما ذكر لها من معان: الملك نحو: «له دار»، و﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وشبه الملك نحو: «الباب للدار»، و«الغلاف للكتاب»، لأن الكتاب والدار لا يملكان. والتمليك نحو: «وهبت

---

(١) شرح مختصر خليل للخرشي (٣/ ٦).

(٢) جامع الدروس العربية (٣/ ١٨٣).

(٣) النحو الوافي (٢/ ٤٧٢).

لك مالاً». وشبه التمليك نحو: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، لأن الولي وهو الولد لا يُملك حقيقة، وكلها تفيد الاختصاص»[١].

**القول الثاني**: أن لام الاختصاص أعم من لام الاستحقاق، أي أن لام الاستحقاق أحد أنواع لام الاختصاص، وبيانه أن الاختصاص الذي في لام الاختصاص له خمسة وجوه، وهذا ما ذهب إليه ناظر الجيش في شرحه على تسهيل ابن مالك، فإن هذا الأخير - أي ابن مالك - قال في تسهيله: «ومنها اللام للملك، وشبهه، وللتّمليك، وشبهه، **وللاستحقاق**، وللنّسب. . .» وذكر معاني أخرى للام.

فتعقبه ناظر الجيش بكلام طويل وما يهمنا منها قوله: «. . .أما الملك: فيقال فيه: إنه لم يستفد من اللام إنما استفيد من الكلام بجملته، وكذا تقول في خمسة المعاني الباقية أيضاً. **وبيان ذلك أن اللام إنما تفيد اختصاص الثاني بالأول** أي نسبته إليه. وهذا الاختصاص يكون على وجوه فقد يكون على جهة الملك أو التمليك أو شبههما أو **الاستحقاق** أو النسب، وكل من هذه المعاني يتبين بالقرائن المرشدة إليه، فإذا قيل: هذه الدار لزيد؛ فيهم[٢] اختصاص «زيد» بالدار، وليس ثمَّ قرينة ترشد إلى معنى من المعاني الخمسة فتعين كون المعنى على الملك. . .».

وإذا قلت: **وهبت لزيد ديناراً** فالمعنى خصصت زيدا بهبة الدينار، والتمليك إنما فهم من قولك: وهبت لا من اللام. . **وإذا قلت**: **الجلباب للجارية، والجل للفرس؛ كان الاختصاص فيه بسبب الاستحقاق**. وإذا قلت: لزيد عمٌّ هو لعمروٍ خال، ولعبدِ الله ابنٌ هو (لجعفر) حَمٌ؛ فالاختصاص فيه

(١) معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي (٣/ ٦٤)، دار الفكر بالأردن، ط١، ٢٠٠٠م.
(٢) كذا في المطبوع، وهو خطأ، والصواب «فُهِم».

في غاية الظهور، والنسب إنما استفيد من ذكر العمِّ والخال والابن والحم[1]. اهـ.

ثم قال ناظر الجيش عن المعاني الستة التي ذكرها ابن مالك للام من ضمن معاني كثيرة لها - وهي أن اللام للملك، وشبهه، وللتمليك، وشبهه، وللاستحقاق، وللنّسب - قال: «فقد ظهر أن **اللام لم تفد شيئاً من هذه المعاني الستة**، وإنما هي دالةٌ على **تخصيص مدخولها** بالمذكور معها أي نسبته وإضافته إليه، ودل الكلام الذي هي فيه على أن اختصاص المدخول بما ذكر أو نسبته وإضافته إليه إنما هو على معنى من المعاني الستة المذكورة»[2].

وحاصل ما سبق أن لام الاختصاص مختلف في معناها وفي الفرق بينها وبين لام الاستحقاق على أقوال، خلاصتها ما يلي:

١) أن لام الاختصاص هي التي تدخل بين شيئين، الثاني منهما لا يملك، مثل السرج للدابة.

٢) وقيل بأنها التي تأتي بين ذات ومعنى نحو الحمد لله.

٣) وقيل بأنها التي تكون بإضافة ما لا يَقبل الملك لمن يَقبل الملك مثل: للصديق ولد نبيه، فالولد الحر لا يُملَك، وأما الصديق فيَقبل أن يَملك.

٤) وقيل بأنها التي تقع بين ذاتين كالسرج للحصان، أو بين ذات ومعنى كالشكر للوالدين.

٥) وقيل بأن لام الاختصاص هي نفسها لام الاستحقاق.

---

(١) تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (٦/ ٢٩٢٨).
(٢) تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (٦/ ٢٩٢٩).

٦) وقيل أن لام الاختصاص له خمسة وجوه وهي: الملك أو التمليك أو شبههما أو **الاستحقاق** أو النسب، أي أن لام الاختصاص أعم من لام الاستحقاق.

وهكذا نرى أن لام الاختصاص مختلف في تسميتها، فمنهم من يسميها بلام الاستحقاق، ومنهم من يغاير بينهما، أي بين الاستحقاق والاختصاص على ما سبق من الأقوال، ولكن على القول بأنها تسمى لام الاختصاص فهل تفيد الحصر؟ خلاف نبسطه فيما يلي.

## الخلاف الثاني: في إفادة الاختصاص للحصر

ذهب جمهور العلماء - كما نسبه إليهم المرداوي، وابن النجار، وغيرهما[١] - إلى أن الاختصاص هو الحصر بعينه، وخالف البعض كالتقي السبكي[٢]، ففرق بينهما! وذهب إلى أنهما متباينان، وبناء على ذلك لم يجعل التقديم مفيدا الحصر، وجعله مفيدا الاختصاص.

**قال الزركشي**: «واعلم أن ظاهر كلام البيانيين أن الاختصاص، والحصر، والقصر بمعنى واحد، ولهذا يجعلون من الحصر تقديم الخبر، فهو عندهم مفيد للاختصاص والحصر. وحكى ابن الحاجب عن إمام الحرمين أنه استدل على أن مفهوم الصفة حجة بأنه لو لم يفد الحصر لم يفد الاختصاص به دون غيره، لأنه بمعناه. وخالفهم بعض المتأخرين، **وفرق بينهما بأن الاختصاص إعطاء الحكم لشيء والإعراض عما سواه، فهو مسكوت عنه،**

(١) انظر: عروس الأفراح (٢/ ١٥٥)، التحبير للمرداوي (٦/ ٢٩٦٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٢٤)، الضياء اللامع لحلولو (١/ ٢٨٠)، الكليات لأبي البقاء (ص: ٥٩)، حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع (١/ ٣٣٩).

(٢) انظر: عروس الأفراح (٢/ ١٥٥)، رفع الحاجب (٤/ ٢٤)، شرح الكوكب الساطع (١/ ٢٢٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٢٤)، الكليات لأبي البقاء (ص: ٥٩).

**والحصر إعطاء الحكم له والتعرض لنفيه عما عداه، ففي الاختصاص قضية واحدة، وفي الحصر قضيتان..** قال: ويدل على أن **الحصر غير الاختصاص** قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فإنه لا يجوز أن يقال: إنه يقصر رحمته على من يشاء، **لأنها لا تقصر، ولا تختص بها**، لأنها لا تختص، بل مدلول الآية أنه يرحم من يشاء وغيرهم يعرض عنه»[(١)].

والمسألة فيها كلامٌ طويلٌ حاصله ما قاله الزركشي آنفا وهو: «أن في **الاختصاص إعطاء الحكم للشيء والسكوت عما عداه**، أما الحصر ففيه إعطاء الحكم للشيء والتعرض لنفيه عما عداه، ففي الاختصاص قضية واحدة، وفي الحصر قضيتان»[(٢)].

وقد يجاب عليه: بأن الاعتبار بالمعنى لا باللفظ، والقائلون بأن التقديم يفيد الحصر حيث أرادوا بالاختصاص معنى الحصر: لا فرق عندهم بين التعبير عنه بالحصر والاختصاص، وهذا يظهر كثيرا في كلام كبار البيانيين[(٣)]».

**وأما ما احتج به السبكي فإن** «هذا الاحتجاج لا يصح؛ لأن هذا القائل قد التبس عليه معنى الحصر المراد هنا - وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه - بالحصر الذي هو الإحصاء والإحاطة، **ولا يشك عاقل في صحة قولنا: رحمة الله منحصرة في المؤمنين - أي في الآخرة - لا تتجاوزهم إلى** الكفار، وإن كانت رحمته تعالى لا يحيط بها أحد كما ولا كيفا، فمدلول الآية أنه يرحم من يشاء وغيرهم يعرض عنه[(٤)].

---

(١) البحر المحيط للزركشي (٤/ ٥٨).
(٢) انظر: البحر المحيط للزركشي (٤/ ٥٨)، تشنيف المسامع للزركشي (١/ ٣٧٤)، الكليات لأبي البقاء (ص: ٥٩).
(٣) انظر: الآيات البينات للعبادي (٢/ ٥٧)، مفهوم الحصر (ص: ١٢٣).
(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٤/ ٥٩)، الآيات البينات للعبادي (٢/ ٥٧).

ولم يصحح البعض دعوى الالتباس الواردة في هذا الرد، فقال: بل ليس مراده إلا الحصر المشهور الذي هو الإثبات والنفي، ويكون وجه ما قاله حينئذ: **أن رحمة الله تعالى لما ثبت وقوعها وعمومها لكل مخلوق دنيا وأخرى - إذ الكفار مرحومون في الآخرة**، حتى في جهنم، ومن رحمتهم فيها عدم تعذيبهم بأشد مما هم فيه مما هو ممكن كما لا يخفى - لم يمكن حصرها وقصرها في أحد، بمعنى ثبوتها له دون غيره»[(١)].

وبناءً على هذا القول الأخير يكون الاختصاص لا يفيد الحصر، لأنه لو أفاد لكانت الرحمة منحصرة في المؤمنين دون الكافرين لقوله تعالى «يختص برحمته من يشاء»!! وهذا غير مراد ولا هو كائن بل رحمته تعم الجميع، وإن اختلف نوعيتها وكيفيتها، فرحمته تعالى للمؤمنين غير رحمته للكافرين، ورحمته في الدنيا غير رحمته في الآخرة على ما سبق بيانه.

## الخلاف الثالث: في الحمدلة

في الواقع إن الكلام في الحمدلة طويلٌ جداً، لكثرة الاحتمالات فيها «ولهذا جعل بعضهم في الحمد لله أوائل الكتب اثنين وأربعين احتمالاً»[(٢)]، وسبب ذلك أنه حدث حولها خلاف في عدة مسائل وهي:

**الأولى**: اختلف العلماء في أل التي في «الحمد لله» هل هي للجنس، أم للاستغراق، أم لكليهما، أم للعهد، أم للتفخيم؟ خمسة أقوال وسيأتي تفصيلها.

**الثانية**: اختلفوا أيضاً في اللام الداخلة على لفظ الجلالة في الحمدلة - هل هي للاختصاص أم للتعليل أم لغير ذلك؟ وإن كانت للاختصاص فهل تفيد الحصر؟ وقد سبق الشق الثاني.

---

(١) انظر: الآيات البينات للعبادي (٢/ ٥٧).
(٢) تفسير الألوسي «روح المعاني» (١/ ٧٩).

**الثالثة**: اختلفوا أيضاً في المراد من «الحمد لله» هل هو الخبر أم الإنشاء؟

وفيما يلي تفصيل هذه المسائل مع الأقوال فيها:

**أولاً: نوع «أل التعريف» التي في الحمدلة هل هي للجنس أم للاستغراق أم للعهد؟**

اختُلف في أل التعريف التي في الحمدلة على أقوال:

**القول الأول**: أنها للجنس، ويكون معنى الحمد لله أن جنس الحمد له تعالى، كما ذهب إليه الزمخشري حيث ذكر بأن التعريف في «الحمد» هو «نحو التعريف في أرسلها العِراك[1]، **وهو تعريف الجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد** ما هو، والعراك ما هو من بين أجناس الأفعال»[2].

ووافقه الشيخ زادة[3]، والطاهر بن عاشور أيضاً فقال: «**والتعريف فيه بالألف واللام تعريف الجنس**»، ولكن فَسّر ابن عاشور تعريف الجنس هنا بالعهد الذهني أي «أن هذا الجنس هو معروف عند السامع **فإذا قلتَ: الحمد لله.. فكأنك تريد أن هذا الجنس معروف لديك ولدى مخاطبك لا يلتبس بغيره**»[4]، وتعريف الجنس يفيد «توكيد اللفظ وتقريره وأيضاًحه

(١) جاء في لسان العرب (١٠/ ٤٦٥): «قال سيبويه: وقالوا أرسلها العراك أي أوردها جميعا الماء، أدخلوا الألف واللام على المصدر الذي في موضع الحال كأنه قال اعتراكا أي معتركة؛ وأنشد قول لبيد يصف الحمار والأتن.
فأرسلها العراك، ولم يذدها، ... ولم يشفق على نغص الدخال
قال الجوهري: أورد إبله العِراك ونصب نصب المصادر أي أوردها عراكا».

(٢) الكشاف (١/ ٥٢).

(٣) انظر حاشيته على البيضاوي (١/ ٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٥٩).

للسامع؛ لأنك لما جعلته معهوداً فقد دللت على أنه واضح ظاهر»[١]، وحَمل ابنُ عاشور كلام الزمخشري السابق على هذا المعنى[٢].

فحاصل هذا القول أن اللام في الحمدلة هي للجنس، وهذا بحد ذاته لا يفيد الحصر بخلاف لام الاستغراق كما سنعرف في:

**القول الثاني**: أنها **للاستغراق** فيكون معنى الحمد لله هو «**استغراق جميع أجناس الحمد** وثبوتها لله تعالى تعظيماً وتمجيداً - كما في الحديث: «اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله»»[٣]، فيكون «المراد **تخصيصُ حقيقةِ الحمدِ به تعالى المستدعي لتخصيص جميعِ أفرادِها** به سبحانه»[٤]، فيكون «تعريفه **لاستغراق أفراد الحمد، وأنها مختصة بالرب** سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عز وجل، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً»[٥].

ولكن هذا القول رده الزمخشري بقوله «**والاستغراق الذي يتوهمه كثير**

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٦٠). وانظر: تعقيبات الطاهر بن عاشور على الزمخشري في تفسيره «الكشاف»، من أول الكتاب إلى آخر سورة النساء، رسالة ماجستير إعداد الباحث عبد الغفار أحمد.

(٣) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ٢٢٦)، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (١/ ٤٧)، والحديث عند أحمد في مسنده، وقال محققو «مسند أحمد» (٢٤/ ٢٤٨، طبعة الرسالة): «رجاله ثقات... وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩) عن علي ابن المديني، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٤٥)، وهو في «عمل اليوم والليل» (٦٠٩)».

(٤) تفسير أبي السعود (١/ ١٣).

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان (١/ ٤٢)، وكذا في فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٣)، وفي فتح البيان في سورة سبأ (١١/ ١٦١): «وإن أجري على الاستغراق فالتعريف مشعر **باستحقاق جميع أفراد الحمد لله سبحانه** على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب». اهـ

من الناس وهمٌ منهم»[١]، «فإنه لا يؤمر العبد بأن يحمد كل حمد في العالم»[٢]، وقد قيل إن هذا من الزمخشري «**نزعة اعتزالية**، بناء **على أن العبد موجد لأفعاله** بالاستقلال، فيستحق بذلك بعض الحمد، فلا يكون كل الحمد لله»[٣] فلا جرم أن البيضاوي «ردد بين كون اللام للجنس والاستغراق، مُنكرا بالمعنى على الزمخشري، حيث قصرها على الأول، وَوَهَّمَ من ذهب إلى الثاني»[٤] حيث قال **البيضاوي** «والتعريف فيه للجنس. . أو للاستغراق، إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه»[٥].

والحاصل أنه قد «رجح الزمخشري أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، وإليه نحا أبو السعود، والصواب ما ذكرناه - وهو أنه للاستغراق - وعليه الجمهور»[٦]. واعترض على القول بأنها للاستغراق بأن الحمدلة للإنشاء لا للخبر، ورُدّ بما سيأتي.

والخلاصة أنه قد «**اختلف الناس في (الحمد لله)**، فاختار الزمخشري أنه خبرٌ عُدِل به عن الأمر، واختار آخرون أنه خبر على حقيقته، وأن المراد به الإخبار بأن الله تعالى مستحق الحمد، كما قال تعالى (له الحمد في الأولى والآخرة). وبنى الزمخشري على مذهبه أن الألف واللام في الحمد لتعريف الحقيقة، فإنه يستحيل الاستغراق، فإنه لا يؤمر العبد بأن يحمد كل حمد في العالم، وأصحاب القول الثاني جعلوها للاستغراق؛ لأنه إخبار بما يستحقه الله تعالى من جميع المحامد»[٧]. اهـ.

---

(١) الكشاف (١/ ٥٢).
(٢) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٧٣).
(٣) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار للسيوطي (١/ ١٦٤).
(٤) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٦٤).
(٥) تفسير البيضاوي (١/ ٢٧).
(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٤٢)، وكذا في فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٣).
(٧) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٧٣).

فتحصل حتى الآن قولان في أل التعريف في الحمدلة: الأول: أنها للجنس، والثاني: أنها للاستغراق، والحصر إنما هو على الثاني لا الأول، وبيانه أن الفرق بينهما هو ما قاله ابن هشام من أن (ال) الجنسية كقولك: «الرجل أفضل من المرأة»، إذا لم ترد به رجلا بعينه ولا امرأة بعينها، وإنما أردت أن هذا الجنس من حيث هو أفضل من هذا الجنس من حيث هو، ولا يصح أن يُراد بهذا أن كل واحد من الرجال أفضل من كل واحدة من النساء؛ لأن الواقع بخلافه[(١)]، وكذلك قولك: «أهلك الناسَ الدينار والدرهم»، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾، وأل هذه هي التي يعبر عنها بالجنسية، ويعبر عنها أيضاً بالتي لبيان الماهية، وبالتي لبيان الحقيقة.

وأما التي للاستغراق فعلى قسمين؛ لأن الاستغراق إما أن يكون باعتبار حقيقة الأفراد، أو باعتبار صفات الأفراد؛ فالأول نحو: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي: كل واحد من جنس الإنسان ضعيف. والثاني: نحو قولك: (أنت الرجل) أي: الجامع لصفات الرجال المحمودة»[(٢)].

إذن «(أل) **التي للجنس يشار بها إلى الجنس من حيث هو، فتفيد الشمول والعموم من غير أفراد،** أو على حصة معينة واحد أو اثنين أو جماعة، وهو العهد الخارجي نحو علم الشخص كزيد، **وأل التي للاستغراق**

(١) قال الكفوي في الكليات (ص٧٧٩): «قولنا: (الرجل خير من المرأة)، أي إذا قوبل حقيقة كل منهما بحقيقة الآخر فحقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة وإلا فكم من امرأة خير من رجل باعتبار شرفها وقربها وكرامتها عند الله تعالى، فتسمى هذه اللام لام الحقيقة ولام الطبيعة».

(٢) انظر: شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام، تحقيق محمد محيى الدين (ص: ١١٩) وما بعدها، طبعة دار الطلائع. والمطول على تلخيص المفتاح للتفتازاني (ص: ٨١)، تعقيبات ابن عاشور على الزمخشري إلى آخر سورة النساء (٧/ ٥٢).

**وهي أن يقصد الجنس من حيث هو موجود في ضمن جميع الأفراد**، فإن كان في ضمن بعض الأفراد الغير المعينة وتسمى لام العهد الذهني»[1].

**القول الثالث**: أن «أل في الحمد **جنسية استغراقية**»[2]. كما جاء في اللطائف القشيرية: «واللام في **الحمد للجنس، ومقتضاها الاستغراق** لجميع المحامد لله تعالى إما وصفاً، وإما خلقاً، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه»[3].

**القول الرابع**: أنها ليست جنسية وإنما «**عهدية** وذلك أن الله تعالى لما علم عجز خلقه عن كنه حمده حمِدَ نفسَه بنفسه في أزله نيابة عن خلقه قبل أن يحمده... واستُأنس له بما صح عنه ﷺ من قوله اللهم لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[4].

**والواقع أن القول بأن أل للعهد** هنا يؤول إلى القول بأنها للجنس وبيان ذلك أن «تعريف النكرة باللام إما للعهد، وإما للجنس، **والذي للعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معيّن من أفراد الجنس** نحو ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ وإما أن ينصرف إلى الماهية باعتبار تميزها عن غيرها، كقولك: أكلت الخبز. والجنس هو الذي ينضم إليه شمول الآحاد، كقولك: الرجل خير من المرأة. **وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقاً**، إنما يوجبه الجنس، **والزمخشري جعل تعريف الحمد من النوع الثاني من نوعي العهد (أي الذي ينصرف إلى الماهية**

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (١/ ٨٣)، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١٥٨٨) قوله: «وإمَّا أن يشار بها إلى الجنس...». اهـ. وانظر: دستور العلماء «جامع العلوم في اصطلاحات الفنون» (٣/ ١١٤) قوله: «وإما أن يشار بها إلى الجنس...». اهـ.

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٨/ ١١٩).

(٣) إعراب القرآن وبيانه (٨/ ١١٩)، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٦٦).

(٤) روح المعاني (١/ ٧٤)، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٧٢).

**لا إلى فرد منها)**، وعبر عنه بتعريف الجنس، لعدم اعتنائه باصطلاح أصول الفقه، وغير الزمخشري جعله للاستغراق، وليس ببعيد»(١).

**القول الخامس**: «حكى الكرماني قولا آخر **أنها للتفخيم والتعظيم**، فإن أراد الاستغراق فعبارة غريبة فيه، وإلا فلا يعرف ذلك في أقسام اللام»(٢).

وهكذا نرى أن في أل التعريف التي في الحمدلة خمسة أقوال؛ للجنس، أو للاستغراق، أو لكليهما، أو للعهد، أو للتفخيم والتعظيم.

**ثانياً: هل لام الجر في الحمدلة للاختصاص؟**

قال الفخر الرازي: «**اللام في قوله الحمد لله يحتمل وجوها كثيرة**:

أحدها: الاختصاص اللائق كقولك الجل للفرس.

وثانيها: الملك كقولك الدار لزيد.

وثالثها: القدرة والاستيلاء كقولك البلد للسلطان.

واللام في قولك الحمد لله يحتمل هذه الوجوه الثلاثة.. فالحمد لله بمعنى أن الحمد لا يليق إلا به، وبمعنى أن الحمد ملْكه ومَلِكه، وبمعنى أنه هو المستولي على الكل والمستعلي على الكل»(٣).

وقيل إنَّ «اللام للتعليل أي الحمد ثابت لأجل الله تعالى»(٤)، وقيل إنَّ «اللام على ما قيل للاستحقاق فإذا قيل الحمد لله يفيد استحقاق

(١) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٦٦)، نقلاً عن ابن المنير في الانتصاف، انظر: الكشاف مع حاشية ابن المنير (١/ ٩)، دار الكتاب العربي.
(٢) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٧٣).
(٣) مفاتيح الغيب (١/ ٢٢٥).
(٤) روح المعاني (١/ ٧٦).

الذات له»[1]. وقيل للحصر والاختصاص «ففي مواضع من الكشاف ما يدل على إفادتها الحصر دلالة واضحة، وبه صرَّح المحقق السعد والسيد السند، وقالا لام الاختصاص للحصر»[2].

وللشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي كلام طويل وتحقيق نفيس في كون اللام الجارة التي في لفظ الجلالة في «الحمد لله» ونحوه، وذَكر أقوال المفسرين والبلاغيين وغيرهم في كونها تفيد الاختصاص أو غيره، وخلافهم في ذلك، ثم خلص في نهاية المطاف إلى قوله «والحق أنّ معناها التعلق الخاص، وأنها قد تفيد الحصر بحسب المقام وقرائن الحال، وتمثيل النحاة شاهد صدق عليه، فحيث كان المقام مقتضيا للحصر، ولم يكن فيه ما يدل عليه غيرها نُسب القصر لها، وحيث لم يقتض ذلك أو كان فيه ما هو أدل عليه منها استراحت من الحصر، فلذا ترى العلامة الزمخشريّ نسبه لها في موضع دون موضع من غير تعارض في كلامه»[3].

## خلاصة الخلاف في لام الجر التي في الحمدلة

والحاصل: أن العلماء مختلفون في لام الجر في الحمدلة، هل هي للاختصاص أم للتعليل أو للاستحقاق أم للملك أو للاستيلاء، وإذا كانت للاختصاص فهل الاختصاص يعني الحصر؟ خلاف سبق بيانه!

حتى من ذهب أنها للحصر فإنما جاء ذلك من القرائن لا من اللام ذاتها، بل قيل إنَّ الحصر «مستفادٌ من تعريف المسند إليه»[4] وقد قلنا بأن هذا

(١) روح المعاني (١/ ٧٦).
(٢) عنايه القاضي وكفاية الراضي للشهاب الخفاجي (١/ ١٠٥).
(٣) عنايه القاضي وكفاية الراضي للشهاب الخفاجي (١/ ١٠٦).
(٤) روح المعاني (١/ ٧٦).

التعريف في الحمدلة أفاد الاستغراق كما هو مقرر في علم البلاغة على تفصيل في ذلك[1].

وهنا في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ لا يوجد مسند إليه إلا تقديراً، فتقديره في قوله تعالى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] هو سيقولون: الأرض ومن فيها لله، أو يقال أن «الجار ﴿لِلَّهِۚ﴾ متعلق بخبر محذوف لمبتدأ محذوف أي: هي لله»[2].

قال أبو البقاء: «وقرئ بغير لام حملا على المعنى، لأن معنى ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ﴾: من رب الأرض؟ فيكون الجواب: الله ؛ أي هو الله. وأما الموضعان الآخران فيقرآن بغير لام حملا على اللفظ»[3].

ويبدو أن ما حكاه أبو البقاء من أنه قرئ «لمن الأرض... سيقولون الله» يبدو أن هذا وهم منه، فإنه لا خلاف بأن هذا الموضع قرئ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ بلام الجر، نعم في الموضعين الآخرين من سورة المؤمنون فيهما خلاف فقد

---

(١) جاء في حاشية الدسوقي على مختصر المعان» (٢/ ١١٦): «تعريف المسند بأل الجنسية يفيد حصره في المسند إليه».

وفي الكليات (ص١٠٧٥): «كون تعريف المسند إليه مفيدا للحصر إنما يكون إذا كان ثبوت المسند الفرد منافيا لثبوت مقابله له نحو: المنطلق زيد، وأما إذا لم يكن كذلك فلا يفيد الحصر».

وفي التحرير والتنوير (١/ ٦٠٨): «تعريف المسند باللام لا تطرد إفادته الحصر على ما في «دلائل الإعجاز»، وقيل يفيد الحصر باعتبار القيد أعني قوله مصدقاً، أي هو المنحصر في كونه حقاً مع كونه مصدقاً، فإنَّ غيره من الكتب السماوية حقٌّ لكنه ليس مصدِّقاً لما معهم». اهـ

(٢) المجتبى من مشكل إعراب القرآن (٢/ ٧٨٠)، أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، عام النشر: ١٤٢٦هـ.

(٣) التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٩٥٩)، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي.

«قرأ البصريان.. «سيقولون الله قل أفلا تتقون، سيقول[1] الله قل فأنى تسحرون»، بحذف حرف الجر ورفع الجلالة موضع قراءة غيرهما ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ باثبات لام الجر، واحترز بالأخيرين عن الأول فإنه لا خلاف فيه أنه لله بإثبات لام الجر»[2].

ولذا قال في الشاطبية:

**٩٠٧- وفي لام لله الأخيرين حذفها وفي الهاء رفع الجر عن ولد العلا[3]**

**ثالثاً: هل الحمدلة خبر أم إنشاء؟**

فقد اعتُرض - كما أشرنا سابقاً - على كون أل هنا للاستغراق لأن «**المطلوبَ من العبد إنشاء الحمد لا الإخبارُ** به وحينئذ يستحيلُ كونُها للاستغراقِ، **إذ لا يُمْكنُ العبدَ أن يُنْشِئَ جميعَ المحامدِ** منه ومن غيرِه بخلافِ كونِها للجنسِ»[4]. لذلك فإن «**الحق الذي لا محيد عنه أن الحمد لله خبر مستعمل في الإنشاء فالقصد هو الإنشائية لا محالة**، وعدل إلى الخبرية لتحمل

---

(١) كذا في المطبوع وقد سقطت واو الجماعة والنون، والصواب إثباتهما، فقد جاء في شرح طيبة النشر للنويري (٢/ ٤٦٩)، ط١، دار الكتب العلمية: ش: أى: قرأ (بصر) أبو عمرو ويعقوب: «سيقولون الله قل أفلا تتقون (٨٧) **سيقولون** الله قل فأنى تسحرون (٨٩).. بلا لام جر وبالرفع». اهـ.

(٢) شرح طيبة النشر لابن الجزري (ص: ٢٨٣)، تحقيق أنس مهرة، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٠م.

(٣) أي «قرأ أبو عمرو: سيقولون الله قل افلا تتقون، سيقولون الله قل فأنى تسحرون بحذف لام الجر ورفع جر الهاء في لفظ الجلالة في الموضعين ويكون الابتداء بلفظ الجلالة بهمزة وصل مفتوحة، وقرأ غيره سيقولون لله، في الموضعين بإثبات لام الجر فيهما وجر الهاء في لفظ الجلالة. واحترز بالأخيرين عن الأول وهو: سيقولون لله قل أفلا تذكرون فلا خلاف في قراءته بإثبات لام الجر وجر الهاء من لفظ الجلالة. اهـ. كذا في الوافي في شرح الشاطبية (ص: ٣٢٧)، عبد الفتاح القاضي، مكتبة السوادي، ط٤، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٤) انظر: الدر المصون (١/ ٣٨).

جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها من الدلالة على الدوام والثبات والاستغراق والاختصاص والاهتمام»[١].

وهذه مسألة معقدة وطوية الذيل حتى أُفردت بالتصنيف، فقد «ألَّف الشيخ علاء الدين البخاري.. **رسالة في تقرير أن الحمد لله جملة خبرية،** لا إنشائية قال فيها: أجمعت الأمة على إمكان كون اللام فيه للاستغراق **لأن أهل السنة حملوها على الاستغراق،** والحكم بثبوت الشيء فرع إمكانه، وغيرهم من المعتزلة ومن يجري مجراهم افتقروا في حملها على الجنس إلى ما يرجحه على الاستغراق، وذلك دليل على الاعتراف بإمكانه؛ إذ ترك الممتنع والأخذ بالممكن لا يفتقر إلى المرجح، **فثبت بالإجماع المركب إمكان استغراقه**»[٢].

## خلاصة الاختلافات في الحمدلة.. ودعوى الحصر فيها وفي قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾

وهكذا نرى الخلاف الشديد بين العلماء في الحمدلة، هل أل التعريف فيها للاستغراق أم لغيره؟ على خمسة أقوال؛ للاستغراق، أو الجنس، أو لكليهما، أو للعهد، أو للتفخيم والتعظيم!

واختلفوا في لام الجر التي في الحمدلة، هل هي للاختصاص أم للتعليل أو للاستحقاق أم للملك أو للاستيلاء؟!! وهل يفيد الاختصاص الحصر؟ خلاف حتى من ذهب أنها للحصر والاختصاص فإنما جاء ذلك من القرائن لا من اللام ذاتها!! على ما سبق بيانه.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٦٢).

(٢) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ١٧٣).

وبالتالي فلا يُسلّم الادعاء بأن قوله تعالى في بعض آيات الباب الثمانية ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ يدل على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية بحجة أن لام الجر في ﴿لِلَّهِ﴾ هي مثل لام الجر في قوله تعالى «الحمد لله» التي تفيد حصر الحمد في الله!! فهذا كله غير مسلَّم لأن إفادة لام الجر في الحمدلة للحصر محل نزاع وجدل طويل بين العلماء على ما سبق بسطه.

وبالتالي فلا يُسلَّم ما بني عليه من دعوى الحصر في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وأن هذا يفيد توحيد الربوبية عند المشركين بحجة أن لام الجر هنا تفيد الحصر، وأنهم بذلك حصروا الربوبية فيه تعالى حينما سئلوا عن خالق السموات والأرض في سورة المؤمنون!! فهذا كله غير مسلم لأنه مبني على أمر غير مسلم وهو كون لام الجر في الحمدلة للحصر كما رأينا. والله الموفق.

وبهذا نكون قد انتهينا من المرصدين الأول والثاني من المطلب الخامس وهو دعوى أن آيات الباب الثمانية تدل على التوحيد بالمفهوم لا بالمنطوق، لننتقل إلى المرصد الثالث.

## المرصد الثالث

# الجواب عن استدلالهم بآية ﴿قُلْ مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

**قالوا**: إن قوله ﴿قُلْ مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩]، دليلٌ على أنهم يُسلِّمون بأن كل شيء بيد الله وملك له ولم ينسبوا ملك أي شيء لأصنامهم!!

**والجواب**:

أولاً: أين في هذا كله أن الله وحده بيده ملكوت كل شيء؟ أين كلمة «وحده» في الآية؟ هنا محل النزاع، وأما ما ذكرتم بأنهم لم ينسبوا ملك أي شيء لأصنامهم فغير صحيح مطلقا، فقد نسبوا كثيرا من التأثير والتدبير لأصنامهم كما سبق[1].

وأما هذه الآية فليس فيها دليل على أنهم يعتقدون أن ذلك بيد الله وحده، غاية ما تحدثت عنه الآية أنهم سيقولون لله، وأما قضية أنهم سيقولون إن ذلك لله وحده أو بالتشارك مع آلهتهم بجزء كبير أو صغير، فهذا لم تكشف

(١) انظر (ص: ٨٩).

عنه الآية، ولذلك يرجع إلى آيات أخرى تحدثت عن رفض المشركين الصريح لكلمة وحده إذا قرنت بالله تعالى كما سبق.

**ثانياً**: إن سورة «المؤمنون» وآياتها التي معنا هي نفسها **دلَّت بسياقها وسباقها على أن المشركين ينسبون إلى أصنامهم التأثير والخلق والتدبير ولذلك اتخذوها أربابا وآلهة**؛ حيث نبّه الله في هذه السورة على أن المشركين يعتقدون في آلهتهم الخلق والتأثير، ولذا خاطبهم الله بالبراهين العقلية على أن الخلق لا يكون إلا لإله واحد.

وبيانه أنه بعد أن قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] وبعد أن انتهت تلك الآية وما تلاها التي تكرر فيها السؤال عن الخالق؛ **قال عز وجل**: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩٠-٩١].

«فلولا أنهم **يعتقدون أن الإله متصرف كشريك لله تعالى** لما ذكر لهم هذه الحجج، فلو كان معه إله - كما يزعم الكفار - لانفرد كل إله بخلقه الذين خلقهم، ولحصل النزاع وطلب العلو فيما بينهم ولما انتظم الوجود. فلولا أنهم يعتقدون وجود شركاء لله سبحانه في ذلك لما كان هناك أي وجه لذكر الاستدلال، **ولكان جوابهم أننا لم ندّعِ لهم أي فعل يشاركون الله فيه؛ بل قلنا إن الله لاشريك له في ذلك. فيكون إيراد ذلك عليهم من العبث الذي ينزه الله جل جلاله عنه**»(١).

**إذن فتعقيب سؤالهم السابق عن الخالق بالبرهان على أنه لا خالق**

(١) وحدة الأمة لا تناقض التوحيد لغيث بن عبد الله الغالبي (ص: ٥).

**إلا الله**: دليل على أنهم مع إقرارهم - المفترض - بأن الله خالق السموات والأرض، فهم معتقدون أن غير الله مما اتخذوه آلهة ومما نسبوه إلى الله من الولد: يَخلق ويؤثر ويدبر، وإلا لم يكن لهذه الآيتين من سورة المؤمنون - الآية ٩٠ و٩١ - معنى!

ولا كان للبرهان السابق على أن الله ليس معه إله ولا له ولد: معنى، ولكان الله أقام الحجة على ما هم مُسلِّمون به، ومعلوم أن من يفعل ذلك في المناظرة إما أنه لم يَعلم محل النزاع، أو هو مُغرض يشغّب على خصمه، والله منزه عن ذلك كله.

وهذا على أصل ابن تيمية أظهر، إذ هو يدَّعي أن الرسل ما بعثت لدعوة الناس لتوحيد الخالق، لأن الناس جميعا يعلمون أنه لا خالق إلا الله، **فهو يقول**: «معرفة الربوبية وهي خاصة للمكلفين من بني آدم وهي تعمُّ مؤمنَهم وكافرهم وسائر فرقهم وهي ضروريةٌ أيضاً»[1]. **ويقول أيضاً**: إن جميع الإنس والجن مقرون بالخالق معترفون به، مقرون بعبوديته طوعاً وكرها[2].

**ويقول أيضاً**: لكن المتكلمون إنما انتصبوا لإقامة المقاييس العقلية على **توحيد الربوبية، وهذا مما لم ينازع في أصله أحد** من بني آدم وإنما نازعوا في بعض تفاصيله كنزاع المجوس والثنوية والطبيعية والقدرية وأمثالهم من ضلال المتفلسفة والمعتزلة ومن يدخل فيهم، وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب الذي دخل (فيه) من أقر أنه لا خالق إلا الله ولا رب غيره من أصناف المشركين»[3]، «ومن المعلوم أن هذا التوحيد قد أقر به المشركون، ولم ينكره أحد من بني آدم»[4].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥٠٨).
(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٤٧٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧).
(٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٤٩).

**فإذا كان الناس لا يحتاجون** إلى من يدعوهم إلى توحيد الخالق فمن باب أولى ألَّا يحتاج الناس إلى البرهان على ذلك، لأن البرهان يؤتى به لقطع النزاع، فإذا لم يكن ثمة نزاع ولا منازع ففيم البرهان على ذلك؟!

## إقرار بعض التيمية بأن آية ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ دالةٌ على وجود الشرك في الربوبية ولذا أبطلته

**وقد أقر أتباع ابن تيمية** أن هذه الآية - أي قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ...﴾ - هي في إثبات توحيد الربوبية، **فهذا د. الهذيل يقول في سياق كلامه عن توحيد الربوبية**: «ومع أن أكثر الناس لم ينازعوا في هذا الشرك إلا أن طوائف منهم وقعت فيه كقول بعض المشركين: إن ثَمّ خالقاً خلق بعض العالَم. وكما يقوله الثنوية من المجوس في النور والظلمة، والفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك. **ولذلك فقد جاء بيان بطلان هذا النوع من الشرك في القرآن**، والإلزام بما هو لازم له من توحيد الخالق سبحانه وتعالى في الألوهية. قال تعالى: ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض»[(١)].

## كلامٌ نفيسٌ للطبري والسمعاني وابن القيم في تفسير آية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾

ثم نقل **د. الهذيل عن ابن القيم** كلاماً له من جملته قوله تعقيباً على هذه الآية الأخيرة: «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، **فإن الإله**

(١) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة للدكتور الهذيل (ص: ٢٥٠)

الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر»[١]. اهـ.

ويقول الطبري هنا «ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون بالله.. ما لله من ولد، ولا كان معه في القديم، ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته ﴿مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ﴾ يقول: إذن لاعتزل كل إله منهم ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ من شيء، فانفرد به، ولتغالبوا، فلعلا بعضهم على بعض، وغلب القويّ منهم الضعيف؛ لأن القويّ لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجةٍ وأوجزَها، لمن عقل وتدبر.. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ يقول تعالى ذكره؛ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون من أن له ولداً، وعما قالوه من أن له شريكاً، أو أن معه في القِدم إلهاً يُعبد تبارك وتعالى»[٢]. اهـ.

وحاصل أن الآية أكدت وبرهنت للمشركين على أنه تعالى هو الإله الخالق وحده، إذ لو كان معه خالق آخر لحصل ما يسمى بالتمانع في الإرادتين بين الخالقين، ولحصل الفساد في العالم كما أشارت إليه الآية الأخرى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهذا بسطناه كله في كتبنا تنوير الرب الإله[٣].

وبذلك نكون بحمد الله انتهينا من المطلب الخامس والأخير من الفصل الثالث وهو «لا يوجد في آيات الباب الثمانية أي صيغة للتوحيد».

لننتقل إلى الفصل الرابع وهو «إقرار المشركين بالخالق هو إقرار لساني منقوض». والله الموفق.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٢٨٦).
(٢) جامع البيان (١٧/ ١٠١).
(٣) تنوير الرب الإله (ص: ٤١٨) وما بعدها.

# الفَصْلُ الرَّابِعُ

# إقرار المشركين بالخالق هو إقرار لساني منقوض

إن إقرار المشركين - إن سُلِّم - هو إقرارٌ لسانيٌّ فقط، وهذا غير كافٍ ما لم يقترن بالإذعان، وهم لم يذعنوا، وعلى التسليم بإذعانهم فهم قد نقضوه، وفيما يلي بسط ذلك.

## الإيمان لا بد فيه من الإقرار اللساني.. مع الإذعان القلبي.. وهو مفتقدٌ عند المشركين

أقول وبالله التوفيق: سلَّمنا جدلًا أن المشركين أقروا بألسنتهم ونطقوا بأن الله وحده هو خالق السموات والأرض وما بينهما، ولكن هذا الإقرار المفترض إنما هو باللسان فقط أي «أنهم يقولون ذلك إذا سألتهم عند ظهور الحجج القاطعات عليهم والآيات البينات، وذلك مجرد قول بألسنتهم وليس ذلك في قلوبهم»[1].

(١) السهم المصيب في ضلالة تقسيم التوحيد (ص: ٩١).

وهذا ليس من الإيمان بالله في شيء ما دام أنه مجرد إقرارٍ لسانيٍّ بوجود الله غير مقترن به اليقين القلبي؛ إذ الإيمان و«التصديق لا يتحقق إلا بالمعرفة والإقرار»[1]، وليس الإيمان كما قال «الكرامية: إنه قول باللسان فقط»[2]، بل قد ذُمَّ ما «ابتدعه ابن كرام مِن جعل الإيمان هو مجرد قول اللسان بدون تصديق القلب»[3]، وهو عكس مذهب المرجئة والجهمية وهو أن «الإيمان مجرد ما في القلب»[4] وقد سبق بيانه[5].

وهكذا فإن مجرد إقرار المشركين اللساني بالله لا يفيدهم ولاسيما أنه اعتراه أمور تفسده، وهي:

**أولاً**: أنهم ليسوا موقنين بما أقروا به بل شاكين.

**ثانياً**: كونهم قد اضطرتهم الحجة إلى الإقرار فكأنهم صاروا مكرَهين فيه.

**ثالثاً**: كونهم غير مذعنين لإقرارهم هذا بل نقضوه بما ينافيه.

**رابعاً**: أن آيات الباب الثمانية التي استدللتم بها على إقرارهم هذا عارضتها آيات أخرى أصرح منها.

**وإليك بسط هذه الأمور الأربعة في أربعة مطالب.**

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٥١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٠، و١٩٥، و٥٠٩)، وانظر أيضاً: مفاتيح الغيب للرازي (١٨/ ٢٢٩).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٣٩٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٥، و٦٣٧)، وانظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ١٣٥٠)، شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٤٦٢)، تحقيق الأرناؤوط.

(٥) انظر (ص: ١٥٩).

## المطلب الأول

# المشركون ليسوا موقنين.. بل شاكين بما أقروا به

ويدل على ذلك عدة أدلة:

**الدليل الأول**: قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، «يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى، ولهذا لما سمع - جبير بن مطعم - رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾...﴾ وكان - **جبير يومئذ مشركاً** قال: «كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي» رواه - البخاري - مفرقا»[1]. اهـ.

إذن فدلتْ آياتُ الطور هذه - مع حديث البخاري الذي بيَّن أنها نزلت في مشركي قريش - **أنهم كانوا غير موقنين في أن الله هو الخالق**، وإلا لما وجَّه الله إليهم هذا السؤال الإنكاري لهم وهو: أم خلقوا من غير شيء.. ولما كاد قلبُ جبير يطير، وقد بيّن ذلك العلماء بمن فيهم ابن تيمية، وإليك:

(١) شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين (ص: ٨١).

# نصوص العلماء في أن المشركين غير موقنين

١) قال الحافظ نقلا عن الخطابي: «﴿أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، **أي إن جاز لهم أن يدَّعوا خَلْق أنفسهم فليدَّعوا خلقَ السماواتِ والأرض** وذلك لا يمكنهم فقامت الحجة **ثم قال** ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ **فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان وهو عدم اليقين** الذي هو موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه، فلهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير ومال إلى الإسلام»[١].

٢) وقال السمعاني: «فالمعنى: **أنهم إذا كانوا مقرين بأن الله هو الخالق فلِم يشركون معه غيره؟!**»[٢].

٣) وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ **بالحق وهو توحيد الله وقدرته على البعث**»[٣].

٤) وقال أبو حيان: «﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾: أي إذا سئلوا: من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، **وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون**»[٤].

٥) **وقال ابن تيمية: «إن المُحْدَث قبل أن لم يكن، لا يتصور أن يحدث عن غير محدث، ولا أن يحدث نفسه. فلا يكون الشيء صانعًا لنفسه**، لا مصنوعاً لنفسه، ولا يكون أيضاً علةً غائيَّةً لنفسه، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع، **قال تعالى**: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ **قالوا: من غير خالق لهم، قال جبير بن مطعم**: لما سمعت

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).

(٢) تفسير السمعاني (٥/ ٢٧٨).

(٣) زاد المسير (٨/ ٥٥).

(٤) البحر المحيط (٨/ ١٤٩).

النبي ﷺ يقرأ هذه الآية في صلاة المغرب **أحسست بفؤادي قد انصدع»**[١]. اهـ.

٦) وقال الألوسي: (بل لا يوقنون أي إذا سئلوا من خلقكم.. **قالوا: الله وهم غير موقنين بما قالوا؛ إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته** تعالى، فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل وانقاد له)[٢].

**فإن قيل**: المعنى «**بل لا يوقنون بأن الله واحد**»[٣] كما ذكر الفخر الرازي.

**قلنا**:

**أولاً: هذا المعنى لا يستقيم هنا لسببين:**

**السبب الأول**: لأن سياق الآيات تتحدث عن إثبات الخالق لا عن أنه واحد، وهذا أقر به ابن تيمية نفسه كما سبق للتو.

**السبب الثاني**: لأن المشركين كانوا جازمين بأن لله شريكا، ولذا تعجبوا من كون النبي يدعو إلى التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، ومَن هذا حاله كيف يكون شاكا في وحدانية الله؟! بل هذا جازم بوجود شريك له، تعالى الله عن ذلك.

وأما ما ذكره الرازي فهو مجرد احتمال من ثلاثة احتمالات أوردها للآية حيث قال: وفيه وجوه: أحدها: ما اختاره الزمخشري.. وقد قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله،

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٨٢).
(٢) روح المعاني (٢٧/ ٣٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٦١).

**وهم شاكون فيما يقولون، لا يوقنون**»(١). اهـ.

وكما ترى فهذا الوجه يتوجه للطعن مباشرة في استدلالكم بآيات الباب على إقرارهم بتوحيد الربوبية حيث قال: «أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكون»!!

ثم أورد الرازي الاحتمال الثاني السابق، وهو «**لا يوقنون بأن الله واحد**». ثم أورد الرازي احتمالا ثالثاً، وهو أن يكون المراد «**لا يوقنون أصلاً** من غير ذكر مفعول.. وحينئذٍ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض **ولا يوقنون بهذه الدلائل**، بل لا يوقنون أصلا وإن جئتهم بكل آية.. **وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق، وقوله من قبل أم خلقوا، دليل الأنفس**»(٢). اهـ.

**وهذا الاحتمال الثالث كما ترى يؤول إلى** الاحتمال الأول وهو أنهم لا يوقنون بوجود الله مع هذه الأدلة التي منها دليل الآفاق المشار إليه في قوله ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ...﴾ ودليل الأنفس كما في الآية التي بعدها ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ...﴾ كما ذكر الرازي وابن تيمية أيضاً كما سبق.

أي أن حاصل الاحتمال الأول والثالث كليهما هو في شك المشركين في وجود الله، وكلاهما خلاف قولكم من أن المشركين موقنون بوجوده ووحدانيته في الربوبية!!! فلم تركتم هذين الاحتمالين وتمسكتم بالاحتمال الآخر الذي هو أيضاً لا يفيدكم وبيان ذلك فيما يلي؟!

**ثانياً**: سلمنا أنهم لا يوقنون أنه واحد، ولكن هل المراد أنهم لا يوقنون أنه واحد في ألوهيته، أم في أنه واحد في ربوبيته، أم في كليهما؟

---

(١) ثم قال: «وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب؟ وقيل: أخلقوا من غير أب وأم؟». اهـ. انظر: الكشاف (٤/ ٤١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٦١).

أما الثاني والثالث: فمسلَّم، وأما الأول فمحل النزاع**!!** بل تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية هو أصلاً محل نزاع، ولم يكن معروفاً عند الرازي أو غيره قبل ابن تيمية كما بسطناه في كتابنا الكبير.

ومثال على أن الرازي ليس عنده تقسيم للتوحيد قوله مثلا في بعض آيات الباب الثمانية: «لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا. . . لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله، وهذا يصدقك في دعوى **الوحدانية** ويبين كذبهم في **الإشراك** فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك»(١).

فلاحظ قوله **«يصدقك في دعوى الوحدانية** ويبين كذبهم في **الإشراك»** فقد أطلق التوحيد والإشراك دون تحديدٍ ولا تقسيمٍ لكونه توحيداً أو شركاً في الربوبية أو الألوهية، وبالتالي فحين يقول الرازي **«لا يوقنون بأن الله واحد»** لا يريد أنهم لا يوقنون أنه واحد في الألوهية لأنهم موقنون بتوحيد الربوبية، فهذا قطعاً لم يرده لأنه أصلاً لا يقسم التوحيد إلى ربوبية وألوهية**!!**

**الدليل الثاني**: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: ٧ - ٩]: «أي بل **ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته**، لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان، **وإنما هو قول ممزوج بلعب**، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم، بصائر قلوبهم وأرواحهم»(٢).

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/١٢٦).
(٢) محاسن التأويل للقاسمي (٨/٤٠٨)، دار الكتب العلمية.

فهُم «**في شكٍّ من التوحيد** والبعث، **وفي إقرارهم بأن الله خلقهم**، وخالق سائر المخلوقات، وأن ذلك منهم على **طريقة اللعب** والهزو»[1]، «وإنما **يقولونه تقليداً لآبائهم** من غير علم»[2]، «فهم في **شكٍّ وإن توهموا أنهم مؤمنون** فهم يلعبون في دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة»[3]، وهذا كله يبين «**أن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن**، ولا عن جد وحقيقة»[4].

وقال **الطبري**: «**إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم من أن ربكم رب السماوات والأرض**، فإن الذي أخبرتكم أن الله هو الذي هذه الصفات صفاته، وأن هذا القرآن تنزيله، ومحمدا ﷺ رسوله حق يقين، **فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائق الأشياء غيره**»[5].

**الدليل الثالث**: الآيات السابقة التي فيها سؤال عن الله، ويكون الجواب فيها من الرسول لا من المشركين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] «أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاماً للحجة **إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو**»[6]، «وترك الخبر عن جواب القوم استغناء بدلالة الكلام عليه، ثم ذكره، وهو: **فإن قالوا: لا ندري**، فقل: الذي يرزقكم ذلك الله»[7]. اهـ.

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٦٥٤)، وانظر أيضاً: الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٩/ ١٠٥).
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (١٢/ ٣٩٢) وانظر أيضاً: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٠٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٩/ ١٠٥).
(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٧٢)، وانظر: تفسير البيضاوي (ص: ١٥٨).
(٥) جامع البيان (٢١/ ١٢).
(٦) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٢/ ٤٧).
(٧) جامع البيان (١٩/ ٢٨٣).

**الدليل الرابع: أن عقائد المشركين لم تكن عن دليل عقلي أو نقلي، وفيما يلي بيان ذلك:**

أما العقلي فلأنهم مقلدون لآبائهم في كل ما ورثوه عنهم من حق أو باطل، فهم مثلا «**يعبدون آلهتهم على عادة آبائهم** وأجدادهم وتطغى على توهماتهم أن هذه العبادة تنفعهم في أمور دنياهم»[(١)]، وهذا يدل عليه آيات كثيرة صريحة كما سبق.

## إنكار المشركين لبعثة الرسل عليهم السلام

وأما الدليل النقلي فلأنهم منكرون للرسالات أصلاً، فالمشركون منكرون لفكرة الرسالة والنبوة من أصلها زاعمين «أن الرسول لا يكون بشراً»[(٢)]، فكانوا «منكرين لبشرية الرسل، ويعتقدون أن الرسل ليسوا من جنس البشر»[(٣)] كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤] فقد «أنكروا أن **يبعث الله بشرا رسولا وجعلوا ذلك منكرا ممتنعا في عقولهم**»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٤]، وقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] والآيات في ذلك كثيرة، سردها ابن تيمية وأتباعه[(٥)].

---

(١) توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما (ص: ١٢).
(٢) جهود علماء الحنفية (٢/ ٨٩٣).
(٣) جهود علماء الحنفية (٢/ ٨٩٤).
(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧/ ٦٢).
(٥) انظرها في: الجواب الصحيح (٢/ ٣٦٠)، جهود علماء الحنفية (٢/ ٨٩٣).

بل كانوا يتعجبون من إرسال نبيٍّ بشراً أو رجلاً، أو «**من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر**»(١) كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، وقد بسطنا هذا بأكثر مما سبق في كتابنا الكبير.

## ابن تيمية يبين أن إيمان المشركين كان تقليداً لآبائهم

ولندَع ابن تيمية وأتباعه كابن عبد الوهاب وغيره.. يقررون ذلك:

يقول ابن تيمية: «**أكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالاة والمعاداة** كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ...﴾ وقال تعالى... ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾»(٢). اهـ.

**ويقول ابن عبد الوهاب** في مسائل الجاهلية: «الرابعة: **أن دينهم مبني على أصول أعظمها التقليد**، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾..»(٣). اهـ. ولا سيما «**وأن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك توهموا أن كونهم على هذه الحال محال** أن يكونوا مبطلين فيه، ويكون الإنسان الواحد محقاً»(٤).

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٣٦٠).
(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٣٢٨)، رشاد سالم.
(٣) مسائل الجاهلية (ص: ٨).
(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٢/ ١٣).

**وهكذا تقرر أن المشركين مقلدون** لآبائهم تقليدا أعمى، فما آمن به آباؤهم آمنوا، وما كفروا به كفروا، فآمنوا بالله - على تردد منهم - وكفروا برسله وكتبه واليوم الآخر، لأن آباؤهم كذلك فعلوا، فإيمانهم بالله - إن سُلّم - فهو لأن آباءهم آمنوا به ولو كانوا كافرين به لكفروا به أيضاً كما برسله وكتبه واليوم الآخر.

**وهذا شأن** المقلِّد فهو يغيِّر قوله بمجرد أن يغير المقلَّد قوله كما رأينا في كلام ابن تيمية السابق حيث قال: «أكثر ديانات الخلق إنما هي عادات **أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب** »، ولذلك جاء عن ابن مسعود: **ألا لا يقلدن رجل رجلا دينه إن آمن آمن وإن كفر كفر**، فإن كان مقلدا لا محالة فليقلد الميت ويترك الحي فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة»[(١)].

وبما أن المشركين كانوا مقلدين لآبائهم في أديانهم **فهم غير موقنين**؛ لأن التقليد لا يفيد علما ولا ينشئ يقينا فإن «**نفس المقلِّد ليس على بصيرة، ولا يتصف من العلم بحقيقة؛ إذ ليس التقليد بطريق إلى العلم بوفاق أهل الرفاق**.. برهانه... ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وقال ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومعلوم أن العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به.. **أما التقليد فهو قبول قول الغير**[(٢)] **من غير حجة فمن أين يحصل به علم وليس له مستند إلى قطع؟!**»[(٣)]. اهـ.

---

(١) الإحكام لابن حزم (٦/ ٢٥٥).

(٢) الجمهور لا يجوّز تعريف الألفاظ الموغلة في الإبهام نحو: غير، بعض، مثل. قال سيبويه في الكتاب (٣/ ٤٧٩): «و(غير) ... ليس باسم متمكن، ألا ترى أنّها لا تكون إلا نكرةً ولا تُجمع **ولا تدخلها الألف واللام**»، وبعضهم يدخل عليها أل مثل ما جاء في الصحاح (٣/ ٢٤٦): «الوَسيلَةُ: ما يتقرَّب به إلى الغير». وانظر للتوسع مقالاً على موقع الألوكة بعنوان «القول الفصل في عدم جواز تعريف (غير) بـ(أل)»، وهذا رابطه:
https://majles.alukah.net/t3668/

(٣) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد للشوكاني (ص: ٤٢).

فتأمل قول الشوكاني «أما التقليد فهو قبول قول الغير من غير حجة فمن أين يحصل به علم وليس له مستند إلى قطع»، فهذا نص على أن المقلِّد ليس على يقينٍ وقطع فيما يقلِّد فيه، وإنما على تردد وشك، وأقصى ما يكون عليه هو غالب الظن!!

وقد نقل ابن القيم[1] والألباني[2] عن أبي حنيفة قوله: «لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا؛ **ما لم يعلم من أين أخذناه**»، قال الشوكاني معقباً: «**وهذا هو تصريح بمنع التقليد لأن من علم بالدليل** فهو مجتهد مطالب بالحجة لا مقلد، فإنه الذي يقبل القول ولا يطالب بحجة»[3]. اهـ.

والحاصل أن المشركين إن سُلِّم أنهم أقروا واعتقدوا بأن الله خالق السموات الأرض فهذا الاعتقاد منهم هو على سبيل الشك أو ربما الظن الغالب في أحسن أحواله، ولكن لا يرقى إلى القطع واليقين؛ لأنهم مقلدون كما تقدم، والإقرار الذي يشوبه شك أو ظن لا عبرة به بدليل أن **شهادة «لا إله إلا الله» يُشترط لصحتها عند ابن عبد الوهاب وأتباعه ثمانية شروط**؛ منها اليقين وعدم الشك[4]!!

## الخلاف في صحة إيمان المقلد.. وهل يدخل فيه إيمان المشركين؟

**قد يقال**: سلمنا أن المشركين كانوا مقلِّدين في إيمانهم بالله بآبائهم، ولكن في صحة إيمان المقلد خلاف، والمذهب المنصور عند الأشاعرة

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٤٨٨).

(٢) أصل صفة صلاة النبي ﷺ للألباني (١/ ٢٤).

(٣) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص: ٤٢).

(٤) انظر (ص: ٣٣٨ و٣١٧).

أنفسهم صحته، نعم بعضهم ذكر بأن المقلد عاص بعدم النظر إن كان أهلا له[١].

وهو ما اختاره ابن تيمية حيث ذكر أن الناس على طرفي نقيض إذ إن «منهم من **يوجب الاستدلال حتى في المسائل الدقيقة: أصولها** وفروعها على كل أحد. ومنهم من يحرم الاستدلال في الدقيق على كل أحد، وهذا في الأصول والفروع، **وخيار الأمور أوساطها**»[٢]، إلى أن يقول: «مِن الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق **فكيف يكلف العلم بها**»[٣]، وهذا يعني أن من لا قدرة له على النظر لا يجب عليه كما قال الأشاعرة في المذهب المنصور عندهم كما رأينا.

**قلنا**: الخلاف في إيمان المقلد هو فيما إن قلَّد معصوماً كتقليد الكتاب والسنة في الإيمان، فهذا الإيمان صححه بعضهم إذ «أخْذ المرء قول رسول الله ﷺ الذي افترض علينا طاعته وألزمنا اتباعه وتصديقه، **فليس بتقليد بل هو إيمان وتصديق للحق وطاعة لله عز وجل**»[٤].

وهذا بخلاف ما نحن فيه وهي تقليد المشركين لبعضهم، بأن يقلد الأبناء الآباء المشركين!! فهذا لا خلاف في أنه إيمان باطل، أبطله القرآن كما رأينا ونعاه عليهم في آيات كثيرة كما رأينا.

---

(١) تحفة المريد (ص: ٧٧)، تهذيب شرح السنوسية (ص: ١٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٢).
(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٢٩)، وانظر أيضاً: منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل لجابر أمير (ص: ٥٢٣)، وانظر بحث بعنوان: حكم إيمان المقلد، لرفعه العنزي (ص: ١١).

## المطلب الثاني

# كونهم قد اضطرتهم الحجة إلى الإقرار.. فكأنهم صاروا مكرَهين فيه

وبيان ذلك أننا إن سلمنا أن آية «المؤمنون» ونظيراتها وهي سائر الآيات الثمانية تدل على أن المشركين أقروا بالله خالقا فإقرارهم هذا غير معتبر شرعا؛ لأنهم كانوا مضطرين إلى الإقرار بذلك حينما كان النبي يواجههم بالحجج التي لا يجدون منها مناصا، وإليكم الأدلة على ذلك من القرآن مع نصوص بعض العلماء من المفسرين وغيرهم في ذلك:

أولاً: الآيات الدالة على أن إقرارهم المفترض بالله كان اضطراريا

**الآية الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣] وجه الدلالة ما قاله **عكرمة**: «﴿طَوۡعٗا﴾ من أسلم من غير محاجة ﴿وَكَرۡهٗا﴾ **من اضطرته الحجة إلى التوحيد**»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٥/ ١٩٤)، وانظر الأثر أيضاً في: تفسير الثعلبي المسمى «الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣/ ١٠٧)، وفي كتاب: عكرمة بن عبد الله البربري وأثره في التفسير وعلوم القرآن (ص: ١٣٢)، أحمد السامرائي، دار الكتب العلمية. هذا ولم أجد هذا الأثر عن عكرمة عند غير القرطبي والثعلبي، ومن منهج الثعلبي أنه «يفسر بما ورد من أقوال الصحابة والتابعين بلا إسناد اكتفاء بذكر الإسناد في أول الكتاب فيقول: قال ابن عباس وقال عكرمة وقال. . .» انظر: نبذة مختصرة عن تفسير الثعلبي رحمه الله، مقال لناصر الصائغ على ملتقى أهل التفسير. اهـ

=

**قال وليد**: أي أن **الحجة ستضطرهم إلى الإقرار بالله** ولن يكون الإقرار بالله منهم بدون الاحتجاج عليهم، وبدون أن يعملوا عقولهم ويذعنوا لما عقلوه كما سبق.

**لا يقال**: لعل عكرمة هنا يقصد «من اضطرته الحجة إلى التوحيد» توحيد الألوهية لا توحيد الربوبية!!

**لأننا نقول**:

**أولاً**: هذا التقسيم للتوحيد إلى ألوهيةٍ وربوبيةٍ هو تقسيمٌ حادثٌ على مستوى الاصطلاحات على الأقل، وهذا باعترافكم حيث قلتم: إن «هذا التقسيم وإن لم يرد في الكتاب والسنة بألفاظه إلا أن معناه صحيح وحق لا شك فيه»[1]، «إذ العبرة بالمعاني»[2] «وليس بالألفاظ والمباني»[3].

---

= هذا وبالرجوع إلى أول تفسير الثعلبي الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١/ ٧٦) نجده يقول: «تفسير عكرمة: حدثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري... حدثنا أبو داود سليمان بن معبد المنجي قال: حدثني علي بن الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس. اهـ.

ويجدر بنا أن نذكر طرفا مما ذكر حسين الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ١٦٣) عن الثعلبي وتفسيره فقال: «وذكره عبد الغفار بن إسماعيل الفارسى فى كتاب «سياق تاريخ نيسابور»، وأثنى عليه، وقال: هو صحيح النقل موثوق به... ثم إن الثعلبى لم يتحر الصحة فى كل ما ينقل من تفاسير السَلَف، بل نجده.. يكثر من الرواية عن السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس. كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسِّرين من الاغترار بالأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن سورة سورة، فروى فى نهاية كل سورة حديثاً فى فضلها منسوباً إلى أُبَىّ بن كعب.. فقال ابن تيمية..: «والثعلبى هو نفسه كان فيه خير وديّن، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع». اهـ.

(١) حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين (ص: ٨٩).

(٢) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٣٠).

(٣) الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر للصاوي (ص: ١٥٤).

وبما أنكم سلَّمتم بأنه تقسيمٌ محدَثٌ ولو على مستوى الاصطلاحات، فالقاعدة عندكم أنه لا يجوز حمل كلام الكتاب والسنة والسلف على المصطلحات المتأخرة، بل «حمْل نصوص الكتاب والسنة على **المصطلحات التي اصطلح عليها بعد عهد التنزيل بدهور - زيغ** عن منهج الكتاب والسنة، وتنكب عن سبيل السلف الصالح، ومنابذة للغة التخاطب»[1].

وعليه فإنه «يجب الرجوع إلى ما قاله الصحابة والسلف حول النصوص»[2]، ولا بد من معرفة أساليب كلامهم «ولغتهم التي كانوا يتخاطبون بها، وما حدث من العبارات **وتغير من الاصطلاحات**»[3] وذلك «حتى لا تختلط **بالمصطلحات الحادثة** التي جاءت عند المتأخرين وهي تحمل معاني ودلالات خاصة»[4].

**ثانياً**: إن بعض السلف حمل آية «آل عمران» السابقة على آيات الباب الثمانية، فقال **مجاهد** في قوله ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ...﴾ ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: «**هو كقوله** ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ فذلك إسلامهم»[5]. اهـ.

فأفاد أن المشركين حين يُسألون عن الخالق يقرون به كرها، وأما المؤمنون فيقرون به طوعا، ولذا قال القرطبي معقباً على قول عكرمة السابق: «يدل عليه قوله عزوجل: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾»[6]. فثبت أن إقرار المشركين كان كرهاً عند عكرمة ومجاهد من السلف.

---

(١) جهود علماء الحنفية للأفغاني (٣/ ١٤٨٩).

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٦٧).

(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٤٧٣).

(٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٦٨).

(٥) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير كما قال السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٥١).

(٦) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٥/ ١٩٤).

**الآية الثانية: قال تعالى:** ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، قال ابن عباس: يريد تركوا الشرك، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئاً، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية. قال الحسن: دعوا الله مخلصين الإخلاص الإيمان. لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى، **فيكون جارياً مجرى الإيمان الاضطراري**[(١)]. اهـ. فأفاد الرازي: أن إيمانهم بالله اضطراري لا اختياري، وهو نحو ما قاله عكرمة ومجاهد من أنه كان كرها لا طوعا كما تقدم.

**الآية الثالثة:** ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾، ففي الآية دليلٌ عقليٌّ على وجود الخالق إذ «المُحْدَث قبل أن لم يكن، **لا يتصور أن يحدث عن غير محدِث، ولا أن يحدث نفسه**... قال جبير بن مطعم: لما سمعت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية في صلاة المغرب **أحسست بفؤادي قد انصدع**[(٢)]. اهـ.

و«من **المحال الممتنع** عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع... كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه، وإذا بطل القسمان **تعين أن لهم خالقا** خلقهم وفاطرا»[(٣)]. اهـ.

وهذا «**دليلٌ قاطعٌ يرغم** العقلاء على التسليم بأن هناك خالقاً معبوداً.. أي **من غير خالق خلقهم** أم هم خلقوا أنفسهم؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل. **فتعين أن لهم خالقاً خلقهم** سبحانه وتعالى»[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٧٣).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٨٢).
(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٣٠٣).
(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر لناصر الشيخ (ص: ٣٦١)، والفقرة الأخيرة «أي من غير خالق» هي من كلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٩).

**قال مقيّدُه وليد - لطف الله به -:** فتأمل هذه الألفاظ في النصوص السابقة: «لا يتصور أن يحدث عن غير محدِث»، «أحسست بفؤادي قد انصدع»، «من المحال الممتنع»، «تعين أن لهم خالقا»، «دليل قاطع يرغم»، «فتعين أن لهم خالقا خلقهم»!! فكل هذه الألفاظ تفيد أن الدليل المذكور في آيات «الطور» **يضطر العقل ويرغم العاقل على الإقرار به تعالى!!**

**ومن ثَم كان** انزعاج جبير بن مطعم أي لكون الآيات السابقة فيها حجج قاطعة على وجود الله وأنه الخالق، بحيث لم يُحِر جواباً عليها، **واضطرته للسكوت واجماً متحيراً حينما كان مشركاً!!** ولو أنه هو والمشركون كانوا يقرون بوجود الله وخالقيته فعلاً وطوعاً فهل من داعٍ ليخاطبهم البيان الإلهي بالدليل العقلي على وجود الله، وأنهم يستحيل أنْ يوجدوا من دون خالق، وهل كان جبير بن مطعم ليطير قلبه من ذلك حتى لم يحر جوابا عنها؟!

## يقرون به تعالى بألسنتهم.. إذا سألتَهم عند ظهور الحجج القاطعات عليهم

**كل هذا يدل على أن إقرارهم بالخالق كانوا ملجئين إليه** عندما يحاصرهم النبي بحججه ويتفكرون فيها، فلا يجدون ما يدفعونها كما حدث مع جبير بن مطعم هنا، وعليه فيكون معنى آيات الباب «أنهم يقولون ذلك **إذا سألتهم عند ظهور الحجج القاطعات عليهم والآيات البينات، وذلك مجرد قول بألسنتهم وليس ذلك في قلوبهم**»[1].

**ثانياً: نصوص العلماء على أن المشركين كانوا مضطرين للإقرار به تعالى**

**نص ابن عجيبة «فيضطرون إلى الإقرار بذلك»:**

(١) السهم المصيب في ضلالة تقسيم التوحيد (ص: ٩١).

أو أنهم «ليقولن الله لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، **فيضطرون إلى الإقرار بذلك**، قل الحمد لله على إلزامهم **وإلجائهم إلى الاعتراف** بما يوجب بطلان معتقدهم من شرك الأصنام، بل أكثرهم لا يعلمون إن ذلك يلزمهم إذا نبهوا عليه، ولم ينتبهوا... فيجب عليهم أن يعبدوا الله وحده، لما اعترفوا، **ولكنهم لا يعلمون**»(١).

**نص قوام السنة «فحين ظهرت لهم حال الضرورة ظهرت فيهم المعرفة الغريزية»**

**قال قوام السنة** أبو القاسم الأصفهاني وهو يتحدث عن **المعرفة الغريزية**: «فإن كل أحد يرجع إلى غريزته عرف خالقه. **وهذه المعرفة هي المعرفة التي أخبر** الله تعالى **بوجودها من الكفار**، وذلك في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، **فحين ظهرت لهم حال الضرورة** وانقطعوا عن أسباب الخلق، ولم يبق لهم تعلق بأحد **ظهرت فيهم المعرفة الغريزية**. **إلا أنها غير نافعة**. إنما النافعة هي المعرفة الكسبية»(٢).

وقد سبق نصه بتمامه حينما تكلمنا عن أن آيات الباب الثمانية محمولة على الإيمان الفطري وآية الميثاق، وما يهمنا هنا هو قوله «فحين ظهرت لهم حال الضرورة.. ظهرت فيهم المعرفة الغريزية إلا أنها غير نافعة».

فتأمل كيف نص على أنهم يضطرون إلى الإقرار بالله واللجوء إليه عند الضرورة وخوفهم من الغرق ونحو ذلك، وأن هذا غير نافع لهم لأن هذا إيمان غير اختياري طوعي كما قال قوام السنة، وكما سيأتي قول بعض السلفية «إن

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٤/ ٣٧٧).
(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤١).

هذا الإقرار لو خفي في كل حين لما خفي في حال الخوف ولذلك لا يعد إيمانا اختياريا، **بل هو إيمان اضطراري تدفعهم إليه فطرهم دفعا**»[(١)].

### قول القرطبي أن الإقرار به قريب من مرتبة الضرورة

**يقول القرطبي** عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ...﴾، المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين وتقرير الحجة عليهم، فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف فيُقرّر عليه أن هذه السموات والارض **لا بد لهما من خالق**، ولا يتمارى في هذا عاقل. وهذا **قريب من مرتبة الضرورة**[(٢)].

## قول البيضاوي: العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها

قال البيضاوي: «ليقولن الله لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود»[(٣)]. ولذا هم «﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريح **قد اضطرهم بأدنى نظر** إلى الإقرار بأنه خالقها»[(٤)]. فهم «سيقولون الله لأن بديهة العقل **تضطرهم إلى الاعتراف** بأنه تعالى خالقها»[(٥)]، وعليه «**فسيقولون اضطراراً** من غاية ظهوره ووضوحه بحيث **لا يمكنهم أن يكابروا**: الله المدبر لجميع الأمور»[(٦)]. و«قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح

(١) جهود أئمة الشافعية في تقرير توحيد العبادة (١/ ١٣٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٠/ ٤٩٠).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ١٩٨).
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٩٣).
(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ١٤٧).
(٦) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية للنخجواني (١/ ٣٣١).

الدليل المانع من اسناد الخلق الى غيره **بحيث اضطرهم الى اذعانه**»(١).

وقال **البيضاوي** في بعض الآيات التي فيها الجواب من رسول الله كقوله تعالى: «﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١٢]: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه **المتعين للجواب بالاتفاق، بحيث لا يمكنهم** أن يذكروا غيره(٢). وقوله «تقريرا لهم»: «**أي إلجاء إلى الإقرار** بأن الكل لله، لأنَّ هذا من الظهور بحيث لا يقدر أحد أن ينكره. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله أي: خلقنا **لتعذر المكابرة** فيه من فرط ظهوره»(٣). ولذا قيل لهم «فلو تأملتم أدنى **تأمل اضطر عقلكم إلى إثبات موجد** للممكنات منفرد بوجوب الذات، متعال عن مشابهة المخلوقات»(٤).

## نص ابن الهمام على اضطرار الخلق للإقرار به تعالى إذا تفكروا

**قال ابن الهمام** في المسايرة: «فمن أدار نظره في عجائب تلك المذكورات **اضطره إلى الحكم** بأن هذه الأمور مع هذا الترتيب المحكم الغريب لا يستغني كل عن صانع...» وأطال في ذلك وقد سبق(٥).

---

(١) حاشية السيالكوتى على كتاب المطول (ص: ٢٤٨)، نقلاً عن القاضي أي البيضاوي.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٥٥).
(٣) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٣/ ٣٣٦)، نقلا عن السعد التفتازاني في حاشيته على الكشاف.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٥٦).
(٥) انظر (ص: ١٠٨).

## قول الحفيد النجدي: «فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة»

قال **حفيد ابن عبد الوهاب**: «يقرر تعالى أنه **الإله الواحد الذي لا شريك له**، ولا معبود سواه مما يشترك في معرفته المؤمن والكافر، **لأن القلوب مفطورة على ذلك، فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة**، وزال ما ينازعها، **فالتجأت إليه** وأنابت إليه وحده لا شريك له»[(١)].

قد يقال: ليس في هذه النصوص أن المشركين أُكرهوا بمعنى ألجؤوا على الإقرار بالله، وإنما المراد من تلك النصوص أن الإقرار بالخالق أمر فطري ضروري في العقول، وليس أمرا نظريا كما يزعم المتكلمون، بل إن بعض المتكلمين أقر بذلك كالشهرستاني حيث قال: «فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت **بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها** على صانع حكيم عالم قدير» أفي الله شك فاطر السموات والأرض... ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض **ليقولن خلقهن العزيز العليم**»!![(٢)] وقد سبق نصه بتمامه[(٣)].

قلنا: إذا رجع الأمر إلى الفطرة فإن الفطرة تقتضي كلا قسمي التوحيد عند ابن تيمية، حيث نص على أن الإنسان مفطور على القسمين كليهما كما سبق بيانه من نصوصه[(٤)]، فالمفروض إذًا أن تقولوا إن المشركين موحدون أيضاً في الألوهية بحجة أنهم مفطورون على ذلك**!!!**

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٩٨).

(٢) نهاية الإقدام للشهرستاني ص١٢٤، وانظر استشهاد ابن تيمية به في «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ١٢٩)، و(٧/ ٣٩٨).

(٣) انظر (ص: ١٠٥).

(٤) انظر (ص: ١٦٥).

فإن قلتم نعم هم مفطورون على توحيد الألوهية، ولكن انحرفت فطرتهم حين أشركوا بالله بعبادتهم لغيره تعالى، وهذا بنص حديث مسلم «وإني خلقت عبادي **حنفاء كلهم**، وإنهم أتتهم **الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**. . وأمرتهم أن **يشركوا بي** ما لم أنزل به سلطانا».

قلنا: عظيم أنكم اعترفتم بأن المشركين قد انحرفت فطرهم! فكيف إذن تزعمون أنهم موحدون في الربوبية بحجة أن الفطرة تقتضي توحيد الربوبية؟! فها أنتم سلمتم بأن المشركين انحرفت فطرهم في توحيد الألوهية على الأقل، وإذا انحرفت فطرهم في توحيد الألوهية فإذن نحن أمام فطرة غير سليمة، وبالتالي فقد تكون انحرفت هذه الفطرة أيضاً في توحيد الربوبية، فأشركوا في ربوبيته كما انحرفت فطرتهم في توحيد الألوهية فأشركوا في ألوهيته!

وقد ذكر ابن تيمية نفسه أن الفطرة قد تفسد فيشرك في الربوبية أو ربما ينكرها أصلاً، فمثلاً يقول: «الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وإن كان بعض الناس قد يحصل له **ما يفسد فطرته** حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة، وهذا قول جمهور الناس وعليه حذَّاقُ النُّظَّار»[(١)]، حيث ذهبوا إلى «أن أصل المعرفة قد يقع ضرورياً فطرياً، وقد **يحتاج فيه إلى النظر** والاستدلال»[(٢)]. وقد سردت مزيداً من نصوص ابن تيمية ونصوص أتباعه في ذلك في كتابي الكبير.

وعلى التسليم بأن فطرتهم لم تنحرف في توحيد الربوبية بحجة أنهم أقروا بذلك حتى مع شركهم في الألوهية! فنقول هم أقروا ولكن لم يذعنوا بل نقضوا توحيدهم في الربوبية كما بيناه في موضعه[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٨).

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ١٤)، رشاد سالم.

(٣) انظر (ص: ١٩٨).

# الجواب عن رفض بعض السلفية لكون المشركين أقروا بالله اضطراراً

**هذا وقد اعترض بعضُ السلفيةِ** على القول بأن المشركين كانوا مكرهين على الإقرار بالله بأمور، أُوردها مختصرة مع الجواب:

**الاعتراض الأول**: أن هذا مخالف للسلف الذين قالوا بأن المشركين كانوا مقرين بأن الله خالقهم[1]. وأنهم قد فسروا آيات الباب الثمانية بذلك فماذا «نصنع بكلام المفسرين من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من العلماء والأئمة الذين تقدم النقل عنهم»[2].

**والجواب**:

**أولاً**: أن السلف أنفسهم قالوا بأن المشركين كانوا مضطرين للإقرار بالله، أوَليس عكرمة ومجاهد والحسن من السلف، وقد سبقت أقوالهم؟!!!

**ثانياً**: لم يقل أحد من السلف ما تدعونه من أن المشركين كانوا يقولون بأن الله **وحده** هو الخالق **وأنه لا خالق ولا رب** إلا الله، كما سبق بيانه[3]، غاية ما قاله السلف أن المشركين أقروا بالله، دون ذكر كلمة «وحده» أو ما يدل عليها، وهذا محل نزاعنا معكم، فأنتم تنسبون للمشركين أنهم أقروا بالله وحده، وهذا ما ليس في آيات الباب الثمانية ولا في كل القرآن، ولا حتى في تفسير السلف، بل هو تبرع من كيسكم، حيث تبرعتم بالتوحيد للمشركين لتسلبوه من المسلمين!!!!

(١) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣١٣).
(٢) تقسيم التوحيد في الميزان (ص: ٤٤).
(٣) انظر (ص: ٣١٦).

**الاعتراض الثاني**: أن هذا مخالف لقوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ فالآية فيها «تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، فهذا حال واحدة فيها الإيمان والشرك»[(١)].

**والجواب**: نعم، فكان ماذا؟ هم مؤمنون بالله إلها من جملة آلهة كثيرة، وأنه رب من أرباب كثيرة، اتخذوها من دونه، كما قال الطبري: فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعبدوا ما عبدوا من دونه من الأوثان والأنداد، حجة عليهم في ضلالتهم.. أنهم يعبدون إناثا ويدعونها آلهة وأربابا[(٢)]. اهـ.

فهذا معنى إيمانهم وشركهم، فهم يؤمنون بوجود الله من حيث المبدأ، ولكن يشركون معه في الربوبية والألوهية، ولا معنى للشرك إلا هذا، وهذا عكس زعمكم من أنهم موحدون في الربوبية، مشركون في الألوهية؟!!

**الاعتراض الثالث**: أن المشركين يصرِّحون بأنَّ ما يعبدونه مجرد شفعاء، وأن آلهتهم مخلوقة لله كما قالوا في التلبية «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»[(٣)].

**والجواب**: نعم، قال الله تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، فهم قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، لكن أكملْ الآية لتعلم أنهم كاذبون فيما قالوا، فالله نفسه الذي نقل عنهم ذلك كذَّبهم فيما قالوا، فقال في آخر الآية نفسها فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، «فأوضح

(١) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣١٣).
(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢١١)، تحقيق شاكر.
(٣) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣١٤).

سبحانه كذبهم في زعمهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى وكفرهم بما صرفوا لها من العبادة.. **واعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم من دون إذنه سبحانه ولا رضاه**»[1].

ثم حتى لو فرضنا أنهم صادقون في ذلك، فإن قولهم هذا نفسه يدل على أنهم ينسبون إلى أصنامهم فعلا عظيما وهو التقريب من الله تعالى والشفاعة بدون إذن الله على ما يزعمون، كما سيأتي من كلام ابن تيمية نفسه، هذا فضلا عن أنه قد ثبت عنهم بأدلة كثيرة ما يقدح في توحيد الربوبية، وهذا بسطناه في كتابنا الكبير[2]، وسيأتي طرف منه مما أقررتم به في ذلك[3].

## الجواب عن قولهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»

وأما تلبيتهم فهي نفسها دليل على إشراكهم في الربوبية! وبيان ذلك أنهم كانوا يقولون في حجهم «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكا لك تملكه وما ملك»[4].

(١) إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين لابن باز (ص: ٥٣)، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.

(٢) وذكرت هناك في بيان الآية أنه «لما وضح لبعض المشركين أن آلهتهم لا تملك نفعاً ولا تملك ضراً، لا جلباً ولا دفعاً ولا رفعاً، بعد أن أقيمت عليهم الحجج البرهانية، لجؤوا إلى انتحال معاذير لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادتها فبدا لهم أن يعلِّلوا عبادتهم لها بأن الغرض منه أن تقربهم إلى الله منزلة. وهذا يتضمن أن الله أذن بعبادتها لتحقيق هذه الغاية. **فأبان الله أنهم كاذبون في مقالتهم مبالغون في الكفر بالله**». اهـ نقلا عن «توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما» (ص: ١٠٠)، للشيخ عبد الرحمن حبنكة رحمه الله.

(٣) انظر (ص: ٤٧٩).

(٤) أخرج مسلم في صحيحه (١١٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان المشركون يقولون لبيك =

فهم يصرِّحون بأن آلهتهم تملك شيئاً في قولهم «وما ملك»، لأنني أختار أن «ما» هنا اسم موصول بمعنى الذي وليست نافية، والمعنى هنا: تملكه وتملك الذي ملكه، غاية ما في الأمر أنهم يجعلون الله مالكا أيضاً لما تملكه أوثانهم، وهذا لا ينجِّيهم من الشرك، بل هذا هو عينه حيث جعلوا أصنامهم تملك مع الله، وما هو إلا من تلبيس الشيطان عليهم كما ورد في بعض الآثار.

**ابن تيمية وابن القيم وابن باز يصرحون بأن المشركين ادعوا أن آلهتهم تشفع لهم من غير إذن الله!**

فقد ادَّعوا لأصنامهم ملك الشفاعة ولذا اتخذوهم «شفعاء بينهم وبين الله واعتقدوا أنهم يقضون **حوائجهم من دون إذنه سبحانه ولا رضاه**»(١)، فقد «أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم **ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله**»(٢).

وهكذا «فإنه سبحانه نفى الشفاعةَ الشِّركيَّة التي كانوا يعتقدونها وأمثالُهم من المشركين، وهي شفاعةُ الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعُهم ودفع ما **يضرُّهم بذواتها وأنفسها بدون توقُّف ذلك على إذن الله ومرضاته** لمن شاء أن يَشْفَعَ فيه الشافع»(٣).

فإذن كفار قريش مشركون في المالكيَّة (المِلكية) التي هي من توحيد الربوبية عندكم، وبالتالي فقولكم إنه لم يكن المشركون «مشركين بالله آلهتهم

---

= لا شريك لك قال فيقول رسول الله ﷺ «ويلكم قَدٍ قَدٍ» فيقولون: إلا شريكا هو **لك تملكه وما ملك** يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت. اهـ وقوله ﷺ «ويلكم قَدٍ قَدٍ» معناه كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه ولا تزيدوا. انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ٩٠).

(١) إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله لابن باز (ص: ٥٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٥).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٣/ ١٥٩٢)، طبعة عطاءات العلم.

في الخالقية والرازقية **والمالكية** والربوبية»[1]، وقولكم «ولم يعتقدوا قط في آلهتهم أنهم ينفعون أو يضرون أو يدبرون **بالاستقلال من دون إذن من الله** وبدون تفويض منه، وليس على سبيل مغالبتهم لله وقهرهم له»[2].

فهذا كله غير صحيح، لأنهم يعتقدون أن أصنامهم تملك وتشفع وتضر وتنفع من غير إذن الله كما سبق من نصوص ابن تيمية وابن القيم وابن باز، ولذلك رد الله عليهم في آيات كثيرة وبيّن لهم بأن هذه الآلهة لا تملك الشفاعة ولا التقريب إلى الله، ولا تملك شيئاً أصلا، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقد بسطنا ذلك في كتابنا الكبير.

**الاعتراض الرابع**: أنه لو كان الأمر كذلك لسلَّموا لرسول الله بالبعث وبالرسالة وبكل ما ينكرونه، فكل هذه الأمور ناظرهم فيها الرسول وقطعهم بالحجة، فلماذا سلّموا له بالخالق ولم يسلّموا بهذه الأمور، إلا أن يقال «إنهم لم تقم عليهم حجة وتظهر لهم إلا في مسألة الربوبية دون غيرها»[3].

**والجواب**: هذا قياس مع الفارق، لأن وجود الله الأدلة عليه أدلة عقلية كثيرة ولذا «يقول الحق جل جلاله: ولئن سألتهم أي: من يخوفونك ممن سوى الله، وقلت لهم: من خلق السماوات والأرض ليقولن الله **لوضوح الدلائل على انفراده بالاختراع**»[4].

وهذا بخلاف البعث والرسالة ونحو ذلك فأدلته سمعية، ولا تعرف بمجرد النظر العقلي، وقد أقر بنحو ذلك ابنُ أبي العز حين قال: «فإن الإقرار

---

(١) جهود علماء الحنفية (١/ ٢١٣).

(٢) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (١/ ٢٨٠).

(٣) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣١٣).

(٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٨٠).

بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون، **بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون**»[١]. اهـ.

فتحصَّل مما سبق أن إقرار المشركين بربوبية الله **ليس إقراراً بل هو إلجاءٌ إلى الإقرار** عن طريق المناظرة والحجج، فهم مكرَهون عليه لقوة الحجة التي لزمتهم، وهذا الإقرار غير معتبر شرعا، وإنما المعتبر أن يُقر المكلف بالله طوعاً، وإلا لكان كل من في الأرض من ملحدين ونصارى ومجوس وهندوس وغيرهم مقرين به موحدين لله، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وكما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرعد:١٥]: «فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، **والكافر مستسلم لله كرهاً**، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع»[٢]. ولذا «لو سئلوا من خلق السماوات والأرض لم يجدوا مصرفاً غير الاعتراف، فقال تعالى: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله»»[٣].

**الخلاصة: أنَّ إقرار المشركين - إن سلَّمنا به - فقد كان اضطرارياً لعدم قدرتهم على إنكار وجوده تعالى.**

والحاصل أنَّ إقرار المشركين بالله - إنْ سلَّمنا بوقوعه - فقد وقع كَرها منهم؛ اضطرتهم إليه الحجة والبرهان، فلذلك حين يسألهم عن الخالق «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ **لتعذرِ الإنكارِ لغايةِ بطلانِه**»[٤]. و«**لوضوح البرهان على تفرده**

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٥٨٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).
(٣) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (١/ ٢٣٩).
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٥٧).

**بالخالقية»**[1] ولولا أنه أُسقط في أيديهم لما أقروا بالله أصلا، ولكن لا يستطيعون إنكار وجوده إذ «**دلائل وجود الله تعالى ظاهرة**، وهي دلائل الآفاق والأنفس وقلما توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله»[2].

ولأن هذه المحدثات تدل لا محالة على أنه «**لا بد لها من محدِث قادر عليم مريد حكيم**..»[3]، و«**من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض** وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة، **علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم**»[4]، بل«**الخلق مفطورون على كون الخالق سبحانه أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم**، وأكمل من كل شيء»[5]. وبالتالي فإن «**وجود الله ووحدانيته أمر لا يحتمل الشك، لظهور الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة** على ذلك، وصدق القائل:

**وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد»**[6]

والخلاصة أن أدلة وجود الله العقلية - فضلاً عن غيرها - في غاية الظهور فلا يستطيعون أن ينكروه، وإن أنكروه فليس لديهم حجة يسوغون بها إنكارهم وإلحادهم؛ **ولذا لم يستطيعوا أن ينكروا وجود الله** حين كان رسول الله

(١) تفسير البيضاوي (ص: ٦٨).
(٢) مفاتيح الغيب (١٨/ ١١).
(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ١٢٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٨٤).
(٥) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة (ص: ٢١٤)
(٦) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام للرحيلي (١/ ٤١٨).

يسألهم عن الخالق كما في آيات الباب الثمانية[١]، ولذلك قال مطعم حين سمع سورة «الطور» وما فيها من الأدلة على وجود الله «كاد يطير قلبي» كما سبق[٢].

## الشرك كانوا ورثوه عن آبائهم تقليدا لهم ولم يكن عن دليلٍ عقلي

وأما ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام فهم فعلوا ذلك «**بلا دليلٍ ولا برهانٍ** ولا إذنٍ من الله عز وجل بل بمجرد الآراء والأهواء **والتقليد للأسلاف** والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء»[٣]، «فعلم أن جدال المشركين في شركهم غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما **اعتمدوا على ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة**»[٤].

ولذا قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠]، أي أن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالأقوال الساقطة لأنهم «في إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي، وإنما استندوا على شيء واحد هو **التقليد لآبائهم في جهلهم** وضلالهم»[٥].

(١) طبعا هذا على التسليم الجدلي، وإلا فقد ذكرنا أن آيات الباب الثمانية ليس المقصود بها أن يذهب فعلا ويسألهم عن الخالق، وإنما المقصود منها محاجّة المشركين، انظر (ص: ١٣٩).

(٢) انظر (ص: ٤١٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١٢/ ٦٧٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٧٩).

(٥) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٣/ ٧٢).

# الآيات التي تستنكر على المشركين تقليدهم لآبائهم

ولذا نجد في القرآن آيات كثيرة تنعى على المشركين تقليدهم لآبائهم في شركهم وضلالهم، من ذلك ما يلي:

١) قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

٢) وقال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: ١٠٩].

٣) وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

٤) وقال: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٠ - ٢٢].

فلما «حكى شبهتهم المزيفة نفى أن يكون لهم بها **علم من طريق العقل، ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل** فقال ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن.. فهم بذلك الكتاب مستمسكون.. ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ...﴾ **أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة**»(١).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٥/ ٨٩).

**ولذا قال تعالى:** ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ أي: «أم آتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السماء **بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام، فهم على بينة منه، فهم على برهان مما أمرتهم** فيه من الإشراك بي»[(١)]؟!

## للمشركين مقامان مقام الإقرار الاضطراري ومقام الشرك والجحود

يمكن أن يُقال إن للمشركين مقامين:

الأول: مقام الإقرار بالله اضطراراً في المناظرة عندما يحاججهم الرسول عليه الصلاة والسلام ويسألهم عن الخالق فيضطروا للإقرار به كما سبق؛ وكذا عندما يصيبهم الضر وسيأتي.

والمقام الآخر لهم هو مقام الشرك والجحود حيث تراهم فيه يعكفون على أصنامهم، ويتخذونها أرباباً وآلهة من دون الله تقليدا لآبائهم كما سبق، حتى إذا أصابهم الضر دَعَوه تعالى مخلصين كما قال الله عنهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، **أي** «فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، **فخافوا الغرق والهلاك فيه**.. أخلصوا لله - عند الشِّدَّة التي نزلت بهم - التوحيدَ.. **ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم**، ولكن بالله الذي خلقهم... فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلَّمهم، فصاروا إلى البرِّ، إذا هم **يجعلون مع الله شريكاً في عبادتهم، ويَدْعون الآلهة والأوثان معه أرباباً**»[(٢)]. **اهـ.**

**قال ابن الجوزي:** «قوله تعالى ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ دون أوثانهم،

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٣٩٠).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ٦٠).

**قال ابن عباس تركوا الشرك وأخلصوا لله الربوبية**، وقالوا لئن أنجيتنا من هذه الريح العاصف لنكونن من الشاكرين، أي **الموحدين**»[1]. اهـ.

**وقال الفخر الرازي**: «قال ابن عباس: يريد تركوا الشرك، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئاً، **وأقروا لله بالربوبية** والوحدانية»[2]. اهـ.

## إقرار بعض السلفية أن إيمان المشركين كان اضطرارياً

**وقد نقل نصَّ الرازي هذا بعضُ السلفية** ثم عقّب «فأوضح أن هذا الإقرار لو خفي في كل حين لما خفي في حال الخوف ولذلك لا يعد إيمانا اختياريا، **بل هو إيمانٌ اضطراريٌّ تدفعهم إليه فطرهم دفعاً**»[3].

فتأمل كيف اعترف أن المشركين أقروا بالله هنا - أي عندما يركبون البحر - **اضطراراً فقط من أجل أن يكشف عنهم الكرب**، بدليل أنهم لما رجعوا إلى البر أشركوا بالله الأرباب والأنداد التي يزعمونها!!

وكذلك إقرار المشركين في آية المؤمنون ونحوها إن سلَّمنا به فهو **إقرار بعد المحاجَّة فقط**، وأما قبلها أو بعدها **فهم على أصنامهم فقط يعوِّلون، وإياها يعبدون، وغيرها يهجرون**، ولله منكرون كما دلت على ذلك آيات الطور السابقة ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾...﴾، وكما تدل عليه آيات أخرى كآية ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] التي تفيد أنهم ما أخرجوا رسول الله وأصحابه إلا لقولهم: الله

(١) زاد المسير (٤/ ٢٠).
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٧/ ٧٣).
(٣) جهود أئمة الشافعية في تقرير توحيد العبادة (١/ ١٣٢).

ربنا، وهذا يعني أنهم كانوا لا يقرون بأن الله ربهم، وسيأتي بسط ذلك[١].

## نص الطبري وابن كثير على إنكار المشركين لربهم

ونحو ما سبق قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] «أي: وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، **إنكارًا منهم أن يكون لهم ربّ** يفنيهم ويهلكهم»[٢]. اهـ.

ويقول ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]: «يقول تعالى **محتجاً على وجوده وقدرته**، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ **أي: كيف تجحدون وجوده** أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾ أي: قد كنتم **عدما فأخرجكم** إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وقال ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ والآيات في هذا كثيرة»[٣].

## نص ابن تيمية وأتباعه على أن الناس مقرُّون بربوبيته اضطراراً!

ولا نذهب بعيداً فهذا ابن تيمية يقول ناقلاً عن ابن كلاب ومقرا له: «معرفة الربوبية وهي خاصة للمكلفين من بني آدم وهي تعمُّ مؤمنهم

(١) انظر (ص: ٤٨١).
(٢) جامع البيان (٢١/ ٩٦).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٢)، تحقيق سلامة.

وكافرهم وسائر فرقهم **وهي ضروريةٌ أيضاً**. . . فأقر الكل له بتلك المعرفة، **إذ عاينوه جباراً قهاراً**، وهي معرفة لا يقع بها إيمان ولا توحيد، **لأنها إقرارٌ للضرورة، وليس للكافر فيها اختيار**، إذ لو كان له **فيها اختيار لجحدها**، كما جحد معرفة التوحيد»[١]. ولذا فإن «جميع الإنس والجن مقرون بالخالق معترفون به، مقرون بعبوديته **طوعاً وكرها**»[٢]. اهـ.

فتأمل كيف نص ابن تيمية على أن معرفة الله «ضرورية» للجميع، وأنهم مقرون بعبوديته «طوعا وكرها»، وأنه «**ليس للكافر فيها اختيار**»!!

ويقول أيضاً: «فإشهادهم على أنفسهم جعلهم شاهدين على أنفسهم، **أي مقرين له بربوبيته**، كما قال في تمام الكلام: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، فقولهم: بلى شهدنا، **هو إقرارهم بربوبيته**، وهو شهادتهم على أنفسهم بأنه ربهم. . . ولهذا جميع بني آدم مقرون بهذا شاهدون به على أنفسهم. **وهذا أمر ضروري لهم لا ينفك عنه مخلوق**، وهو مما خلقوا عليه **وجبلوا عليه**، وجعل **علما ضروريا لهم، لا يمكن أحدا[٣] جحده**»[٤].

فتأمل كيف أكَّد ابنُ تيمية أن الإقرار بالربوبية أمرٌ ضروريٌّ جبليٌّ لا انفكاك للمرء عنه ولا يمكن جحده أصلاً، بل ليس للكافر في ذلك اختيار!! **فهذا إن لم يكن اضطراراً فماذا يكون إذن؟!!** وليس هذا فحسب بل إن:

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٥٠٨).
(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨/ ٤٧٩).
(٣) كذا في المطبوع بنصب أحد، وقد وجَّهه بعض الفضلاء على نزع الخافض، أي أن الأصل فيه «لا يمكن جحدُه لأحد»، وذُكرت توجيهات أخرى للنصب. والله أعلم.
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٨٨).

## ابن تيمية يزعم أن كون الله فوق العالم.. معلوم للناس بالاضطرار كعلمهم بأنه خالق العالم

حيث يقول: «**القول بأن الله تعالى فوق العالم معلوم بالاضطرار** من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة بعد تدبر ذلك كالعلم بالأكل والشرب في الجنة والعلم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.. والعلم بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما»[١]. اهـ.

وهذا أحد الباحثين من السلفية حينما تعرض لمسألة الأدلة على وجود الله ذكر أن «إثبات وجود الله تبارك وتعالى من حيث هو موجود لم يكن من الأهداف القرآنية.. **لأن الإيمان بوجود الله تبارك وتعالى أمر فطرت عليه القلوب..**»[٢]، يقول بعد ذلك: «ولكن وُجد من **انحرفت فِطرهم** فقالوا بأن العالم لم يزل، وهم الدهرية، وقد رد القرآن الكريم على هؤلاء بما **يضطر العقول** إلى الاعتراف بالحق والرجوع إلى الصواب»[٣].

ثم يستدل بآية «الجاثية» السابقة، ويفسرها بقوله «أي ما ثَمّ خالق ولا مميت **فالحياة والموت عندهم عبارة عن تركب الطبائع** المحسوسة في العالم السفلي وتحللها، **فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر**، **فكذَّبهم الله** تبارك وتعالى بقوله «وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» أي **نسبتهم الحياة والموت للطبع والدهر قول بغير علم** مبني على الظن والتخمين، لأن

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٢).
(٢) ابن حزم وموقفه من الإلهيات (ص: ١٣٨-١٣٩)، رسالة دكتوارة بجامعة أم القرى للباحث د. أحمد بن ناصر الحمد.
(٣) ابن حزم وموقفه من الإلهيات (ص: ١٣٩).

من كان طلبه وجدان الحق يكفيه النظر إلى حدوث الحياة في الأجسام الجمادية **دليلاً على أن هناك موجدا للحياة** ومنعما بها وهو الله تبارك وتعالى»[1].

فتأمل قوله «وقد رد القرآن الكريم على هؤلاء **بما يضطر العقول** إلى الاعتراف بالحق..»، وقول من تقدم وهو «ولذلك لا يعد إيمانا اختياريا، بل هو إيمانٌ اضطراريٌّ تدفعهم إليه فطرهم دفعا» تجد أن إقرار المشركين بالله - إن وقع - هو إقرارٌ اضطراريٌّ لا طوعي، وهذا باعتراف هؤلاء السلفية أنفسهم، وفيه رد على أولئك السلفية الآخرين الذين أنكروا أن يكون المشركون مضطرين للإقرار بالله، وقد سبق الرد عليهم. والله الموفق.

❀ ❀ ❀

(١) ابن حزم وموقفه من الإلهيات (ص: ١٤٠).

## المطلب الثالث

# كونهم غير مذعنين لإقرارهم ناقضين له

**فثمة أمران:**

الأول: أن المشركين كانوا غير مذعنين لإقرارهم بالله خالقاً، طبعاً هذا إن سلَّمنا بإقرارهم أصلا.

والثاني: على التسليم بأنهم كانوا مذعنين فإنهم قد نقضوه باعتقاداتٍ وسلوكياتٍ منافيةٍ لإقرارهم كما أقرَّ بذلك السلفية أنفسهم. وفيما يلي بسط كلا الأمرين في مرصدين.

المرصد الأول: بيان أن المشركين كانوا غير مذعنين.

المرصد الثاني: بيان نقض المشركين لإقرارهم بتوحيد الربوبية.

## المرصد الأول

# بيان أن المشركين كانوا غير مذعنين

إن سلَّمنا على أكبر تنزُّل أن آيات «المؤمنون» ونحوها من آيات الباب الثمانية تدل على أن المشركين أقرُّوا بأن الله وحده هو الخالق المدبِّر لا شريك له في ذلك، وأنهم كانوا موقنين في ذلك، **بيد أن إقرارهم وإيقانهم لا يعني أكثر من أنهم كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم أن الله هو الخالق وحده**، **ولكن هذا لا يكفي لنجعلهم موحدين في الربوبية، إذ هم يعلمون أيضاً أنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله**، كما في أثر ابن عباس رضي الله عنه الذي سيأتي «وقد علمتم أن الذي **يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه**»[(١)].

ومعلومٌ أن التوحيد الذي دعاهم إليه هو توحيد الألوهية حسب قول ابن تيمية، وبالتالي فهم يعلمون ولا يشكون بأن توحيد الألوهية هو الحق الذي لا شك فيه، ومع ذلك فهم مشركون في الألوهية اتفاقا، لأنهم لم يذعنوا لعلمهم هذا ولذا أشركوا في توحيد الألوهية، كما أنهم أشركوا في ربوبيته مع إقرارهم وعلمهم بأنه الله هو الخالق وحده لكن لم يذعنوا لذلك أيضاً،

(١) جامع البيان (١/ ٣٩٣)، وانظر شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٠٩).

«فالمشركون يعرفون بأن الأمر والخلق بيد الله، ويعترفون بربوبيته، **ولكن لا يعملون بما يعلمون**»[١].

وبالتالي لا يقال بأنهم موحدون في الربوبية ولا في الألوهية لمجرد علمهم وإقرارهم بأن الله هو الرب والإله وحده، لأن علمهم وإقرارهم هذا لم يقترن بالإذعان والتسليم منهم لذلك[٢]، والإيمان ما لم يقترن **بالإذعان غير معتبرٍ** شرعاً، كما سنبينه فيما يلي:

## الإيمان والتوحيد يشترط في صحتهما الإذعان

إن الإيمان ما لم يقترن بالإذعان والخضوع والتسليم والانقياد لا يسمى إيماناً أصلاً؛ إذ الإيمان في كلام العرب **هو** «التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وكان تصديقُ القلب العزمَ **والإذعان**، وتصديقُ اللسان الإقرار، وتصديق الجوارح السعي والعمل»[٣].

فتصديق القلب لا بد أن يقترن بالخضوع «**مع ترك التكبر** والاستنكاف والمعاندة، فإذا أتى بهذا الأصل فقد دخل في الإيمان ولزمه اسمه وأحكامه»[٤]، **إذ** الإيمان «يراد به **إذعان** النفس للحق على سبيل التصديق»[٥].

(١) موقف شيخ الاسلام ابن تيمية من الإمام فخر الدين الرازي في الإلهيات، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى للباحثة ابتسام أحمد محمد جمال، ١٩٩١ م.

(٢) انظر: تحفة المريد للبيجوري (ص: ٩١)، طبعة دار السلام.

(٣) تهذيب الآثار للطبري (٢/ ٦٨٥). وانظر: جهود علماء الشافعية في تقرير عقيدة السلف في مباحث الإيمان والرد على المخالفين (ص: ١٩٢).

(٤) الإيمان لابن منده (١/ ٣٣١).

(٥) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٦).

وهذا ما أكده ابن تيمية وأتباعه، حيث قال ابن تيمية: «وأصل الإيمان قولُ القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع»[(١)]، «وعمل القلب الذي هو الانقياد - تصديق الرسول»[(٢)]، وأيضاً «عمل القلب: نيته، وتسليمه، وإخلاصه، **وإذعانه**، **وخضوعه**، وانقياده، والتزامه»[(٣)].

وهو - أي عمل القلب - من ضمن «خمسة أمور اشتمل عليها مسمى الإيمان عند أهل السنة والجماعة: قول القلب، وعمله، وقول اللسان، وعمله، وعمل الجوارح.. عمل القلب، وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد»[(٤)]، وهذا الانقياد والإذعان للقلب ركن ركين في الإيمان إذ الإيمان «إنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل»[(٥)].

«**ولا تنفعه المعرفة القلبية** من غير إذعان وقبول، فإن من **الكفار من كان يعرف الحق يقيناً**، وكان **إنكاره عناداً** واستكباراً، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾»[(٦)]؛ فمثلا اليهود كانوا «يجحدون رسالته ويحسدونه عليه الصلاة والسلام، وإنْ كانوا **يعترفون بأنّه رسول الله وأنّه نبيُّ الله في قَرارة أنفسهم** كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، فهم يعلمون أنّه

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨).
(٣) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة (ص: ٢٤).
(٤) زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه (ص: ٢١)، عبد الرزاق البدر، مكتبة دار القلم بالرياض، ط١/ ١٩٩٦م.
(٥) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٠).
(٦) الإيمان بين السلف والمتكلمين (ص: ١٥٢).

رسول الله، وأنّه نبيُّ الله، ولكنّهم جحدوا هذا **تكبُّراً وحسداً لرسول الله** ﷺ، وحسداً للعرب»(١).

ولذلك «**لا يُسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول** وإن كانوا يعرفون أنه حق كما يعرفون أبناءهم»(٢)، «بل ومشركو قريش قال الله عنهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.. لا بد من مفارقة المشركين بالاتباع **والإذعان**»(٣)، و«**انقيادُ القلب - وهو إذعانُه لمتابعةِ الرسول** ﷺ وما لابدَّ منه لذلك مِن عملِ القلب؛ كمحبةِ الله ورسولِه، وخوفِ الله ورجائه»(٤).

**والحاصل من النصوص** السابقة أن الإيمان لا يُقبل دون الإذعان والانقياد والاستسلام، بل إن ابن تيمية يذهب أبعد من ذلك حين يقول: «فالمعرفة بالحق إذا كانت **مع الاستكبار** عن قبوله والجحد له **كان عذاباً على صاحبه**، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾»(٥)، ويقول أيضاً: «فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل **أشد الناس** عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»(٦).

---

(١) إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٤٤٩)، وانظر أيضاً (١/ ٣٦٠). وانظر: التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام للألباني (١٤)، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٦٣)، الرد الشامل (ص: ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٦).

(٣) الرد الشامل للموجان (ص: ١٠٢- ١٠٣).

(٤) جواب في الإيمان ونواقضه، عبد الرحمن البراك (ص: ١٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٥).

(٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧١).

ويضرب على ذلك مثالا فيقول: «فإذا كان عالما بأن محمداً رسول الله **ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه** بل كان يبغضه ويحسده **ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمنٍ به بل كافرٌ** به. ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** وغير هؤلاء»[1]. اهـ.

بل من هذا الباب أيضاً كفر مشركي العرب وهو العناد وعدم الإذعان لما يعلمون أنه حق، كما قرر ذلك الطبري فقال: «وقد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن ولم يكن ذلك في لغتها؛ ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ إنكارا منهم لهذا الاسم. كأنه كان **محالا عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته**، أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعني محمداً ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾، **وهم مع ذلك به مكذبون، ولنبوته جاحدون**. فيعلم بذلك أنهم قد كانوا **يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته واستحكمت لديهم معرفته**»[2]. اهـ.

**إذن المعرفة يجب أن تقترن بالإذعان وذلك باتباع الرسول ومحبته** كما قال ابن تيمية وأتباعه، فلا يكفي أن يكون مجرد معرفة وجود الله والإقرار بذلك دون إذعان وانقياد لهذه الحقيقة، والمشركون يمكن أن يقال إنهم ممن كان عندهم معرفة بالله، ولكن دون إذعان!!

وكيف يكون عندهم إذعان؟! والإذعان إنما هو باتباع الرسول ومحبته كما قرر ذلك ابن تيمية نفسه؟ أكان المشركون متبعين لرسول الله ومحبين له؟! أم كانوا كافرين به، ومعادين له، ومبغضين وسابّين وناعتين له بأسوأ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧١).
(٢) جامع البيان (١/ ١٣٠).

الأوصاف من أنه كذابٌ وساحرٌ وشاعرٌ ومجنونٌ[(١)] - حاشاه بأبي هو وأمي - كما سيأتي بسط ذلك؟!!

وعليه فإن إقرارهم بالله وحده خالقاً - إن سُلِّم - هو غير كافٍ وغير مقبولٍ لعدم إذعانهم كما تقدم، ولذلك حُملت آيات الباب الثمانية - كقوله تعالى «ولئن سألتهم من خلقهم..» ونحوه - عند كثير من علماء السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم على مجرد المعرفة القلبية بالله فحسب، أي غير مقترنة بالإذعان والخضوع.

**نصوص العلماء سلفاً وخلفاً على أن المراد بآيات الباب هو المعرفة القلبية الفطرية بالله:**

١) قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: «وأنتم **تعلمون** أنه لا رب لكم يرزقكم غيره»[(٢)].

٢) وقال الطبري في الآية السابقة: «إذ كان ما كان عند العرب **من العلم** بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم، نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين».

٣) وفي قوله ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، قال ابن عباس: «**المعرفة**»[(٣)].

٤) وقال عطاء في قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾: «**يعلمون** أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يشركون به»[(٤)].

---

(١) والآيات في

(٢) جامع البيان (١/ ٣٩٣)، وانظر شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٠٩).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٦).

(٤) جامع البيان (١٣/ ٣٧٦).

٥) وقال عكرمة والشعبي في الآية السابقة: «**يعلمون** أنه ربهم، وأنه خلقهم، وهم مشركون به»[١].

٦) وقال ابن زيد فيها أيضاً: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، **ويعرف** أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه..»[٢].

٧) وقال الفخر الرازي: «إنهم كانوا **عالمين** بوجود شيء جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً، **وذلك** تحقيق قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ...﴾»[٣].

٨) وقال ابن كثير: «لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله عز وجل وحده لا شريك له أي وهم **يعلمون ذلك**»[٤].

٩) وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.. «وكذب عدو الله، بل **علم أن له ثَمّ رباً** هو خالقه وخالق قومه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ...﴾»[٥].

١٠) وقال الروياني: «ما من مشركٍ وإن خلا في شركه إلا وهو عند رجوعه إلى نفسه **يعترف بخالق خلقه** وإن كان معاندًا بلسانه.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ...﴾»[٦]. اهـ.

١١) وقال ابن عبد ربه: «وبالعقل أدرك الناس **معرفة الله** عز وجل؛ ولا يشكُّ

(١) جامع البيان (١٣/ ٣٧٣).
(٢) جامع البيان (١٣/ ٣٧٦).
(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٢/ ١١١).
(٤) تفسير ابن كثير (١٤/ ٧٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٦/ ٢٨٣).
(٦) بحر المذهب للروياني (١٠/ ٣٣٩).

فيه أحدٌ من أهل العقول؛ يقول الله عز وجل في جميع الأمم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ...﴾»(١).

**فأفادت هذه النصوص** أن المشركين والكفار كان عندهم **علمٌ ومعرفةٌ** بوجود الله، بيد أن هذا العلم ناشئٌ عن تقليدٍ كما سبق، فضلاً عن أنه لم يقترن بالإذعان، أي هو مجرد معرفةٍ قلبيةٍ فقط، كما دلت على ذلك النصوص السابقة عن ابن عباس وعطاء وعكرمة والشعبي وابن زيد والطبري والرازي وابن كثير رحمهم الله.

فهؤلاء الأئمة كلهم **عبَّروا بكلمة المعرفة** أو العلم كما رأيت **ليشيروا بها إلى المعرفة القلبية بوجود الله** عند المشركين والكفرة، واستدل بعض هؤلاء الأئمة على ذلك بآيات الباب - وهذا ما يهمنا هنا - كما فعل الرازي والقرطبي وغيرهما، وبعضهم استدل على ذلك بآيات أخرى كآية: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، وآية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾، وثمَّة آيات أخرى يستدل بها هنا على مسألة المعرفة القلبية والفطرية بالله كآية الميثاق والفطرة كما سبق.

## قول الروياني: يعترف بخالق خلقه وإن كان معانداً بلسانه

وأيا ما يكن فإن هذه المعرفة القلبية لا تكفي في الإيمان ولا التوحيد لأن غايتها أن تقترن بإقرار لساني فحسب أي دون إذعان أو خضوع كما سبق، بل قد تقترن بالإنكار اللساني، وهذا ما أشار إليه الروياني بقوله: ما من مشرك وإن خلا في شركه إلا وهو عند رجوعه إلى نفسه **يعترف بخالق خلقه**

(١) العقد الفريد (٢/١٠٧).

**وإن كان معانداً بلسانه**. ثم استدل على ذلك بآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن...﴾.

وهذا يعني أن هذه الآية وأمثالها لا تدل حتى على الإقرار اللساني بالله، وإلا فكيف يقول الروياني إذن «**يعترف** بخالق خلقه وإن كان **معاندًا بلسانه**» فكيف يعترف بخالقه، وكيف هو معاند بلسانه؟! الجواب أن الروياني يقصد بقوله «يعترف بخالق خلقه» أي يعترف بذلك بقلبه، بدليل قوله بعد ذلك «وإن كان معاندًا بلسانه».

والحاصل أن آيات الباب دلت - على الأقل عند من سبق ذكرهم من الأئمة - على المعرفة القلبية بوجود الله والتي قد تقترن بالإقرار اللساني، أو بعكسه وهو الإنكار اللساني، وعلى كلا الحالين فهذا لا يكفي في الإيمان والتوحيد، أما في حالة الإنكار اللساني فظاهر، وأما في حالة الإقرار اللساني فلأنه لم يقترن بشرطه وهو الإذعان كما سبق.

## آيات الباب نفسها دلت على عدم إذعانهم

هذا وقد دلت بعض آيات الباب نفسها على أن إقرارهم لم يقترن بالإذعان، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣] فقد أشير بقوله ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى «أنهم يعرفون بأن ذلك من الله **ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون**، وأنت تعلم وتعمل، فكذلك المؤمنون بك، فقل الحمد لله»(١).

وبالتالي نُزّل إقرارهم بالخالق «**منزلة العدم والإنكار لأنه إذا لم يقترن**

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٩١).

**بالطاعة** والأعمال الصالحة لا يُعد تصديقاً»[١]. «**بل اقترن بما ينبئ عن خلافه** من الشرك والعصيان نزل منزلة العدم والإنكار فحضوا على التصديق بذلك»[٢]. لأنهم «إذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي؟!»[٣].

**المشركون كانوا عارفين أيضاً بأن الله هو وحده الإله الحق.. فهل سيقال إنهم موحدون في الألوهية؟**

فثبت بما سبق أنهم غير مذعين لما أقروا به بل جاؤوا بنقيضه كما رأيتم، ثم إذا كنتم ترون أن مجرد معرفة المشركين بوجود الله وإقرارهم بأنه هو الخالق وحده - إن سُلّم - ترون أنّ هذا يجعلهم مقرين بتوحيد الربوبية حتى ولو لم يكونوا مذعنين لإقرارهم، فيجب أن تعتبروهم مقرين بتوحيد الألوهية أيضاً!!

وذلك لأنهم كانوا أيضاً عارفين بأن الله هو الإله الحق وحده ومقرين بذلك في أنفسهم، تماما كما هم عارفون بأنه هو الرب والخالق وحده، وبالتالي فهم مقرون بقسمي التوحيد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهذا خلاف مذهبكم بأنهم مقرُّون بالأول دون الثاني، والدليل على أن المشركين عندكم كانوا عارفين بأن الله هو الإله الحق وحده، ومقرِّين بذلك في أنفسهم، ما يلي:

**الدليل الأول**: ما قرره ابن تيمية وأتباعه في نصوص كثيرة من أن

---

(١) حاشيه الشهاب «عناية القاضي وكفاية الراضي» (٨/ ١٤٥).

(٢) روح المعاني (٢٧/ ١٤٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٦٣).

المشركين وسائر الناس مفطورون على توحيد الألوهية كما هم مفطورون على توحيد الربوبية، وإليكم طائفة من تلك النصوص:

## نصوص ابن تيمية وأتباعه على أن النفس تُفطر على توحيد الألوهية والربوبية معاً

١) يقول ابن تيمية: «وكل واحد من **وحدانية الربوبية والإلهية** - **وإن كان معلوماً بالفطرة** الضرورية البديهية وبالشرعية النبوية الإلهية - فهو أيضاً معلومٌ بالأمثال الضرورية التي هي المقاييس العقلية»(١). اهـ.

٢) ويقول أيضاً: «فالنفس **بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية، مُحبة له تعبده لا تشرك به شيئاً**. ولكن يفسدها ما يزيّن لها شياطين الإنس والجن»(٢).

٣) وقال ابن القيم: «**أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله** وأن محمدا عبده ورسوله وأن الإنسان لو استقصى التفتيش **لوجد ذلك مركوزاً** في نفس روحه وذاته **وفطرته**»(٣). اهـ.

٤) وقال أيضاً: «... ولولا أنه مستقرٌ في العقول **والفطر حسن عبادته** وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره لما احتج عليهم بذلك أصلا»(٤). اهـ.

٥) وهذا نص عليه أيضاً تلميذ ابن تيمية وهو ابن كثير حيث قال: «إن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى **فطرهم على ذلك** وجبلهم

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٦)، وأثر الفكر الاعتزالي في عقائد الأشاعرة (١/ ١٥٥).
(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٥٩٢).
(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨).

عليه»[١]، وقال أيضاً: «فإنه تعالى **فطر خلقه على معرفته** وتوحيده، **وأنه لا إله غيره**»[٢]. اهـ.

٦) وقال الحفيد النجدي: «يقرر تعالى أنه **الإله الواحد الذي لا شريك له**، ولا معبود سواه مما يشترك في معرفته المؤمن والكافر، **لأن القلوب مفطورة على ذلك**، **فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة**، وزال ما ينازعها، فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له»[٣].

٧) وقال د. المحمود: «**الفطرة** دالة على أن كل مولود يولد على فطرة الاسلام، **وهي الحنيفية المقتضية لعبادة الله وحده لا شريك له** والحب والخضوع له تعالى»[٤].

**الدليل** الثاني: استغاثتهم بالله وحده في الشدائد لعلمهم أن آلهتهم المزعومة لا تملك لهم شيئاً[٥]، «فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء»[٦].

أي «يُخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا الله يا الله،

---

(١) صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان (ص: ٤٤٦)، وانظر تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٣).
(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣١٣).
(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٩٨).
(٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ٢٥٧)، نقلاً عن درء التعارض (٨/ ٤٥٨-٤٥٩).
(٥) ولكن هم طبعا يعتقدون أنها آلهة حتى في حال شدتهم وعدم استغاثتهم بها، بخلاف من يستغيث بالأنبياء والأولياء من المسلمين، فهو لا يعتقد أنهم آلهة بل يشهد أن لا إله إلا الله، وأنه لا يضر وينفع إلا هو، وأما المشركون فيشهدون بأن أصنامهم آلهة تضر وتنفع كما في قول تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٤]. فوضح الفرق، ولبسط هذا موضع آخر. وبالله التوفيق.
(٦) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠)، وانظر أيضاً نحوه في «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٨/ ٤٧٩).

لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر. . . فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، **وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك**»[1]. اهـ. «كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾»[2]. اهـ.

**الدليل الثالث**: ما رواه الطبري عن ابن عباس: «وإنما عني بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي **يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه**»[3].

وهذا الأثر كنتم قد استدللتم[4] به على أن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية لقوله «وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره»، ولكنه أيضاً يدل على أنهم كانوا مقرّين أو عالمين بتوحيد الألوهية لقوله فيه «وقد علمتم أن الذي **يدعوكم إليه الرسول** من توحيده هو الحق لا شك فيه» والتوحيد الذي دعاهم إليه هو توحيد الألوهية، وأما توحيد الربوبية فلم تأت به الرسل أصلا حسب نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية[5].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤١٥).
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: ٣٩).
(٣) جامع البيان (١/ ٣٩٣).
(٤) القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٥٨)، شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٠٩)، موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: ١٢٩)، آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٦/ ١٥٨).
(٥) انظر (ص: ٣٣-٣٤).

# هم أشركوا في الربوبية والألوهية معاً.. فلا داعي لاختراع نظرية لتقسيم التوحيد

وهذا ما صرح به الطبري في موضع آخر فقال عند قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ﴾: «... وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، والأميين الذين لا كتاب لهم من **مشركي العرب**: أأسلمتم؟ يقول: قل لهم: **هل أفردتم التوحيد**، وأخلصتم العبادة والألوهة لرب العالمين، دون سائر الأنداد والأشراك التي تشركونها معه في عبادتكم إياهم، وإقراركم بربوبيتهم، **وأنتم تعلمون أنه لا رب غيره، ولا إله سواه**»[1]. اهـ.

فتأمل كيف ذكر أن أهل الكتاب ومشركي العرب أيضاً يعلمون «**أنه لا رب غيره، ولا إله سواه**»، ولكن غاية ما في الأمر أنهم لم يذعنوا لعلمهم هذا فأشركوا في الربوبية كما أشركوا في الألوهية؛ هذه القضية كلها باختصار **فلا داعي إلى اختراع نظرية كاملة لتقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية** بزعم أن المشركين فرقوا بينهما فأشركوا في الألوهية دون الربوبية، فهذا غير صحيح فهم أشركوا في الربوبية والألوهية معا.

**الدليل الرابع**: ما جاء في قصة إسلام أبي سفيان: فلما رآه رسول الله ﷺ قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان **مع الله إله غيره** لقد أغنى عني شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني

(١) جامع البيان (٥/ ٢٨٦).

رسول الله «قال بأبي أنت وأمي..»[1]. اهـ. وقد ذكرها أصحاب السير[2] وأسندها الطبراني وغيره، وصححها الحافظ، واستشهد بها ابن القيم[3].

**فأفادت هذه الأدلة الأربعة** وغيرها أن المشركين كانوا مفطورين وعارفين بأن الله هو الإله الحق وحده؛ أي أنه وحده المستحق للعبادة ولكنهم لم يذعنوا لهذا الذي عرفوه وفطروا عليه، لأن فطرتهم قد انحرفت ولذلك عبدوا معه غيره، تماما كما أنهم كانوا مفطورين وعارفين بأن الله هو الخالق وحده ولكنهم لم يذعنوا لهذا ولذلك أشركوا معه في الربوبية غيره كما تقدم بيانه.

## هل الشرك في الألوهية نقض لتوحيد الربوبية؟

**فإن قلتم**: سلَّمنا بأن المشركين كانوا يَعلمون بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة دون غيره، وأنهم كانوا مفطورين على توحيد الألوهية، تماما كما هم مفطورون على توحيد الربوبية، ولكنهم حين عبدوا الأوثان انتقض توحيدهم في الألوهية، دون أن ينتقض توحيدهم في الربوبية!!

فالجواب من وجهين:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٠١).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٤٩)، طبعة دار المعرفة. وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٢١٨)، طبعة دار القلم (٢/ ٢١٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٥٤٠)، تحقيق تدمري.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٤٩٠)، طبعة عطاءات العلم، جاء في حاشية هذه الطبعة: قصة العباس مع أبي سفيان أخرجها إسحاق بن راهويه - كما في «المطالب العالية» (٤٣٠١) - والطبراني في «الكبير» (٨/ ١١).. وروى أبو داود (٣٠٢١) طرفًا منه مختصرًا جدًّا. قال الحافظ في «المطالب»: «هذا حديث صحيح»... وأخرج مسلم (٨٦/١٧٨٠) عن أبي هريرة قولَه ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

**الوجه الأول**: إن نفس عبادتهم للأوثان هو نقض لإقرارهم بتوحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية يلزم منه - كما تقولون - توحيدَ الألوهية؛ «لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده **لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده**»[(١)]، فلما لم يلتزموا بتوحيد الألوهية فإنهم بذلك نقضوا توحيد الربوبية، وقد أقر السلفية بذلك أنفسهم[(٢)]، وإليك نصوصهم:

**النص الأول**: **قال د. الهذيل**: «إن أهل السنة لا ينازعون في أن المشركين واقعون فيما هو **قادح في توحيد** الربوبية ومناقض له، **وذلك بصرفهم العبادة** لغير الله.. **فأقوالهم وأفعالهم** في حقيقتها **قدحٌ للربوبية** وإن كانوا يقرون بها.. فكل ما وقع فيه المشركون من صرف العبادة لغير الله تعالى، ومساواتهم له بالله تعالى كما في هذه الآية، **وكمحبتهم آلهتهم كحب** الله تعالى، **لازمه القدح في جناب الربوبية**»[(٣)].

**النص الثاني**: قال **الموجان**: «إن هؤلاء لم يكفروا بجحدهم الربوبية، **فإنهم مثبتون لأصولها** وإن كان قد يكون ثَمَّةَ مَنْ أشرك في بعض جزئياته **لكنهم لم يأتوا بلازم الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له**»[(٤)]. اهـ.

**أحمد الحازمي ينص على التلازم بين أقسام التوحيد:**

النص الثالث: يقول أحمد الحازمي: «... التوحيد، الأنواع الثلاثة كلها **متلازمة** يعني داخل بعضها في بعضٍ، ولا يمكن أن يتصور أنه يوجد نوعٌ دون الآخر؛ بمعنى أن من وَحَّدَ الله تعالى في ربوبيته على وجه الكمال لزم منه أن يُوحد الله تعالى في أُلوهيته على وجه الكمال **والعكس بالعكس**،

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٩٠).
(٢) انظر (ص: ٤٧٨).
(٣) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣٠٢).
(٤) الرد الشامل للموجان (ص: ١٠١-١٠٢).

ولذلك إذا وقع الشرك الأكبر في أحد هذه الأنواع الثلاثة لَزِمَ منه الوقوع في الثاني والثالث».

ثم يضيف قائلاً: «وإنما يذكر أهل العلم أن هذا شركٌ في الربوبية، وأن هذا شرك في الألوهية ليس المراد أنه نفي للآخر؟ لا، إذا قيل: بأن هذا شرك في الألوهية المراد أنه أصابه مباشرة... يلزم منه أنه ماذا؟ أنه شركٌ في الربوبية، والعكس بالعكس، فهي متلازمة من حيث الوجود، ومتلازمة من حيث الانتفاء»[1]. اهـ.

فتأمل كيف نص الشيخ أحمد الحازمي على أن الشرك في الألوهية شركٌ في الربوبية، والعكس صحيح، لأنهما متلازمان بحيث إذا وقع الشرك في أحدها وقع في الآخر لا محالة، وإذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر فورا، وسيأتي نص مشابه له في ذلك[2]، بل سيأتي المزيد من نصوص السلفية في ذلك[3].

الوجه الثاني: أننا إن سلمنا أن عبادتهم للأوثان ليست ناقضة لإقرارهم بتوحيد الربوبية، وسلّمنا أنه لا يلزم من توحيد الربوبية توحيد الألوهية - مع أن هذا خلاف مذهبكم - فإن المشركين نقضوا توحيد الربوبية بأمور كثيرة أخرى غير قضية عبادتهم الأوثان، نسرد بعضها فيما يلي:

---

(١) شرح كتاب التوحيد لأحمد الحازمي، وهو عبارة عن دروس مفرغة له. انظر النص أعلاه على الرابط:

https://al-maktaba.org/book/31683/1292

(٢) انظر (ص: ٤٧٩).

(٣) انظر (ص: ٤٧٨).

# الأدلة على إشراكهم في الربوبية

١) نسبتهم الولد إليه تعالى كما في آية ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ١٥٢﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]، تماما كما فعل النصارى، فهل تقولون: إن النصارى موحدون في الربوبية حتى مع قولهم بأن المسيح ابن الله؟!! كيف وقد أقررتم بأنه شرك في الربوبية! فقلتم: «فمن المعلوم ما وقعت به النصارى من **شرك في ربوبية** الله تعالى، حيث **أثبتوا له الولد** والصاحبة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا...»[(١)] كما بسطناه في كتابنا الكبير.

٢) وكذلك نقضوه بإنكارهم قدرة الله على البعث والنشور وإحياء الموتى فقال قائلهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ٣﴾ [ق: ٣]، فأين إقرارهم المزعوم بتوحيد الربوبية الذي هو «الإقرار بأنَّ الله تعالى رب كلّ شيء ومليكُه وخالقُه ورازقُه، **وأنه المحيي المميتُ**»[(٢)]، وأين **زعمكم بأن «المشركين كانوا معترفين بأن الله** هو الخالق الرازق المدبر **المحيي المميت وحده**»[(٣)]؟! وأين زعم النجدي «فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق **وحده لا شريك له.. ولا يحيي ولا يميت إلا هو**»[(٤)]؟!!!

---

(١) آراء الصاوي في العقيدة والسلوك (ص: ١٣٠)، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، للباحثة أسماء ملا حسين، لعام/ ٢٠٠٤ م.

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٩)، المؤلف: نخبة من العلماء، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، ط١، ١٤٢١هـ.

(٣) جهود علماء الحنفية (١/ ٢٨٠، وانظر ص: ٢٠٣، ٢٧٩)

(٤) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤)، وانظر أيضاً: معنى لا إله إلا الله، محمد بن عبد الوهاب (ص: ٢، ت.ش)، وشرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: ٣٠).

وإنكارهم للبعث والنشور أشارت إليه بعض آيات الباب كما سبق، وفي ذلك يقول **النسفي**: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لأنه لما **كان إنكارهم للبعث** والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جُعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه، لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم **فمن جحده فقد جحد الحكمة في خلق العالم** ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»[1]. ولذا جعل ابن القيم من أنكر البعث منكراً لله فقال «**فليس مع المكذبين بالقيامة** إلا مجرد تكذيب الله ورسوله **وتعجيز قدرته**... ولهذا يخبر الله سبحانه عمّن أنكر ذلك **بأنه كافر بربه جاحد له لم يقرّ برب العالمين فاطر السموات والأرض**»[2]. اهـ.

٣) ونقضوه أيضاً بقتلهم أولأدهم خشية الفقر - كما سيأتي - فأين إقرارهم بأن الله هو الرازق؟!!

٤) ونقضوه بنسبة التأثير لأصنامهم وللكواكب، وبتعاطيهم للسحر والطيرة ونحو ذلك مما سبق الإشارة إليه[3]، وبسطناه في كتابنا الكبير، فأين إقرارهم بأن الأمر كله بيد الله؟

## آيات الباب الثمانية تشير إلى نقضهم لتوحيد الربوبية

هذا وقد أشارت بعض آيات الباب الثمانية نفسها إلى أن المشركين نقضوا توحيدهم للربوبية، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ

(١) تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٣/ ١٥٣).
(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ٢٦٧).
(٣) انظر (ص: ٨٩).

شَىْءٍ...﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩]، فقوله ﴿تُسْحَرُونَ﴾ أي: «تُخدعون **وتُصرفون عن توحيده** وطاعته، والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً؟»(١)، «أو مِن أين تُخدعون وتُصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه من البغي»(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢] أي «أفلا تتقون عبادة غيره دونه، **وإشراك غيره في ألوهيته وربوبيته**»(٣)، «فأنّى تصرفون أيها الحمقى المسرفون المفرطون وكيف تنصرفون وترجعون الى غيره من الاظلال الهالكة المستهلكة وتنسبونها الى **الألوهية والربوبية** ظلماً وعدواناً»(٤).

«فكأن قد قيل لهم إذا أقررتم بأن ذلك (كله) ملك لله تعالى وخلقه فهلا اعتبرتم بما في الأرض من الآيات، **واستدللتم بذلك على نفي الشريك والند للمنفرد بملك الأرض والسماوات** إذ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾»(٥).

«ولو سبقت لهم سعادة لكان تذكرهم لذلك **يؤثر خوفهم من عذابه، فلما لم يقع ذلك** منهم قيل لهم: (قل أفلا تتقون). فلما تم تقريرهم على جميع ما تقدم مما ذكروا به، واعترافهم بكل ذلك، **ولم يعقبهم إقرارهم ولا اعترافهم: الإيمان والانقياد**، كانوا **كمن فقد عقله** أو سحر، فاختل نظره

(١) تفسير البغوي (٥/ ٤٢٧).
(٢) روح المعاني (١٨/ ٥٨).
(٣) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٣٨).
(٤) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية للنخجواني (١/ ٣٣٢).
(٥) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٧٠-٣٧١).

وعقله، فقيل لهم كيف تسحرون ما بالكم أنى تستحرون؟»[1].

والحاصل أن المشركين يعلمون أنه لا إله ولا رب إلا الله - بل يعلمون أن محمدا رسول الله كما سبق[2] - ولكنهم لم يذعنوا لهذه الحقيقة بدليل أنهم كانوا في واقع أمرهم يعددون الآلهة والأرباب ويتخذونها من دون الله كما سبق، وبالتالي فعلمهم بوحدانية الله في الربوبية والألوهية لم يفدهم في الدنيا فيعصم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، ولا ينجيهم في الآخرة.

وبالتالي فلا يصلح أن يكون علمهم هذا موجبا للزعم بأنهم موحدون في الربوبية أو في الألوهية؛ لأنهم لم يلتزموا ولم **يترجموا ما علِموه في قرارة أنفسهم** من وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية، بل نقضوا توحيده **في كليهما** كما تقدم.

ومعلومٌ أن المعرفة القلبية ما لم يقارنها إذعانٌ وتسليمٌ وتطبيقٌ فلا عبرة بها كما سبق بيانه[3]، وبالتالي عِلمُ المشركين بأنه الخالق وحده غير كافٍ للدلالة على أنهم موحدون في الربوبية، لأنهم لم يذعنوا لذلك ولو أنهم أذعنوا لما أشركوا في عبادته، إذ الشرك في العبادة والألوهية هو شرك في الربوبية كما سبق بيانه.

❀ ❀ ❀

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٧١).

(٢) انظر (ص: ٤٥٥).

(٣) انظر (ص: ٤٥٣).

## المرصد الثاني

# بيان نقض المشركين لإقرارهم بتوحيد الربوبية

على التسليم بإذعانهم لإقرارهم بالله فقد نقضوا إقرارهم باعتقادات وسلوكيات منافية لإقرارهم هذا، وبيان ذلك من وجوه:

**الوجه الأول**: أن عبادة المشركين للأصنام هو نفسه نقض لتوحيد الربوبية كما سبق بيانه توًّا[(١)].

**الوجه الثاني**: أن المشركين ادعوا لله الولد، وهذا نقضٌ لتوحيد الربوبية بإقراركم كما سيأتي ذلك مبسوطاً[(٢)].

**الوجه الثالث**: أنهم اتخذوا أصنامهم أرباباً وليس آلهة فحسب - هذا طبعاً إن سلَّمنا بالفرق بين الرب والإله -، وبيان ذلك فيما يلي:

**أولاً**: أن المشركين أنفسهم أطلقوا على أصنامهم في شعرهم ونثرهم أربابا كما بسطناه في كتابنا «تنوير الرب الإله»[(٣)].

---

(١) انظر (ص: ٤٧٨).

(٢) الشرك في القديم والحديث (ص: ٤٩٥).

(٣) انظر: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله (ص: ١٥١).

**ثانياً**: ما نص عليه العلماء بمن فيهم ابن تيمية أن المشركين اتخذوا أصنامهم أرباباً، وقد سبق[1] أن نقلنا نصوص الطبري وابن تيمية وابن عبد الوهاب[2].

**ثالثاً**: أنه قد ثبت بأدلةٍ كثيرةٍ جداً أن المشركين اجترحوا كثيراً مما يقدح في توحيد الربوبية بإقرار السلفية كما سبق.

## دلت بعض آيات الباب الثمانية نفسها إلى مخالفتهم لإقرارهم بالله

**رابعاً**: أشارت بعض آيات الباب الثمانية نفسها إلى مخالفتهم لإقرارهم بالله كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]، فقوله ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: «يُصرفون عن الحق»[3]. أو «فكيف **يصرفون عن توحيد الله** وأن لا يشركوا به، مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض»[4]، أو «**كيف يكفرون بتوحيدي** وينقلبون عن عبادتي»[5].

وكذا قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي «**فيتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ** لكل ما عداه ثم **إنهم يشركون به**

---

(١) انظر (ص: ٤٤٥).
(٢) انظر للتوسع كتابنا: تنوير الرب الإله (ص ١٥٩)، وما بعدها.
(٣) انظر تفسير السمعاني (٤/ ١٩٢)، وانظر (٥/ ١٢٠).
(٤) تفسير الكشاف مع حاشية الطيبي (١٢/ ١٩٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٩/ ٩٤)، التحرير والتنوير (٢١/ ٢٦).

**الصنم**»[١] أو «حيث **يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون**»[٢] حيث «**يفعلون ما ينافي ذلك فيشركون به غيره** مما هم معترفون بأنه خلقه ولا يتوكلون في جميع الأمور براً وبحراً عليه ويوجهون العبادة خالصة إليه»[٣]. اهـ. **وهذا حاصله أنهم خالفوا إقرارهم بالله بل نقضوه.**

## دعوى أنهم نقضوا إقرارهم بالله.. لأنهم عبدوا غيره تعالى

**فإن قلتم**: هم خالفوا إقرارهم ونقضوه بعبادتهم غير الله لا باعتقاد خالق مع الله، فمعنى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: «**فأي وجه يصرفون عن عبادة** الذي خلقهم، ويحرمون إصابة الحق في عبادته؟»[٤]، أو «كيف **ينقلبون عن عبادته** وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له؟»[٥]، أو «**فكيف يصرفون عن عبادة الله**، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض، ولا حقارة فوق حقارة الجماد؟»[٦]، **وهذا ما نقوله إن شركهم هو في توحيد الألوهية لا في توحيد الربوبية.**

**قلنا**: **أولاً**: لم يخالفوه فقط بعبادتهم غير الله بل خالفوه أيضاً بنسبتهم الولد إليه تعالى، وبسبِّهم إياه عندما تسب أصنامهم، وبإعجازهم إياه عن إحياء الموتى، وبنسبتهم التأثير لأصنامهم وللكواكب وغيرها كما بسطناه في مبحثٍ مطوَّلٍ من الكتاب الكبير[٧].

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ١٩٩).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤/ ٤٧٣).
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤/ ٤٧٣).
(٤) جامع البيان (٢٠/ ٦٦٣)، وانظر (١٨/ ٤٣٨)
(٥) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٩/ ٩٤).
(٦) مفاتيح الغيب للرازي (٢٥/ ٩٠).
(٧) وسيطبع هذا المبحث لاحقا في كتاب مستقل إن شاء الله كما سبق الإشارة إلى ذلك.

وفي ذلك يقول الطبري: «﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ **في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابًا، وزعمهم أنَّ له ولدًا**، تعالى الله عما يقولون»[(1)]. ولذا قال تعالى «﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون من أن له ولداً، **وعما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القِدم إلها يُعبد تبارك وتعالى**»[(2)]. اهـ. أي أنهم عبدوها بعد أن اعتقدوا أنها آلهة قديمة مع الله!! كما نص الطبري عليه، وقد سبق التعليق عليه[(3)].

**وقال البقاعي**: «﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي يقلبون عن وجوه الأمور إلى أقفائها من قالب ما كائناً من كان، **فيدعون أن له شريكاً تارة بالولدية، وتارة بغيرها**، مع ما رَكَز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك له لأن له الخلق والأمر كله»[(4)].

## ابن القيم يرد على الزعم بأن إنكارهم للبعث لا يقدح في إقرارهم بتوحيد الربوبية

إن ابن القيم قرَّر أن إنكار المشركين لليوم الآخر هو في الواقع إنكارٌ لوجود الله أصلاً، وأطال في بيان ذلك **وكان مما قال**: «**فليس مع المكذبين بالقيامة** إلا مجرد تكذيب الله ورسوله، **وتعجيز قدرته**، ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته، **ولهذا يخبر الله سبحانه عمَّن أنكر ذلك بأنه كافر بربه جاحد له لم يقرّ برب العالمين فاطر السموات والأرض**، كما قال تعالى:

---

(1) جامع البيان (١٦/ ٢٨٦).

(2) جامع البيان (١٧/ ١٠١).

(3) انظر (ص: ٣٥٠).

(4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٧/ ٤٩٧).

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٥]»[١]. اهـ.

وفي هذا رد على الشيخ عبد الرزاق البدر الذي قال بعد كلام طويل: «فالاستدلال بالنصوص المثبتة لإنكار المشركين للبعث والمعاد على أنَّهم **ينكرون وجود الخالق** الرازق **خلطٌ بيِّنٌ، وغلطٌ ظاهرٌ، إذ لا تلازم بين إنكار البعث وإنكار الربوبية**»[٢].

كذا قال، ويكفي في الرد عليه كلام ابن القيم السابق، ولا سيما أنه استدل بأن بآية «أإنا لفي خلق جديد أولئك **الذين كفروا بربهم**» لاحظ كيف جعلهم كافرين بالرب لكونهم منكرين للبعث فكيف يقال «**إذ لا تلازم بين إنكار البعث وإنكار الربوبية**»؟

وثمة آيات أخرى استدل بها ابن القيم في تتمة كلامه حيث قال: «وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً...﴾ [الكهف: ٣٦]؛ فقال له: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٧]، **فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مقر به**»[٣].

فتأمل قوله تعالى ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ حيث جعله كافراً بالله لأنه أنكر البعث، فلا جرم أن ابن القيم قال «**فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مقر به**»، تأمل كيف ألغى ابنُ القيم إقرارَه بالله ما دام أنه منكر للبعث والنشور والحساب يوم القيامة، فهل بعد هذا ستقولون أن المشركين موحدون في الربوبية؟! على الرغم من أن ابن القيم نص نصا كما ترى على أنهم منكرون لوجوده تعالى وإن زعموا أنهم أقروا به!!

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ٢٦٧).
(٢) القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: ٧٧).
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٦٧)، تحقيق مشهور.

## سورة المؤمنون تدل على إشراكهم في الربوبية مع أنها دلت على إقرارهم بالله إن سئلوا

هذا وقد أشارت بعض آيات الباب وهي قوله ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧] حيث دل سياق هذه الآيات وسباقها على أن المشركين ينسبون إلى أصنامهم التأثير والخلق والتدبير ولذلك أعقبه بالبرهان على أنه لا خالق سواه حين قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، أي «**لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه، واستبد به. . ولعلا بعضهم على بعض أي: غلب القوي على الضعيف، وقهره. .** وحينئذ **فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلها**»[1].

«**فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً** يوصِل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، **فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل**، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه، **بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل**، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به. . .(وهذا) **من أدل دليل على أن مدبره واحد**»[2].

فقوله تعالى «إذًا لذهب كل إله بما خلق. . .» جاء لبيان تفرده تعالى بالربوبية، مع أنه سبقها قوله تعالى «قل لمن الأرض. . .سيقولون لله» وهذا يؤكد أن قوله تعالى الأخير هذا ليس فيه دلالة على أنهم موحدون في الربوبية، وإلا لما أقام لهم الدليل على ما يقرون به!!

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٨٧).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٨١).

**ثانياً: على فرض أنهم خالفوا إقرارهم فقط بعبادتهم غير الله**، فإن عبادتهم لغير الله هي بحد ذاتها نقض لتوحيد الربوبية، لأن «من **صرف شيئاً من العبادة إلى غير الله فقد اتخذه إلهاً رباً**»[١]، لذلك فإن «المشركين واقعون فيما هو **قادح في توحيد الربوبية** ومناقض له، وذلك بصرفهم العبادة لغير الله»[٢]، وبالتالي فإن «إقرار المشركين بربوبية الله تعالى لا يعني أنهم محققون لمقتضاها، **بل هم واقعون بما هو مناقض لذلك من عبادة غيره** سبحانه ونسبة الولد إليه وتقديم آلهتهم فيما ينذرونه ويذبحونه ونحو ذلك»[٣].

ولذلك «لَمَّا أنكروا توحيد الألوهية، كان إقرارهم **بتوحيد الربوبية باطلًا**»[٤]، لأن الشرك في الألوهية هو شرك في الربوبية وشرك في الأسماء والصفات، فهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد «متلازمة من حيث الوجود، ومتلازمة من حيث الانتفاء، إذا وُجد توحيد الربوبية على وجه التمام تضمن وجود ماذا؟ توحيد الأسماء والصفات، واستلزم توحيد الألوهية. إذا وقع الشرك في توحيد الألوهية استلزم **وقوع الشرك في النوعين الآخرين**، فانتفت كلها[٥] الثلاث»[٦].

فتأمل يا أخي الكريم - هداني الله وإياك - هذا الكلام، بل هذا الاعتراف المهم من أحد السلفية وهو الشيخ أحمد الحازمي الذي أقر فيه

---

(١) صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان (ص: ٤٥٠).
(٢) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٣٠٢).
(٣) شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: ٢٩٣-٢٩٤).
(٤) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم للملكاوي (ص: ٢٦٥).
(٥) علق هنا بعض الإخوة الفضلاء بقوله: أظن أنه كان على الحازمي: فانتفت الثلاثُ كُلُّها، لأن أداة التوكيد تأتي بعد المؤَكَّدِ، والله تعالى أعلم.
(٦) كتاب شرح القواعد الأربع لأحمد بن عمر الحازمي، انظر:
https://al-maktabaorg/book/31922/79

بتلازم أقسام التوحيد الثلاثة، وأن الشرك في أحدها هو شركٌ في كلها بل نقض لها كلها، وهذا أصلا ما كنا نقوله من أول الأمر وكنتم تنكرونه، وتجعلونه أم الطامات وهي أن «تعتقد القبورية أن الألوهية بعينها هي الربوبية»[1].

**وحاصل ما سبق** أن المشركين إن سلمنا أنهم أقروا بألسنتهم بتوحيد الربوبية فإنهم لم يذعنوا لذلك، بل نقضوا إقرارهم بأمور كثيرة سوى عبادتهم للأصنام كما سبق بيانه، وبالتالي فلا يصح القول بأنهم موحدون في الربوبية بعد أن نقضوه لاسيما بعد أن سلمتم أن مجرد عبادتهم للأصنام هو قدح في توحيد الربوبية، فما بالك إذا أضفنا النواقض الأخرى التي بلغت نيفاً وعشرين ناقضاً، كما بسطناه في مبحث مطول من كتابنا الكبير[2]، فاطَّلع عليه لزاما ان كنت طالباً للحق، وفقني الله وإياك.

❁ ❁ ❁

(١) جهود علماء الحنفية (١/ ١٧٨).

(٢) وسيطبع هذا المبحث لاحقا في كتاب مستقل إن شاء الله.

## المطلب الرابع

# إن آيات الباب الثمانية عارضتها آيات أخرى وأحاديث أصرَح منها

حيث دلت بعضُ الآيات والأحاديث - كما سيأتي بسط ذلك[1] - على أن المشركين منكرون لله أصلاً، وذلك كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، وكحديث البخاري في صحيحه بسنده عن عروة بن الزبير قال: «قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ [غافر: ٢٨]»[2].

فدلت آية الحج وحديث البخاري هذا على أن المشركين كانوا ينازعون في قول النبي وأصحابه «الله ربنا»، وأن «المشركين لم يقاتلوا المسلمين ويخرجوهم من ديارهم إلا لذلك»[3]، ولو كانوا يؤمنون ويقولون «ربنا الله»

(١) انظر (ص: ٩٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٣٧)، كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمن «غافر».

(٣) كلمة هادئة في بيان خطأ التقسيم الثلاثي للتوحيد للدكتور عمر عبد الله كامل (ص: ٢٧).

لما أخرجوهم بسبب قولهم هذا، وهذا يعني أن المشركين أو على الأقل بعضهم إما أنهم ينكرون وجود الله أصلاً، وهذا يؤكد ما قلناه من أن آيات الباب الثمانية لا إقرار فيها منهم بالله، أو إن حدث هذا الإقرار منهم فقد كانوا مضطرين إليه، أو غير موقنين بسبب تقليدهم لآبائهم ونحو ذلك، وقد سبق بيان ذلك كله ولله الحمد.

وإما أنهم على الأقل ينكرون أن يكون الله هو الرب وحده دون أصنامهم إذا اعتبرنا أن قوله «الله ربنا» يفيد الحصر بسبب تعريف جزأي الجملة - كما سبق[1] - وهما المبتدأ وهو هنا (الله)، والخبر هو (ربنا)، وهو ما ذهب إليه بعض السلفية وهو صديق حسن خان فقال هنا: «لكن لقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي: **أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم: ربنا الله وحده**»[2]. اهـ.

فصرح خان أن سبب إخراج المشركين للرسول وأصحابه هو أن الرسول وأصحابه كانوا يقولون: ربنا الله وحده. وهذا يعني ببساطة أن المشركين ما كانوا يقولون «ربنا الله»، بل غاية ما عندهم أن الله رب من جملة أرباب كثيرة، كما أنه إله من جملة آلهة كما سبق بيانه[3].

وبالتالي فأين ما زعمتم من أن المشركين كانوا يقرون ويقولون: لا رب ولا خالق إلا الله وحده؟!! كيف؟! وهم أخرجوا النبي وأصحابه ﷺ لمجرد قولهم «ربنا الله» كما في الآية والحديث السابقين!! إن هذا كله يؤكد ما قلناه من أن آيات الباب الثمانية - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ...﴾ - ليس فيها إقرار بأن الله

(١) انظر (ص: ٢٤٢).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٥٦) لصديق حسن خان، المكتبة العصرية، تحقيق الشيخ عبد الله الأنصاري.

(٣) انظر (ص: ٣٨).

ربهم فضلا عن أن يكون فيها إقرار منهم بأن الله وحده هو ربهم، وإلا لما أخرجوا المؤمنين لقولهم: ربنا الله، كما دل عليه الكتاب والسنة.

## الخلاصة

والحاصل أن سؤالهم هنا في سورة «النمل» كسؤالهم في آيات سورة «المؤمنون»، فإذا اعتبرتم ما في سورة «المؤمنون» إقراراً من المشركين بتوحيد الربوبية، فمن باب أولى أن تعتبروا ما في سورة «النمل» إقراراً من المشركين بتوحيد الألوهية، لأنه لا يوجد في آية «المؤمنون» سؤال عن التوحيد أصلاً بخلاف سورة «النمل».

وإن قلتم لا تدل آيات سورة «النمل» على إقرارهم بتوحيد الألوهية، ولا على أنهم منكرون لتوحيد الربوبية: فمن باب أولى أن تقولوا أن آيات سورة «المؤمنون» لا دليل فيها على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وذلك للسبب السابق نفسه. والله أعلم.

وبذلك نكون قد انتهينا - بفضل الله - من الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب، ونختم الآن بذكر خلاصة الفصول الأربعة السابقة، وبالله التوفيق.

# الخاتمة

وبذلك أكون قد انتهيت من مناقشة دلالة آيات الباب الثمانية - كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ - على ما ادعاه ابن تيمية وأتباعه على أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، وقد بيَّنت من خلال أربعة فصول أن تلك الآيات لا دلالة فيها البتة على ذلك، وفيما خلاصة الفصول الأربعة:

**الأول**: إن استدلال ابن تيمية متوقف على ثبوت الفرق بين الإله والرب، ولكن قد أثبتنا بشكل مطول جدا - وذلك في كتابنا تنوير الرب الإله - أنهما مترادفان، أو على الأقل يأتي أحدهما بمعنى الآخر كما سلّم السلفية أنفسهم بذلك في بعض الآيات والأحاديث، فبطل الاستدلال بتلك الآيات على أن المشركين موحدون في الربوبية دون الألوهية، لأن التفريق بين الربوبية والألوهية لم يثبت أصلا، وذلك لعدم ثبوت الفرق بين الأصل الذي اشتق منهما وهو كلمتا الرب والإله، فبطل ما بني على هذا التباين المزعوم، وهو نظرية تقسيم التوحيد إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فهذه نظرية باطلة لبطلان ما بنيت عليه، فما بني على باطل هو باطل أيضاً.

**الثاني**: على التسليم بأن مفهوم كلمتي الرب والإله متباينان لغة فإن تلك الآيات الثمانية ليس فيها إقرار محقق وإنما هو إقرار معلق على شروط؛ وهي أن يُسألوا عن الخالق ويتفكروا وينصفوا ويذعنوا فيقروا به تعالى، ولكنه لم يثبت أنهم سئلوا وبالتالي لم يقروا، كما بينا أنه ليس المقصود بالآيات سؤالهم فعلا، وإنما أتت الآيات لإقامة الحجة عليهم في وجود الله أولاً ثم في قدرته على البعث ثم في وحدانيته كما دل على ذلك سياق آيات سورة المؤمنون وغيرها من آيات الباب.

كما أنه لم يثبت بقية تلك الشروط بل ثبت عكسها، فهم لم يتفكروا ولم يعملوا عقولهم لأنهم مجرد مقلدين لآبائهم في الضلال والكفر، وأيضاً لم ينصفوا ولم يذعنوا بل كابروا وعاندوا، ولذا جاء لِحاق بعض آيات الباب نفسها ليشير إلى أنهم لا يؤمنون به تعالى، حيث قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: ٨٧-٨٨] فتأمل قوله: «إن هؤلاء قومٌ لا يؤمنون»، حيث أشار إلى أنهم لا يؤمنون به تعالى كما سبق بسطه.

ثم عقدنا مبحثا ذكرنا فيه أمرين قد يقال إنهما يقومان مقام الإقرار بسطناهما في مطلبين؛ **الأمر الأول**: وهو سكوت المشركين عند تلاوة آيات الباب الثمانية، وبيّنا أن هذا لا يدل على رضاهم وإقرارهم بما دلت عليه تلك الآيات، وإلا لكانوا مقرين بالبعث والتوحيد في الألوهية وغيرهما من قضايا الإيمان لمجرد سكوتهم عند تلاوة الآيات التي تقرر التوحيد في الألوهية والبعث والنشور وغيرهما.

**والأمر الثاني**: إنّ الله يعلم أنهم سيُقرّون لو سئلوا عن خالقهم، وأن هذا يدل على إيمانهم القلبي بالله. والجواب أن ما في قلوبهم هو - إن سُلّم -

معرفة فطرية مبدئية، قد تتغير إذا انحرفت الفطرة بالشرك وغيره وهو فعلا ما حدث، ثم هم لم يذعنوا لهذه المعرفة القلبية بل فعلوا عكس ذلك فأنكروا الحساب والبعث فضلا عن شركهم وشكهم في وجود الله وربوبيته وعلمه وسمعه وإرادته وقدرته وحكمته، وبعضهم أنكر وجود الله أصلا بإقرار ابن تيمية.

ثم عقدت مطلبا ثالثاً بينت فيه أن آيات سورة المؤمنون ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ...﴾، كآيات سورة النمل ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ كلاهما ليس فيهما إقرار المشركين بالتوحيد لا في الربوبية ولا الألوهية، وأنه لو اعتبرنا أن ما في سورة المؤمنون إقرارٌ من المشركين بتوحيد الربوبية لاعتبرنا ما في سورة النمل إقرارا من المشركين بتوحيد الألوهية، وما هو جوابكم هنا هو جوابنا هناك.

**الثالث**: سلّمنا جدلا بأنهم أقروا بألسنتهم بأن الله خالق السموات والأرض ونحو ذلك، ولكن لا نسلم بأنهم وحّدوا الله في إقرارهم لا في الربوبية ولا في الألوهية، لأن التوحيد يجب أن يتضمن النفي والإثبات ونحو ذلك من أساليب الحصر والقصر والتوكيد، كما قرّرتم أنتم أنفسكم، ومعلوم أن آيات الباب ليس فيها أي من تلك الأساليب، ولذا قدّر ابن تيمية محذوفا وهو كلمة «وحده» في الآية! فصار المعنى عنده «ليقولن الله **وحده**»!! ومعلوم أن التقدير نوع من المجاز وهو باطل عنده، بل هو طاغوت عند تلميذه ابن القيم، فكيف لجؤوا له هنا؟!!!

**الرابع**: سلمنا جدلا أنهم أقروا نطقا بأن الله **وحده** هو خالق السماوات والأرض ونحو ذلك، ولكن هذا الإقرار لا يفيدهم لما يعتريه من أمور تفسده، ككونهم غير موقنين بل شاكين، أو مكرهين على الإقرار لأن الإقرار بالله هو ضرورة عقلية على قول ابن تيمية، أو غير مذعنين بل ناقضين له، بل

جاءت آيات تفيد أنهم منكرون لربوبية الله من أصلها فضلا عن إنكارهم لتوحيد الربوبية.

وبذلك يثبت أن آيات الباب الثمانية لا حجة فيها على أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، وقد بينت ذلك من خلال الوجوه الأربعة السابقة على طول هذا الكتاب، كل وجه بينته في فصل مستقل بحمد الله.

وفي الختام أسأل الله أن أكون قد وفقت في بيان ذلك كله وتوضيحه، وأن ينفع بهذا الكتاب العباد والبلاد، وأن ييسر طباعة ما بعده من الكتب والرسائل والأبحاث التي وعدت بها في مقدمة هذا الكتاب، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأصلي وأسلم على البشير النذير والسراج المنير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# فهرس الموضوعات

**تقريظ الأستاذ الكبير مهنا حمد المهنا حفظه الله** ........ ٥

**المقدمة** ........ ٩

الآيات الثمانية المقصودة ........ ١٠

ماذا أقصد بالكتاب الكبير في ثنايا هذا الكتاب ولِم لَم أطبعه دفعة واحدة؟ ... ١١

منهجي في هذا الكتاب ........ ١٤

شكر وتقدير ........ ١٦

**تمهيد** ........ ١٩

## الفصل الأول
## إن استدلالكم بتلك الآيات متوقفٌ على صحة التباين بين لفظي الرب والإله

لا يسلَّم لكم أن الآية دالةٌ على أن المشركين موحدون في الربوبية سواء قلنا إن الرب والإله مترادفان أم لا ........ ٢٨

لا تُسمع دعواكم حتى تثبتوا التباين بين الألوهية والربوبية ........ ٣٠

آية ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تُبطل دعواكم.. وكذا آية ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ........ ٣١

دعوى أن الرب في آية «المؤمنون» لا يصلح أن يكون شاملاً للإله ........ ٣٣

نصوص العلماء على أن المشركين يؤمنون بوجود الله ولكن يشركون في ألوهيته وربوبيته ........................ ٣٦
نصوص ابن تيمية وأتباعه على شرك كفار قريش في الربوبية والألوهية معا ... ٣٨
لو كانت آيات الباب تسأل عن الإله: فهل إقرارهم «بأنه الله» توحيدٌ في الألوهية؟ ٤٠
لا تعارض بين آيات إقرار المشركين بالله وبين الآيات التي دلت على رفضهم للتوحيد ........................ ٤١
لا يستبعد تناقض المشركين في عقائدهم كما أشارت آيات الباب نفسها .... ٤٢

## الفصل الثاني
## ليس في آيات الباب الثمانية إقرارٌ محقَّق وإنما إقرارٌ مستقبليٌّ معلَّقٌ على شروط

**المبحث الأول: إن إقرارهم هو إقرارٌ مستقبليٌّ وليس إقراراً ماضياً أو حاضراً** ..... ٤٦
ثلاثة أمورٍ تؤيد أنهم أن إقرارهم بالله أمرٌ مستقبلي ............... ٤٧
**المطلب الأول: ثمة آيات في الباب ليس فيها جواب منهم حين سئلوا عن الخالق** ٤٩
أولاً: آيات فيها أمرٌ بالسؤال عن الخالق ثم أمرٌ بالجواب بأنه الله ......... ٥٠
قيل: لم يذكر جواب المشركين في الآيات الخمسة لأنه لا جواب لهم سواه .. ٥١
بيان أنه لم يذكر جواب المشركين عن الخالق في الآيات الخمسة.. لترددهم . ٥٢
حاصل أقوال المفسرين للآيات الخمسة ..................... ٥٨
فكأنهم كانوا يقرُّون بألسنتهم مرَّة ومرَّةً كانوا يتلعثمون عناداً ........... ٥٩
قول ابن تيمية أن من العرب من كان «من المرتابين في الصانع أو الجاحدين له» ٥٩
دعوى أنهم أحجموا عن الإقرار في الربوبية لئلا يلزمهم توحيد الألوهية ..... ٦٠
ثانياً: آياتٌ فيها أمرٌ من الله لرسوله أن يسأل عن الخالق، ولا جواب فيها! ... ٦٢
ثالثاً: آيات يسأل تعالى عن الخالق ولا جواب فيها .............. ٦٤

الجواب عن قول ابن التمجيد في حاشيته على البيضاوي «إنَّ الكفرة المشركين متفقون على أن أصنامهم عاجزة» ........................ ٦٨
أربعة احتمالات في جواب المشركين عن آية «فاطر» ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ...﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ................................ ٧٠
آية «فاطر» تدحض زعمكم بأن القرآن أقرهم بالربوبية ليقروا بالألوهية ....... ٧١
رابعاً: آيات تسأل: هل ثمة إله أو رب معه؟ ولا جواب فيها .......... ٧٢
الخلاصة المستفادة من الآيات التي فيها السؤال عن الخالق ولا جواب فيها من المشركين ................................ ٧٣
احتجاج ابن تيمية على نظريته بالآيات التي لا جواب فيها من المشركين عن الخالق ................................ ٧٥
احتجاج الشيخ البدر تبعاً للشنقيطي بتلك الآيات على توحيد المشركين في الربوبية ................................ ٧٦
استدلال الألباني بتلك الآيات - التي لا جواب فيها عن الخالق - على توحيد المشركين في الربوبية! ........................ ٧٩
الناس أجمعين مقرون بتوحيد الربوبية عند ابن تيمية مستدلاً بآية الميثاق والفطرة ٨٠
لو قال تعالى: «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون اللات والعزى»، لما تغيرت نظرية ابن تيمية!! ........................ ٨١
فرعون والنمرود والنصارى موحدون الربوبيةعند ابن تيمية مع تصريحهم بخلاف ذلك!! ................................ ٨١
عبَّاد الأصنام موحدون في الربوبية عند ابن تيمية، كما أنهم موحدون في الألوهية عند ابن عربي! ........................ ٨٤
اضطراب ابن تيمية في شأن فرعون ........................ ٨٥
**المطلب الثاني: الآيات التي تفيد أنهم قالوا مقالاتٍ شنيعة في الله وصفاته العلية** . ٨٨
اعتقاد المشركين أن أصنامهم ندٌّ لله تنصرهم وتعزهم وتضر رسله ......... ٨٩
شكُّهم في قدرته تعالى ولذا أنكروا البعث .................. ٩١
شكُّهم في عموم سمعه تعالى ........................ ٩٢

شكهم في علمه تعالى ........ ٩٣
شكهم في وجوده تعالى ........ ٩٣
إنكار بعض العرب لوجود الله ........ ٩٤
إساءتهم الظن بربهم وشكهم في حكمته ........ ٩٥
خلاصة لأقوال المشركين الشنيعة في حق الله ........ ٩٦
نصٌّ للحفيد النجدي يكفي لوحده أن ينسف دعوى توحيدهم في الربوبية ........ ٩٧
ابن تيمية يغض النظر عن أقوال المشركين الشنيعة في حقه تعالى ويركز على ما لم يقولوه ........ ٩٨
صنيع ابن تيمية هذا باطل من وجوه ........ ٩٩
**المطلب الثالث: حمل آيات الباب الثمانية على الإيمان الفطري بالصانع عند بعض العلماء** ........ ١٠٢
نص ابن الهمام أن الإقرار بالله في الفِطر ........ ١٠٨
ابن الهمام لا يفرق بين الربوبية والألوهية ........ ١٠٩
خلاصة الوجه الأول ........ ١١٢
**المبحث الثاني: إن إقرارهم هو إقرارٌ معلّق على شروط** ........ ١١٣
**الشرط الأول: توجيه السؤال إليهم عن الخالق** ........ ١١٤
المطلب الأول الدليل على هذا الشرط من آيات الباب الثمانية ........ ١١٤
نماذج من أسلوب الشرط في القرآن وأنه لو فهم على طريقة ابن تيمية لنتج معنا كفراً بواحا ........ ١١٧
قول البهاء السبكي أن آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ شرطية مستقبلة المعنى ........ ١١٨
كونهم لا يقرون بالله إلا إن سئلوا عنه دليلٌ على أنهم لا يقرون به ابتداء ........ ١١٩
دعوى أن المشركين يقرون بالله ولو لم يُسألوا عنه ........ ١٢٠
دعوى أن المشركين مستحضرون دائما للجواب بأن خالقهم هو الله ........ ١٢٢
الكلام عن آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وعلاقتها بآيات الباب الثمانية ........ ١٢٢

سؤالهم عن الخالق يدل على تشككهم فيه ........ ١٢٣
الجواب على قياس إقرار المشركين على إقرار المنافقين ........ ١٢٥
السين وسوف تتكلم عن المستقبل دون أن تدل على الحاضر والماضي نفياً أو إثباتا ........ ١٢٧
**المطلب الثاني: بيان أن شرط سؤالهم عن الخالق لم يتحقق** ........ ١٣٠
**المرصد الأول: إن آيات الباب نفسها أشارت إلى أن هذا الشرط مشكوك في وقوعه** ١٣١
خلط ابن تيمية بين «إذ» وبين «إن» الشرطية ........ ١٣١
دلالة «إن» في الآية على أن سؤالهم عن الخالق أمر مشكوكٌ فيه ........ ١٣٣
إنكار الزمخشري على من يخلط بين إن وإذا في الاستعمال ........ ١٣٤
«إنْ» تجزم اللفظ دون المعنى بخلاف إذا ........ ١٣٥
الأصل في «إن» أن تدخل على المشكوك في تحققه عند القزويني ........ ١٣٦
«إن» لمطلق الربط سواء كان ما دخلت عليه مشكوكاً أم لا، عند المحشين على الفروق للقرافي ........ ١٣٧
حاصل الوجه الثاني في الجواب عن آيات الباب الثمانية ........ ١٣٩
الاعتراض الأول: إن النبي لا بد أن يكون سألهم لأنه مأمورٌ بذلك. ........ ١٤٠
الحكمة في تصدير الآيات بـ﴿قُلْ﴾ هو لتشريف الأمة ........ ١٤١
ثمة آيات صُدرت بـ﴿قُلْ﴾ وأخرى بنفس المضمون لم تصدر بذلك والكل مأمور بتبليغه ........ ١٤٢
يستحيل أن يقول النبي للناس: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كما هو ظاهر بعض الآيات ١٤٣
لا يراد بنحو قوله ﴿قُلْ مَن رَّبُّ...﴾ أن يسألهم وإنما أن يبلغهم بها ........ ١٤٤
سؤال النبي إياهم عن الخالق يخالف نظريتكم في أن الرسل لم تبعث بتوحيد الربوبية ........ ١٤٥
بطلان زعم التدرج بهم من توحيد الربوبية إلى الألوهية ........ ١٤٥
هل ستعتبرون آية ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ تدرجاً بالنبي من توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية؟!!! ........ ١٤٨

المقصود بآيات الباب الثمانية إثبات التوحيد والرسالة والبعث ........... ١٥٠
سياق آيات سورة المؤمنون كان لإثبات البعث ............... ١٥٠
دعوى أن القرآن يثبت توحيد الألوهية عن طريق إثبات توحيد الربوبية ....... ١٥٣
خلاصة الاعتراض الأول ........................ ١٥٦
الجواب عن قول التفتازاني أن السؤال في آيات الباب الثمانية محقق ....... ١٥٧
الاعتراض الثاني: إن الآية دلت على إيمانهم القلبي بالله على أقل تقدير. ... ١٥٨
الإيمان القلبي لا يكفي ما لم يقترن بالإقرار باللسان ............... ١٥٩
اختيار ابن تيمية لقول الجهمية في الإيمان حين جعل المشركين موحدين في الربوبية ........................ ١٦٤
لو طردنا مذهب ابن تيمية لكان المشركون موحدين في الألوهية أيضاً ....... ١٦٥
حاصل الاعتراض الثاني والجواب عنه .................. ١٦٦
**المرصد الثاني: المقصود بآيات الباب.. إثبات الخالق والبعث ونحوه لا سؤالهم** ١٦٧
**الشرط الثاني: أن يتفكروا في أدلة وجود الله ثم يذعنوا لها** ............. ١٦٩
**المطلب الأول: الدليل على هذا الشرط** .................. ١٦٩
الاعتراض من ثلاثة وجوه على تلك الشروط ................. ١٦٩
**المرصد الأول: دعوى أن المشركين سيقرون بالله بدون هذه الشروط وهي: التفكر، والإنصاف، والإذعان** ........................ ١٧١
أولاً: في دلالة آيات الباب على هذه الشروط ................ ١٧١
الجواب عن قول الرازي «قوله: إن كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك» ..... ١٧٣
السؤال عن الخالق يحتمل عدة أجوبة.. يتعين الصواب منها بالعقل ....... ١٧٥
نصوص العلماء في أن التفكير هو الذي سيقود المشركين إلى الإقرار بالخالق . ١٧٦
خلاصة أقول العلماء في وجوب تفكر المشركين.. لكي يقروا بالله ....... ١٨١
نص ابن تيمية في أن الإقرار بالخالق متوقف على إعمال العقل وإلا قد يقع في الجحود حتى للضروريات ........................ ١٨١
نصوص ابن تيمية في إنكار بعض الناس للضروريات .............. ١٨٢

نص ابن القيم على الدليل العقلي على وجوده تعالى في سورة «الطور» ..... ١٨٤
نص ابن الهمام على اضطرار الخلق للإقرار به تعالى إذا تفكروا .......... ١٨٥
نص بعض السلفية على أن الله دلَّل على وجوده بحجةٍ لا بد للعقول السليمة من الإقرار بها ........................ ١٨٥
**المرصد الثاني: الجواب عن قولهم: بأن الإقرار بالله ضروريٌ لا يحتاج إلى إعمال العقل** ........................ ١٨٧
الجواب عن نصوص المفسرين في أن معرفته تعالى ضرورية غير متوقفة على الشروط التي ذكرتم ........................ ١٨٨
إن كان الإقرار بالخالق أمراً ضرورياً فهذا يدل على أنهم كانوا مضطرين .... ١٩١
قول الألوسي بأن إقرارهم نُزِّل منزلة العدم لعدم إذعانهم ........... ١٩٢
خلاصة الشروط الثلاثة لإقرارهم بالله وهي سؤالهم عن الخالق وتفكرهم وإذعانهم وأنها لم تتحقق ........................ ١٩٣
**المرصد الثالث: الجواب عن دعوى تحقق شروط إقرارهم بالله** .......... ١٩٥
**المطلب الثاني: بيان أن هذا الشرط (وهو أن يعملوا عقولهم وينصفوا ويذعنوا) غير متحقق** ........................ ١٩٧
المشركون لا يعملون عقلوهم لأنهم مقلدون ................ ١٩٧
ختمت بعض آيات الباب بكونهم متناقضين وأنهم لا يعلمون ولا يعقلون .... ١٩٨
وُصفوا بأنهم بهائم لتقليدهم ولكونهم يعبدون ما يصنعونه ويستحسنونه ثم ربما أكلوه! ........................ ١٩٩
بيان أنهم لم يذعنوا.. وإلا لوحدوه في الألوهية.. ولآمنوا بالنبي لعلمهم بصدقه ٢٠١
بعض آيات الباب دلت على أن المشركين كان عندهم معرفة بالله ولكن لم تقترن بالإذعان ........................ ٢٠٢
خلاصة وتعقيب على الشيخ حبنكة في تفريقه بين آيات الباب التي جاءت بصيغة المستقبل وبين غيرها: ........................ ٢٠٤

**المبحث الثالث: ما قد يقوم مقام إقرار المشركين بالله** . . . . . . . . . . . . . . . ٢٠٧

**المطلب الأول: سكوت المشركين عند تلاوة آيات الباب الثمانية وهذا يدل على رضاهم بما دلت عليه تلك الآيات** . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٠٨

سكوت المشركين ليس إقرارا بالله . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٠٨

لو كان السكوت إقرارا لكانوا مقرين بتوحيد الألوهية وبالبعث . . . . . . . . . . ٢٠٩

**المطلب الثاني: دعوى أن الله يعلم أنهم سيُقرِّون لو سئلوا عن خالقهم وهذا يدل على إيمانهم القلبي بالله** . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢١١

**المطلب الثالث: آيات سورة المؤمنون كآيات سورة النمل ليس فيهما إقرار المشركين بالتوحيد لا في الربوبية ولا الألوهية** . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢١٣

هل صحيح أن قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ هو من قبيل الاستدلال عليهم بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؟ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢١٤

دعوى ابن تيمية أنه تعالى أنكر عليهم عبادتهم غيره تعالى مع إقرارهم بأنه لا إله آخر فعل ذلك . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢١٧

بسط قولَي المفسرين في معنى ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ . . . . . . . . . . . . . . ٢١٨

الاستفهام في ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ إنكاري.. ولكن ليس بالمعنى الذي زعمه ابن تيمية ٢١٩

نصوص المفسرين في أن الاستفهام إنكاري في ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا إله معه يعبد . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٢١

نصوص المفسرين في أن الاستفهام إنكاري على معنى أإله مع الله فعل ذلك؟! . ٢٢٢

أربعة احتمالات لمعنى الاستفهام في آية ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ . . . . . . . . . . . . ٢٢٣

معنى السؤال التقريري.. لا ينطبق على قوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ كما زعم ابن تيمية ٢٢٤

قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ...﴾ أي على وجود خالق معه.. لا على وجود معبود معه . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٢٧

بعض نصوص السلفية في أن المعبود بحق هو الخالق . . . . . . . . . . . . . . ٢٢٩

لا يجوز أن يكون المراد.. «أمبعود معه؟» . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٣٠

اختيار الطبري وغيره.. أن المعنى: أإلهٌ مع الله خلق ذلك . . . . . . . . . . ٢٣٢

المعنى السابق لآيات «النمل» لا يتناقض مع آيات الباب الثمانية . . . . . . . . ٢٣٣

## الفصل الثالث
## لا يوجد في آيات الباب الثمانية.. أي صيغةٍ للتوحيد

من سئل عن إلهه فقال: هو الله.. هل تشهدون له بتوحيد الألوهية ........ ٢٣٧
لولا تبرع ابن تيمية بكلمة «وحده».. لما كانت نظريته في تقسيم التوحيد من أصلها ........................... ٢٣٨
ابن تيمية ورِهان اثنين على ما في جيب ثالث قبل التبرع!! ............. ٢٣٩
سرد الآيات الثمانية.. وبيان أنه لا إقرار للمشركين بالتوحيد فيها ......... ٢٤٢
**المطلب الأول: مصادرة السلفية على المطلوب.. في تقديرهم لكلمة «وحده» ونحوها في آيات الباب!** ................. ٢٥٠
**المرصد الأول: تناقض السلفية.. في إنكار المجاز ثم اللجوء إليه في آيات الباب الثمانية** ........................ ٢٥١
**المرصد الثاني: مخالفة مجازهم وتقديرهم لكلمة «وحده» لستِّ آياتٍ من القرآن!!** ٢٥٥
دعوى أن الآيات الست هو في رفض المشركين لتوحيد العبادة لا لتوحيد الربوبية الذي أقروا به في آيات الباب الثمانية ................... ٢٥٦
آيات أخرى تدل على شركهم بالربوبية بل على كفرهم بها ............ ٢٥٨
**المطلب الثاني: دعوى أن كلمة «وحده».. مفهومةٌ من السياق فلا حاجة أن ينطق بها المشركون** .......................... ٢٦١
**المرصد الأول: أنه لا بد من كلمة «وحده» في توحيد الربوبية** ............ ٢٦٣
الموضع الأول: حين عرفوا التوحيد لغةً .................. ٢٦٤
خلاصة التعريفات اللغوية للتوحيد وأنها لا تنطبق على إقرار المشركين ..... ٢٦٧
الموضع الثاني: حين عرَّفوا التوحيد شرعاً ................. ٢٦٨
خلاصة التعاريف الشرعية للتوحيد وأنها لا تنطبق على إقرار المشركين ..... ٢٧١

الموضع الثالث: حين قسَّموا التوحيد . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٧٢
الموضع الرابع: حين نسبوا إلى المشركين كلمة «وحده» ونحوها . . . . . . . . . ٢٧٣
الموضع الخامس: حين استدلوا بآيات الباب الثمانية . . . . . . . . . . . . . . ٢٧٣
تعقيب على المواضع الخمسة.. وأنها تنقض نسبة التوحيد للمشركين . . . . . . . ٢٧٤
بطلان تقديرالسلفية لكلمة «وحده» أو نحوها في آيات الباب . . . . . . . . . . . ٢٧٥
اشتراط السلفية النفي والإثبات في التوحيد وهو غير متوفر عند المشركين . . . . ٢٧٦
الجواب عن اعتراض أن النفي والإثباب مشترط في توحيد الألوهية دون الربوبية ٢٧٨
نص ابن تيمية على أن توحيد الربوبية لا بد فيه من نفي وإثبات وهو ما لا وجود له في آيات الباب . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٨٠
**المرصد الثاني: بيان أن كلمة «وحده» أو نحوها.. ضرورية لقطع احتمال الشركة** . ٢٨٢
ذكر الشيء لا ينفي ما عداه . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٨٤
الإثبات المجرَّد قد يتطرق إليه الاحتمال . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٨٥
**المرصد الثالث: الجواب عن قول دمشقية.. بأنهم حين سئلوا «لم يقولوا: أصنامنا هي الخالقة»** . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٨٦
الوجه الأول: أن المشركين لم يقولوا شيئاً أصلاً . . . . . . . . . . . . . . ٢٨٧
الوجه الثاني: أن هذا معارَض بأنهم لم يقولوا أيضا: الله وحده هو الخالق . . . ٢٨٨
الجواب عن الاحتجاج بمفهوم اللقب على أن المشركين موحدون في الربوبية . ٢٨٨
الله أثبت لنفسه الملك، ثم نفى عنه الشريك، وهذا يؤكد أن الإثبات المجرد لا يعني التوحيد . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٩٢
الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا الله هو الخالق على وجه التغليب . . . . . . . ٢٩٢
الكلام عن باب التغليب . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٢٩٥
عكس التغليب والاكتفاء.. نحو: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ . . . . . . . ٣٠٠
خلاصة التغليب، ومحل الشاهد منه في آيات الباب الثمانية . . . . . . . . . . ٣٠٣
الوجه الرابع: إن المشركين نسبوا إلى أصنامهم التأثير في عدة آيات . . . . . . ٣٠٤
**المرصد الرابع: لو قدرنا كلمة «وحده».. لأفادت الآية أنهم موحدون في الألوهية** ٣٠٥
تأويل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وهو الإله والمألوه فيهما . . . . ٣٠٦

**المطلب الثالث: في تقدير بعض المفسرين.. لكلمة «وحده» في آيات الباب الثمانية ٣٠٨**
أولاً: ما رُويَ عن ابن عباس ........................ ٣٠٨
ثانياً: قول مقاتل بن سليمان ........................ ٣٠٩
ثالثاً: نص الطبري ........................ ٣١٠
رابعاً: قول الواحدي ........................ ٣١٠
خامساً: قول الفخر الرازي ........................ ٣١١
سادساً: قول أبي جعفر الغرناطي ........................ ٣١١
سابعاً: قول النسفي ........................ ٣١٢
ثامناً: قول ابن كثير ........................ ٣١٢
تاسعاً: نص البقاعي ........................ ٣١٤
عاشراً: قول أبي السعود ........................ ٣١٤
حادي عشر: قول السيالكوتي ........................ ٣١٥
اثنا عشر: قال جواد علي: ........................ ٣١٥
أولاً: الجواب الإجمالي عن تلك النصوص ........................ ٣١٦
تنظير السلفية لوجوب اتباع فهم السلف وتنكبهم عن ذلك هنا ........................ ٣١٧
كلمة «وحده».. لا نجدها في تفسير آيات الباب الثمانية عند أهل التفسير بالمأثور، ومعظم المفسرين بالرأي ........................ ٣٢٠
نصوص المفسرين بالمأثور لآيات الباب الثمانية ........................ ٣٢٠
نصوص ابن تيمية في أن المشركين يعرفون الله، دون أن يتعرض لكونهم موحدين في الربوبية ........................ ٣٢٦
ثانياً: الجواب التفصيلي عن تقدير بعض السلف لكلمة «وحده» ونحوها في آيات الباب: ........................ ٣٢٧
قول المهاجرين والأنصار.. في ردهم على المشركين: «ربنا الله وحده لا شريك له».. يبطل تقسيم التوحيد ........................ ٣٢٩

الجواب عن باقي نصوص المفسرين والعلماء الذين قدَّروا كلمة وحده في آيات الباب ........ ٣٣٣
إنصاف علمائنا مع خصومهم ........ ٣٣٤
أولاً: تقدير ابن تيمية لكلمة وحده يخالف مذهبه في إنكار المجاز ........ ٣٣٥
إفراط السلفية وتشددهم في شروط شهادة التوحيد مع المسلمين وتفريطهم فيها مع المشركين ........ ٣٣٧
شروط كلمة التوحيد السبعة أو الثمانية عند السلفية ........ ٣٣٨
أنتم لم تشترطوا على المشركين حتى التلفظ بالتوحيد في الربوبية وإنما تبرعتم لهم بذلك ........ ٣٤١
المشركون أولى بأن يقال فيهم أنهم كالحمار يحمل أسفارا لعدم فقههم بتوحيد الربوبية الذي أقروا به ........ ٣٤١
كيف تشددتم في شروط التوحيد مع المسلمين.. دون المشركين ........ ٣٤٢
كيف تتبرعون للمشركين بما سلبتموه عن المسلمين ........ ٣٤٣
هل تعريف توحيد الربوبية الذي وضعتموه متحقق في المشركين وفي آيات الباب التي تستدلون بها؟ ........ ٣٤٥
هدف ابن تيمية من تبرعه للمشركين بالتوحيد ........ ٣٤٦
ثانياً: الجواب المفصل: ........ ٣٤٧
قول الطبري عن المشركين: «إنكارًا منهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم» . ٣٤٩
قول الطبري: تعالى الله عما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القِدم إلها يُعبد ........ ٣٥٠
تناقض السلفية في مجاهد والطبري ........ ٣٥١
عِلمُ المشركين بأنه الرب الواحد.. لا يستلزم إقرارهم بذلك.. كأهل الكتاب الذين يعلمون صدق النبي ولم يؤمنوا به ........ ٣٥٦
قول الله عن المشركين وعن أهل الكتاب أنهم قوم لا يؤمنون ........ ٣٥٨
لا بد من الإذعان في الإيمان ........ ٣٥٩

نص ابن تيمية وابن القيم على أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله .................... ٣٥٩
نص ابن القيم على أن المشركين كانوا يعلمون بطلان شركهم .......... ٣٦٠
تصريح الطبري بأن المشركين يعلمون أنه لا إله ولا رب إلا الله ......... ٣٦١
مجاهد يجهل العقيدة الوثنية للعرب في الجاهلية.. عند المعلمي ......... ٣٦١
تناقض السلفية في أخذهم بقول مجاهد في الاستواء وغيره .......... ٣٦٣
قول ابن كثير عن المشركين «كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره..» .. ٣٦٦
الجواب عن قول أبي السعود «بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى» .................... ٣٧٨
خلاصة .............................. ٣٨٢
**المطلب الرابع: دعوى أن آيات الباب الثمانية تدل على التوحيد بالمفهوم لا المنطوق** ٣٨٤
**المرصد الأول: دعوى «أنهم لم يقولوا أصنامنا خالقة مع الله»** ............ ٣٨٦
الجواب عن قول الماتريدي: «تعلمون أن الله هو فطرنا وخلقنا لا الأصنام» .. ٣٨٦
**المرصد الثاني: دعوى أن «لام» ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.. هي للاختصاص والحصر** ... ٣٨٩
الخلاف الأول: في الفرق بين لام الاختصاص ولام الاستحقاق ........ ٣٨٩
الخلاف الثاني: في إفادة الاختصاص للحصر ................ ٣٩٣
الخلاف الثالث: في الحمدلة ...................... ٣٩٥
خلاصة الخلاف في لام الجر التي في الحمدلة ................ ٤٠٢
خلاصة الاختلافات في الحمدلة.. ودعوى الحصر فيها وفي قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ .............................. ٤٠٥
**المرصد الثالث: الجواب عن استدلالهم بآية** ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .. ٤٠٧
إقرار بعض التيمية بأن آية ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ دالةٌ على وجود الشرك في الربوبية ولذا أبطلته .......................... ٤١٠
كلامٌ نفيسٌ للطبري والسمعاني وابن القيم في تفسير آية ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ ............................ ٤١٠

## الفصل الرابع
## إقرار المشركين بالخالق هو إقرار لساني منقوض

الإيمان لا بد فيه من الإقرار اللساني.. مع الإذعان القلبي.. وهو مفتقدٌ عند المشركين ........ ٤١٣

**المطلب الأول: المشركون ليسوا موقنين.. بل شاكين بما أقروا به ........ ٤١٥**

نصوص العلماء في أن المشركين غير موقنين ........ ٤١٦

إنكار المشركين لبعثة الرسل عليهم السلام ........ ٤٢١

ابن تيمية يبين أن إيمان المشركين كان تقليداً لآبائهم ........ ٤٢٢

الخلاف في صحة إيمان المقلد.. وهل يدخل فيه إيمان المشركين؟ ........ ٤٢٤

**المطلب الثاني: كونهم قد اضطرتهم الحجة إلى الإقرار.. فكأنهم صاروا مكرَهين فيه ........ ٤٢٦**

يقرون به تعالى بألسنتهم.. إذا سألتَهم عند ظهور الحجج القاطعات عليهم ... ٤٣٠

قول البيضاوي: العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها . ٤٣٢

نص ابن الهمام على اضطرار الخلق للإقرار به تعالى إذا تفكروا ........ ٤٣٣

قول الحفيد النجدي: «فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة» .... ٤٣٤

الجواب عن رفض بعض السلفية لكون المشركين أقروا بالله اضطراراً ....... ٤٣٦

الجواب عن قولهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ٤٣٨

الشرك كانوا ورثوه عن آبائهم تقليدا لهم ولم يكن عن دليلٍ عقلي ........ ٤٤٣

الآيات التي تستنكر على المشركين تقليدهم لآبائهم ........ ٤٤٤

للمشركين مقامان مقام الإقرار الاضطراري ومقام الشرك والجحود ........ ٤٤٥

إقرار بعض السلفية أن إيمان المشركين كان اضطرارياً ........ ٤٤٦

نص الطبري وابن كثير على إنكار المشركين لربهم ........ ٤٤٧

نص ابن تيمية وأتباعه على أن الناس مقرُّون بربوبيته اضطراراً! ........ ٤٤٧

ابن تيمية يزعم أن كون الله فوق العالم.. معلوم للناس بالاضطرار كعلمهم بأنه خالق العالم ........ ٤٤٩
**المطلب الثالث: كونهم غير مذعنين لإقرارهم ناقضين له** ........ ٤٥١
**المرصد الأول: بيان أن المشركين كانوا غير مذعنين** ........ ٤٥٢
الإيمان والتوحيد يشترط في صحتهما الإذعان ........ ٤٥٣
قول الروياني: يعترف بخالق خلقه وإن كان معانداً بلسانه ........ ٤٥٩
آيات الباب نفسها دلت على عدم إذعانهم ........ ٤٦٠
نصوص ابن تيمية وأتباعه على أن النفس تُفطر على توحيد الألوهية والربوبية معاً ٤٦٢
هم أشركوا في الربوبية والألوهية معاً.. فلا داعي لاختراع نظرية لتقسيم التوحيد ٤٦٥
هل الشرك في الألوهية نقض لتوحيد الربوبية؟ ........ ٤٦٦
الأدلة على إشراكهم في الربوبية ........ ٤٦٩
آيات الباب الثمانية تشير إلى نقضهم لتوحيد الربوبية ........ ٤٧٠
**المرصد الثاني: بيان نقض المشركين لإقرارهم بتوحيد الربوبية** ........ ٤٧٣
دلت بعض آيات الباب الثمانية نفسها إلى مخالفتهم لإقرارهم بالله ........ ٤٧٤
دعوى أنهم نقضوا إقرارهم بالله.. لأنهم عبدوا غيره تعالى ........ ٤٧٥
ابن القيم يرد على الزعم بأن إنكارهم للبعث لا يقدح في إقرارهم بتوحيد الربوبية ٤٧٦
سورة المؤمنون تدل على إشراكهم في الربوبية مع أنها دلت على إقرارهم بالله إن سئلوا ........ ٤٧٨
**المطلب الرابع: إن آيات الباب الثمانية عارضتها آيات أخرى وأحاديث أصرَح منها** ٤٨١
الخلاصة ........ ٤٨٣

**الخاتمة** ........ ٤٨٥

**فهرس الموضوعات** ........ ٤٨٩

# ولئن سألتهم

هذا الكتاب الذي بين يديك -عزيزي القارئ- هو الجزء الثاني من كتاب «نقض نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله»، حيث ينقض فيه المؤلف -وفقه الله- الأصل الثاني من النظرية، وهو دعوى أن المشركين كانوا موحِّدين في الربوبية، إذ استدل ابن تيمية على هذه الدعوى بآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] وما يماثلها من آيات الباب الثمانية.

وقد اعتمد المؤلف المنهج العلمي الموضوعي الاستقرائي، إذ تتبَّع أولاً دعاوى الخصم من كتبه ومصادره، ثم هذَّبها وصاغها في قالبٍ جديدٍ دون أي تغييرٍ على جوهرها، ثم نظر فيها وفي أدلتها بإنصافٍ، فذكر ما لها وما يَرد عليها، ووزنها بميزانٍ علميٍّ رصينٍ حسب القواعد المتبعة والمسائل المسطرة في علم أصول الفقه وفي غيره من العلوم، فتجنَّب بذلك المصادرة على المطلوب.

واستقرأ المؤلف كلام المفسرين سلفاً وخلفاً ممن تكلموا حول آية الزخرف ومثيلاتها، ولم يقتصر على ذلك، بل ذكر كلام العلماء الآخرين فيها من فقهاء وأصوليين ومتكلمين ومحدثين ولغويين ونحويين وغيرهم، وأوردت ذلك كله ملخصاً.

فخلص -نفع الله به- إلى أنه لم يفهم أحدٌ من السلف من تلك الآيات أن المشركين موحدون في الربوبية دون الألوهية، ناهيك عن أنه لم يعرف أحدٌ من الصحابة ولا التابعين ولا أتباعهم أن التوحيد قسمان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

بل إن الاستدلال بآية الزخرف ونحوها مخالفٌ لمنهج ابن تيمية سواء في دعواه أنه متبعٌ لفهم السلف، فضلاً عن أنه استخدم مجاز الحذف في فهم الآية، وهذا خلاف مذهبه ومذهب تلميذه ابن القيم من إبطال المجاز بكل أنواعه، واعتباره طاغوتاً.

والله ولي التوفيق



Scanned by CamScanner